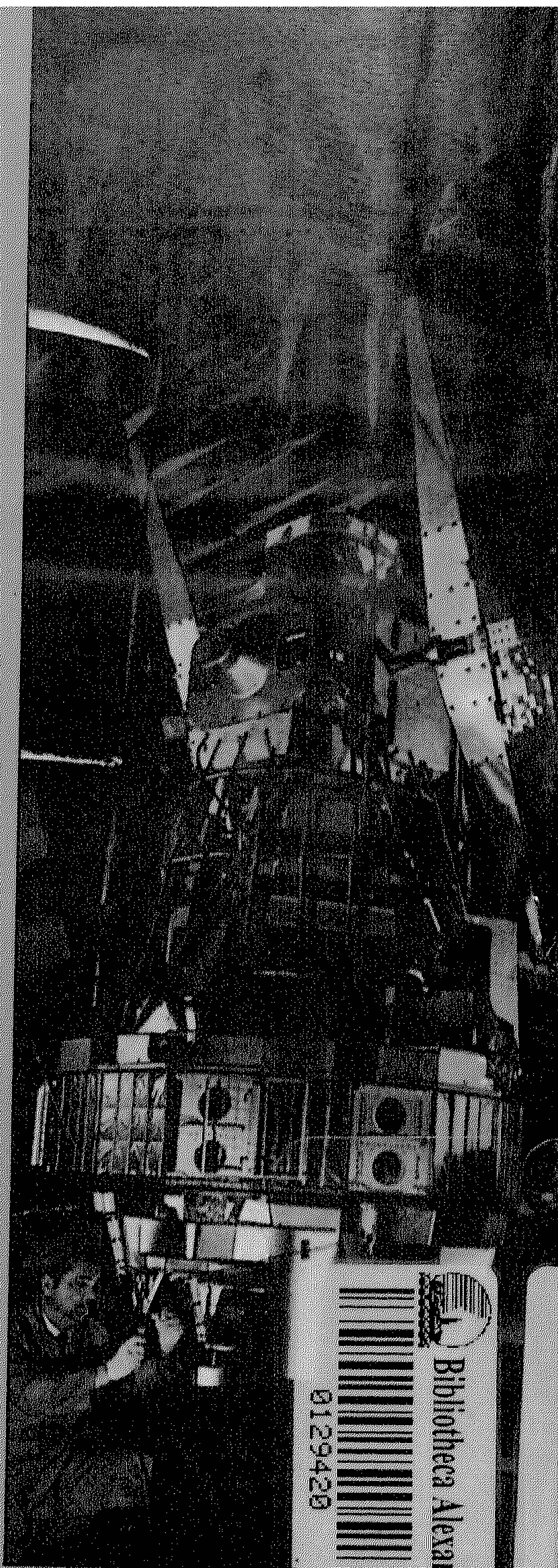
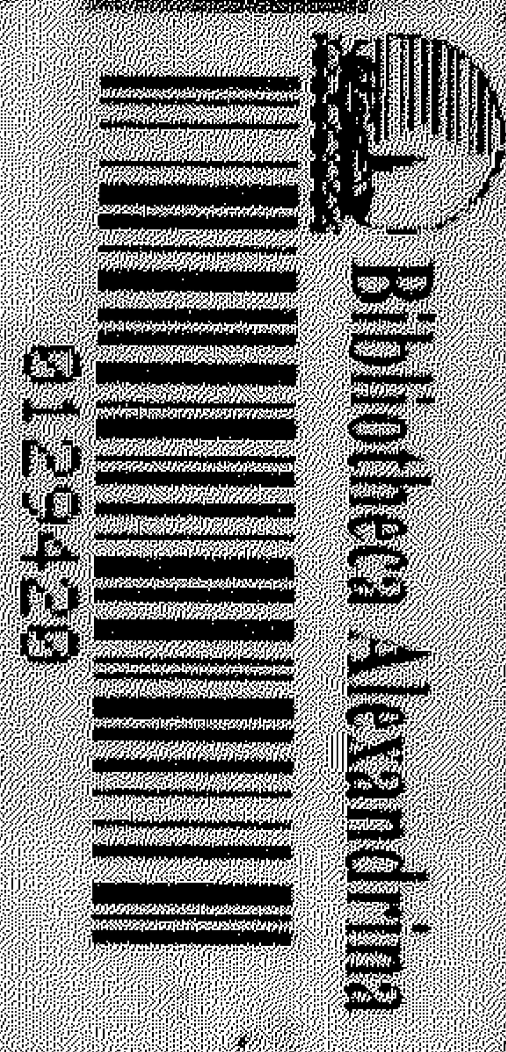
الحرب العالمية الرابعة

دبلوماسية وتجسس في عصر الارهاب





كونت دى مارنشيز

دانيرا . اندليمان

مكتبة مدبولي

القاهرة

الحرب العالمية الرابعة

دبلوماسية
وتجسس فى عصر الإرهاب

تأليف : كونت دى مارينشز

و

ديفيد أ . أندلمان

١٩٩٣



الطبعة الأولى ١٩٩٣

يطلب الكتاب مباشرة من

مكتبة مدبولي

٦ ميدان طلعت حرب القاهرة ت ٧٥٦٤٢١

MADBOULI BOOKSHOP

6 Talat Harb SQ. Tel: 756421

فهرس المحتويات

الإهداء

من أجل ليليان

وتذكارا لإبننا أنسيلم ANSELME

مــــارينشز

لأجل والدى ووالدتى، سول وسلما SAUL AND SELMA وابنى فيليب....

آخر جيل عرف الحرب، والتالية... قد لا يعرفها على الإطلاق.

أندلمان

الشكر

إلى ديفيد أندلمان الذى ساعد صبره ونفاد بصيرته على مولد هذا الكتاب.

وإلى إبنة الخال العزيزة تيريز دى سان- فالدراوس بدونها ما كان هذا الكتاب فى حيز الوجود، مع ودى.

مارينشز

باريس

من هذا الجانب على الأطلنطى، إن الدين مماثل لشريكى المؤلف ألكسندر الذى لولا أنه عاش فى كل حدث من أحداث هذا الكتاب، ما كان هناك كتاب.

ولابنة خاله تيريز دى سان فالدراوس التى كانت فطنة بمقدار كاف لأن تتعرف فى داخل هذا الخادم المتواضع على فرد كان ملتزما بحياة الكونت دى مارينشز.

إلى روبير ليشير الذى لم يكف عن الإيمان بى، والذى فعل ما يمكن أن يفعله أفضل العملاء فقط كان مؤيدا وفردا يعتمد عليه.

وطبعاً، إلى المحررين فى مؤسسة وليام مورو وشركاه ، خاصة كونى روزفيلت الذى بدأ الرحلة معى وإليزابيترينى التى قامت بالتمحيص بمهارة بالغة حتى إثمار الكتاب، ومساعدتها الدءوبة كاترين بويل. وأخيرا بطل لم يتغن به الشعراء فى أغلب الظروف، المحرر شديد التدقيق بالتفاصيل ديفيد فولك الذى يقوم بفحص المطبوعات فى خلوة لابد وأنه وثق فى كل التناغمات وفى عدم الأخطاء فى هذا العمل.

وهناك دين خاص جلا، أيضا، إلى أولئك الذين ساعدوا بالنصح والتشجيع،

لازال البعض منهم يعمل سرا لأجل بلدهم، وقد لايتم ذكر أسمائهم قط. وكارين م. ، قبل كل شيء، التي إلى هذه اللحظة لم يذكر اسمها ، والتي علمتني الدرس الأساسي جدا- وهو أن الذكاء الحقيقي يأتي من القلب كما يأتي من العقل أيضا.

أندلمان

نيويورك سيتي

الفصل الأول

أولا المعطف الفضفاض

التقيت مع ريجان فى كاليفورنيا بعد انتخابه رئيسا فترة قصيرة ، بل وقبل أن يتولى مقاليد الحكم فى نهاية ١٩٨٠ حيث كان يقوم بالاعداد لتولى الرئاسة. قام العديد من أصدقاء ومستشارى الرئيس المنتخب باخباره بأنه لو كان هناك أوربى يتوجب عليه أن يراه قبل تولى مهام الحكم ، فإنه يكون الكونت دى مارينشز، وهذه مبالغة لا تتسنى لغير الامريكيين. كنت آنذاك أبلغ نهاية ما يربو على العقد فى الخدمة كرئيس للمخابرات الفرنسية- وكانت أطول مدة بالنسبة لأى رئيس مخابرات فى تاريخ فرنسا. كانت أيضا ذروة انشغالى الكامل طيلة حياتى بالطريقة التى انتهجها العالم ومدى تعنيف الرجال الذين استخدموها.

كان للرئيس المنتخب بعض الاهتمامات المباشرة، فكان مشغولا بحدثين حرجين يلقيان ظلا على يوم توليه السلطة بعد شهر أو نحو ذلك- تخليص الرهائن الامريكيين فى إيران والغزو السوفيتى الاخير لافغانستان، وهذا انعكاس لاهتمامه الكبير بالعداء العنيد للامبراطورية السوفيتية والخطر الذى تشكله.

لم تزل تلك الاهتمامات مجرد ظل خافت لسلسلة متتابعة واسعة جدا من الاحداث التى تكشفت بالفعل وما من شك لا الرئيس ولا أى من مستشاريه الأساسيين خامره شعور بوجود شىء فى ذاك الوقت.

إن ريجان والذين اختارهم كمستشارين أساسيين للأمن القومى كانوا يستهلون القيام بإتمام لعبة الختام للحرب العالمية الثالثة- أو الحرب الباردة التى صارت معروفة بهذه التسمية. لقد تم وصفهم بمثابة -«محاربى الباردة» واستمروا فى دوائر كثيرة فى الولايات المتحدة وفى الخارج لينفذوا ما وسموا به.

إلا ان الحرب الباردة التى يخوضونها كانت جزءا يشبه كثيرا معركة عالمية كالحرب العالمية الثانية التى فيها أول ما تعلمته هو خدعة الحرب والجاسوسية والدبلوماسية، أو الحرب العالمية الأولى حيث نال فيها والدى جائزته وكان الضابط الفرنسى المرافق للجنرال بيرشنج، ـ كان الرئيس المنتخب فى تلك اللحظة ـ يبذل قصارى جهده ليتعلم كل ما يستطيع عن أعدائه وحلفائه ونوع المعركة العالمية التى يخوضونها. ولم يكن قد بدأ حتى فى التفكير فى الحرب العالمية التالية التى من شأنها أن تلقى بالظلال تماما على السنوات النهائية من رئاسته ـ حرب الشمال والجنوب، والحرب العالمية الرابعة- مع أنها قد تثبت أنها أهلك الحروب على الإطلاق.

تم لقاؤنا فى منزل ممتد فى لوس أنجيلوس يمتلكه ألفريد بلو منجدال أقدم وأقرب صديق للرئيس المنتخب، لكن مضيفنا لم يشترك فى اللقاء. جلسنا على كراسى مريحة فى غرفة جلوس واسعة، الرئيس المنتخب وأنا وصديقى القديم أرنود دى بورجريف الذى حضر جزءا من الوقت وهو الذى ساعد فى ترتيب الموعد الأول مع مستر ريجان، واستمرت المحادثة لأكثر من ثلاث ساعات.

عندما تم تقديمنا إلى الرئيس المنتخب ابتسم ابتسامة عريضة وشد على يدى.

صاح ريجان قائلا لى : « آه، ها هو الرجل الذى قال إن الروس قادمون إلى أفغانستان فى الساعة واليوم المناسبين !».

كان بورجريف المراسل الأجنبى الأساسى لمجلة نيوزويك عندما وصل باريس فى ديسمبر ١٩٧٩ عشية الغزو السوفيتى. أكمل مهمة صحفية وقبل أن يشرع فى الثانية قام بزيارتى كما كان يفعل أحيانا- وسألنى بعدما فرغنا من الغداء عن المكان الذى أعتقد أنه سيتوجه إليه بعد ذلك. قلت إننى أظن إنه أفغانستان التى قد تبدو شيقة. كانت لدينا إخبارية جيدة جدا بأن السوفييت قد يثيرون القلاقل هناك.

عاد بورجريف إلى فندقه دون إخبارى- وهو لا نكستر، يبعد عن الشانزليزيه بقليل- وحزم حقائبه، واتجه إلى كابول. وحط هناك بعد ثلاثة أيام فى وقت متأخر من الليل منهكا بعد رحلة حول نصف العالم. تم إيقاظه فى الصباح التالى على صوت حاملات الجنود السوفيتية الهابطة فى مطار كابول.

كان الصحفى الدولى الوحيد المتواجد ليشهد الغزو السوفيتى مباشرة. ولم يدعنى أنسى سبب اللغز.

لذا لم تكن المقدمات التى طرحت مثار دهشة لتحول حديثنا أولا إلى أفغانستان.

بات واضحا منذ البداية أنه بينما قام الرئيس بقدر كبير من التفكير فى المشكلة إلا أنه لم يكن لديه الفهم الأساسى لخصومه ولا أى خطة لأجل التعامل معهم.

أحضرت معى ثمانى خرائط كبيرة للعالم من باريس وبسطتهم على المنضدة.

قمنا بجولة حول العالم لمدة ثلاث ساعات تالية. تحدثنا عن قوة وضعف تكتلات القوى- الشرق والغرب والشمال والجنوب. وأوضحت أنه من بين الثمانية معادن الاستراتيجية الضرورية لبناء ترسانة قوى كبرى أربعة لدى الأمريكيين داخل حدودهم، بينما الروس لديهم الثمانية كلها. وتناولنا ضغوط السكان والدين والسياسات والقوة. وسأل الرئيس فى ختام الاجتماع إذا كان يمكنه الاحتفاظ بالخرائط التى أحضرتها. وافقت على أن يحتفظ بها.

كان هذا الاجتماع فى كاليفورنيا مجرد الأول فى سلسلة اللقاءات مع مستر ريجان عبر سنوات رئاسته. إلا انه ربما كان أكثر اللقاءات جدارة بالذكر هو اللقاء الثانى عقب توليه مهام منصبه بفترة قصيرة. تقابلنا آنذاك فى المكتب البيضاوى وكانت أفغانستان هى شاغلنا الأول.

بدأت بعد بعض المزاح قائلا: « سيدى الرئيس، هناك عدة طرق لخوض هذا النوع من الحرب.

هناك طريقة ضخمة وطريقة الذكاء. وحيث إننا لا نستطيع إرسال قوة كحملة قوامها مليون رجل إلى أفغانستان، ربما لاقترح أن نبدأ ما سأسميها عملية البعوضة؟ »

سأل الرئيس: « لماذا البعوضة؟ »

«لأن البعوضة لا تستطيع قتل دب، إلا أنها تستطيع أن تزعج الدب، وبذلك لن ينام بعد الآن، ويذهله الطنين كله. لا أحد رأى دبا يقتل بعوضة على الإطلاق. لذا يمكن أن تكون البعوضة عدواً خطيرا جدا. إن ما أقوله الآن أنه لو استطعنا استخدام الخيال والذكاء فربما نستطيع أن نفعل شيئا فى أفغانستان».

سأل الرئيس: « لذلك، ماذا يفعله الشيء الذكي؟ »

لا نحتاج الآن أيا من الخرائط التي قد أحضرتها في أول حديث لنا في كاليفورنيا. كنا نتحدث عن ميادين القتال الخاصة بالعقل.

استطردت قائلا: إن خدمتي قامت بتحليل قوات عدونا. لديه جيش مبني على أساس الطراز القديم المتعلق بالنظافة والأناقة تعلقا مفرطا، لذا يجب علينا أن نهاجم الجانب الانضباطي.

فأعرف مجموعة من الشباب في باريس، على سبيل المثال، شبان، لا مورد لهم على الإطلاق.

فهم يقومون بطبع الأناجيل الروسية بالأبجدية السلافية القديمة يدويا. هم فنانون صغار. إلا إنهم يعرفون مايقومون به على نطاق صغير جدا بالطبع. أقاموا سوقا سوداء صغيرة للأناجيل فيما بين جنود الجيش الأحمر الموجودين في أفغانستان- تخيل مدى الضربة التي سيوجهها هذا الأمر إلى الجيش السوفيتي هناك على نطاق كبير- يجب أن نرسل أناجيل بالروسية إلى القوات في أفغانستان.

ويجب أن نملأ بازارات كابول بها حتى الإفاضة. علاوة على ذلك، سيقوم الجنود بدورهم بتهريب الأناجيل إلى روسيا الأم. إنك لا تستطيع أن تحارب أفكارا بالدبابات والطائرات.

وإنه في هذا العمل وهو الذكاء، الذي أسميه بالذكاء النشط، يجب أن تحارب الأفكار بالأفكار والكلمات بالكلمات، وأحيانا حتى الأكاذيب بالأكاذيب. دع القوات الجوية تحارب الطائرات بالطائرات والجيش يحارب القوات بقوات

والبحرية تحارب السفن بالسفن. فمن المفروض أن نكون أذكياء، لذا يجب أن نستخدم الخيال».

كان الرئيس يبتسم وحثني على الاستمرار.

وأردفت قائلا: «إن الجزء الثاني من خطتي بسيط على حد سواء. فلدينا مجموعة من الصحفيين الشبان في باريس قاموا بعمل نسخة مطابقة لصحيفة الجيش السوفيتي. [النجم الأحمر]. نفس الصحيفة، نفس الشكل، نفس الأسلوب إلا أنها مدمرة. ولها نفس المظهر لصحيفة النجم الأحمر لكنها ليست صحيفة النجم الأحمر.

المقالات تروى الحقيقة عن الجيش الأحمر وعن فشله في أفغانستان وفي أي مكان آخر في العالم. وهي من الممكن أن تكون محور سالي أو زهرة طواكيو للحرب الأفغانية. يجب علينا أن نطبعها ونوزعها على الجنود الروس هناك. إضافة إلى إنه يمكنك بيع تلك الأناجيل وتلك الصحف في السوق السوداء بثلاثة آلاف بالمائة من سعر الإنتاج، وذلك عندما تقوم بتهريبها إلى الداخل. ولذا تصفى نفسها بنفسها وستساعد في تدمير النظام ومعنويات الجيش السوفيتي.»

كان الرئيس في هذا الوقت يبتسم- وأحب الأمر.

«والعنصر الثالث، ياسيادة الرئيس، ربما يكون أكثر العناصر وحشية- وتساءلت: ماذا ستفعلون بكل المخدرات التي ضبطتها إدارة المخدرات وحرس الحدود والمباحث الفيدرالية والجمارك؟»

«حسن، لا أعرف. من المفترض أننا ندمرها، أجاب الرئيس

فقلت: « ذلك خطأ. وعلينا أن نوزعها مجانا ».

وتحدث الرئيس بصوت منخفض قائلا: « آه! يا الاهى، ياسلام».

واستمريت، لأنى استطعت أن أرى أنه صدم. « إنها بالضبط نفس الشيء الذى فعله الڤيتناميون الشماليون فى ڤيتنام فى رجالكم، حيث قاموا بتدبير ذلك الأمر. فإذا فلح هذا الأمر فإنكم ستقلقون الروس، وسيكون هناك ضغط هائل عليهم ليحزموا أمتعتهم ويعودوا إلى بلادهم تجنبا للتحطم الأخلاقى والجسدى. ذلك هو ماتدور حوله عملية البعوضة ذلك هو الذكاء وذلك هو من أجله صممت الخطة خوض الحروب دون إطلاق رصاصة واحدة فى غضب. »

تريثت لأجل التأثير. « إضافة الى ذلك، فإن العملية يمكن تدبيرها برمتها بمليون دولار لا أكثر وبقليل من الناس الموثوق بهم. وإذا زاد المبلغ على المليون دولار فإن العملية لن تنجح. وأنتم تعلمون ما يتوجب عليكم عمله فى هذا الأمر- عليكم أن تأخذوا عقلكم وتعصرونه مثلما تعصرون الليمونة».

صاح الرئيس« هذا عظيم. لم يخبرنى أحد على الإطلاق بأى شيء مثل ذلك». التقط سماعة تليفون الأمن بقوة وطلب وليام كاسى فى وكالة المخابرات المركزية. كان كاسى قد تولى منصب مدير الوكالة منذ فترة وجيزة. إلا أنه كان أكثر من هذا- كان صديقا والموثوق به الذى يعتمد عليه ريجان اعتمادا عميقا لأجل النصيحة حيال أشد المشروعات حساسية وتعقيدا للغاية، والمشروعات المحفوفة بالمخاطر بدرجة كبيرة التى تحتمل الصعود والهبوط. ريجان أطلع كاسى على ماكنا نناقشه وأخبره أنه عليه أن يرانى.

ذهبت لرؤية كاسى بعد يومين وكررت الخطوط الرئيسية لعملية البعوضة عليه. وأحبهاكاسي.ونهض من كرسيه وأخذ يضرب بقبضتيه فى الهواء.

قلت:« دعنا نقوم بالعملية. ولكن لا تؤاخذنى يا بل (BIU) لأن أقول لو إنك قمت بها ستفشل لأنك سوف تضع خمسة آلاف رجل للقيام بها بيد أنك تحتاج إلى خمسة فقط» صمت لمدة دقيقة وسأل ببطء:« أتود القيام بها ياألكس؟ »

قلت:« نعم». ولكن دون أمريكيين. يمكنك رؤيتهم على بعد ميل. ولدى أيضا عدد من المشاكل مع قدرة وكالة المخابرات المركزية على حفظ السر. فلا تستطيع الاحتفاظ بالسر. لقد كنت سادس مدير لوكالة المخابرات المركزية على حفظ السر. أتعامل معه طوال الإحدى عشرة سنه التى قضيتها فى المخابرات الفرنسية.

قال لى رئيس المخابرات المركزية فى باريس فى مرات عديدة:« من فضلك لا تكمل جملتك. إذا أعددت تقريرا عما أنت على وشك إخبارى به، فلا أضمن أنه سيبقى سرا. »

كان كاس مذهولا بوضوح لكونه محامياً وسياسياً محترف بدون خبرة أساسية فى المخابرات منذ خدمته فى الحرب العالمية الثانية فى (Oss).« ما الخطأ؟ »

أجبته قائلا: انظر. إن الثمانين أو التسعين بالمائة من العملية التى تقوم بها سرا، فلتقم بها علنا. والعشرة بالمائة التى تفعلها سرا، فلتفعلها فى سرية حقيقية. »

لكن عملية البعوضة مختلفة. سيكون عنده مشاكل خطيرة ليشرحها للكونجرس إذا ما طلب منه- لا يزال كاسى يريد بشدة القيام بالعملية.

لذا قال: « كيف نقوم بالعملية؟ »

فكررت عليه: « لا أمريكيون، لأنكم لا تستطيعون كتمان السر. إننا نحتاج إلى الباكستانيين. »

وطرت مباشرة إلى باكستان وأجريت اتصالا مع الباكس مثلما يسمى، بل كاسى الباكستانيين. « وإن الأمر بسيط جداً، أخبر بذلك.

وقلت: « إن كل ما أطلبه منكم هو أنه عندما أكون فى ذلك اليوم وفى تلك الساعة وفى ذلك المكان أن تشيحوا بنظركم عنى وتنظروا فى الاتجاه الآخر. » إننا لا نريد أن نحرجهم- وافقوا على ذلك. وعدت بعد قليل إلى واشنطن وبيل كاسى.

وبدأت القول: « يا بل، سوف نحتاج إلى قليل من المال ».

« آه، حصلنا على كثير من المال. » أجابنى بل « . ولكن كيف يتسنى لنا توصيله إليك؟

وإن السبيل الوحيد الذى يمكننا انتهاجه هو إعطاء المال للباكس وسيقومون بتمويل عملية البعوضة. »

استعددنا فى النهاية. جددنا الباكستانيين الذين يقومون بعمليتنا والمدافعين الأفغان عن حرية أفغانستان الذين سيكونون مسئولين عن التسلل إلى داخل البلد بالبضائع المهربة، المخدرات أو الدعاية. تم إقامة عملية الطباعة فى

باريس فى أحد الجراجات المهجورة، حيث كان المقر والمخبأ، وكانت بانتظار التمويل وإشارة البدء. كان الصحفيون بمساعدة بعض محللينا من وكالة المخابرات يرتكنون إلى أفغانستان الإنتاج صحيفة دعاية مضادة جديرة بالتصديق.

أخيرا، كان كل شىء فى موضعه، لذا صرت قلقا بدرجة متزايدة من تزايد عدد الامريكيين الذين كانوا على علم بالعملية. حدث لأرى كاسى فى واشنطن ومعى أمر تحذير نهائى لدفع أى سوء تفاهم.

بدأت القول: «إننا كلنا مجموعة. لكنى لدى شرط آخر».

سألنى بعناية: «وماذا عسى أن يكون؟»

قلت: « هل يمكنك أن تضمن لى أن صورتى فى نهاية هذا الأمر لن تكون بالصفحة الأولى لصحيفة واشنطن بوش أو نيويورك تايمز؟»

قال برزانة: لا أستطيع ضمان ذلك».

قلت: « حينئذ يابل انس الموضوع. فلن أقوم به».

كانت تلك هى نهاية عملية البعوضة. وإلى أى مدى ستذهب أمريكا تحت رئاسة رونالد ريجان فى خوض هذه الحرب العالمية الرابعة الجديدة التى قد بدأت بوضوح. لم نشرح فى الأمر بقدر ما استعددنا له حقيقة، ومضى الوقت بعد الوقت. وإنه بعد التجربة خلال الحرب العالمية الثالثة بالنسبة لخدمات المخابرات الغربية التى فى رأيى عجزها مرارا تحفظ أمريكا على التصرف، لم يعد يتسنى لنا القدرة على تدبير أى حدود حقيقية لخوض غمار الحرب العالمية

الرابعة وإلا سنخمرها. وإن الحضارة الغربية كما سنرى تكون فى مخاطرة حقيقية.

امتلكت سلطة كبيرة فى يدى إلا إنها كانت فى سرية تامة لمدة إحدى عشرة سنه مدهشة. لم تكن سلطة للحياة أو للموت، ولو أنه كانت هناك فرص أيضا لدى إزاء ذلك. لم تكن القوة قوة تدمير نووية لكوكبنا، التى يقبض عليها بذكاء عدد صغير من قادتنا الوطنيين بقبضتهم بطريقة أو بأخرى لفترات قصيرة الأمد. امتلكت فى الواقع قوة المعرفة بالفعل- قوة معرفه كل شىء ممكنه عن معظم الموضوعات الهامة فى العالم، وكيفية تحويل الأحداث إلى ميزة لبلدى ولحلفائنا. إن اولئك الذين هناك سيفهمون بصدق مدى ما يمكن أن تكون عليه هذه القوة من ذكاء. نحن رؤساء أضخم هيئات تجسس فى العالم عبارة عن ناد صغير منتخب.

ولأننا كونا روابط صداقة وثقة متبادلة فإن هذه القوة لن تتوقف تماما عندما نسلم بطاقات هويتنا.

ذات مرة، هناك عضو من النادى ظل متعطشا للمعرفة ولفهم الأحداث طيلة حياته، وآخر يحتفظ أيضا بوسائل الوفاء بها إن البديل للمشورة الذى نستطيع أن نقترحه لأولئك الذين يقبضون الآن على هذه القوة هو الحكمة التى جمعناها خلال الأزمات والتحديات التى لاحصر لها إزاء أمن ورخاء عالمنا الحر.

هذه القوة لا تزال تلطفها قوة أخرى فترة كبيرة من حياتى، ألا وهى ميثاق قوى.

هو نظام السرية. وهو عميق بقدر عمق ولاء الدم الذى يقسم به شيخ القبيلة. وإنه مع حياة ومصير الأمم المحفوفين بالمخاطر فإن المعرفة والسلطة

اللتين يستحوز عليهما أولئك الذين هم فى مهنتى المختارة تصاحبهما الحاجة إلى حماية الجواهر التى فى تاجنا فى سرية بالغة العمق.

إن السبب الذى لدى لكسر الصمت الآن هو سبب بسيط- فإننى أريد أن أطبع ما كنت أقوله بصفة خاصة فى معظم حياتى. أعتقد أننا فى حرب. وقد يظهر هذا أمر غريب إلى حد ما، أعطى تقاربا لم يسبق له مثيل بين الشرق والغرب، والديمقراطية التى أقيمت حديثا فى بعض دول أوروبا الشرقية.وموقف عطوف حسب الظاهر من جانب الإمبراطورية السوفيتية السابقة. إلا أن عدونا على مدى ثلاثة أرباع قرن حل محله أعداء جدد، أكثر ترويعا، وربما أكثر الأعداء خطورة بصفة أساسية يتوجب علينا فهم أن أردنا التعامل معهم. فبالنسبة لديمقراطيات الغرب، وبالنسبة لديمقراطيات الشرق التى ظهرت حديثا، حتى بالنسبة للامبراطورية السوفيتية نفسها قد بدأت الحرب العالمية الرابعة بالفعل، وإن أعداءنا والمتعصبين من شتى بقاع العالم وأولئك الذين يسيطرون عليهم ويستخدمونهم هم حولنا وبيننا. وإذا نجحوا فى غزواتهم فإن أول ضحاياهم ربما يكون المعتدلون جدا من المسلمين الذين هم الآن أصدقاؤنا وحلفاؤنا.

إن هؤلاء المتعصبين أيا كان اقتناعهم الدينى هم إرهابيون يقوضون مؤسساتنا الديمقراطية.

المستبدون الذين افترسوا برؤساء العالم الثالث كالاشباح مصاصة الدماء وحولوهم ضد حضارتنا تجار المخدرات الذين يتسللون الى إى مدننا وتحت قناع إيجاد مهرب من غواية المخدرات يقومون ببيع بذور تدميرنا إلى اولئك الشبان

الصغار جدا أو إلى الأبرياء أو إلى الحمقى للتحقق من أنهم يدمرون مستقبلهم ومستقبلنا مثلهم فى ذلك كمثل أى طابور خامس فعال تماما.

العالم اليوم مختلف بعض الشيء من الذى أمضيت فيه الكثير من إيجارى السريع. وتغيرت هيئة الصفات.

يجب علينا فى هذا العالم الجديد أن نتعلم خوض نوع جديد من الحرب- نوع من العمليات كعملية البعوضة- تكون أساسا للقتال.إنها حرب يكون للذكاء والخيال أهمية أكبر بكثير من القوة، وفيها تكون للثقة أهمية أكثر من التهديدات، وفيها يعتمد بقاؤنا على قيد الحياة على خفة حركتنا على الرغم من الاستخدام الحكيم للقوة العسكرية الرائعة التى فى حوزة الدول النامية. نحن فى لحظة - حرجة من التاريخ- التى عندها تكون دلائل مناوشات استهلالية للحرب العالمية الرابعة، حرب الشمال والجنوب- وقتما نحتاج إلى إعادة التفكير فى مفاهيمنا الأساسية جدا للذكاء والدفاع، وإلى الضروريات التى ترشد التفكير الاستراتيجى منذ بداية الحرب العالمية الثالثة، الحرب الباردة. لقد شرعنا حقا فيما قد تكون حربا مميتة للغاية أكثر من أى حرب تم خوضها فى زمن قياسى- وهى حرب، أكثر مما يبشر به الإعصار النووى الذى تعرضه الحرب العالمية الثالثة، تنذر بإنهاء الحضارة، الحضارة الغربية على الأقل،، كما نعرفها- ولطالما هناك أسلحة نووية وجرثومية وكيماوية على الأرض فإن هناك إمكانية انقراض الحياة البشرية كلها، كلها حقيقة سوى الأشكال البدائية جدا.

إن الحرب العالمية الرابعة من الممكن أن تكون معركة تخويف، بنسب هائلة

حقا، باستخدام أسلحة الإرهاب التى لم يتم رؤيتها فى المعارك السابقة. سيكون الكثير منها أسلحة تم إيجادها للمعارك السابقة إلا أنها تغيرت بطريقة غريبة تحت سيطرة أفراد لا يقيمون لضوابط أى حضارة وزنا، وهى الضوابط التى نعرفها ونفهمها.

إن العدو الرئيسى فى الحربين العالميتين الأولى والثانية بالنسبة لنا نحن الأوروبيين كان من بيننا- أوروبيون أمثال هتلر وموسولينى ربما كانت أهدافهما أهدافا نفسية إلا أن نزعتيهما كانتا غربية وشمالية بصفة أساسية. كان الكره (البغض) والسلطة وكسب الأرض هم دوافعهما.

كانت الحرب العالمية الثالثة - الحرب الباردة- معركة بين الشرق والغرب- كانت حرب الأنظمة السياسية المتنافسة- معسكرا، حرية، وفى الآخر أخلاقى وثقافى واستعباد جسدى- حيث يتنكر خصومنا فى أوقات كخصوم لهم دين جديد ليس له إله مثلما صورت الشيوعية نفسها. كان قادة الجانبين، مثل نظرائهم الأوائل- رجالا ونساء بعقلية شمالية وأوروبية أيضا.

كان هدفى أثناء الكثير من مدة عملى هو فهم أعدائنا فى الحرب العالمية الثالثة وفهم ما هو الأفضل فى التعامل معهم.

إن الجهود التى بذلتها فى محاربة هذا العدو الوحيد، الامبراطورية السوفيتية، ربما بدت عند هذه المرحلة جديرة بأن يتم إرسالها إلى صندوق قمامة التاريخ. إن مصطلح« الامبراطورية السوفيتية».

وكل ما يتضمنه يدل على حقيقة ربما تكون ذكرى يوما ما. لكن حرفة المخابرات- الحاجة إلى مدى فهم العدو بعمق- أمر حيوى فى التعامل مع

أعدائنا الجدد فى محيط الشمال والجنوب للحرب العالمية الرابعه:كمثل التعامل مع خصومنا فى محيط الشرق والغرب للحرب العالمية الثالثة.

علاوة على أنه بقدر ما هو مفيد فى فهم أصدقاء وحلفاء إنسان فهو أيضا مفيد فى فهم أعدئه- خاصة وأن حليفا معينا أو على الأقل صديقاً كان عدوا لدودا له منذ فترة وجيزة. كما هو الأمر مع ألمانيا واليابان بعد الحرب العالمية الثانية لو نتعلم هذه الدروس من التاريخ سنكون فى طريقنا الصحيح فى تحويل الامبراطورية السوفيتية التى كانت متراصة ومتناغمة ذات مرة إلى شبكة الأصدقاء والحلفاء حيث تقف معنا كتفا إلى كتف عند تحركنا إلى أكثر معارك الحرب العالمية الرابعة هلاكا ـ فلنأمل ألا يكون هذا حلما.

أثناء السنوات التى كان فيها لدى مصادر رحبة من المخابرات الفرنسية، وبعض البيانات ومصادر أجهزة المخابرات فى كثير من العالم الغربى تحت أمرى، قمت بتطوير قليل من المباذىء حيال هؤلاء الأصدقاء الجدد.

بات واضحا أن الامبراطورية السوفيتية كانت آخر نظام لليمين المتطرف- آخر الانظمة الاستعمارية من الطراز القديم الذى يجب على الأوروبيين فهمه فهما عميقا للغاية، إلا إنهم لم يفعلوا ذلك.

كانت امبراطورية عتيقة بالمعنى الكلاسيكى، تحاول الإبقاء على مائة وثلاثين شخصا مختلفا أو قبيلة تحت حكم قبيلة روسية عليا من سلالة عرقية أوروبية بيضاء يدينون بدين الدولة وهو الشيوعية. قبل أن تتبدد الامبراطورية نهائيا كان من السهل فى أوقات أن تنسى أن هذه الامبراطورية- جزء من قارة ممتدة من المحيط الأطلنطى إلى جبال الأورال- كان يديرها

أوروبيون، إلا إنهم أوروبيون يعيشون قرنا أو يزيد فى الماضى. الجانب الآخر من الأورال، المناطق الآسيوية من الاتحاد السوفيتى الممتد إلى المحيط الباسفيكى تتشكل من أكبر مساحة فى العالم مما يجعل الدول برمتها بما فى ذلك الولايات المتحدة وكندا أقزاما بجوارها.

حتى النهاية ذاتها دافع الروس بحرص- حقا وبدون جدل لا زالوا يضمرون ذلك- عن أحلام السيطرة على العالم التى تخلينا عنها. كان حلمهم مستلهما من اعتقاد جاء به لينين أنه ليست هناك دولة موثوق بها فى السياسات الدولية وعلى أى دولة الإبقاء على ديناميكية التوسع أو تبدأ على الفور فى الضمور أو التفتت. قال لينين: «إن العنف هو الداية للتاريخ». هذا من الواضح هو جزء من الديناميكية التى أدت إلى نهاية الامبراطورية السوفيتية، ونهاية الحرب العالمية الثالثة أيضا.

حيث ان النظام السوفيتى انهار واصبح التهديد العسكرى أقل تجاه أعدائه التقليديين رغم أنه لايزال قوة عسكرية هائلة. إن دول أوروبا الشرقية الشيوعية كانت أول من ترك الامبراطورية. وماذا بعد ذلك؟ تفتت الاتحاد السوفيتى ذاته. إن كل دولة من هذه الدول المائة وزيادة العرقية اللغات لابد أن تتذكر أنها اندمجت فى الامبراطورية بعد إراقة دماء رهيبة.

إن مبدئى الثانى فى التعامل مع الامبراطورية السوفيتية كان الاعتراف بأن الروس نجحوا لعشرات السنين لأنهم انتهجوا حقيقة واضحة للحياة التى تعرف جيدا اليوم ليس لهم فقط، بل لاعدائنا الجدد الذين ربما هم أكثر هلاكا كذلك: الحقيقة هى أنه ليس بالضرورة أن تقهر أرضا لتمتلك الشعب- بل يكفى أن تغزو العقل والروح. وستأتى الأرض اوتوماتيكيا.

يجب علينا فى الغرب بدء اللعب على ساحات قتال العقل هذه. ظللناها لمدة طويلة جدا جديرين بالاحترام. أنا مؤيد لكل القواعد التى رسمها مركيز كوينزبرى ولكنك إذا ذهبت إلى الحلبة مرتديا قفازات الملاكمة ونلتقى مع رفيق معه مدفع رشاش، فإنك هالك. ربما تبدو نبيلا وعظيما لمدة عشر ثوان، لكن نعيك سينعتك بطلا.

يجب أن نبدأ فى اتخاذ إجراء لخصومنا فى الطرف الأقصى. إننا نقاتل حرب العقل اليوم على جبهات كبيرة ضد أعداء كثيرة. وقبل أن نستطيع هزيمتهم أو انتفاؤهم يجب علينا أن نفهمهم.

إن درس عملية البعوضة المقترحة لم تذهب عبثا بالنسبة لوليام كاسى- ففهم قيمة العمل حيال عقول وقلوب خصومنا وليس مجرد هجوم على دفاعهم الجسدى. لكنه رغم أن كاسى المهيب قد وعى ذلك الدرس إلا أنه لم يكن قادرا على تطبيقه فى السنوات التالية. وأنا مقتنع أن چورچ بوش أيضا أثناء توليه إدارة المخابرات المركزية فيما سبق فهم أبعاد المشكلة. إلا أن مستر بوش أثناء بقائه كان غير قادر على تغيير طرق وكالة المخابرات المركزية. حاول بكل تأكيد ووصف لى مرات المسافات التى تحركها بالنسبة لهذه البيروقراطية الهائلة- وذلك فى اتجاه من شأنه أن أوجد جهاز مخابرات أكثر فعالية.

كان لديه عديد من الافكار القيمة. لكن ذلك استغرق سنوات أكثر من الوقت المعطى لوضعها موضع التنفيذ.

نحن على الحافة الأطلنطية- أوروبيون وأمريكان- نفكر فى أكثر المصطلحات التقليدية للحرب والسلام، السياسات والدبلوماسية سواء كنا نتعامل مع قادة سوفييت من الكريملين أو إرهابيين فى الشرق الأوسط انطمرت

عقولهم بشدة فى القرن الثانى عشر، جهنم القرون الوسطى من صنعهم هم. ربما يكون هذا أكبر فشلنا. إن أفضل محترف للمخابرات هو الذى يستطيع وضع نفسه فى موضع أعدائه- يفهم كيف يفكرون، وكيف يدركون الحرية، وكيف يتم تحريضهم.

إن المبدأ الثالث والنهائى الذى تعلمته خلال سنوات دراستى لبنائى الامبراطورية السوفيتية كان ذلك الذى بخصوص قواهم الكبيرة- التى يتقاسمونها مع الأنظمة الإرهابية فى الشرق الأوسط. التى يساعدونها فى التنظيم- وليس لديهم مفهومنا الشخص عن الزمن. لم يكن لديهم ساعة ولا موعد أخير. وهذا يفسر جزئيا تأخرهم الاقتصادى. إن التقدم الاقتصادى له خطوة موجعة ولا سبيل لاجتنابه. لكنه من وجهة النظر التاريخية أنه من الأهمية جدا عدم النظر فى الساعة. فلدينا فى الغرب إطارات زمنية أبعد من أن يتم ضغطها- وإننا نتعامل فى أسابيع أو شهور وليس فى حقب زمنية. ومع ذلك فإنه ضعف آخر يجب أن نتعلمه لنسيطر عليه.

تعودنا القيام بألعاب متنوعة من ألعاب الحرب، هذا فى مكتب مدير عام المخابرات الفرنسية .إننا نقوم فى إحداها بالاصطفاف على جوانب مختلفة من الحجرة أمام خرائط ضخمة معلقة على الجدران وهى خرائط.

للعالم- التكتلات الرئيسية للقوات المسلحة لمختلف الامبراطوريات يتم وضع علامات دالة عليها عبارة عن أعلام صغيرة ملونة- مع افتراض أدوار الأمم المختلفة. كان جانبا أو آخر فى كثير من الأوقات يتخذ دور أعدائنا السوفييت. وإنه اعتمادا على طبيعة وفورية الأحداث يقوم فريق آخر فى

أوقات أخرى باتخاذ دور أمم أخرى من الشرق الأوسط- ربما إيران أو العراق اوسوريا أو ليبيا- كان دور اللعب وللأسف نادرا ما كان يتوقع أحداث الشهور والسنوات الأخيرة.

إننا من المؤكد آعتقدنا أن إنهاء الامبراطورية كان أمرا حتميا، وأدركنا أن حريقا هائلا بالشرق الأوسط. كانت تحليلاتنا ببساطة بعيدة عن إطار الزمن. ظننا أن الحريق الهائل سيأتى فى وقت ما فى بداية القرن التالى، ربما فى المستقبل البعيد حيث كان جديرا قليلا بانتباه الاستراتيجيين المشغولين بالأحداث والأزمات الفورية كانت تحليلات مشابهة جارية فى غرفات الحرب فى كل وكالة مخابرات بداية من لانجلى وفرچينيا إلى ميدان ،وزرزينسكى فى موسكو- والكل أخفق فى توقع الأحداث التى هم قاموا بها بالفعل.

كنا على الطريق المستهدف للحرب العالمية الرابعة، ولم ندركها فى الوقت المضبوط. تلك المعركة التى اشتركنا فيها الآن هى شىء آخر حقا. وهى فى معانيها المطلقة معركة الجنوب ضد الشمال، الأمم الفقيرة غير المنظمة ضد الغنية المنظمة. سيكون هناك سريعا أكثر من أربعة مليارات من الناس فى تلك الأمم في الجنوب، ومليار فى افريقيا وحدها ضد مليار فى كل الشمال كله- فمن سيكون حلفاؤها الجدد، ومن سيكون أعداؤنا الجدد فى الحرب العالمية الرابعة هذه، وماذا سيكون أكبر التحديات لأجهزتنا المخابراتية والتحليلية؟ سيكون هناك القليل من نفس المبادىء من أى مناوشة ومن أى سلسلة أحداث، إلى ما يلى ذلك- وهذا هو مركز المشكلة. يعيش أعداؤنا وسيستمرون فى الوجود فى الاشكال المستمر فى التحرك- موضحا منظرا طبيعيا حيث يكون من الصعب أن تفرق بين الشباب الطيبين وغير الطيبين.

إن كل ما نستطيع عمله لتحديدهم هو محاولة فهم موقع الحدود بين الجنوب والشمال، لذا سنتعرف على الأقل فى أى اتجاه النظر قدما من لحظة لأخرى.

إن حلفاءنا التقليديين الناتو NAT من أوروبا الغربية وكندا يضمهم ما نسميه بالشمال ودول العالم النامى كذلك مثل تلك القوة الاقتصادية الكبرى، اليابان. إلا أنه سيكون هناك حلفاء جدد أيضا بجانبنا فى الحرب العالمية الرابعة: هذه التى نبدأ فهمها فهما ضعيفا.

إننا نأمل أن تكون روسيا الأولى منهم دون مستعمراتها. ويجب على استراتيجيتنا السياسية أن تساعد فى تحرير الأوكرانيين عقب استقلال دول البلطيق لأنه على الحدود الشرقية من أوروبا ليس لدينا ثلاثمائة مليون شخص، بل مجرد عملاق من مائتى مليون شخص فقط. وأن الأمة الروسية المنهكة من الممكن أن تكون حليفا هاما.

إن السنوات والجهد التى بذلناها طوال عملى فى المخابرات محاولا فهم العدو. وأخبرت الرئيس ريجان فى أول محادثة معه إن هدفنا لمدة سنوات كان احتواء الامبراطورية السوفيتية لأننا عرفنا أن عدم كفاءاته ستؤدى إلى انفجارها من الداخل انفجارا ضمنيا وانهيارها تماما. كسبنا الحرب العالمية الثالثة فعلا خلال سنوات الاحتواء تلك. وكنا نجمع فى نفس الوقت مجموعة المعرفة أو المهارات لأجل اكتساب المعرفة التى سنحتاجها لنربح الحرب العالمية الرابعة.

إنى مقتنع بشدة أنه بالإعداد للدفاع ضد القوات الجديدة للجنوب المصطافة ضدنا، لن نكون بمفردنا لأن هناك حبا قليلا ضائعا بين أشد المكونات السياسية

والعسكرية لما كان يسمى بالاتحاد السوڤيتى والعالم الجنوبى. إيران تقبع مباشرة على الحدود الجنوبية المكشوفة السوفييت مدفوعة بدينها الشيعى الراديكالى. نتيجة لذلك فهم الكريملين لسنوات الحاجة إلى التسلل إلى صفوف رجال الدين الشيعى- حوالى خمسة وثمانين ألف رجل قوى. إن المعلومات التى طورناها تشير إلى نجاحهم نجاحاً هائلا.

يخشى الكريملين آيات الله الإيرانيين أكثر من خوفنا، منذ محاولات الروس المتقدمة «لتنظيم» الصفوف الدنيا من رجال الدين الشيعة فى محاولة لاختيارهم كاصدقاء جدد. ظل أولئك القادة الدينيون الشيعة مصدر دعاية قويا وعدم استقرا لمناطق سريعة التقلب بالنسبة للاتحاد السوفيتى، جمهورياته الجنوبية المسلحة. ويقال إن أول التمردات المسلحة الخطيرة ضد الحكم السوفيتى بدأ فى تلك المناطق- أذربيجان وأوزبكستان- كنتاج للتعصب الدينى والإحباط. فهم كل من القيادة السوفيتية والروسية التعصب الدينى أفضل من فهمنا. كانت الدولة الشيوعية قد تأسست على الأيديولوجية الدينية ظاهريا برغم كل شىء. خشى الشيوعيون السوفييت من أى اعتقاد أصولى يختلف عن اعتقادهم. فهموا القوة إلا أنهم خشوا من اتجاهاتها الامبريالية.

غالبا ما قال لينين إنه من الأفضل دخول الحصن حاملا علماً أبيض من البقاء خارجه حاملا علماً أحمر. إنه أفضل من الكثير ممن سبقوه من السوفييت، من المؤكد أفضل من كل نظرائه تقريبا فى الغرب، فقد قبل لينين قيمة فهم أعدائه وحلفائه- واختيارهم لأجل أن يستغلهم.

إن الكثير من الدول الإسلامية الاصولية المعاصرة، والكثير من تلك التى

تتصرف لحسابها تشارك الأهداف والعقلية التى يرجع تاريخها لثمانمائة سنة. لا نستطيع التعامل معها، إذا ما حكمنا عليها بمثابة خصومنا فى النصف الثانى من القرن العشرين. يجب أن نضع أنفسنا فى موضع أوروبيى القرن الحادى عشر أو الثانى عشر. حينئذ فكرت فى أننا قد نفهم افضل ما يدور فى إيران والشرق الأوسط.

دعنا لا ننسى بعض الدول التى استقلت جديدا وكانت عبدا للاتحاد السوفيتى. أن مصطلح «اتحاد» اليوم هو ذاته تسمية خطأ مهما كان الاتحاد سائدا منذ الأيام الأولى للينين وستالين، وهابطا إيبان خروشوف وبريجنيف ومن خلفهم فإنه كان مدفوعا من جانب المخابرات الروسية والجيش الأحمر كمثل الحزب الشيوعى الذى لا حول له ولا قوة الآن. إن تفتت الامبراطورية السوڤيتية يمثل الخطوة النهائية فى عملية قد تسمى بعملية التخلص من الاستعمار. فقد الفرنسيون والبريطانيون مستعمراتهما فى أوائل هذا القرن، مثلما فعل البلجيكيون والهولنديون واليابانيون وحتى الأمريكيون.

إن موجة التخلص من الاستعمار الآن وصلت إلى الامبراطورية السوڤيتية. أولا مستعمراتها فى أوربا الشرقية بولندا، المجر، تشيكوسلوڤاكيا، رومانيا، والمانيا الشرقية وبلغاريا وهما أكثر المستعمرات. التى كانت تعول عليهما- بدأت تنشق. ومستعمرات الاتحاد السوفيتى ذاته الآن- جمهوريات البلطيق والأسيوية- ابتعدت وانفصلت- وهو تنبؤثورى عميق من منظور الكريملين كما لو كانت كاليفورنيا قررت فجأة أنها تستحق لأن تكون دولة مستقلة.

نحن الأمم الغربية تم تركنا باقتصاديات دول أوروبا الشرقية فى حاجة إلى كمية من المساعدة.

بولندا ورومانيا وبلغاريا، والمجر وتشيكوسلوفاكيا إلى حد ما ستجهد مواردنا إلى الحد الأقصى. إلا أنه يجب علينا مساعدتهم خاصة ولو كانوا سيتخلصون بصدق عن مفاهيم الشيوعية التى كانت مغروسه بعمق جدا.

إن ما نناقشه حقيقة هنا هو شكل أوربا الجديد. الحقائق الجديدة للقوة ميكيات والدينا الجديدة لأوروبا سوف تؤثر بعمق فى تفاعل القوات، وفى القدرة وفى رغبة تلك الأمم فى التعاون لأجل الصالح المشترك. كانت خريطة أوروبا الوسطى سيعاد رسمها للمرة الثالثة فى قرننا.

وإننى كضابط اتصال فرنسى شاب كنت الشاهد القريب فى أيامى بجانب شارل ديجول وقادة الحلفاء الآخرين فى نهاية الحرب العالمية الثانية حتى إعادة رسمها الأخير. لكننا الآن ندخل فترة ما بعد اليالتا **POST- YALTA**- بميزان جديد للقوى على القارة- هناك ميناء جديد لأوروبا على سبيل المثال- المانيا. اليوم، الأمة التى تم تقسيمها لمدة نصف قرن صارت دولة مرة ثانية، بلدا واحدا، بلغة واحدة، وثقافة واحدة، وشعباً واحدا يسوقه نفس العمل الأخلاقى. إنها بيت لثمانين مليون ألمانى، وصارت قوة رئيسية تتركز فى قلب أوروبا. ولو أضفت كل المتحدثين بالألمانية والشعب ذا الفكر الألمانى حول تلك البلدان كلها، بما فيهم من فى الدول السوفيتية، فإنه يكون لديك تسعون مليونا.

عندما كانت تأتى نتائج كل أوليمبياد إلى مكتبى اعتدت على اضافة عدد من الميداليات الذهبية والفضية والبرونزية فازت بها المانيا الغربية وألمانيا الشرقية- فهما معاً دائما يفوزان بأغلب الميداليات أكثر من الولايات المتحدة أو

الاتحاد السوفيتى. تلك علامه وعلامة هامة جدا على البراعة الألمانية الفائقة.

وتصطف على الجانب الآخر فى الحرب العالمية الرابعة قوات الجنوب المهلكة- مهلكة بمعنى العنف الذى هم على استعداد لأن يطلقونه، عند أوقات فى يأس مفض للتهور، ومهلكة أيضا بمعنى ضروريات السكان، والجوع والفقر اللذين يدفعانهم. . إنها دول يحكمها ويسوقها مستبدون، ليست تلك الدول الجنوبية، أصدقاءنا وحلفاءنا الذين يعتقدون أن الاستقرار هو أفضل السبل لتحقيق رخاء شعوبها، ما عدا دولا مثل إيران والعراق وليبيا، على سبيل المثال. قادة تلك الدول يقومون بتسخير شعوبهم وعائدات بترولهم لدعم برامج أعمالهم ويعارضون بصورة أساسية أعداءهم الشماليين. وإنه على هذا الجانب من الخط سيكون هناك جيل جديد من القوى الكبرى فى الجنوب- قوتهم كقوة قوى الشمال العظمى القديمة التقليدية.

توجد فى كل تلك الدول الجنوبية قوات فعاله- ضغوط السكان والجوع ومعتقدات دينية يائسة وتوصيات تاريخية وضغائن- لم نمارسها فى الحقيقة أبدا فى التعامل مع أعدائنا فى الحروب الأولى والثانية والثالثة. إنها قوات نابذة قد تؤثر فى قدرة هذه الأمم لشن حرب ضد الشمال بعمق كما أن الخلاقات السياسية الداخلية فيما بين الأمم الديمقراطية للغرب أثرت فى قدرتنا لشن حرب ضد أعدائنا فى المعارك الدولية الماضية. إن تلك القوات النابذة فى الجنوب الجديد سوف تؤثر فى التعريف الكلى لمصطلحات الاشتباك.

لكنه يوجد المزيد هنا قيد النقاش، وهو أكثر من تغيير شكل استبدادى بأخر- لدينا ببساطة ومن نواح أخرى سلسلة متصلة، صورة غير متشققة من

مرحلة من مراحل الحرب العالمية الثالثة لما بعد ذلك. إن الجوهر الحقيقى للعدو يتضمن شكلا جديدا الآن- الذى يجعل الحرب العالمية الرابعة أكثر هلاكا ويأسا بدرجة كبيرة. إن عدونا الآن هو عدو متعصب دينيا. ذلك المتعصب لن يكون سعيدا طالما أن هناك عضوا من المعارضة البغيضة على قيد الحياة- هذا هو الحال فى لبنان حيث الطوائف الإسلامية ثائرة ضد المسيحيين. سيكون المتعصبون غير سعداء أبدا طالما بقى مسيحى فى أرضهم. ويأتى اليهود بعد المسيحيين. تريد الطوائف الإسلامية أن يتم طرد كل دين آخر من كل جزء لهم من العالم. هذه التعصبية هى قلب الحرب الأهلية فى لبنان، والنزاع الإسرائيلى- الفلسطينى، وقلب النزاعات الحدودية المتزايدة، حيث ان معارك الحرب العالمية الرابعة مستمرة وتنتشر. إنها آخر أعمال الحملات الصليبية فى العصور الوسطى.

إن الجنوب اليوم يقوم بصنع قائد يعوزه التفكير السليم لسنا معتادين على التعامل معه.

نيكيتا خروشوف تمكن من خلع حذائه فى وسط اجتماع الجمعية العامة للأمم للأمم المتحدة وضرب به على المنضدة وصرح قائلا: « سوف ندفنكم». ومن التهكم أن الروس بدون مساعدة مكثفة من الغرب سيدفنون أنفسهم.

كان ذلك تمثيلا مسرحيا. لعبت بخروشوف وكل سابقيه ولاحقيه القوانين لعبا أساسيا حتى اننا كنا قادرين على فهمه. كانت القوانين قوانين أوروبية- قوانين شمالية. وليست القوانين الجنوبية نفس خطوط العرض على نفس طول موجة العقل، لكنها ليست نفس خطوط الطول.

إنه مع أعدائنا الجدد تأتى مجموعة من القوانين الجديدة تماما للعبة التى فرضتها تلك الدول التى بصدد شن الحرب العالمية الرابعة من الجنوب إننا نقوم بتحديد العودة لماضينا البربرى للغاية فى أوجه عديدة- إلى وقت قبل الديمقراطية عندما كان حكم القوة المفهوم الوحيد للحكومة مفهوما عالميا. لم يكن هناك مفهوم الصواب ضد الخطأ. لم يكن هناك حد أخلاقى حقيقى.

إن كل افتراضاتنا القديمة للاستقرار والأمن- طريقة قيامنا بالحرب وضمان السلام- تخرج من النافذة على أساس يومى حيث ندفع بسرعة بالغة الهرج والمرج تجاه القرن الحادى والعشرين.

وأنه لم يكن ممكنا أبدا عبر تاريخ الصراع الرد بأسلحة جديدة مع قديمة. وقت أن تم اختراع القوس والسهم كسلاح كانت عضلات الإنسان تقدم القوة النارية. ثم قام إيطالى مجهول ومغمور باختراع ما يسمى بالقوس والنشاب (المنجنيق)- آله لم تعد تعتمد على ذراع الرامى ولكنها تعتمد على آله ميكانيكية. وكان يعتقد فى منتصف القرن الخامس عشر أن هذه الآله- سلاح أساسى.

ولأول مرة اخترق السهم الدرع. كان أولئك الذين استخدموا القوس والنشاب أمرت الكنيسة بحرمانه كنسيا. أن مجلس لاتيران **LATERAN** عام ١١٣٩ حقيقة جرم استخدام ضد المسيحيين رغم هذا كان حتميا أن يسود فى النهاية ذلك السلاح. وأعلن عنه فى شكل جديد من الصراع. كل ثورة جديدة فى التسليح لها تأثير بركانى على الاسقرار للنظام العالمى.

إن الارهاب آخر تلك النوع من السلاح فى الصراع الجنوبى- الشمالى للحرب

العالمية الرابعة: إنه يحل الأسلحة النووية، ويمكن استخدامه بطريق مخيفة جديدة، التى كانت آخر الأسلحة فى الحرب العالمية الثالثة.

كان أمننا يتم حمايته لمدة الأربعين سنة الماضية عن طريق ما أصبح الآن مفهوماً قديما يسمى الدمار التبادلى المضمون(MAI. كان هذا الدمار بناء بسيطا فى شكله الأساسى يوازن الرعب النووى. إذا قام جانب بإطلاق أسلحته النووية لأى سبب ما فإن الجانب المضاد سيكون لديه أسلحة كافية مدمرة بعد إطلاق الانفجار الفجائى صواريخه النووية ويدمر الآخر. أو العدو من الممكن أن يتصرف (يرد) بسرعة كافية ليطلق صواريخه بيد أن صواريخ العدو فى الهواء. إن الرد يرجع إلى الرئيس تماما الذى لديه اختيار كامل. إذا اطلقوا أسلحتهم فإنه يضغط على الزر. وليس عليه أن يذهب إلى الكونجرس وإلى لجان الاشراف فى المخابرات لأجل الاذن بالضغط على الزر.

إنه فعل هذا. كان لديه أحد الأمور الذى يستغرق ثوانى، ودقائق على أحسن تقدير قبل أن تضرب الصواريخ. كان النظام عنيدا لا يرحم وكان لا يقبل الجدل. نجح بدرجة كبيرة لأنه ما من جانب كان راغبا فى اختيار افتراضاته. ونجح لأنه كان بين الأمم التى تشاطر نفس الاحترام للقيمة الضرورية لحياة الفرد الإنسان. ونجحت الثقة. علاوة على أنها نجحت لأن العواقب كانت وخيمة جدا.

إن المواجهة وجها لوجه للحرب العالمية الثالثة: ، أزمة الصواريخ الكوبية كانت لعبة تافهة جداً فى الحقيقة وهى لعبة الغميضة التى يعصب فيها عينا لاعب يود أن يمسك الآخر. لا يعتقد أى أحد فى الحقيقة أن السوفييت سوف

يشير السوفييت نصف العالم باسقاط قنبلة لا يمكنك إطلاق إشارة خطر كاذبة تحت ما يسمى الدمار التبادلى المضمون MAD . فإنك إما أن تضغط على الزر أو لاتضغط.

إن الدمار التبادلى المضمون MAB اليوم فى العصر النووى يجب أن يفسح الطريق أمام مفهوم جديد للعصر ما بعد النووى. حقا إن القرار الفردى من جانب إدارة بوش فى سبتمبر عام ١٩٩١ للتخلص من القوات النووية قصيرة المدى يحدد الاعتراف الرسمى بأن الدمار التبادلى المضمون قد تم إحالته إلى قمامة التاريخ. وإن الذى خلق الدمار التبادلى المضمون MAD بالنسبة لوقتنا ربما يسمى ببساطة« دمارا مؤكدا ». وماذا سيستغرق انزال الرعب فى قلوب أولئك الذين يستخدمون أسلحة الارهاب الجسدية والثقافية دون خوف من الرد بسبب الفشل الجماعى للارادة من جانب الاعداء؟ حقا، إن ما يحدث فى الحرب العالمية الرابعة إذا استغل الإرهابيون أو أبطالهم الوطنيون الأسلحة الذرية والبيولوجية أو الكيماوية التى ستجعل أى معركة تنتهى قبل ظلال الحرب.

لذا فإنه يتوجب علينا لتوضيح أن الاستراتيجية الجديدة التى تحكم الحرب العالمية الرابعة هى التدمير المؤكد. إن تجاوزت الحدود بمسافة ملليمتر واحد ، وهى الحدود المقبولة، ستجد نفسك مدمرا بكل تأكيد- تماما وكاملا دون تردد. لم يتسن النجاح لهذا النظام حتى الآن. إن مفهوم الدمار المؤكد فى عالم مسلح تسليحا تقليديا يتم اختباره بالفعل بصفة متكررة. وقد فشل فى التأكيد على دمار أولئك الذين يستخدمون الإرهاب كسلاح. وإذا فرض أن الإرهابيين دمروا

الطائرة بان أميركان رحلة ١٠٣ فوق لوكيربى باسكتلندا فإنه لم يكن هناك قصف انتقامى لقصر الرئاسة لمعمر القذافى فى طرابلس. وذلك يكون رد الفعل الذى خولته سياسة الدمار المؤكد.

إن فكرة الدمار الشامل من بعض الوجوه هى فكرة متعلقة بالكتاب المقدس بنسب منه- والعودة عودة كاملة إلى مفهوم« العين بالعين ». إن الحرب العالمية الرابعة تشكل فى طرق عديدة حقيقة العودة إلى أصولنا البدائية الأولى. إن عقلية القرون الوسطى لأى من آيات الله الإيرانيين تحدد حقيقة المفاهيم الاستراتيجية للقرن الحادى والعشرين. يجب علينا أن نكون مستفيدين مستعدين كاملا لتقبل هذه القواعد الجديدة، للوصول إلى ميزان قوى جديد، أو الرعب، لتأكيد السلام- وللتأكيد على الدمار المؤكد يلى الدمار التبادلى المضمون حيث ان المفهوم الاستراتيجى يمنع دمار الكرة الأرضية من الحرب العالمية الرابعة.

إن الصراع الذى سيتكشف كحرب عالمية رابعة قد لا يتضمن عملا جماعيا من أى نوع. ربما تشتمل المعارك على تحركات جماعية مكثفة للقوات مثل عملية عاصفة الصحراء. إلا أن القتال ستخوضه دون شك أيضا وحدات مميتة جدا وصغيرة من الإرهابيين الموجودين فعلا فى مكان تم تمويهه بعناية فيما بين الشعوب المهاجرة من الأمم الجنوبية ويعيشون بالفعل فى كل من عواصمنا الشمالية. هذا هو السبب فى أن المخابرات وهيئات المخابرات العالمية الرائدة ستلعب دورا حرجا للغاية فى هذه الحرب أكثر مما قامت به فى نزاعات الكرة الأرضية التى سبقت هذا الأمر فى هذا القرن.

إن هيئات المخابرات تلك تدرك الحاجة إلى التسلل وتدرك قيمته- وهو سلاح أساسى فى ترسانة الإرهابى. ويفهمون كيفية استخدامه ومواجهته. استغل الحلفاء هذا السلاح عبر الكثير من أوروبا فى الحرب العالمية الثانية. وكان حجر الزاوية لحركة المقاومة ، فى أوربا المحتلة . إنه فى نهاية ذلك النزاع عندما خبت الحرب العالمية الثالثة بهدوء حرك ستالين التسلل إلى هضبة عالية ، كشف رائد من المخابرات السوفيتية KGB هرب إلى الغرب عن اجتماع تم عقده فى الكريملين برئاسة ستالين ، حيث قرر ستالين التخلص من حوالى ثلاثة ملايين يهودى فى الاتحاد السوفيتى " بالسماح " لهم بالهجرة ، أمر ستالين بأنه يجب أن يكون من بين الثلاثة ملايين عشرين ألف عميل للمخابرات السوفيتية تقريبا أخبرنا الضابط بأن تلك السياسة استمرت منذ ذلك الحين.

وعملية الخروج تمثلهم حتى اليوم، وهى آخر موجه للهجرة اليهودية إلى إسرائيل من الاتحاد السوفيتى .

إلاّ أنه فى الحرب العالمية الرابعة لم يكن المتسللون مجرد عملاء للتجمع الاستخبارى بل إنهم بالأحرى سيصبحون آلات الدمار وآلات المعركة كذلك . ستكون الحرب العالمية الرابعة حربا إرهابية .

ستكون هناك دول معينة من الجنوب وستستخدم الإرهاب بفعالية أكثر وبمزيد من التأكيد على أنه آله حرب عسكرية أو سياسة دول ، أكثر من استخدام دول أخرى له . ويتضح اليوم أن ليبيا وسوريا وايران والعراق، على سبيل المثال ، هم المساندون الاساسيون لهذا النوع من الحرب . علاوة على أن هناك تقاليد معينة فى كل منها ، قوات غامضة فى تاريخهم مما يجعلهم أكثر

احتمالا عن الآخرين بأنهم يعودون للإرهاب كسلاح المعركة ضد الشمال .

كانت هناك مجموعة تسمى هاشيشيم HASHISHIM ـ السفاكون ـ أعضاء نيرازى إسماعيلية ،وطائفة دينية سياسية إسلامية تعتبر قتل اعدائها هو واجب دينى ، و ذلك أثناء الخلافة عندما كان التركى الأكبر يحكم الكثير من العالم الاسلامى من القسطنطينية . كما هؤلاء الاعضاء من المنطقة التى تسمى الآن الشمال العراقى وكانوا أول من استخدم الارهاب وان كان بشكل بدائى كسلاح حرب . عاد ماركو بولو بقصص عن شبان قد تم اختيارهم لحرفة الاغتيال .كما يتم إعطاؤهم حشيشاً ويتم أخذهم إلى الطرف الافقى من قلعة الجبل . وهناك يجدون أنفسهم فى حديقة ساحرة ، تحيط بها حقول رائعة . وقيل لهم إنها جنة الله . كانت هناك طيور مغردة ، وأشجار موردة جميلة ونساء فاتنات . كان يتم ترك الشبان يتجولون لمدة خلال تلك الجنة ويتذوقون فاكهتها ويجربون أفراحها وسرورها .

ثم بعد ذلك يتم أخذهم بعيداً ويقال لهم : " الآن رأيتم عينة من الجنة " . ويتم إعطاء كل واحد خنجراً صغيراً ، وهو سلاح سراى السلطان المرعب ، و سلاح الخلافة .كما أنه تم إخبارهم أيضاً : " إنكم قتلة . قد يتوجب عليكم الموت خلال واجباتكم . لكن لو متم ستذهبون إلى الجنة مباشرة. وتسنت لكم لمحة عن الجنة.« إن فيلقهم من الإرهابيين المخلصين الذين كانوا يعملون من حصون خلال فارس والعراق أعلن عن ضحايا لاحصر لهم فيما بين جنرالات ورجال دولة فى الخلافة العباسية وبعض الخلفاء ذاتهم كذلك. كان السفاكون قوة مخيفة لمدة قرنين حتى الغزو المنغولى. علاوة على أنه حتى اليوم تزعم الطائفة

عن اتباع لها متناثرين عبر سوريا وفارس وآسيا الوسطى. ويتخلل إرثهم طرقات السلطة.

وان الأسلحة الإرهابية اليوم هى نسخ معدله أكثر هلاكا من خنجر القاتل، ولو أنها غادرة وأشد خطرا عن ذى قبل. حدث غالبا أثناء الحملات الصليبية أن الأعداء تلاقوا على مآدب طعام أو فى أعياد قبل أو بعد المعارك. فإنه فى إحدى تلك المناسبات استقبل صلاح الدين، أعظم قادة المسلمين. بعض الزعماء الأوروبيين. كان ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا من بينهم، وكان رجلا عظيما وقويا قاتل بسيف بيديه بضراوة. وقال الملك ريتشارد: «هكذا كيف نخوض الحرب.» وأخذ السيف ووضع خوذة حديدية على المنضدة وسدد إليها ضربة هائلة محدثا بها انبعاجاً.

والتفت إلى صلاح الدين وصاح: «الآن دعنا نرى كيف تخوضونها!".

أجاب صلاح الدين:« إن كلا منا له طرقه الخاصة.» وأخذ وشاحه الحريرى الذى كان يرتديه واسقطه على سيف الموقوف وحيد الحد والحاد مثل الموس. انقطع الوشاح إلى نصفين. وابتسم صلاح الدين ابتسامة خفيفة وقال: «هذه طريقة أخرى من طرق الحرب». إن أنواع المعارك التى سيتم خوضها فى الحرب العالمية الرابعة ستتم عن طريق أنواع من الأمم التى ورثت عباءة الخلافة والامبراطورية العثمانية. إننا بدأنا بالفعل حملات صليبية جديدة. فقد الشمال آخر الحملات الصليبية منذ ألف عام مضت. لايجب علينا، ولا نستطيع أن نفقد الحملات التى شرعنا فيها الآن. إن الحملات الصليبية القديمة كانت أعمال غزو لأجل الغرب . ستكون الحملات الصليبية القادمة ستكون أعمال دفاع عن النفس.

لايجب علينا أيضا أن نسمح لأنفسنا أن ننسى أن الحملات الصليبية الجديدة هذه التى نسميها الحرب العالمية الرابعة ربما تقع بعيدا عن شواطئنا مثلما فعل أسلافنا فى القرون الوسطى وبدأوها ليفوزوا فيها. وربما يكونون قريبين مثل منعطف السينما.

يتوجب علينا أن نكون مستعدين لنضحى بأنفسنا فى كل مكان. إن أعداءنا الذين حولنا مستعدون للتضحية بأنفسهم. وعلى استعداد للموت لأجل معتقداتهم. إن معتقداتنا راسخة بعمق أيضا على السعادة المادية.

إن الانظمة الإرهابية فى الشرق الأوسط يدركون مواطن الضعف فينا. يلجأون إلى الابتزاز والاغتيال والإفلات من العقوبة. إنهم يبحثون عن المواطن المكشوفة وقد وجدوها. إنهم لايعرفون الصفح فى طريقتهم مثل السوفييت الذين ظلوا أعداءً فى أذهاننا لعشرات السنين الماضية، إلا أنهم من الممكن فهمهم بدرجة قليلة إلى حد بعيد. يجب علينا السعى إلى فهمهم. فهما عميقا. ذاك هو أحد الأدوار الرئيسية للمخابرات اليوم.

لقد بدأنا فى فترة الشك الرهيب فى الشرق الأوسط، وأوجدنا نافذة لفرصة عظيمة. حان الوقت للضغط على أعدائنا ـ ضغطا سيفهمه أعداؤنا، ضغطا على علاقاتهم ـ بينما نقوم ببناء أصدقائنا. إن الهدف النهائى لمخابراتنا سيكون تقديم صورة كاملة غير متميزة للعالم لقادة بلداتنا لكى يتسنى لهم التصرف بحكمة وفهم. هذا هو رأيى دائما. ياللأسف لم يشاركنى فيه معظم القادة الأمريكيين المعاصرين.

إن النظام الأمريكى مختلف جدا عن النظام الأوروبى. يتجاهل الأمريكيون

«شأن الدولة» الذى يجب استخدامه فى عالم المخابرات كحجة لتبرير أكثر الأعمال حرجا فقط. يعتقدون أنه ليس له مكان فى السياسة الأمريكية. إلاّ أن اعتقادى العميق أنه لابد وأن يكون متاحاً بدون تهاترات أو انتقام. أخبرت الرئيس ريجان ذات مرة كم أعتقد بشدة فى «شأن الدوله» الذى قد يفوق أى فضيلة تقليدية ـ وزنا. إنه شيئ فهمناه نحن الأوروبيون لقرون.

لكنه لو أن هناك حاجة إلى شأن الدولة فإنه لمحاربة أولئك الأعداء عديمى الرحمة للغاية ـ وهم دول الجنوب الإرهابية. ولأنهم بدون أى قدر ضئيل من الأخلاق تماما التى تخدم فى السيطرة على تصرفاتنا فى الأوقات المتحضرة فإنه يجب أن نكون مستعدين لإسقاط رداء كياستنا نقاتلهم. فعلا فى مجالاتهم.

إن هذا العمل هو محاولة بمعنى إعادة كتابة تاريخنا المشترك أو على الأقل الكشف عن الركن الذى يتوانى فى غموض. إنه بدون فهم بعض ديناميكيات الحروب الثلاث الأولى فى هذا القرن سندخل الحرب العالمية الرابعة نصف عمى ونصف طُرش.

حيث إننى أطول مدة كرئيس مخابرات بين رؤساء المخابرات الغربية فإنى علمت أن هناك نوعين من التاريخ. يوجد تاريخ نراه ونسمعه، التاريخ الرسمى، ويوجد تاريخ سرى ـ الأشياء التى تحدث خلف الكواليس، فى الظلام، تتخبط فى الليل. عندما يكون للواحد رؤية دولية حقيقية فإنه يصبح الإثنان مُدركيْن. كلاهما ضروريان. وإننى كلاعب فى الأول ومناور فى الثانى حاولت أن أجلب لعملى نوعا من فهم وجهى التاريخ الحيوى لو كنا قادرين على توظيفه فى عالم تسيطر عليه بتزايد قوى خبيثة تسعى إلى تقويض قيمنا الأساسية الكبرى ومؤسساتنا الأساسية.

إننا، قبل كل شيئ، نحتاج إلى موقف تقييم هادئ . وأن وجدت أى رسالة فى هذا الكتاب فهى أنه خلال الحروب العالمية الثلاث يوجد شيئ ثابت أكد انتصارنا ـ وهو التقييم الهادئ لطبيعة عدونا .

ما من أعدائنا فى الحرب العالمية الرابعة أقل جدارة بمثل ذلك التقييم الهادئ من أعدائنا فى الحروب العالمية الثلاث التى حدثت من قبل. إنه لم يكن من المناسب فقط بل ومن الضرورى أيضا فى كل حالة أن نسخر فى سبيلها الجهود وخبرة الحياة الطويلة من القطع الصغيرة التى لا حصر لها والمنتقاه من المعلومات كما لو كانت فى معضلة ضخمة حيث يتم تجميع القطع إلى نماذج تعطى معنى. إن الآراء حول عللنا المشتركة التى تتجزأ ونوضحها فى هذه الصفحات هى غالبا تلك التى لدى الممارس العام أكثر من الأخصائى. لكنها جديرة بالدراسة.

الفصل الثانى
الرجل داخل المعطف

إننى أنتمى إلى عائلة عتيدة دفعت غاليا فى الحربين العالميتين الأولى والثانية. فوالدى أصيب بجرح خطير فى الحرب العالمية الأولى. وقتل شقيقه هنرى عام ١٩١٨. وماتت عمتى عام ١٩٤٥ فى معسكر الاعتقال النازى رافنسبروك . RAVENSBRUSEK

إن فنون الحرب وفنون الجاسوسية فى المصلحة الوطنية تتصف بهم هذه العائلة بعمق. فإنه من جانب والدى تعود جذورنا إلى سفوح الجبال فى القرن الثالث عشر، إلى أملاك النبيل فى عام ١٤٥٢. عملنا فى جمع النبيذ فى برغندى فى فرنسا، وفى مجلس النمسا، بعدما غزا لويس الرابع عشر سفوح الجبال وفرنسا نفسها. كانت والدتى من نسب بروتستانتى فرنسى. رحل أجدادها عن العالم القديم إلى سانتو دومينجو (سميت بعد ذلك أسبانيا) بعدما وقع لويس الرابع عشر إلغاء رسوم الحيازات عام ١٦٨٥، منهيا بذلك الحقوق التى كان يتمتع بها البروتستانت، والبروتستانتيون الفرنسيون فى فرنسا، ورحل حوالى مائتى ألف. هربت عالتها ثانية إلى الولايات المتحدة فيما بعد وقت ثورة العبيد عام ١٧٩٤ فى عيد كل القديسيين. وصلوا هناك على سفينة هولندية شاءت الظروف أن تحمل بضائع فى ميناء بورت ـ أو ـ برنس، ووافقت على أخذهم على متنها ـ شاهدت خطابات من أجدادنا الآوائل إلى أولاد عمومتهم الفرنسيين الذين ظلوا فى منطقة بيريجور فى فرنسا، يصفون معاركهم للبقاء فى الطرف الجنوبى الذى تم تسميته فيما بعد بنيويورك سيتى

والآن وول ستريت وكان ذلك هو المستوى، مشيرا مثل معاركى، بعد قرنين فى نزاعات الكرة الأرضية لأوروبا فى القرن العشرين.

«ثانية، الليلة الماضية» قرأت أحد الخطابات، «هاجمنا الهنود بسهام مشتعله من أسفل الجدران واصطدمت السهام بالجدران الخشبية لمنازلنا التى اشتعلت. كنا طوال الليل نمرر جرادل الماء. وبمساعدة الرب ومجموعة جرادل الماء التى قمنا بتمريرها ولأننا أختبأنا خلف الجدار، فقد أفلحنا، وشكرا لله فنحن آمنون هذا الصباح وقت قيامى بكتابة هذا الخطاب لكم».

قد يقول الواحد إن هذه كانت تجربة عائلتى الأولى مع شكل حرب الرعب البدائية. علمنا بوضوح كيفية البقاء منذ القدم فى ذلك العالم.

وُلدت أمى فى نيويورك. جاءت لتزور فرنسا فى صيف عام ١٩١٧ عند بداية اشتراك الأمريكيين فى الحرب العالمية الأولى. كانت أمى مهتمة ببلد أسلافها. وكان هناك شعور رومانسى كبير أيضا تجاه فرنسا عند قرن التغيير فى أمريكا. علاوة على أنها تحولت إلى الكاثولوكية.

كانت صاحبتها فى فرنسا مركيزة سالينا ـ فينسلوSALIGNAC- FENELON التى كانت من عائلة فرنسية كبيرة. عندما وصلت إلى فرنسا أنشأ الجنرال «بلاك جاك» بيرشينج قيادته فى فرنسا الشرقية عند «شاتو دى سينى» قصر سينى حيث عاش فولتير فى وقت ما، والذى كان ذات مرة منزل أسلاف المركيزه. قام الجنرال فى نهاية أحد الأسابيع بدعوة بعض الضيوف من المستعمرة الأمريكية فى باريس إلى حفل عشاء وكانت والدتى، التى كانت وقتذاك أرملة شابه جميلة وكانت من قبل متزوجه من دالاس موناهان رجل

أعمال بشركة أميريكان ستاندارد ، من بين المدعوين ـ كان الجنرال بيرشينج يصاحبه الكولونيل جورج مارشال رئيس مكتبه الخاص، وكان الملازم أول جورج باتون ياوره. الجنرال بيرشينج قابل باتون فى حملة فى ميكسيكو ضد بانكو فيلا PANCHO VILLA عام ١٩١٦. وتم تخصيص باتون للجنرال لأنه كان من الفرسان وكانت هناك فرقة من الفرسان الأمريكية فى أول قوة حملة أمريكية فى أوروبا ـ وكانت نفس الوحدة التى خدم فيها جورج واشنطن. وكانت حملة رسمية. وقد درس أيضا باتون فى صومير SAUMUR الأكاديمية العسكرية الفرنسية.

كانت والدتى، كما كان والدى ـ آنذاك ضابطى اتصال وباور الفرنسيين للجنرال بيرشينج فى القيادة العليا ـ حيث أنهم التقوا فى حفل عشاء.

مات والدى عندما كنت فى الحادية عشرة تاركا فجوة رهيبة فى حياتى؛ كان رجلا مدهشا ـ وجيها، طويلا، قويا وشجاعا ومهذبا ومتواضعا. عندما كان صبيا كان تلميذا على يد هنرى والد شارل ديجول الذى كان رئيسا للدراسات فى كلية الطهارة (وكبل بلادنس) فى شارع دى فوجيرارد فى باريس. قابل والدى شارل ديجول بعد بضع سنين فى آراس ARRAS حيث كانا إخوة سلاح (ضباطا) فى مشاة أراس الثالثة والثلاثين بقيادة المارشال بيتان وأصيب والدى بجرح خطير فى دينان على الحدود البلجيكية؛ وتم منحه وسام ليجيون للشرف من الطبقة الأولى للحرب العالمية الأولى.

تقابل وديجول ثانية فى معركة بيرى ـ أو ـ باك عام ١٩١٦، حيث اصيب والدى ثانية بجرح وتم أسر ديجول. وحيث ان والدى بعد ذلك لم يعد لائقاً

للخدمة الفعلية فقد تم تعيينه فى هيئة الجنرال بيرشينج، الذى قاد القوات الأمريكية على الجبهة الفرنسية. كان من بين المتطوعين الذين قام بتدريبهم هو الشباب جورج مارشال، وجورج باتون، وعمر برادلى، ودوجلاس ماكارثر. قام «شبان بيرشينج» بعد ثلاثين عاما بقيادة قوات الحلفاء فى الحرب العالمية الثانية، ولأنى ابن أخ فى السلاح سابقا فكثيرا ما استفدت من روابطى معهم. وإنه يبدو أنهم وثقوا من أن فهم فن الحرب قد نجح إلى حد ما فى الانتقال إلى إبن رجل كان قادرا على تدريبهم.

وإننى كطفل أتكلم ثلاث لغات تقديرا لأصلى الفرنسى، ولمربيتى الألمانية، وداداتى (مربياتى) الايرلندية والإنجليزية. كنا عائلة متحفظة فى الافصاح عن مشاعرها. وكانت إحدى ذكريات طفولتى تدور حول همس مربيتى أن والدتى كانت قادمة لتطبع على جبينى قبلة المساء. واندلعت سيدة جميلة إلى حجرة نومى مرتدية عقدا من ثلاثة صفوف من اللؤلؤ. وانحنت على قائلة: «إلى اللقاءً ! وأغلق الباب. وانطلقت السيارة. قد ذهبت والدتى لتناول العشاء.

تعلمت أولا فى لى روش، مدرسة مشهورة فى نورماندى، ثم أمضيت بضع سنين فى سويسرا فى فريبورج. إلاّ أننى منذ أن ذهبت إلى الحرب فى الثامنة عشرة قمت بتثقيف نفسى بنفسى بدرجة كبيرة. لست مفكرا بكل تأكيد. إن كل ماطلبته عائلتى كلها هو أن يكون أطفالها حساسين، يعرفون كيف يعبرون عن أنفسهم، ويكونون قادرين على ركوب الخيل باعتدال.

والدتى وخالتى، مدام هنرى داون، وهى شخصية بارزة فى المستعمرة الأمريكية فى باريس تمتلك منازل المدينة المجاورة.

وانه بسبب علاقات عائلة والدتي صارت عائلتنا من العائلات الهامة في تلك المستعمرة بباريس في تلك الأيام وكان لنا زوار كثيرون. تعلمت من أولئك الأفراد طرق الدبلوماسية والمخابرات والاستراتيجية العسكرية والسياسات، وكل التشابك في مشكالي معقد المتغير كنتيجة للطرق المتنوعة التي تربط الأمم ببعضها البعض وبتاريخهم الخاص وبتقاليدهم الخاصة بهم.

كان أحد زوارنا المنتظمين في تلك السنوات الأولى هو شاب مدهش ولطيف يدعى روبيرت مورفي الذي صار بعد ذلك السكرتير الثالث في السفارة الأمريكية. أحببناه كلنا وصار مرتبطا جدا بنا. وإنه وقتما توجد حفلات في منزل الخالة إيثيل كان دائما تتم دعوة وليام بوليت السفير الأمريكي صديق عائلة العم هنري والخالة إيثيل وكان دائما معه مورفي. وصار بعد ذلك شخصية ذات أهمية غير عادية لحرب الحلفاء برمتها في جهدهم في الحرب العالمية الثانية كمبعوث دبلوماسي شخصي للرئيس فيلت روز في أوروبا. ولعب بطريق الصدفة دورا هاما في حياتي.

علاقات الأسرة علاوة على الانطباعات التي تكونت في سنوات حياتي الأولى بمقابلة بعض الناس الذين شكلوا تاريخ أزماننا، لعبوا أدوارا هامة في حرفتي المستقبلية. كان الماريشال فوشي يضعني على ركبتيه. الماريشال بيتان شهد على عقد زواج والدي. وكانت إحدى ذكرياتي خاصة باللواء بيرشينج عندما جاء إلى منزلنا في نورماندي في طعام غداء نهاية الأسبوع، وكان المنزل على بعد ثمانين كيلو مترا من باريس حيث وصل بعربة ضخمة سوداء اللون. وأمسك بيدي بعد الظهر وركبنا سيارته وتوجهنا إلى الجبانة في نورماندي

ووقفنا أمام قبر والدى. وأخبرنى فى طريق عودتنا الكثير عن والدى، وكم كان ضبابطا رائعا ورجلا لطيفا، وكم كثيرا ساعد الجهد الأمريكى فى الحرب العالمية الأولى.

لن أنسى الثالث من سبتبمر عام ١٩٣٩. هذا التاريخ محفور فى ذاكرتى بصفة مستمرة. حدثت لى هزة عنيفة عندما كنت فى المدرسة فى فريبورج بسويسرا عندما أذيعت أنباء إعلان الحرب لقصف الرعد. عدت فورا إلى فرنسا وإلى الخدمة العسكرية. وكانت أول تجربة بتكتيك الحرب الذى يسمى الحرب الخاطفة أو حرب الصاعقة، هجوم شامل من جانب طوابير المركبات المتحركة بسرعة التى فاجأت ثم سيطرت على القوات المرافعة والتى أثبتت أنها التكتيك الوحيد الأكثر تميزا للحرب العالمية الثانية عن أى حرب من الحروب الثلاث العالمية فى القرن العشرين. تم سحق الجيش الفرنسى فى أقل من شهر فى التقدم الصاعق للقوات الألمانية. إن الدرع الساحر خط ماجينو ـ تحصينات خراسانية ثقيلة عتيقة تطوق الشمال الفرنسى، مصممة لحماية الأمة من كل الغزاة المعادين، والتى كان من المعتقد غير ممكن احتراقها ـ الذى لم يحدث به صدع فى الحقيقة.إلا أنه ببساطة قد تجاهله الغزاة سريعو الحركة والتنقل السريع الذى لاعلاقة له بالحظر وطافوا حوله تاركينه لتذكار يرثى له للتقدير العسكرى السيئ ولعدم القدرة وعدم الرغبة فى فهم عدونا والتكيف بالحقائق الاستراتيجية الجديدة. وإن تلك التحصينات كانت آثار فترة الحرب كسابقة؛ خندقا ثابتاً للقتال يميز الحرب العالمية الأولى حيث صار مهملا إزاء الأسلحة والتكتيكات التى استخدمت فى الحرب العالمية الثانية. نظرا للإعداد السيئ والغباء ونقص التنظيم والشلل من جراء التآمر السياسى لم تستطع القيادة

الفرنسية العليا مواجهة الحقائق العسكرية الجديدة للحرب العالمية الثانية. وحيث إن منظورهم التاريخى أعماهم عن عدم قدرتهم على فهم الحكمة التقليدية الماضية فقد تجاهلوا التحذيرات المبكرة من المخابرات كتكتيكات جديدة مما كشفوا عن أنفسهم فى غزو تشيكو سلوفاكيا وبولندا ـ تلك الضربات السريعة فى قلب وشرق أوروبا التى أثبتت أنها مجرد فتح شهية قبل الحملة فى الغرب. ونظرا لعماهم عن الحقيقة والذى شلهم واجهت العسكرية الفرنسية قوة متفوقة كاسحة مدفوعه بحسن التنظيم الأفضل مع قوة الدفع للمباغته خلفها.

كانت الحرب الخاطفة الألمانية ضد فرنسا أولى تجربتى مع الفشل المطلق للمخابرات الحربيه والتخطيط المدنى. وحيث كنت حديث العهد بالجيش الفرنسى آنذاك، رأيت طرقا مليئة باللاجئين فى عربات يجرها الخيول فارة لاتدرى إلى أين، ومنطلقة بسرعة محدثين فوضى فى الطريق، ومكافحة لأجل أن تجد مكانا لها فى مؤخرة حرس قواتنا فى ذعر فوضوى مماثل ـ كان الحرس الألمانى فى ملاحقتهم وهم مرتدون معاطفهم الرمادية غالبا يمتطون موتوسيكلات بصناديق ومجهزة تماما مندفعة بحافز كبير.

اتخذت طريقى فى الحقيقة إلى ضيعة عائلى فى نورماندى حيث كان الحديث فيما بين أصدقائى وجيرانى يدور حول دعوة الجنرال ديجول للقتال. رفض الجنرال الفرنسى الشاب أن يتقوقع فى الهدنة التى تم توقيعها بسرعة ويجبن من جانب الماريشال بيتان. هرب ديجول إلى لندن حيث أطلق فى الثامن عشر من يونيو عام ١٩٤٠ دعوته المعلنة لحمل السلاح والمقاومة. حقيقة،

وقعت عقدا باستمرار الحرب واستمعت لكلمات ديجول واستنتجت أن الحرب قد انتهت على الإطلاق بالنسبة لى بسبب الاحتلال الألمانى. وبينما كان القتال مستمرا صممت على الاشتراك فيه وكان الأمر سهلاً.

كانت لدى فرصة لأصعد على سفينة بولنديه وأسافر إلى انجلترا حيث قد أنضم مع الجنرال ديجول والكثير من أهل وطنى. إلا أنه قبل أن أفكر فى العودة لاستئناف المعركة كان يجب على أن أقوم بترتيب شئونى الخاصة.مزارعى فى نورماندى أتلفها التقدم الألمانى مما صارت مهجورة. كافح رجالى الفلاحون والجيران ثانية وتدريجيا فى عرباتهم التى تجرها الخيول. ولم يكن هناك مكان آخر ليذهبوا إليه. ورغم أن منزلى قد سلبته القوات المتقدمة إلا ان الكثير من الدواب كان باقيا. أدرك الألمان بوضوح إنهم سيحتاجون إليها فى سنوات الاحتلال القادمة. لم يكن هناك تليفون وكهرباء. كنت أملك ألف فدان من الأرض الصالحة للزراعة ومرعى صالحة لتربية الماشية من أفضل الأنواع لعمل لحوم البولوبيف. علاوة على أنه كان لى مائة وعشرون رأس ماشية. ذلك الأمر سبب لنا كمية من القلق، حيث انها كانت الأهداف الأساسية لجيش الاحتلال الألمانى.

فرنسا قد انقسمت إلى اثنين. النصف الشمالى، الذى تضمن منزلى فى نورماندى احتلته الحكومة الألمانية وتديره مباشرة أيضا الإدارة العسكرية الموجودة فى باريس. لم يكن هناك أى مظهر على أن هذه لم تزل فرنسا. أما النصف الجنوبى ظل أرضا فرنسية ظاهريا تديره حكومة فرنسية فى فيشى لكن ذلك كله كان عارا. كانت حكومة فيشى مجرد دمية للمحتلين الألمان.

وكانت ميزاتها الوحيدة هى أنها سمحت للأمريكيين الإبقاء على سفارة فيما يسمى حقيقة بأرض ألمانية ـ وأصبحت السفارة مركزا نموذجيا للتجسس ضد النازى ومساعدة المقاومة الفرنسية. لقد استغليت هذا استغلالا جيدا ومئات من زملائى هذه النافذة الصغيرة المطلة على ماترك من العالم الحر.

لم يكن لدى ما هو ضد الشعب الالمانى، إلاّ أننى لا أحبذ فكرة مجئ دولة إلى منزلك دون توجيه دعوة إليها. خلال إقامتى فى نورماندى عندما بدأت خدمتى السرية مع المقاومةفى الأرض المحتلة عام ١٩٤٠، حاولت أن أتعرف كنموذج قديم ظاهريا ـ كأول قاعدة لعميل مخابرات يعمل خلف خطوط العدو، إلا أنه يمكن تعلمه فقط عن طريق أخطر المحاولات والخطأ. لذا رفضت الاشتراك فى السوق السوداء، ونجحت بطريق أو بآخر فى أن أجد اطارات دراجة (التى كانت نادرة تماماً) وأحذية شتوية عالية الساق. لم يكن لدى أى اتصال شخصى واجتماعى مع الألمان ولأننى أتكلم الألمانية غالبا ماكان يتم طلبى لتمثيل قريتنا الصغيرة أمام السلطات المحتلة.

اعدت أن أقول للألمان فى مناسبات عندما يدعوننى لزيارة رسمية: «لن اطلب منكم الجلوس لأنه لو انعكست مواقفنا فلا أعتقد أنكم ستطلبون منى الجلوس».

صودر منزلى من البداية. وانتقلت إلى آخر، اكثر صغرا بجدران شملها ياردة. وإنه فى يوم أحد صباحا توقفت خارج المنزل وانفجرت اطاراتها مما جعل الخادمة تهرع إلى أعلى الدرج وتقول: «إن الألمان هنا!»

إننى مع صديقى جورج »،الذى كان يهوديا، أمضيت معظم الليلة السابقة

أنظف مخبأ الأسلحة التى كنا نخبئها فيه لأجل المقاومة تحت كوفه من البطاطس فى عش قديم للحمام.

ظناً منا أننا سنفرغ من العمل المساء التالى فقد تركناها مكدسة فى دولاب فى حجرتى فى الطابق الأول فى منزلى الصغير.

أطلعنى الضابط الألمانى، ورقة فولسكاب مطوية. حيث قال بحده: «إنه بموجب هذا الخطاب من مجهول إنكم تخبئون أسلحة هنا».

كانت لحظة مرعبة ـ «هل تدرك ما سيحدث لو وجدنا تلك الأسلحة؟، سوف تعدم رميا بالرصاص».

فأجبته قائلا ومن المؤكد أننى سأفعل المثل لو كنت مكانك».

وأضاف: «بإذنكم الآن، سنقوم بالتفتيش الدقيق». دون أن ينبذ بأى نبرة تنم عن أن إذنى أمر يعول عليه كثيرا. أبديت عذرى الخاص. وكانت الفكره أبعد من أن تكون أمرا مسليا خاصة وفى سن العشرين، حيث وجدت من الصعب ألا أرتعد أو يتغير لونى وحاولت ألاأظهر أى مشاعر على الإطلاق ـ قدرة وجدتها مفيدة للغاية مرات عديدة فى حرفتى كضابط مخابرات.

قاموا طول اليوم بتفتيش القصر (شاتو) القريب من المنزل، وفتشوا فى البحيرة ظللت طول اليوم أقول لنفسى ربما يعودون ويفتشون منزلى. وتخيلت أنهم إذا وجدوا أسلحة فى القصر لم أضعها هناك.

ماذا يجب علىّ قوله حينئذ؟ «البندقية الرشاشة (المدفع الرشاش) لاعلاقة لى به؟» لم يجدوا شيئا بالطبع فى القصر، حيث أنهم تعبوا من بحثهم غير

المثمر وبفضل معجزة أخيرة لم يقوموا بالبحث فى منزلى الصغير غير مكترثين بذلك. ولم يعودا أبدا. ولحسن الحظ أيضا إنهم كانوا ضباطا نظاميين فتصرفوا بصورة صحيحة. أما إذا كان الأمر يتعلق بالجستابو فإنه يكون الخوف والبوليس السرى البغيض.

قلما كان تباغتنى قوات الاحتلال طوال مدة الحرب ـ فكانوا يتصرفون كما يتوقع المرء أن يتصرفوا فى بلد غريب وأرض معادية، وينتهزون كل فرصة يقدمها أولاد بلدى.

ذات مرة، بعد وقت قصير من تلك الحادثة، تم سجن عامل أكبر منى سنا من قريتى وذلك لمخالفة كبيرة. وذهبت إلى الحكمدار المحلى للاحتجاج. كان الألمانى ضابط فرسان مسناً، فتحدثنا فى أول الأمر عن الخيول ثم عن موقفه (وضعه) الذى من الواضح لم يستسيغه.

واشتكى قائلا: «إنهم لم يرسلونى إلى روسيا بسبب كبر سنى، واننى أقوم بعمل بغيض هنا. والأبغض منه هو سيل الخطابات المجهولة التى يرسلها لى ابناء بلدك يبلغون عن أصدقائهم وجيرانهم. أنظر هنا! »

فتح دولابا مكدسا بربطات من الورق كل منها مكونة من مائة ورقة « خطابات مجهولة » قال ذلك، وأضاف: « ما رأيك فيها ».

حيث أننى أحد هؤلاء الضحايا من تلك الخطابات فمن الصعوبه أن أعترف بالمفاجأة التامة ـ إن ما أدهشنى هو النفاق الفظيع من جانب الكثيرين جدا من أبناء بلدى. عند عودتى إلى فرنسا فى نهاية الحرب سأكتشف الإثنين والأربعين نسمة، حقيقة التعداد الكلى لسكان فرنسا آنذاك، والذين «ناضلوا لأجل

المقاومة». وبدا في نورماندى أن أبطال المقاومة هؤلاء كانوا على استعداد للخدمة كأعوان للجستابو حتى نهاية الحرب تقريبا عندما استنتجوا أن الحلفاء ربما ينتصرون حقا.

بينما أرعى ممتلكاتي وأراقب قصرى واتعامل مع السلطات الألمانية المحلية بانتظار فرصتي في دور كامل في الحرب فعلت ما استطيعه لمساعدة المقاومة في هذا الركن الصغير من فرنسا. وإني مع أصدقاء آخرين في المنطقة المحتلة قمت بعمل اسكتشات للمواقع العسكرية وسلمتها للحلفاء في السفارات أو في مكاتب أخرى التي أقيمت بجانب الحكومة الفرنسية الدمية في فيشي. إضافة إلى أنني عرفت اثنين من الأمريكيين في مواقع دبلوماسية عالية، الأدميرال وليام ليهى، على سبيل المثال. الذى أصبح بعد ذلك رئيس هيئة الرئيس روزفيلت في البيت الأبيض؛ وصحفيين مثل رالف فورت رئيس مكتب يونيتدبرس في مدريد لسنوات عديدة الذى عمل أيضا كمستشار خاص لارنست هيمنجواي بالنسبة لسلسلة مصارعة الثيران في روايته «لمن تدق الأجراس».

نجحت بمساعدتهم القيام برحلات ناجحة بين قاعدتي للعمليات في نورماندى وفيشي. خدمت كجاسوس بصفة أساسية. كنت ألاحظ والتقط صورا للمطارات العسكرية الألمانية التي تم بناؤها في نورماندى وأحضرت تلك المستندات إلى السفارة الأمريكية في فيشي أو إلى صديقي رالف هينزن، صحفي أمريكي مقره في فيشي. وكانت هذه مقدمة ممتعة للجاسوسية لأن تلك المستندات كان لابد من حملها عبر حدود عليها حراسة مشددة ـ بينما كان الترحال يتم على

الأقدام غالبا فى ظروف جوية صعبة ـ من الأرض المحتلة إلى فيشى حيث يمكن للحلفاء التقاطها فى سفاراتهم لنقلها فيما وراء البحار. وبالتحرك فى الليل البهيم على امتداد طرقات البلد والالتقاء بمجموعات المقاومة المتعددة طوال الطريق تعلمت دروسا قيمة فى المناورات العملية والمخابرات. وأقمت فى نفس الوقت شبكة فى إير التى استمرت حتى اللحظة التى اتخذت فيها قرارا بالهرب عبر برنيس.

بدأت اتحقق فى تلك اللحظة أن المخابرات مكونة من آلاف المفاتيح الصغيرة، مثل قطع أحجبة الصور المقطوعة. إن وظائف المخابرات للمقاومة تتكون بصفة أساسية من تجميع المعلومات الروتينية عن العمليات الحربية الألمانية الحيوية لتعقب وكشف مواقع القوات النازية إذا ما حدث غزو الحلفاء. كان ذلك التحرى من المخابرات فى نفس الوقت لاغنى عنه لقوات المقاومة التى تقوم بمهمات تخريبية التى تجعل قوات الاحتلال غير متيقظين للحراسة بصفة مستمرة.

وكلما أمكن جعل نظام الاحتلال يفقد اتزانه زادت الموارد التى يحتاجها للعمل الدفاعى البحت وكلما قلت فاعليته فى السيطرة على الشعب الفرنسى. ولهذا سيكون من المحتمل الشك فى كل فرنسى والاقلال من تكوين صداقات وحلفاء من أبناء بلدى. وباختصار تعلمت أن المخابرات والأعمال التى تنبع من تلك المعلومات يمكن أن تلعب دورا حيويا فى كسب الحرب مثل أى هجوم مباشر.

أخيرا عندما وصلت الحادى والعشرين من العمر قررت مغادرة فرنسا واستئناف عملى العسكرى الفعلى مع الفرنسيين الأحرار أو وحدة التحالف.

كانت هناك شبكة للتجسس قد أقمتها جيدا وتعمل فى الأراضى المحتلة بكفاءة وبوسائل اتصال منتظمة مع الحلفاء فى فيشى. مستخدما نفس تلك الشبكة اتنقل من مزرعة إلى مزرعة أفلحت فى عبور برنيس إلى أسبانيا طريق شمال إفريقيا. وبالتظاهر كأمريكى حيث أنه لم يكن من الصعب ذلك لاتقانى اللغة الانجليزية، وبعد مدة قصيرة فى السجن فى أسبانيا لدخولى البلاد بطريقة غير شرعية متنكرا كمواطن أمريكى بدون أوراق، تم السماح لى بدخول جبل طارق. كان أول ما شاهدته هناك جندياً من البحرية الملكية ببزته العسكرية يقوم بحراسة حاجز عبور الحدود. كان بالنسبة لى بمثابة رمز لكل شيئ نحارب من أجله، العالم الحر برمته.

وصلت أخيرا إلى الجزائر بعد رحلة قصيرة عبد البحر الأبيض المتوسط، حيث انضممت إلى الفرقة الثانية من الفرسان الجزائريين ـ الجيش الجزائرى الوطنى الذى كان يقاتل مع الفرنسيين الأحرار فى شمال افريقيا. كانوا جنودا محترفين بنظام من حديد وبدأت أتعلم المهنة العسكرية التى خدمتنى جيدا فيما بعد.

عسكرنا فى حدود الريف فى تليمسن قاعدة أمامية بها خليط غير عادى من البتاش الفرنسى وسحر هوليوود ـ الشمس الساطعة، الالوان الزاهية، الخيول، النساء الجميلات؛ كان حقيقة أسلوبا أجنبيا ـ لكنى سرعان ما علمت أننا نخوض حربا بأى معنى كلاسيكى. ليست هناك عمليات بكل بساطة ضد القوات الألمانية التى تبعد ألف ميل تقريبا عن قاعدة الفرسان والجزائريين.

طلبت إعادتى إلى الجزائر ثانية بعد بضعة شهور تقريبا .إن الفرنسيين الجزائريين الذين نسميهم الآن الملونين كانوا جاهزين للقتال تحت قيادة الجنرال

الفرنسى جوين الذى صار أعظم قائد فرنسى فى الحرب العالمية الثانية، وكان يلى ديجول حيث كان ضابط الاتصال الأساسى مع الأمريكيين والأركان العامة للحلفاء. قام ديجول بنفسه بترقيته فيما بعد إلى رتبة المارشال. كان جوين يقوم بتجميع قوات الفرنسيين الأحرار فى شمال إفريقيا فى نفس الوقت الذى بدأ الحلفاء بإبرار قواتهم الخاصة بهم. الأستراليون والنيوزيلانديون والأفارقة من جنوب إفريقيا والكنديون ـ الذين جاءوا من كل جزء من الامبراطورية البريطانية. وكان بالطبع يوجد أمريكيون.

وإن محاولة دمج كل تلك العناصر فى قوة قتال موحدة كانت مهمة رهيبة.

بدأ الجنرال جوين ونظيره البريطانى اللواء سيرجون أندرسون الاضطلاع بقيادة هذه العملية. وبدءا فى تصوير العملية ببراعة منذ البداية ـ عندما بدأ الجيش البريطانى الأول أولا بدفع نفسه ضد روميل وأجبر المارشال الألمانى على الانسحاب المحكوم عبر صحراء شمال إفريقيا. كان جوين فى نفس الوقت يتولى قيادة الجيش التونسى الذى حارب إلى جانب قوات سيرجون البريطانية. كان جوين مقاتلا أولا وأخيرا وليس جنديا سياسيا. وكان كل قائد يكن احتراما هائلا للآخر وعلاقتهما العملية تحولت إلى ضحك وشاركا خبرات ميدان القتال. كانت صداقة كان لها تأثير كبير على اتصالى العملى مع نظرائى من الحلفاء طوال عملى. بدأت استوعب الحاجة إلى فهم واحترام عقلية وحساسيات أصدقائنا وأعدائنا كذلك، وهو شيئ نسيه حتى ديجول من وقت لآخر فى لهيب المعركة لأجل أوروبا وأثناء السلام ما بعد الحرب.

أتذكر بصفة خاصة قصة عشاء فى عيد الميلاد فى شمال إفريقيا عام ١٩٤٢

كمثال لكيفية صديقين وثيقين بدءا يفهمان كلامنهما جيدا. جوين وسيرجون كانا يتناولان طعام العشاء معاً فى مقر القيادة البريطانية قبل الاجازة ببضعة أيام.

فقال سيرجون: «عيد الميلاد أت، فدع كلامنا يعطى الآخر هدايا. ماذا تقترح؟».

وأجابه جوين: «فى هذه الظروف، أعتقد أننا يجب أن نعطى الهدايا النافعة فقط.

وافق الجنرال البريطانى قائلا «فكرة طيبة».

أرسل سيرجون ليلة عيد الميلاد هديته ـ قافلة صغيرة من المركبات. تقابلها مركبة فى الاتجاه المعاكس ـ هدية جوين إلى سيرجون. إنه أمر مسلٍ ورقيق وجليل بدرجة كبيرة، يذكر بعضهما البعض بالقدرات المتصلة بقواتهما عند تلك النقطة من الحرب.

إن إحدى صفات جوين العظيمة كانت حسن الفهم والتقدير، التى نجح فى الحفاظ عليها حتى فى أحلك أيام الحرب. ذات مرة بعد تناول العشاء مع رفاق المائدة وهم بريطانيون أرسل إلى سيرجون طعاما فرنسيا.

ظللت فى موقعى فى إفريقيا خلال الأيام الأولى من استعادة أوروبا فى عام ١٩٤٤، بينما أقامت قوات الحلفاء موقعها المتقدم فى جنوب إيطاليا وبدأت تتحرك إلى شبه الجزيرة. عندما علم أصدقاء جوين ذات مرة تاريخ عائلتى وعملى فى المقاومة الفرنسية، وشغفى بعمل اتصال مع القائد الفرنسى العظيم الذى بدأ آنذاك إلى إيطاليا لقيادة القوات الفرنسية للتقدم نحو شبه الجزيره، طلب منى هؤلاء الأصدقاء تسليم خطاب إليه فى نابلس.

قمت بالرحلة الخطيرة عبر البحر الأبيض المتوسط وقدمت نفسى لقيادة قوة حمله الحلفاء فى نابلس. فوجئت وسررت عندما أخبرونى بأن الجنرال يريد رؤيتى شخصيا. كان حدثا تماماً بالنسبة لضابط صغير يستقبله بطل فرنسى كبير، بطل الحرب العالمية الأولى. قابلته فى مقر قيادته. مقر عبارة عن مقطورة تربض شمال نابلس. كان رجلا مدهشا يرتدى البدلة العسكرية الصيفية يُحيى بذراعه الأيسر حيث أُتلف ذراعه الأيمن فى الحرب العالمية الأولى.

أمسك المكتب بأصابعه وقال: «حينئذ أتيت من الجزائر، أيها الشاب؟ وماذا يدور هناك؟».

عرفت إسمه الكودى وكان هانيبال، وكنت أفكر فى الحروب القرطاجية التى شنها هانيبال التى أثرت فى روما القديمة تجاه قرطاجه حيث أيامه الأخيرة كانت فى إيطاليا وشمال إفريقيا (خاصة الجزائر وتونس) على التوالى. كنت ابحث عن مجاز مناسب يلخص تعقيد ونموذجية المكايد الفرنسية الجارية ففى الجزائر حيث قامت قوات الاحتلال بدفع الألمان إلى الخارج وكانت تنوى إقامة حكومة فرنسية حرة خاصة بهم. كان جوين لحسن الحظ غائبا عن كل هذا، مشغولا بإعادة غزو الجنوب الأوروبى.

فبدأت: «باختصار ياسيدى، إنها حالة من حالات هانو الأكبر وشيوخ قرطاجه». هانو كان قرطاجيا ارستقراطيا مسالما معارضا تماماً لغزو هانيبال للامبراطورية الرومانية.

انفجر جوين ضاحكا، وعرفت أن تفكيرنا متشابه كثيرا جدا. اهتم بى جوين منذ هذه اللحظة، وتغيرت حياتى برمتها فجأة. كنت فى قلب المواجهة العسكرية مع قوى المحور.

وإنه بسبب اعتيادى على فنون القتال الافريقية الشمالية، وكنتيجة للوقت الذى أمضيته مع الفرسان الجزائريين وقوات الاحتلال الفرنسبة العاملة فى شمال افريقيا قام جوين بتعييني كضابط فى وحدة قوات الصاعقة المغربية فى مرتفعات أبروزى ونسيني تماما لمدة.إلاّ أنه لتطورى الشخصى ثبت أن ذلك أمر أكبر التحديات البدنية للحرب، ربما تحديات لعملى تماما. كثير من جرحانا تجمدوا حتى الموت لأن درجة الحرارة وصلت الى عشر درجات فهرنهايت وأقل من ذلك. فقدنا ثلاثة أرباع المقاتلين فى الاشتباكات التاليه. كان الضباط دائما يتقدمون الجنود الإفريقيين كقدوة للقوات. وأصبت بجرح خطير أثناء القتال ومنحنى الجنرال مارك كلارك قائد الجيش الخامس الأمريكى النجمة البرونزية. كان الاشتباك جزءاً من معركة كازينو، التى سماها الألمان ستالينجراد الغرب.

إنه فى أحرج فترات الحملة الإيطالية قابلت المرأة التى صارت زوجتى. كانت الظروف رومانسية كما كانت تراجيدية. كانت ليليان فى السابعة عشرة من عمرها. تم تدريبها كممرضة فى الصليب الأحمر، مع والديها لازالت تعيش فى المغرب، وأوكلت إلى سيدة غير عادية، كونتسية لوارث التى جمعت وقادت وحدة الجراحة رقم (١) أولى وحدات ماش الشهيرة للحروب الأخيرة.

إن مدام دى لوارث، ابنة جنرال من الفرسان الروسية، زوجة صاحب أراض كبير فى وادى سارت أقامت بمفردها ما يشبه وحدة المستشفيات الميدانية التى قادتها إلى اخطر مناطق المعارك فى الحملة الإيطالية. تعيش فى خيمة قريبة جدا من الجبهة محاطة بالوحل والدم ورجال جروحهم بالغة، اتبعت ليليان وحذت حذو مثل وصيتها ـ العمل بهدوء وبشجاعة، وغافلة تماما جمالها الخلاب. قدم جوين بنفسه إليها وسام صليب الحرب فى نهاية الحملة الايطالية.

حدث لى بسرعة ميل إلى ليليان. كانت المرأة الوحيدة التى رفضت آنذاك الخروج معى ـ مما جعلنى انجذب إليها وأصعق.

نجحت مثابرتى فى نهاية الحرب، ولحسن الحظ غيرت رأيها ووافقت على طلبى الزواج منها. وبينما النساء الأخريات تبتهج لتمضى أمسية أو نهاية الأسبوع معى. إلاّ أنها رفضت. وصرنا معا على الدوام.

ولم تترك الحملة الايطالية سوى الوقت القليل لغزو قلب ليليان . وكانت سلسة الاشتباكات بطيئة ومؤلمة ومكلفة .إن قوة الحملة الفرنسية مع أربع فرق ونصف خدمت كعنصر للعمود الاساسى للجيش الامريكى الخامس تحت قيادة اللواء مارك كلارك . كان جناحنا الأيمن الجيش الثامن بقيادة امشير لورد مونتجومرى فيما سبق الذى انتصر فى حرب الصحراء ضد روميل. إن كلا الجانبين الآن تحت قيادة مشتركة للورد الكسندر فى تونس، أفضل الجنود البريطانيين . وكان هناك أيضاً الكنديون الشجعان والبولنديون تحت قيادة الجنرال ڤيلاديسلاڤ آندرز .

لم يكن بوسعنا ملاحقة حملتنا دون المساعدة الأمريكية . تم استنزاف بريطانيا العظمى . كنا نعتمد كلنا على الولايات المتحدة فى كل شئ كان مطلوباً - الطعام، العتاد، الاسلحة، الذخائر - لنلقى بأنفسنا ضد الإيطاليين وحلفائهم الألمان على الجانب الجنوبى لأوروبا. كان علينا فى كل الاوقات أن نعطى انطباعاً جيداً للامريكان ولممثليهم. وحيث إننا معتمدون على دولة أخرى جداً كان الامر ضربة كافية لكبريائنا. كان ذلك دافعاً لنا لننزيل العار لهزيمتنا فى الحرب الخاطفة الالمانية عام ١٩٤٠ـ وكان من الضرورى لأسباب

نفسية واخلاقية ولاسباب عسكرية ودبلوماسية على المدى الطويل الهام كذلك. ولقد أرسينا بالفعل الاساسى للهيكل التحالفى المنصف فى حقبة ما بعد الحرب العالمية الثانية والتى تسبق فترة الحرب العالمية الثالثة،و الحرب العالمية الرابعة فى النهاية حيث تضطلع فرنسا واوروبا الغربية الموحدة بالعبء مشاركة مع الولايات المتحدة. إلا أنه فى خضم الحملة الايطالية عام ١٩٤٤ فإن تلك المساواة لا يزال من الواجب استحقاقها على الجبهة الدبلوماسية والعسكرية كذلك .

إن الرجل الذى اختاره الرئيس روزڤلت ليمثله فى إيطاليا والذى سينقل موقفنا بفعالية للغاية للرئيس وللشعب الامريكى ، كان واحداً من أبرز دبلوماسية الحرب العالمية الثانية - الرجل الذى يثق فيه الرئيس ثقة كاملة والذى أمضى وقتاً هائلاً فى باريس - وهو روبرت مورفى

روبرت مورفى الذى كان سكرتيرا ثالثاً فى السفارة الامريكية وهو شاب ، كان ضيفاً مستمراً فى حفلات السواريه التى كانت خالتى إيڤيل تقيمها بصفة مستمرة عندما كنت أزدا نمواً .

إنه فى أوج الحملة الإيطالية وبعد فترة هائلة بعد أول لقاء لى مع الجنرال جوين قام السفير مورفى بزيارة القائد الفرنسى . بعدما ناقشاً شئونهما لاحظ المندوب الامريكى قائلاً : " لكم أحد أصدقائى العظماء فى قوة حملتكم " .

اندهش جوين فى نمط فرنسى ." ماذا "؟ سأل الچنرال مندهشاً."هنا ؟ صديق ممثل روزڤلت الشخصى؟ من يكون هذا الشخص الهام ؟. ولإيضاح النقطة . من هو هذا الشخص الهام الذى لم يستطع جوين تذكره .

وألح مورفى ." إنه الكسندردى مارينشز " .

وحملق فيه چوين كما فعل كل من بالحجرة ، حتى ضرب پاور الچنرال جبهته " أوه ، نعم ، مارينشز ، أنت تعرفه ، يا سيدى ".

" أحضره الى هنا على الفور " . حيث رد چوين .

تم العثور على وارتديت الزى الرسمى نظيفا قبل صعودى إلى السيارة الچيب التى أسرعت إلى قلعة إيطالية قديمة بجوار البحر كانت تستخدم كمقر القيادة العامة لتقدم چوين صوب شبه الجزيرة الايطالية.

ودخلت إلى مكان الجنرال ووقفت وقفة انتباه. وأديت التحية. ولم يتحرك أى ممن فى المكان.

فجأة رأنى بوب مورفى لأول مرة منذ زياراته إلى منزل خالتى فى باريس. الآن، قفز من كرسيه وحضننى صائحا« كيف حالك يا صديقى الشاب؟ إنه من دواعى السرور الكبير أن أراك ثانية!« وأجبته بنفس الكيفية.

اندهش كل واحد تماما. وبقيت من الطبيعى حتى العشاء، ولكن كضابط صغير على المنضدة. عنفنى چوين بعد ذلك لعدم إخباره إننى أعرف الذى وثق فيه روزڤلت.

«لكن يا سيدى، أجبت قائلا:« لم تسألنى على الإطلاق».

كانت تلك الليلة نقطة تحول فى حياتى- كل نقطة هامة كمثل الخطاب الذى أحضرنى أول الأمر إلى چوين وإلى الحملة الإيطالية، وهامة كرحلتى عبر بيرنيس وإدراجى فى قائمة القوات الفرنسية الحرة فى شمال إفريقيا. كانت تلك

الأمسية الفتحة التى سمحت لى ومكنتنى من الوصول إلى الفكر. الاستراتيجى القيادى للحرب العالمية الثانية ولكل صراعات العالم التى تلت فى هذا القرن. إنها كانت بادرة فى مدرسة فريدة أساتذتها هم أولئك الذين وضعوا أولوياتنا الدولية وأرسوا قتال معاركنا.

جعلنى الجنرال چوين بعد تلك الأمسية قريبا منه. وقلما كنا نفترق. وصار بمثابة والد بأى شكل كان- رجلاً ذا شجاعة وشرف، علمنى نبالة الحرب وحيوية السلام. كان رقيق القلب ومسلياً كما كان جادا ومتبصرا، وإنه بعد سنوات عديدة فيما بعد كنت أنا الذى رسمت شارة الصليب عليه ابتهاجاً وتضرعاً وهو فى كفنه.

ظللت فى هيئة چوين الخاصة به طوال الحملة الإيطالية، حتى لما ما تبقى من الحرب حقيقه.

أثناء تلك الفترة من الحرب قابلت أولا الجنزال ديجول. غالبا ما كان ديجول يدعو چوين- كان چوين فى الحقيقة الشخص الوحيد الذى سمعته يتكلم مع القائد الكبير للشعب الفرنسى بالضمير العادى، أنت TU. وإنه بعد تحرير باريس، فى غرفة الحرب التى أقامها الحلفاء لإدارة الحرب فى أوروبا، بعيدا عن مقر تريانون فى ڤيرساى، تعرفت حقيقة على ديجول. كان چون وأنا من بين أول موجة من القوات الفرنسية التى وصلت إلى العاصمة للتحرير. كانت وجهتنا فندق كونتيننتال الذى كان أثناء الاحتلال مصادر للأغراض العسكرية وذلك لخدمة مقر القيادة النازية فى فرنسا. وأعددنا أنفسنا عندما قيل لنا إننا علينا الاستعداد لوصول الجنرال چورچ مارشال- بعد روزڤلت الذى كان أهم فرد

مسئول عن إنزال الهزيمة بآلية الحرب النارية. كان مارشال وليس أيزنهاور الوحيد الذى قاد حقيقة عمليات الحلفاء. إلا إن مارشال كان لاغنى عنه جدا بالنسبة لروزفلت، فإن الرئيس لم يدعه يرحل ويذهب إلى أوروبا ليضطلع بالقيادة شخصيا. لذا كون مارشال هيئة عليا للقيادة بما فى ذلك ايزنهاور الذى كان ملتزما بالنظام ومطيعا للأوامر إلا أنه لم يدخل حربا. إن كل ما يحتاجه مارشال حقيقة كان منسقا غير محتمل أن يتحدى استراتيجية مارشال الأساسية. وشغل أيك IKE الدور بإتقان دورا مقعدا بكل تأكيد، لا يؤدى المزيد منه، ولا دوراً أكثر مما تم تعيينه له.

عرفنا كلنا أن السلطة الحقيقية قابعة مع مارشال. وكان على وشك آنذاك أن يصل إلى باريس وفكر شخص فى آخر لحظة أن يستفسر إذا كان بوسعه أن يتكلم الفرنسية من عدمه.

وجاء الرد: « لا يتكلم الفرنسية جيدا جداً. سوف تحتاجون إلى مترجم.

لم يكن لدينا مترجم رسمى فى تلك الأيام بالطبع، وقمنا بذلك. وكانت هذه فرصة هامة جدا حيث كنا نحتاج إلى أحد ليبدأ العمل.

قام والدى منذ ثلاثين عاما فى قيادة الحرب العالمية الأولى للجنرال چورچ بيرشنج بتدريب ضباط شبان أمريكيين- مارشال وچورچ پاتون وعمر برادلى ودوجلاس مكارثر. وأصبحوا أصدقاء العائلة.

وتطوعت قائلا: « أعرف الجنرال مارشال، وستسرنى المساعدة. »

وأجاب چوين للمرة الثانية فى علاقتنا. « ربما قلت ذلك من قبل! »

«لم تسألنى يا سيدى» حيث رددت .

سمعنا على التو سارينات ركب المارشال ودخل جناح الفندق الذى كان بمثابة مكاتب جوين.

ونظر إلىّ مباشرة.

صاح قائلا: « الكسندر! »والتفت إلى چوين وشرح كيف أنه وبيرشنج يعرفاننى عندما كنت صغيرا.

وبدأت ترجمة محادثتهم. وقال مارشال فى النهاية: «هناك مهمة اتصال فرنسية تتبع القيادة العليا، قوات الحملة للحلفاء- ألم تكن فكرة جيدة لو كان لك ضابط اتصال شخصى مع الجنرال نهاورأيز، لذا يمكنك التعامل معه مباشرة ؟ »

قال چوين: «سوفف نجد أحد الجنرالات. ولدهشة چوين ولدهشتى أيضا أجاب مارشال: حسن، لما لانستخدم الكسندر هنا ؟ إن له فهماً فريداً للشئون الدولية. إنه ابن صديقى العظيم، وهو الشخص الذى اعتقد بحق أنه يمكننا الوثوق فيه تمام الثقة».

هز جوين كتفيه. ووجد بوضوع ذلك صعبا أن لم يكن مستحيلا لقبول أى أحد أقل من جنرال ليقوم بعمل حساس. تسلسل الطبقات، الرتبة، حتى المولد لايزال يقول عليهم أكثر من التعويل على الجدارة فى المجتمع الفرنسى.

إلا أن أكبر جنرال للحلفاء اتخذ قرارا فورا. واستمر فى القول: بتركى هنا سأتوجه مباشرة إلى أيزنهاور فى ڤيرساى. سآخذ الكسندر معى وأقدمه إلى

أيـك LKE . كانت تلك هى المرة الاولى أسمع فيها إسم لقب أيزنهاور. لم تكن هذه المرة هى الأخيرة بكل تأكيد- غادرنا فندق كونتيننتال على الفور فى سيارة هيئة الجنرال متوجهين إلى فندق قصر تريانون فى ڤيرساى. قررأيزنها ورإقامة مقر القيادة بعيدا عن باريس إلى حدما ليضمن المسافة بين إثارة العاصمة الفرنسية بأى منظور.

كان يحرر أوروبا قبل كل شىء، وليس فرنسا وحدها. ويقع الفندق نفسه فى حديقة كبيرة ليست بعيدة عن قصر ڤيرساى، القصر الصيفى للملوك الفرنسيين. وإن صالة الاستقبال الكبيرة تحولت إلى غرفة حرب أيزنهاور.

وهنا اجتمع أيزنهاور وتشرتشل وپاتون وبرادلى وچوين والمشير مونتجومرى وكل قادة الحلفاء كشركاء فى مظلة القيادة وعرفت بالقيادات العليا لقوات الحلفاء SHAEF لتخطيط التكتيكات والاستراتيجيات للحرب ضد ألمانيا النارية.

هناك مذكرة (تذييل) تهكمية بخصوص الحجرة. بعد مرور حقب زمنية عقب سقوط شاه إيران وموته بعد زمن قصير من السرطان، ابنه الذى حاول أن يرتدى عباءته حضر أيضا إلى قصر تريانون إلى نفس الحجرة التى استخدمها أيزنهاور ذات مرة لتحرير أوروبا. واصطف أفراد حاشيته على الجانبين وجلس على منصة مرتفعه قليلا خلف مكتب فى أحد الأطراف مستقبلا ضيوفه الذين مروا بين صفوف اتباعه.

هذا العرش البديل الذى صنع فى الحجرة كان تناقضا حزينا لغرفة الحرب المنتصرة ور لأيزنها وديجول وتشرشل. حجرة الحرب ذاتها لم تكن بعيدة عن

مكتب القائد الأعلى للحلفاء . كانت توجد فتحة واحدة فى الغرفة- الباب.

كل الفتحات الاخرى تمت كسوتها بألواح بعناية لكى تكون من أضمن قيادات العالم أمنا. كان يوجد على جدار واحد خرائط ضخمة للعمليات فى أوروبا والباسيفيك، وعلى جدار آخر لوحات عمليات القوات الجوية بما فى ذلك الأهداف الخاصة بالغارات الجوية التالية، كما كانت هناك لوحة أخرى توضح مواقع القوافل الأطلنطية الكبيرة كلها وتواريخ رحيلها ووصولها وما كانت تحمل. وإذا ما تسنى لأحد أن يصور الحجرة لكان له كل أعمال سير الحرب برمتها.

كان الأمن مشددا وصارما للغاية. كان بها اثنان من الميكرفونات. ويتولى حراستهما ضابطان لعدة ساعات، ثم يتم وضعهما فى حجز البوليس الحربى لمدة أيام حتى لا يتسنى إمكانية التسريب. كنت الفرنسى الوحيد خلافا لديجول وچوين بجواز مرور مستديم. لازال جواز المرور معى- بطاقة صغيرة الحجم خضراء اللون عليها صورتى فى زاوية منها . أتذكر جيداً مناسبة عندما كان الچنرال ريدمان يمثل القوات المسلحة البريطانية وتم منعه من متابعة رؤساء الحلفاء الى داخل غرفة الحرب وكان عليه أن يجوس الطرقات فى الخارج بينما أنا الملازم أول المسكين أسير بجوار كبار الجنرالات.

عندما وصلت والمارشال إلى هناك فى أول صباح كان أيزنهاور واقفا على الأرض الخضراء لمدة نصف ساعة بانتظار وصول المارشال. وقف انتباها. وذهبنا إلى مكتب أيك **IKE** مباشرة حيث توقفت على المدخل. التفت المارشال ونادى عليّ.

وبدأ يقدمني قائلا: آيك، هذا هو الكسندر، وهو ياور جوين، صديقنا جوين، جندى عظيم. ويعمل كضابط اتصال بينك وبين جوين. وأريدك أن تكون لديك ثقة فى الكسندر الذى كان الجنرال بيرشنج فى محل والده».

ابتسم أيك. هذا ما فى الأمر.

كانت وظيفتى الأساسية قد تتم فى الاجتماعات على أعلى مستوى فى تريانون أترجم. للجنزال ديجول أفكاره من الفرنسية إلى الانجليزية لباقى الحلفاء من القادة الذين يديرون شئونهم بلا انجليزية، وبترجم أفكارهم خاصة أفكار أيزنهاور من الإنجليزية إلى الفرنسية. كان يتكلم كل واحد فى نفس الوقت تقريبا، لذا كان من المستحيل ترجمة كلمة. وإنه من المربك أيضا أنهم غالبا لا يتكلمون مباشرة إلى الشخص الذى يوجهون إليه الحديث. غالبا ما كنت أجد نفسى الخص ما قيل منتقياً أهم النقاط للغاية.

وقال لى ديجول:« مارينشز اشرح للجنزال موقفى وهو ما أريده..

كان العمل صعبا ودقيقا. رغم أننى نادرا ما أدرك ذلك وقتذاك، إلا أنه تحول إلى أفضل تدريب لحرفتى على أعلى مستوى من المخابرات- مجال يجب فى كل الأوقات أن يربط الاحساس بفروق سياسيات العالم مع الانتباه إلى أفضل بيانات سلوك الإنسان. تصببت عرقا باردا فى أوقات مفكرا فى المسئولية الجسيمة على عاتقى. إن منهج الحرب، ومصير آلاف المقاتلين كان يتم بتقريرهما.

كنت أحيانا أسألهم أن يكرروا الجملة. ولم يتسن لى المخاطرة بسوء الفهم. كان الأمر جد خطير.

إن أصعب ما يتم إبلاغه كان سخط أيزنهاور من ديجول الذى لم يشرح فى الحقيقة من هذه المقابلات أبدا. كان ديجول دائما أكثر خشونة وتكبرا تجاه الآخرين. إن ما فهمته وخشيت من ألا يفهمه الأمريكيون كان ببساطة هو سلوكه.

غالبا ما كان يخبرنى بصفة خاصة قائلا: « إذا كان الواحد ضئيلا وضعيفا لابد وأن يكون أكثر شدة عن أي وقت مضى ». كانت تلك هى طريقته فى الحفاظ على الإحساس بالكرامة وكرامة بلده الذى هزمه الألمان فى بداية الحرب. كان الآخرون فى نظره« الانجلوساكسون ». ولايزالوا كلهم أصدقاء ودائما ما ينادى كل منهم الآخر باسمه.

الكل ذلك ما عدا تشرشل. كان كل واحد يناديه بيا "سيدى". ولو أن تشرشل كان طبيعياً أكثر من أى من القادة. كان فى الزى برتبة عقيد طبيعيا ماعدا حذاءه فقد شذ عن التعليمات. فلم يكن يطيق أربطة الحذاء واستبدالها بوستة. أول مرة أرى فيها تشرشل كانت عندما دخلت مكتب أيك ووجدت خرائط منشورة على الارضية. وقفت ساكناً وباحترام فى جانب الحجرة. سرعان ما نهض تشرشل من كرسيه وسقط على ركبتيه ليفحص الخرائط عن قرب وبدأ يزحف على السجادة على رجليه ويديه ودخان سيجاره المعتاد يهب على وجهه. وأخيراً عاد وسلمنى السيجار لاهتمامه المتزايد بالمشروع، وقد امسكت بالسيجار بالاحترام الذى يستحقه. لم يكن يدخن السيجار حتى الطرف(النهاية) وإنما كان يشعله ويأخذ عده مرات منه فقط. لاشك انه استمتع بذلك لكنه عرف أن ذلك الامر أصبح جزءاً مكملاً لشخصيته العامة .

بعد اجتماع حجرة الحرب عدت الى باريس وقدمت تقريراً الى چوين بكل ما سمعته وحيث انه ما من مذكرات تغادر الغرفة شديدة التأمين كان يتوجب عليّ حفظ الحوار عن ظهر قلب. ساعد هذا التمرين فى تحسين ذكراتى - وثبت النظام الذى لا يقدر بقيمة لأجل مهنتى فيما بعد رغم أن ضباط المخابرات المحترفين يسمون الذاكرة " ذكاء الأحمق "، حيث إنها غالباً تخدعك. أخذنى چوين معه بعدما سمع تقريرى وسعى الى ديجول لتفسير ما قد تم تقريره، طبيعة المناقشات، وأسئله " لماذا ولذلك ".

ولما كان ديجول لا يملك الصبر لمثل تلك التفاصيل أنهى مقابلة چوين ببساطة قائلاً: "حسن، مارينشز سوف يخبرك بكل ذلك ".

أثناء تلك المناقشات، كانت هناك صداقات خطيرة فيما بين الشخصيات الضخمة الأنا الضخمة حول مائدة المؤتمر فى قصر تريانون. كان وقتاً عصيباً وقل نومى قلقاً بشأن ما سمعته فى تلك الحجرة. تذكرت ذات مرة أن البريطانيين رفضوا إطاعة القائد الاعلى. أرادوا الانسحاب الى انتورب Antwerp لحماية المصالح البريطانية عندما قام المشير چيرو ڤون روندستين بهجومه الكبير والاخير خلال شتاء عام ١٩٤٤ فى معركة بالج Bulge * انتورب، فى بلچيكا، كانت مرفأ . كان البريطانيون من خلاله يعيدون إمداد معظم قواتهم فى القارة - والكثير من قوات الحلفاء الاخرى كذلك. لكن إيزنهاور رأى أن هناك حاجة للتركيز على كل قوة ممكنة لأجل معركة بالج، لمنع الاختراق الالمانى الكبير بواسطة ڤون راندستين الذى ربما يعود عند تلك النقطة أو يحدث تغيير على الاقل لسير الحرب المباشر. بفوز أيزنهاور وقفت قوات

الحلفـاء ضد الالمـان الـذين لم يكونـوا قادرين ثانية أبدأعلى تجميع هجوم مضاد كبير.

كان الجنرال بيدل سميث پاور أيزنـهاور الاساسى هو قلب وروح عملية أيزنهاور تماماً وبينما كان استراتيچياً عسكرياً كان عمله الاساسى تحت قيادة أيزنـهاور وهو جعل الامريكيين والبريطانيين يعملون معاً خاصة المشير مونتجومرى الذى لم يكن يريد سوى التأكد من أن الساحل البريطانى تتم حمايته من أى هجمات نارية . وإن بيدل سميث الذى أمضى الكثير من وقته يتصل تليفونياً بكل واحد ويحافظ على السلام فيما بين الحلفاء وصل حقيقة الى بغض مونتجومرى وعجرفته مع أننى كان لدى إحساس قوى بأنه عليه أن يكون رابط الجأش بالنسبة لديجول كذلك.

كان أيزنهاور يرى الفرنسيين على أنهم غرباء همجيون، و كان دائماً قليل الشك فى اللاتينيين بصفة عامة .

كان الامريكيون الموثوق فيهم جداً بالنسبة له مع قليل من البريطانيين المنضمين لأجل إجراء جيد. لم يثق فى الفرنسيين أبداً. إلاّ أن مشكلة أيزنهاور الاساسية كانت أنه يفضل تأمين الوضع الراهن. وإنه ككاتب أساسى للمارشال يحد عن الاتجاه الاستراتيچى منذ إقامته .

واكتشفت أن جذور الصدامات فى غرفة الحرب- بين الفرنسيين من ناحية والامريكيين والبريطانيين من ناحية أخرى- ترجع الى مدة طويلة قبل تحرير باريس. يبدو أن ديجول لم يغفر أبداً الخيانة- غزو المغرب والجزائر توسيع فى نوفمبر ١٩٤٢ ، وعندما شعر الحلفاء أن المصادر يجب أن تتركز على إعادة

وتحرير فرنسا، وإنه فى كل خطوة على الطريق، فإن الخلاف بشأن الأولويات أدى الى نزاع ومرارة. وإنه فى عام ١٩٤٢ عندما أراد الحلفاء وضع الجنرال هنرى جيرود فى قيادة القوات الإفريقيه الشمالية، على سبيل المثال، استنفد بوب مورفى التكتيك الدبلوماسى لإقناع ديجول وجيرود بالمصافحة بالأيدى لأجل المصورين. كان ديجول يفضل أن يراه فى مقدمة القوات التى تقوم بالإبرار فى مارسيليا.

إنه عبر الفترة عندما استعاد الحلفاء فرنسا كان يوجد احتكاك مستمر بين خطط ديجول وخطط ايزنهاور. وإضافة إلى عملى كضابط اتصال بقيادة الحلفاء العليا تورطت بعمق فى شغل جوين كرئيس قوات دفاع فرنسا. كانت محاولتنا الفرنسية يهيمن عليها جوين ونفذها الجنرال جان مارى دى لاتر دى تاسينى الذى حرر فرنسا من سانت تروبيز إلى الزاك قبل التحرك إلى ألمانيا وتمت الموافقة فى النهاية بصورة رسمية بالنسبة لفرنسا على قبول استسلام الجيوش الألمانية فى برلين؟ وإن جنرال فيليب لكليرك الذى ساعد فى قيادة القوات الفرنسية فى الابرار فى نورماندى ولعب دورا رئيسيا فى تحرير باريس. وكان الجنرال وولتر بيرل سميث المساعد الأساسى وكاتم أسرار ايزنهاور قد قام بتنفيذ الاستراتيجية الأمريكية. لعب البريطانيون لعبتهم - حيث لعبوا مباراة مع الفرنسيين والأمريكيين فى محاولة لانزال قواتهم حسبما يرونه مناسبا.

كانت هناك دائما فرص للملاكمة الوهمية حيث ان القوات الفرنسية تحركت خارج باريس وفى الجنوب لاسترجاع قلب فرنسا. كان الألمان جزءا فقط من مشكلتنا. إن الفرنسيين الشيوعيين المتعاطفين كانوا يشكلون لنا القلق بالفعل

فى كل مناسبة. إن قطعا كبيرة من الأرض جنوب اللوار وغرب الرون قد أفلتت من سيطرة دولة فرنسا الحرة المولودة حديثا. كان ديجول يخشى من حركة المقاومة الشيوعية من أن تخلق فى هذه المنطقة الأساسية من قلب فرنسا عصيانا مسلحا وتقيم حكومة مستقله لتتحدى زعامته التى تتمركز فى باريس. إن الحكومة الديجولية أرسلت نصف دسته مسئولين إلى ليموج وتم القبض عليهم الواحد تلو الآخر وأودعوا السجن عن طريق «السوفييت» المحليين.

كان هناك لعب داخلى معقد للأساسيات السياسة والاحتياجات العسكرية وإلى العواطف الإنسانية التى يتم الاحتياج إليها باستمرار وذلك لاختبارها والقيام بحلها. إن المهارات فى ذلك الشأن التى تعلمناها أثناء تلك الفترة الصعبة أثبتت ضروريتها فى تقييم التداخل المعقد للقوات اليائسة وهى قوات دين وسياسات، واستخدام الأسلحة التى نستخدمها الآن فى المراحل المفتوحة فى الحرب العالمية الرابعة.

أما فى حالة ديجول وأيزنهاور فقد فشل كل منهما فى تسوية الخلاف والتفاهم إزاء احتياجات ورغبات كل منهما. سأل ديجول أيزنهاور هل يستخدم فرقة أو فرقتين فرنسيتين للمساعدة فى إعادة النظام فى فرنسا وللتأكيد على سيادته على حركة المقاومة الشيوعية الفرنسية وقواتها التى يسيطر عليها الحزب الشيوعى الفرنسى. لكن أيزنهاور لم يكن يريد أى دور من أى نوع من أنواع المشاكل السياسية الداخلية فى الأراضى التى يقوم الحلفاء باسترجاعها. كانت سياسة عاقلة بدرجة كبيرة بالنسبة للأولوية قصيرة المدى فى هزيمة الألمان،

لكن الواحد تجاهل حقائق ما بعد الحرب تماما التى بدأت فى الظهور بالفعل.

وأجاب أيزنهاور على توسلات ديجول بأن قال: «مستحيل!»، «تلك القوات هى تحت أوامرى وأنوى الاحتفاظ بها. لدى عدد واحد فقط ـ الفوهرر. إن ذلك قتال حتى الموت مع الفوهر ولا أستطيع أن أحول انتباهى عن مهمتنا الأولى».

كان الأمر غير مجد كالجدال معه، والحقيقة أن ايزنهاور لم تكن له صورة واحدة للظلال السياسية للحرب التى يخوضها فى أى جزء من أوروبا. وأثناء معركة أردين، فى اليوم الأول كان هناك ضباب رهيب مما سمح للألمان بالاختباء، لذا لم نعرف إذا كانوا دون ذخيرة من عدمه. يبدو أننا كنا أكثر عددا وعلى وشك السيطرة. قرر أيزنهاور التحريك المحفوف بالمخاطر حقا ـ إخراج كل قوات الحلفاء من الزاك لمساعدة قوات الحلفاء فى أردين. كتب ديجول آنذاك خطابا إلى أيزنهاور الذى حملته بأمر نهائى، حيث وجهه لى ديجول قائلا: «لابد أن تقول لأيزنهاور إذا فعلت هذا، إذا حركت قوات الحلفاء من الزاك فسوف تشين قضية الحلفاء». وعندما فرغ أيزنهاور من قراءة الخطاب، أخبرته بهذا .

أنفجر قائلا : «كيف تجرؤ على أن تكلمنى بتلك الطريقة؟» شرحت بعض تاريخ المنطقة. كانت الزاك جزءاً الايتجزأ من المانيا، قلت ذلك، إقليم كالألمان فى طريقة معيشتهم كالساكسونيين. فإذا تم اخلاؤها فإن الألمانيين سوف يذبحون السكان كمتعاونين أو أسوأ من ذلك. لم يفهم أيزنهاور ذلك لأن الالزاكيين أمامهم أسابيع قبل أن ترحب بالحلفاء كأبطال عائدين، ولسوف يكون

موقعهم فى خطر مميت بإجلاء جيوش الحلفاء. والأهم من ذلك، سيكون ذلك انتصارا دعائيا وماديا كبيرا بالنسبة للرايخ، مما يعكس الكثير من التقدم الذى تم احرازه فى الشهور السابقة، وذلك إلى الاتجاه المعاكس. لم أكن متأكدا من أن ايزنهاور كان مقتنعا. كان محاربا حقيقة وليس سياسيا.

أعتقد حقيقة أن الزاك تم إنقاذها عندما تحولت مصائر الحلفاء فى أردين فجأة.

كان الأمر متروكا لديجول ليفوض افتقاد أيزنهاور للحنكة السياسية. إن البراعة السياسية التى يضطلع بها ديجول لمدة طويلة يقوض افتقاره إلى القوة النيرانية. أما بالنسبة لانصار المقاومة الموالية للسوفييت التى تسيطر على الوسط الجنوبى لفرنسا، قرر ديجول التعامل مباشرة مع موريس طوريز. كان طوريز الزعيم الشيوعى الفرنسى الذى هجر الجيش الفرنسى بناء على أوامر الشيوعية العالمية وهرب إلى موسكو عام ١٩٣٩ فى الوقت الذى كان يعمل هتلر وستالين يدا بيد. وبعد عامين فى يونيو ١٩٤١ عاد هتلر فجأة وقام بغزو روسيا ودفع بستالين إلى أسلحة الحلفاء إلا أن طوريز بقيت فى الاتحاد السوفيتى.

طار ديجول فى ديسمبر ١٩٤١ إلى موسكو مصطحبا معه الجنرال جوين لاجراء سلسلة لقاءات مع ستالين. لسوء الحظ مرضت وكنت غير قادر على مرافقتهم إلاّ أن جوين أعطانى تقريرا كاملا عند عودته إلى باريس. كان انطباعه الأول عن ستالين أنه يبدو رجلا بتركيز قليل. أثناء المحادثات ظل يعبث بورقة دون أن يرفع بصره بينما كان ديجول يصف نيته بإعطاء طوريز تأشيرة وعفواً عاماً ويسمح للزعيم الشيوعى الفرنسى بالعودة إلى فرنسا.

قام ستالين بإعادة بعض أتباعه المنفيين أو المسجونين من الخارج اعتقادا بأن التأثيرات الأجنبية أفسدتهم أو غير صالحين، وغالبا ما بعث بهم إلى معسكرات الاعتقال ـ أو إلى ما أسوأ منه،. ابتهج ستالين أن طوريز ذلك الرمز للشيوعية الفرنسية التى أسسها ستالين سيتم السماح له بالعودة إلى باريس والتفت ستالين إلى مترجمه ذي المظهر المرعب وقال : « اسأل الجنرال متى سيعدمه».

عاد طوريز فعلا إلى (باريس) فرنسا، واحضره فى النهاية ديجول فى أول حكومة له فى عام ١٩٤٥ كوزير دولة مسئول عن الخدمة المدنية. كانت تلك إشارة ذكية لها نتيجة دقيقة تبصر بها ديجول ـ كانت نهاية غير دموية لما قد تكون حربا مدنية غير سارة.

عاد ديجول وجوين إلى باريس من روسيا. وتعددت المشاكل بالنسبة للحلفاء والفرنسيين. كان الجيش الالمانى فى نزعه الأخير. وحيث بدأ الحلفاء الزحف نحو وسط أوروبا، بدأوا اكتشاف رعب معسكرات الاعتقال. وإن المفاوضات الصعبة حول مستقبل برلين المنقسمة جارية حيث كان الروس تسابقوا ليكونوا أول من يحتل العاصمة الألمانية.

إن كثيرا من القرارات التكتيكية الكبيرة فى الأيام الأخيرة من الحرب تم اتخاذها فى الحال وتحت ظروف غريبة. كان هناك توقيت، على سبيل المثال، للانقضاض عبر الراين. كنا نتناول طعام العشاء فى قصر نامور فى بلجيكا فى اليوم السابق لعبور الحلفاء للراين فى الثانى والعشرين من مارس ١٩٤٥. وحضر العشاء الجنرال برادلى الذى قاد مجموعة الجيش فى الشمال بما فى ذلك القوات الأمريكية والجيش البريطانى تحت قيادة المشير مونتجومرى. كان باتون

هناك كذلك وكان هناك التناقض بين برادلى الهادئ المتواضع وباتون الحاذق المتوهج. أمضى باتون الكثير من وقت العشاء يروى قصص الحرب وكنت مجبرا على الترجمة بصفة مستمرة.

وقال لى: «ياألكس، أخبر الجنرال.... »

«صباح أمس أحضروا إلى مقر قيادتى جنرالا ألمانيا كسجين. وكان نازيا. دخل إلى مكتبى ضاربا الأرض بكعبيه صائحا «هايل هتلر». ولذا لكمته فى أنفه. فوقع على الأرض. والتفت إلى مساعدى وقلت «خذ ذلك الرجل بعيدا. وأخذوه إلى معسكر سجناء الحرب. وأحضروا لى جنرالا آخرا بعد الغداء.، لكن هذا الجنرال مختلف تماماً. واستطعت أن أرى أنه كان من الفرسان. كان رجلا كيسا. مثلى. ودعوته إلى طعام الغداء، وبعد ذلك أعطيته سيارتى الكاديلاك. لآخذه إلى معسكر سجناء الحرب. وانفجر ضاحكا.

إنه نحو نهاية العشاء بدأ شرب النخب. وقف باتون والتفت إلى جوين وإلىّ ورفع كأسه.

وقال إلى جوين: « بإذنك ياجنرال . . أود أن أشرب نخب ذكرى والد الكسندر».

وأجاب جوين: «إنه هو الذى علمك الحرب».

وقال باتون: «نعم».

غمز جوين قائلا: «والحب»

فصاح باتون قائلا: أو، لا. أعرفه بالفعل!»

جلس باتون، وانتقل جوين إلى توقيت عبور الراين. «هل ستدعهم يطاردون

الطيور دون اعتبار لك؟« هذا ما قاله جوين.

انتفض باتون من كرسيه، وصاح: « يالهى، لا ! » واندفع إلى الهاتف وأمر الجيش الثالث بالهجوم فورا.

وعودة إلى فرنسا، حان الوقت لإقامة نظام جديد. لم يكن هناك الكثير من أعضاء المقاومة الحقيقيين. وفى نهاية الحرب مات معظمهم أو تم ترحيلهم. وكان لشقيق أحد زملائى الضباط مصنع صغير لطبع الأقمشة. وأنه بعد ستة شهور بعد تحرير جنوب غرب فرنسا تسلم أمرا بستين ألف ربطة ذراع عمل حروف من شارة الشرف للقوات الفرنسية الداخلية، أكثر أبطال المقاومة الفرنسية. صارت الشارة الآن شارة شرف سواء تم الحصول عليها أو غير ذلك .

لكن هناك جانبا مظلما لتلك الفترة عقب التحرير ـ فترة البلاغات والاعتقالات. علمت فى غضون شهور قليلة الكثير عن أبناء بلدى أكثر مما كنت أريد معرفته. الحقيقة المؤسفة (المحزنة) هى أن الغيرة هى رذيلتنا الوطنية (القومية)، حيث انها ازدهرت فى هذه الفترة تماماً. وإنه فى أظلم (أحلك) اللحظات فى هذه الفترة من الاحتلال كان يوجد من المؤكد متعاونون وهذه حقيقة الحياة. كانت عمتى، كونتيسة جاناى ضحية «المتعاونين» نظمت شبكة تهريب من المعسكرات الألمانية إلى أسبانيا والحرية. اتهمها الفرنسيون وقبضوا عليها وقام بتعذيبها الجستابو الفرنسى الشرير قبل القيام بنقلها الى ريفينسبروك حيث لقيت حتفها بشجاعة. إن أولئك الذين باعوا هذه المرأة الشجاعة وآخرين لاحصر لهم ربما يستحقون مثل ذلك المصير فى نهاية الحرب، إلا أن هناك أيضا أولئك الذين اشتهوا زوجة جارهم أو أخذوا إطارات دراجة غيرهم. الآن حان الوقت ليتم الثأر منهم على نطاق واسع وتراجيدى ـ سواء كان

حقيقياً أو خياليا.

كنت أحد أولئك الذين اعتقدوا عام ١٩٤٤ بأنه من الأهمية الكبرى تحقيق المصالحة الوطنية أكثر من البحث في الماضي - التي نحتاجها لإنهاء خصوماتنا ونلقي بالحرب خلفنا بكل عواطفنا المميزة لكي نعد أنفسنا لتجارب الحرب التالية، الحرب العالمية الثالثة، ونتقدم إلى الأمام.

إن فشل الفرنسيين الكبير هو افتقاد الوحدة فيما بين قبائل الجول. إلا إنه في أواخر ١٩٤٤ أستطيع أن أقترح بعض خطوات قد تسهل من عودتنا إلى الوحدة في حياتنا الوطنية.

إن أحد الاقتراحات التي قدمتها إلى جاستون بالفسكي رئيس وزراء ديجول وهو متميز وهو المارشال فيليب بيتان، الرجل الذي سلم فرنسا للألمان ثم رأس الحكومة الدمية في فيشي، يروح ضحية حادث. ذلك الحادث من الممكن بسهولة أن يكون قد دبرها بعض قوات أمتنا، وقد وفرت عليه وعلى فرنسا المزيد من الإذلال والنزاع - وتدليل الجرح بالملح الذي يكاد يندمل حتى اليوم. لقد قمنا بتبرير الكثير من حوادث مماثلة في الشهور التالية لنهاية الحرب. لذا وضعت الفكرة أمام بالفسكي.

وأجاب قائلا: «لقد فات الأوان بالفعل.» لقد قرر ديجول محاكمة علنية التي لم ينبت بيتان بكلمة خلالها، حيث أدين وحكم عليه بالإعدام ثم تم تخفيف الحكم إلى السجن مدى الحياه - حيث مات في السجن بعد ستة أعوام.

بدأت فرنسا بعد ذلك لتضع الحرب وأهوالها خلف ظهرها. مثلي.إلا إن سياسات الحرب قد بدأت بالفعل لإرساء الأساس لسياسات السلام.

الفصل الثالث

مهمة مستحيلة

كان لكل من الحلفاء أولوياته الخاصة به فى نهاية الحرب العالمية الثانية. فالفرنسيون احتاجوا إلى المجد والشخصية المسيطرة للجنرال ديجول لأجل محو عارهم. البريطانيون عام ١٩٤٥ تم استنفادهم. والأمريكيون الذين لم يكونوا عسكريين تقليديين، على الأقل فى أي مفهوم أوروبى، كانت لديهم فكرة واحدة فقط فى ١٩٤٥ ـ تسريح الجيش فى أسرع وقت ممكن. «إعادة الأولاد إلى الوطن!» صار مطلب الأمة الأمريكية والهدف الأول لأيزنهاور الذى قاد الأمة كرئيس فى النهاية. مامن أحد بين الحلفاء، بعيدا عن بعض المفكرين المعزولين ومنظورهم الاستراتيجى، يعير بداية الحرب العالمية الثالثة انتباها ولو كان أدنى انتباه.

ذلك الجو من التقهقر إلى الانعزالية كان أوضح سمة فى الصورة الطبيعية الأمريكية التى اكتشفتها عندما وصلت إلى أمريكا فى مايو عام ١٩٤٥. كنت مصاحبا للجنرال جوين إلى البنتاجون للعمل مع الجنرال جورج سى. مارشال بشأن الميثاق المستقبلى للأمم المتحدة. قابلت هناك أيضا ثلاثة أشخاص مهمين آخرين ـ الرئيس ترومان، الأدميرال ليهى، ووالدتى.

لم تكن تلك هى رحلتى الأولى إلى الجانب الآخر من الأطلنطى ـ حيث كانت الأولى عندما كنت فى الخامسة من عمرى فى صيف ١٩٢٥. وإن ذكرياتى من تلك الأيام الأولى قد لونت كل ردود أفعالى تجاه أمريكا والأمريكيين لبقية حياتى. كانت الوسيلة الوحيدة للوصول إلى هنا. كانت ـ السفينة فى الأيام

الأولى. لذا كانت صورتى الأولى عن الولايات المتحدة من ميناء نيويورك عربات تحمل الأمتعة من السفن. كانت البغال تجرها حيث إننى أرى الحمير والخيل ولم أر بغلاً من قبل على الإطلاق. إن تلك الحيوانات التى تبدو كبيرة مثل الخيول لكن أذنيها طويلة مثل أذن الحمير قد بدت لى غريبة جدا. والذكرى الثانية كانت استئصال اللوزتين لى، حيث تم ذلك فى نيويورك. وجدت ذلك الأمر رائعها بعد فقد اللوزتين حيث كان يجب على الواحد تناول كمية من الآيس كريم. إن الآيس كريم الأمريكى هو الأحسن فى العالم، وأصبحت بسرعة مدمنا له. كانت ذاكرتى النهائية هى إقامتى فى واشنطن مع الأصدقاء الذين كان لهم منزل فخم بحديقة فى المدينة. والحدائقى (الجناينى) الذى كان يعتنى أيضا بوضع الفحم فى الفرن كان ملونا (أسود اللون) من الجنوب. كنت أجلس على ركبتيه ويروى لى القصص عن الجنوب القديم بينما يشعل البايب. كانت بعض القصص تبدأ بـ «عندما كنت عبدا». كان رجلا مسنا رائعا. حركتنى ذكرياته للغاية.

لم أر والدتى منذ صيف ١٩٤٠ عندما هربت إلى فرنسا أمام القوى الألمانية الزاحفة. وأمضت الحرب فى الولايات المتحدة آمنة من كل الأهوال التى حلت بوطنها. كان العبء كبيرا على كاهلى خلال تلك السنين كلها إلا أنه أزيح عنى عندما عرفت أن والدتى بعيدة عن الضرر (الأذى) على الأقل. كانت تقيم فى مكان رائع فى واشنطن يسمى فيرفاكس فندق إيواء حيث تنزل فى شقة تصاحبها وصيفتها هنرييت ـ انت منخرطة فى عمل الإغاثة بطريقة كبيرة جدا أثناء الحرب بإرسالها طرود إلى الجنود ـ كانت تجربة مثيرة تماما لأن أرى والدتى مرة ثانية بعد كل تلك السنوات.

لقد رحلت عندما كنت فى الحقيقة شابا، وحتى عندما كنت صبيا، وعندما شاهدتها ثانية كنت ضابطا مخلفا الحرب برمتها خلفى وكنت ياورا للجنرال جوين الذى صار ماريشال فرنسا.

كانت رحلتى الجوية طويلة وصعبة ـ من فرنسا إلى اسكتلندا ثم إلى أيسلنده، فالى نيوفونلاند وأخيرا إلى نيويورك فواشنطن. ففى نيوفونلاند هبت علينا عاصفة ثلجية وامضيت حوالى أربعة أيام فى ثكنات القوات الجوية الملكية الكندية بانتظار هدوء (سكون) العاصفة.

لقد تعاملت مع كثير من الأمريكيين أثناء سنوات الحرب وفى فترة ما بعد الحرب مباشرة. إلا أنه القليل فى الحقيقة الذى هيأنى لأجل تذوقى المباشر الأول للولايات المتحدة بينما شرعت فى التحول من توطيد العزم الذى به حاربت أكثر حروب العالم تدميرا إلى (حتى) عقلية «الحرب الباردة». كانت الولايات المتحده قبل كل شئ الأمة التى اضطلعت بقيادة العالم لانزال الهزيمة بأعداء الديمقراطية اللدودين. ولو أنها لم تكن الأمة أو القيادة التى وجدتها عندما وصلت أخيرا إلى واشنطن مع الجنرال جوين. امتلك الأمريكيون وحدهم القنبلة الذرية، وهذا من المحتمل، مما أعطاهم فرصة فريدة لأن يستخدموا قوة غير عادية التى لوحوا بها لبسط زعامة العالم الحر التى طالبوا به حقيقة أثناء الحرب العالمية الثانية. كانت زعامة أقرها بقية العالم الحر، وليس الأمريكيون أنفسهم ـ ليس بعد ـ وإذا أرادوا، فإنهم فى موقع لفرض ايقونة السلام الأمريكان التى دامت قرنا أو يزيد ـ قرنا من الرضاء والسلام. وإنه بالاضطلاع بدور ريادى فى تقسيم ألمانيا، وإقامة قدرة نووية فى القارة الأوروبية فى أول

فرصة، فرض وجود سوفيتى صغير إلى حد بعيد فى أوروبا الشرقية، إرساء قانون دون بنود وغير واضحة بشأن السيطرة الروسية للبلاد المفترض أنها حره مثل تشيكو سلوفاكيا (على الرغم من اتفاقيات يالتا المُقسّمة لأوروبا، شرق وغرب) ربما تغاضى عنها الأمريكيون أو على الأقل خففت الحرب العالمية الثالثة. إن ميزان القوة فى العالم من المؤكد تحول الصالح الغرب تحولا جوهريا ـ فشل الأمريكيون من خلال نقص الرؤية التاريخية التى ظلت مشكلتهم الأساسية لمعظم القرن العشرين فى الإمساك بالعزم.

كان جزء من المشكلة هو قصص الجنود الأمريكيين الشبان التى عادوا بها من غزو أوروبا. ولو أنهم انقذوا القارة فلايزال بالنسبة لهم مكانا غريبا وعجيبا ـ حيث وصل القليل قبل وصولهم على رأس طابور ميكانيكى. لقد مزقتهم مشاعر عاطفية عميقة لأجل هؤلاء الناس الذين قاموا بانقاذهم وأصبحوا مثل أطفالهم حيث يتوجب حمايتهم وحراستهم، هذا من ناحية. وقد شهدوا من ناحية أخرى، أعمالا شرعية من المباغته تقترب من البربرية دون ذكر فظاعة معسكرات الاعتقال. قصص أهوال تلك المعسكرات التى حرروها كانت تبدأ من قليل فى التسرب إلى الوطن مع روايات معاملة الفرنسيين للمتعاونين سواء كانوا متعاونين مع قوات الاحتلال حقيقة أو تصوروا بأنهم كذلك. كانت روايات لما أتى به بعض الأوروبيين مع الأوروبيين الآخرين، وكان هناك شعور منتشر بازدياد بأنه ربما لم يوجد أنواع من الناس لاتريد الولايات المتحدة أن يتم استنزافها بالدفاع فى سيتو لأجل مستقبل غامض.

إن الوجه الآخر لهذه العملة كان شعورا يتملك أصغر عنصر من السكان

استحوذ على الولايات المتحدة لمدة حقبة زمنية فيما بعد. ومع أنه كان الإدراك الحسى بأنه رغم ان الحرب ضد النازيين قد انتهت إلا أنها أفسحت المجال على الفور ودون توقف أمام الحرب ضد عدو خطير وماكر ـ الشيوعيين السوفيت ـ حرب تسمى حقيقة الحرب العالمية الثالثة. إن بعض الأمريكيين المتأملين تعرفوا على الأخطار هنا تماما مثلما عرفها ديجول وجوين وأنا شخصيا. وإنه فى وقت من الأوقات قبل نهاية الحرب بقليل تصادم جوين وأنا مع رئيس أركان أيك وهو جنرال بيدل سميث عندما كنا ذاهبين إلى قيادة الحلفاء التى بعد ذلك صارت فى ريمز بدا بيرك سميث خطيرا بشكل واضح، واستفسر جوين عن السبب. بدا الانتصار فى قبضتنا والطريق مفتوح إلى برلين.

قال بيدل سميث بصرامه: «الأسوأ هو ماسيأتى». ولم يوضح ذلك.

إلا أنه بعد قليل (فترة قصيرة) بعد نهاية الحرب أمرنى ديجول أن أصف لأيزنهاور تقارير كنا نتسلمها من خلال مصادر الحزب الشيوعى الفرنسى وكان عما يدور فى المنطقة الروسية.

فبدأت وقلت: «إن ملايين الروس تلتف حول المنطقة الأمريكيه وتم إرسالهم بقطار خاص إلى المنطقة الروسية حيث تم إعدامهم الواحد تلو الآخر وذلك عند وصولهم.»

قاطعنى أيك وقال مقتضبا مبديا بعض الدهشة (الحيرة): أعرف لكن ما من شئ نستطيع عمله، هذا جزء من الاتفاق مع حليفنا.»

لذا، مع وعى أيك بالتهديد السوفيتى البازخ جديدا وبداية التفكير الاستراتيجى ليكتنف الفكر الجماعى حيال هذا التحدى العسكرى الجديد، لم

يكن من المفاجأة أن الكثير من الحديث حول البنتاجون خلال شهور إقامتى هناك لم يعد هناك اهتمام بالسباق ضد الروس إلى برلين ولكن السباق كان على العقول الفذة للغاية وموهبة الرايخ الثالث. كان هناك فى ذاك الوقت بضعة خبراء حقيقيون فى النظام الشيوعى؛ وكان أكثر الأذكياء للغاية النازيون الذين حاربوا الروس لسنوات. كان يندفع كل واحد بجنون لاحضار هؤلاء الألمان إلى حظيرته. كان من الطبيعى أثناء الحرب تجنيد عملاء أخرين يعرفون العدو. ولذا فالمخابرات الأمريكية وبريطانيا العظمى وفرنسا، حقيقى كل أوروبا الغربية، قد بدأت فى تجنيد نازيين سابقين ممن كانوا ينتمون إلى الجستابو أو القوات المسلحة رجال مثل كلاوس باربى «جزار ليون» ـ وأبرز علماء الصواريخ كذلك. كان من بين النازيين حثالة الانسانية. وكان هناك أيضا بعض الأفراد غير العاديين. عندما توليت رئاسة المخابرات الفرنسية بمدة طويلة كان لدى زميل ملازما للجنرال جيرهارت فيزل قائد نازى للجبهة الشرقية. صار أحد أصدقائى المقربين. لم يكن أحد أعضاء الحزب الاشتراكى الوطنى. كان جنديا ـ ومحترفا.

أما على الجانب السوفيتى، كان آلاف النازيين سيئ السمعة تم ابتلاعهم فى الشرطة والقوات المسلحه للكتلة الشرقية حيث كان يتم النظر إليهم (النازيين) بمواهب أخرى ـ القمع والمخابرات المحلية. كان من السهل تماما التنقل من نظام الديكتاتورية إلى نظام آخر. بدا أن السوفييت كأن لديهم شكوك أقل من الأمريكيين ناهيك عن ميزة أخذ صورة كبيرة ومدتها كبيرة عن سياسات العالم. حتى ان الأمريكيين أرادوا إغفال السياسات السابقة لأولئك الألمان

الذين امتلكوا الخبرة الاستثنائية خاصة أولئك الذين لديهم الخبرة الفنية التى من المتعذر الاستعاضة عنها.

كان يتم العثور عليهم خاصة بين المجموعة العلمية الألمانية غير العادية، خاصة البارعين مثل بينموند على امتداد ساحل البلطيق حيث يوجد الباحثون الكيميائيون الألمان والباحثون فى الطبيعيات ممن عملوا فى الصواريخ . لذا فالجانبان ـ الحلفاء والقوات الروسية ـ زحفوا إلى هذا الموقع فى نفس الوقت تقريبا فى الأسابيع النهائية للحرب. ذلك كان كيفية تعلق الأمريكان بالعالم فيرنر فون براون الذى اخترع وكان يعمل فى V2 وساعد فيما بعد الولايات المتحدة فى الصعود إلى الفضاء. وهناك من الناحيه أخرى عدد من زملائه وجدوا طريقهم إلى روسيا حيث ساعدوا السوفييت ليصبحوا أول دولة تطلق قمرا صناعيا إلى الفضاء. وتم تسميته سبيوتنيك الذى أصاب نجاحه كل الغرب بالذعر ـ كان دعاية كبيرة ان لم تكن عسكرية فهو انتصار للسوفييت، والأول فى الحرب العالمية الثالثة.

وأنه فى نهاية الحرب العالمية الثانية كان اهتمامنا الأساسى بالروس غير مباشر حتى ولو أن صورة الحرب العالمية الثالثة توضح الشرق ضد الغرب إلاّ ان أطرافها لازالت غير واضحة تماما . إن المهمة التى قمنا بها إلى واشنطن كانت فى الحقيقة لمناقشة دفاع أوروبا الغربية الآن والحرب العالمية الثانية قد انتهت والكثير من القوات الأمريكية عائدة إلى الوطن. إن عملنا أرسى الأساس لحلف شمال الأطلنطى. وإنه باستعادة الماضى كان بالصدفة المحضة أننا نجحنا فى إقامة بناء (صرح) مكننا كلنا أن نخوض الحرب العالمية الثالثة إلى نهاية

ناجحة. إن كل يوم نصل فيه إلى غرف تخطيط وزارة الدفاع كانت هناك خرائط ضخمة مفرودة وكنا نرسم عليها لاكتشاف الوضع السياسى والاستراتيجى القائم فى أوروبا.

أمضينا الكثير من الوقت مع الجنرال مارشال ومساعديه. كنا حلفاء وأصدقاء. علاوة على أن جوين كان له وضع (هيئة) هائل نتيجة لدوره فى الحملة الإيطالية وتكتيكاته الذكية ضد الإيطاليين والنازيين. لكن الأمريكيين كانوا مهتمين بقدرتنا العسكرية وبدور جوين فى الحملات العسكرية ويبدو أن مارشال كان أحد الأفراد ذى الحساسية غير العادية. كان جوين كذلك. كان من الضرورى أن يأتى الرجلان إن ليشاهدا كل منهما كل جانب حيث كان الرجلان وخاصة، مارشال عليهما تأدية أدوار عريضة فيما بعد استعادة أوروبا تماما.

صرت ومساعد الجنرال مارشال العقيد جورج أصدقاء جدا أثناء إقامتى فى البنتاجون، وكان العقيد جورج ظل مساعدا للجنرال مارشال لمدة تربو على الثلاثين عاما ـ وكان مساعدا مخلصا لاغنى عنه. ذات يوم تنحينا جانبا وقدم لى اقتراحا بأنه صباح اليوم التالى أبلغ جوين أن:

«انت تعرف هؤلاء الأمريكان أنهم منظمون جدا كمحاربين إضافة إلى أنهم عاطفيون جدا، لذلك لو استطعتُ أن اقترح قبل بداية اليوم الرسمى حوالى الثامنة أو الثامنة والنصف بأنه يجب أن نتسلل من الفندق حوالى السابعة والنصف لنزور قبر الجنرال بيرشنج».

يبدو أن بيرشنج قد عنى الكثير لمارشال أكثر من أى رجل قد عرفه. كان محاربا فاهما عمق طبيعة القتال ـ التى تعلمها جيدا والتى تدرب عليها فى

الحرب العالمية الأولى حيث كان الجنرال مارشال وزملاؤه يتدربون فى الحرب العالمية الثانية وكما أن من تلاهم يتدربون فى الحربين الثالثة والرابعة.

كان الجنرال مارشال يذهب كل أسبوعين، خلال الحرب العالمية الثانية، إلى مستشفى وولتر ريد ليحضر خرائط للمسارح الأوروبية والباسيفكية. كان الجنرال بيرشنج ملازما الفراش، مريضا للغاية (مات قبل مدة قصيرة من نهاية الحرب). أحيانا خلال تلك الزيارات لم يكن يدرى ما كان يدور إلا أنه كان يفيق من آن لأخر.

كان مارشال يقف كل مرة عند باب حجرة المستشفى ويقول: «الجنرال مارشال يقدم تقريرا عن العمليات، ياجنرال.»

ثم يجلس بجوار بيرشنج ويشرح حالة العمليات. كان بيرشنج يسأل أحيانا أسئلة، وكان المحارب القديم أحيانا يكون هناك ليتابع عن قرب، وأحيانا لايتابع. وأخيرا يقف مارشال وقفة انتباه ويؤدى التحية ويلف على كعبيه ثم ينصرف. لايعلم أحد شيئا عن هذه الزيارات سوى العقيد جورج وجنرال مارشال وجنرال بيرشنج. ورويت هذه القصة لجوين، وتحرك إزاء هذا بعمق. وعندما افترضت بأننا نزور قبر الجنرال بيرشنج لذا أدرك لماذا كان هذا الأمر هاما جدا.

وفعلنا مثلما اقترحت ـ بهدوء ودون الإعلان عنه وتسللت من غرفة الفندق قبل السابعة والنصف ثم بعد الزيارة تمت العودة إلى الفندق لنبدأ يومنا الرسمى.

كانت هناك مأدبة غداء كبيرة فى البنتاجون بعد ثلاثة أيام أقامها الجنرال مارشال.. حضرها كل رؤساء الأركان، وسكرتيرا الحرب والبحرية كذلك. نهض

الجنرال مارشال وبدأ خطبة صغيرة. كانت مؤثره جدا. قال ملتفتا لجوين: «إنكم تعلمون إن مخابراتنا جيدة جدا. وعلمنا ما فعلتموه صباح أمس فإنك لست بجندى عظيم فقط وانما رجل له عواطف عظيمة».

إن هذا التفاهم هو الذى يشترك فيه الأمريكيون والأوروبيون من حيث القيم الأساسية التى أدت إلى الاقتراح الذى قدمه الجنرال مارشال حيال خطة مارشال فى شأن إعادة تعمير أوروبا، وهو عنصر أساسى فى إقامة قارة تكون قادرة للدفاع عن نفسها فى الحرب العالمية الثالثة. إن مارشال وزملاءه ساعدوا فرنسا بصفة خاصة، ومكنونا من الجلوس إلى المائدة مع القوى الكبرى الأخرى بعدما تمت هزيمتنا المخزية عام ١٩٤٠. كان لهؤلاء الرجال رؤية حيال فرنسا وليس حيال ١٩٤٠، وإنما حيال ١٩١٨ فى لحظة انتصارنا عندما ساعدنا فى الحاق الهزيمة بألمانيا القيصر ودون رفع علم أبيض للاستسلام. شارك الجنرال مارشال فى النصر وكان من خلال جهوده مما جعل فرنسا قادرة على النهوض ثانية. أسس مارشال والآخرون فرنسا وأوروبا كخطوط جبهة قوية فى الحروب التالية التى فرضت علينا بالفعل. وحيث ان الجنرال مارشال والذين حوله قريبون من الوطن فإن تماسكهم صار نموذجا فى حياتى ووضع المستويات لكيفية قيامى بالعمل أثناء فترتى فى أعلى خدمة لبلدى.

وان كثيرا من تاريخ أوروبا لما بعد الحرب العالمية الثانية تم تحديده فى تلك الاجتماعات التى عُقِدت فى البنتاجون فى نهاية العداءات فى عام ١٩٤٥. كانت الاجتماعات مختصرة نسبيا وأمضيت وقتا قصيرا فقط فى واشنطن حينئذ ثم عدت مع الجنرال جوين إلى باريس.

قررت بالفعل أن أترك الجيش. وسألنى جوين إذا كان يتسنى لى الاستمرار فى عمل الاتصال مع الحكومة الفرنسية المؤقتة والجمعية الدستورية، وقد وافقت. كان ذلك أول اختبار للأعمال الداخلية للسياسات الحزبية. وقد وجدتها بغيضة للغاية.

وإنه عند نهاية تلك السنة من الخدمة المدنية المؤقتة وصلت الخامسة والعشرين ولمدة سبع سنوات منذ سن الثامنة عشرة كنت أخوض الحرب. لذا كنت مستعدا بإجابة عندما استدعانى الجنرال ديجول إلى منزله المطل على غابة بولوينا. وإنه لبق من المزاح المتقطع الذى لم يمكن هذا أسلوبه فى الحقيقة اتى ديجول إلى صلب الموضوع مباشرة.

بدأ ديجول قائلا: «ماذا تنوى القيام به الآن ياماريننشز؟ هل ستشترك فى السياسات؟ سيكون ذلك الأمر انتخابا حاسما ـ إن كل ما عليك هو تسجيل إسمك. وسيتم انتخابك ويمكنك أن تكون نائبا.

فأجابته: «لا، شكرا ياسيدى». «لقد حضرت إلى هنا لأقاتل. والآن قُضى الأمر. أما بالنسبة للسياسات، فلا، أشكركم كثيرا جدا. والآن أعود إلى منزلى».

إن مارأيته بالفعل من السياسات من الصعب أن يغير من صلابة ذهنى. السياسات والحرب، والسياسات والمخابرات، والسياسات والعلاقات بين الأمم حقا لم تمتزج امتزاجا جيدا جدا. فإنه من الصعب المحافظة على استقلالية الرأى الضرورية لمقاتلة عدو خارجى من أى طراز عندما تكون غارقا بعمق فى مشاجرات داخلية وقضايا محدودة لوطنك.

أثار ديجول هذه المسألة من السياسات معى ثانية، بعد وقت قصير ذات مرة، عندما سأل إذا تسنى لى اعتبار أننى رئيس لجنة مالية لحزبه السياسى. وافقت على دراسة العرض ، إلاأننى لم احب ما وجدته عند امتحان دقيق. كانت هناك المكيده فى كل مكان فى تلك الأيام. وبقيت شابا ساذجا وقررت أن كل تلك المكايد لم تكن ببساطة بمثابة فنجان شاى . وأنى كنت بعيداً عن العملية السياسية فإن ذلك يثبت أوراق أعتمادى الضرورية عندما طلب منى لأرأس المخابرات الفرنسية التى صارت متوسطة فى المكائد السياسية المحلية.

لذلك عدت إلى منزل عائلتى فى نورماندى. كانت ممتلكاتى مهملة. وبعد أن قمت بتصحيح الأمر حيال ذلك، دخلت الحياة المدنية ثانية بانتقام ومع بضعة أصدقاء من أصدقاء الحرب حيث افتتحت جهازا تجاريا يسمى بالشركه الحرارية العامة. كنا نقوم بتصنيع الآلات البخارية معظمها يتم تصنيعها فى مصنع بالضاحية الصناعية خارج باريس، علمتنى التجربة الأعمال وطبيعة العمال ـ شعور بالمنظمة وحساسية تجاه احتياجات أولئك الذين يقومون بالشئ الحيوى، تفاصيل يوما بيوم عن الأعمال التى تجعل عمليه المجمع تسير بيسر. كانت الدروس قيمة بالنسبة لضابط مخابرات.

أمضيت الخمس عشرة سنة التالية فى صناعة خاصة التى سمحت لى تدريجيا بالاستقلال المالى لأفعل ما أرغبه فيما بعد. خاصة بعد أن اشترينا شركة ضخمة حيث قمت بتطوير شئونى التجارية بالسفر وتنفيذ المهام التى وكلتنى بها الحكومات الفرنسية المتتالية ورؤساؤهما ـ أحيانا بصفة مدنية وأحيانا كضابط احتياط. وكانت الواجبات سرية وذات طبيعة حساسة.

لقد استغلوا مهاراتى فى الانجليزية وفهمى للعقلية الأمريكية والنظام الاجتماعى والسياسى للولايات المتحدة ـــكيف يكون رد فعل قادتها وكيف يشعر الشعب تجاههم.

عندما عاد الجنرال أيزنهاور فى يناير ١٩٥٠ للولايات المتحدة طلب الرئيس ترومان منه العودة إلى أوروبا لتنظيم حلف شمال الأطلنطى ـ الذى هو رسميا منظمة معاهدة الشمال الأطلنطى أو الناتو قام بالسفر لمدة أسبوع خلالها فرنسا ليقرر ما إذا تكون فرنسا وأوروبا دفاعية فى الحقيقة أثناء الحرب العالمية الثالثة حيث أدرك أيزنهاور وترومان أنهما على وشك الاشتراك. قبل وصول أيزنهاور فى يناير ١٩٥٠ بفترة قصيرة استدعانى وزير الدفاع رينيه بليفن وقال: «أنت ضابط احتياط ـ وبعد ترقيات عديدة صرت مقدما ـ هل ستعود وتكون مساعدا لأيزنهاور أثناء وجوده فى فرنسا؟ « بالطبع، وافقت.

سألنى ايزنهاور بتكرار اثناء ترحالى معه فى فرنسا: « رسم لى صورة لفرنسا. سألنى بعدما غادرنا البرلمان: «كم عدد الأحزاب السياسية هناك، على سبيل المثال؟» أجبته: «حسن، حوالى اثنين واربعين مليونا، ياسيدى.»

فابتسم قائلا: «أعلم ذلك. الشعب الفرنسى. وهذا تخمينى».

فضحكت.

إن زيارة أيك (أيزنهاور) وانطباعه عن الضباط العسكريين الفرنسيين الموالين الذين تحدث معهم، وحمله معه، كان ضروريا لاستنتاجه أن فرنسا وأوروبا ملتزمتان بدفاعهما وتستخدمان كشركاء فعليين فى أى محاولة عسكرية أمريكية. كان ذلك تناقضا حادا لإحساس الجنرال فى واشنطن بأن

أوروبا كانت ببساطة مجموعة من الدول الضعيفة الكسلانة فى انتظار الجيوش الأمريكية للدفاع عنهم ضد كل القادمين.

تم إرسالىّ إلى واشنطن ثانية بعد عام فى يناير ١٩٥١ وإلى البنتاجون فى مهمة هامة من المنظور الفرنسى. كانت فرنسا آنذاك فى مستنقع عميق مما ثبت لنا أنه عميق ومريك مثلهم فى ذلك الأمريكيون بعد عشرين عاما ـ الهند الصينية. علاوة على أن عسكريتنا تعلمت درسا بسرعة أن نظراءهم الأمريكيين يستغرقون مدة أطول لتعلمه ـ لايتسنى لهم كسب الحرب ضد المتمردين الشيوعيين على الأرض وفى الأدغال. إننا نحتاج بشدة أن نجلب تكنولوجيتنا المتطورة لنتكئ عليها فى المعركة. كان ذلك هو السبيل الوحيد الذى نأمله لأجل أى ميزة.

إن أول كل شئ، كانت تلك التكنولوجيا محمولة جوا. إن الفيتناميين الشيوعيين، الذين لم يكن قد تم إمدادهم بأنواع متفوقة من الاسلحة التى تلقوها مؤخرا من الحلفاء السوفييت، ظلوا يقاتلون بأسلحة بدائية ـ دفاعية وهجومية. إن أول شئ هو أن قدرتهم أرض ـ جو كانت غير موجودة تقريبا مما ترك الأجواء مكشوفة أمام سيطرة القوات الفرنسية. للأسف القوات الجوية الفرنسية أنهكتها الحرب فى أوروبا علاوة على اشتراكنا الصغير فى الحرب فى الباسيفيك. لذا طلب منى رينيه بلقان الذى صار فيما بعد رئيس وزراء الارهاب إلى البنتاجون لالتماس طائرات أكثر تطورا لكى تستخدمها قواتنا فى الهند الصينية.

ونجحت للغاية وسرعان ما لعبت الطائرات العمودية الأمريكية (الهليكوبتر)

والمقاتلات دورا مساندا هاما لقواتنا فى الهند الصينية. كان ذلك أول تعاون أوروبى أمريكى حقيقى فى أول مناوشة فى الحرب العالمية الثالثة ـ معركة شرقية ـ غربية فى الطرف البعيد من العالم.

إلاّ أن أكثر المهمات تحديا جاءت فى أكتوبر ١٩٥٠. استدعانى بلفان رئيس الوزراء إلى مكتبه وشرح فى مناقشة عريضة عن الوضع (الموقف) العالمى خاصة تورط فرنسا فى الهند الصينية.

وقلت: « إن مستقبل العالم فى الباسيفيك. »

فسأل: « وماهى قوى الباسيفيك الكبرى؟ »

« لاكتشاف قوى الباسيفيك الكبرى يجب أن نبدأ بالغرب ـ بمعنى أن الروس والصينيين، اليابانيين والاندونيسيين فى يوم من الأيام. إلاأنه على الجانب الآخر، لايجب نسيان وجود الأمريكان والكنديين. إنهم قوى باسيفيكية كالآخرين هؤلاء».

ركز بلفان على التصريح الأخير وسأل :«ماذا ستكون السياسات الأمريكية عليه فى الباسيفيك؟ »

وأجبت: «هذا سؤال جيد جدا وأظن أننا يجب محاولة إيجاد إجابة. وسيكون الأمر ممتعا. »

أجاب بلفان ببطء:«ليس هذا بالسؤال السهل للإجابة عنه. هل تحب أن تأخذ سؤالا مثل هذا؟ أتود القيام بمهمة فى الباسيفيك؟ »

كانت هذه أول مهمة لى حقيقة فى المخابرات بمعنى أن تلك المهمة تتضمن

توليفة من المجال التفصيلى ومخابرات استراتيجية للغاية وتحمل معها أعرض الاستدلالات السياسية الطبيعية. وتتطلب نظرة داخلية فى العقلية الأمريكية والأسيوية، علاوة على النظرة الداخلية فى تاريخ وثقافة بعض المجتمعات المتفاوتة. كان ذلك تمرينا كلاسيكيا فى مهنة المخابرات يتكون من تعلم واكتشاف وتخمين مايجرى فى السياسات الأمريكية وما ستكون عليه الاستراتيجية العسكرية والدبلوماسيه للولايات المتحدة فى الباسيفيك عبر الحقبة التاريخية التالية. إن نوع المعلومات المتقدمة ستكون هاماً لفهم ما هو نوع التزام الولايات المتحدة الذى تعده لدعم حلف شمال الاطلنطى فى مناطق العالم التى بدون الناتو.

كانت أول محطة لى هى واشنطن حيث ناقشت التعيين مع الجنرال مارشال، رغم حقيقة مهمتى قد تعتبر تجسساً، الذى فهم قيمة معرفة فرنسا لأهداف أمريكا فى منطقة الباسيفيك. قال المارشال الذى فهم احتياجى لتركيب وسياق التصريحات الخاصة بالسياسة.

«فإذا كنت فرنسيا أو أوروبيا، فإن كل واحد سينظر إليك ويعاملك بطريقة مختلفة وبينك وبينه مسافة. فما رأيك وأنت ضابط أمريكى؟.

لم يتردد فى جعل هذا الأمر ممكنا. وتلك هى كيفية أن صرت العقيد ديفيد الكسندر. ظل معى مستند أعطاه لى لابد وأنه فريد ـ بطاقة صغيره بها صورتى الفوتوغرافيه تعطينى أولوية السماح لى بالسفر على كل الطائرات الأمريكية العابرة للباسيفيك.

غادرت واشنطن إلى نقاط الشرق والجنوب ـ هايتى؛ ويك، جْوَام؛ طوكيو،

إبان قيادة الجنرال دوجلاس مكارثر. حاولت اكتشاف عما ستكون عليه السياسة الأمريكية وما هو الدور الذى قد تلعبه فرنسا. كانت النتائج فى تقريرى مبنية على أساس شهور من اختبار المياه الأقليمية ـ الجو في آسيا حيث يكون للولايات المتحدة وجود. كان يتم تحية الأمريكان فى بعض المناطق كابطال تحرير، أما فى مناطق أخرى (خاصة اليابان) كحكام عسكريين من أردأ الأنواع. لذا بدأ تقريرى بشئ من التاريخ. وأوضحت أن الرومان كانوا أقوياء لأنهم جعلوا البحر الأبيض المتوسط بحيرتهم الخاصة بهم الشافية من الأمراض. خطر لى وأنا أقوم بإعداد تقريرى وفكرت فى شهورى من التجوال فى الباسيفيك بأن هذا المحيط سوف يصبح البحر الشافى فى نهاية القرن. لكنه سيصبح ذلك لمن؟ اعتقد ولازلت أتمسك بهذا الاعتقاد بدرجة كبيرة بأن الباسيفيك يكون وسيكون دائما هو البحيرة الخاصة بأمريكا.

أخبرت رئيس الوزراء فى تقريرى: «كانت الحركة فى أمريكا دائما تجاه الباسيفيك. هذه الحقيقة، أكثر من غيرها، ربما تكون أكبر الحقائق خطرا بالنسبة لأوروبا. إن اهتمام الشعب الأمريكى بالالتفات ناحية أوروبا قليلا وقليلا، تلك الأراضى التى جاء منها آباؤهم وأجدادهم».

كان جزء من رحلاتى التجوال عبر كاليفورنيا. اكتشفت أنه حتى فى عام ١٩٥٠ كان كثير من الناس الذين ظلوا يعيشون هناك جاءوا حقيقة من جبال روكى فى عربات مقفلة فى شبابهم. أولئك الناس وخاصة سلالتهم لايلتفتون إلى أوروبا. إن أوروبا فيما وراء الأطلنطى، والتى فيما وراء أمريكا، والتى فيما وراء جبال عبروها،. حيث إن مركز سكان أمريكا تحرك غربا فإن سكانها يتطلعون أمامهم. وكان الباسيفيك أمامهم.

يجب تذكر أن الخط الذى يفصل الجنوب من الشمال فى حرب الجنوب والشمال التى نخوضها الآن يلتف حول الكرة الأرضية. ويعبر الباسيفيك كما يعبر الأطلنطى بكل تأكيد وينصف البحر الأبيض المتوسط.

يلعب الباسيفيك دورا بأشكال مختلفة فى كل حرب خضناها فى هذا القرن. إن معركتى التراشق بالنيران اشتركت فيهما الولايات المتحدة أثناء الحرب العالمية الثالثه أثبتتا مدى مالدى من بصيرة فى أول تقرير مخابرات أعده القائد فرنسى. إن تلك الحربين، دفاع شبة الجزيرة الكورية ضد الصينيين الشيوعيين وحلفائهم فى ١٩٥٠ ـ ١٩٥٢، ودفاع فيتنام الجنوبية فى الستينات وأوائل السبعينات، كانتا المعركتان حيث تم تبادل إطلاق النيران وخاضتهما الولايات المتحدة فيما كان يعتبر الحرب الباردة ـ الحرب العالمية الثالثة. حدثت المعركتان فى الشرق الأدنى. أنهى الفرنسيون اشتراك قوة عسكرية حقيقية فى مسعى الأمم المتحدة المشترك فى كوريا، وكان هذا التحرك قد وافقت عليه بشدة.

اعتقدت أنه كان من الضرورى آنذاك والآن مساندة الولايات المتحدة حيثما نشعر أين تكون مصالحنا كامنه ـ وخاصة فى أجزاء من العالم مثل آسيا، وحيثما تكون المصلحة أكبر مما نراها. علاوة على أن الولايات المتحدة هى القوى العالمية فى الشمال بقوة واستطاعة لتولى القيادة حيثما توجد المناوشات فى الحربين الثالثة والرابعة التى قادتنا فى الماضى أوربما تأخذنا فى المستقبل مثلما رأينا مؤخرا جدا فى العراق.

ووضح طويلا أن الولايات المتحدة ستكرم قادتها فى الناتو إلا أنه رسميا فإن

التزامات الناتو تبدأ وتنتهى بالشمال الأطلنطى . حيث أن الأحداث فى الشرق الأوسط وخاصة فى الباسيفيك قد أثبتت أن الحرب العالمية الرابعة لا يبدو خوضها فى أبعد او قرب من شمال الأطلنطى .

إنه خلال هذه الفترة قبل وبعد تقاعد الجنرال ديجول فى منزل قريته كولومبى ـ لى ـ ديز ـ إجليز، ظللت على اتصال معه وبعض أفراد عائلته. ولو أننى لا أنتمى أبدا لأى حزب سياسى ولا حتى حزبه إلا أن الجنرال استدعانى عدة مرات لأنفذ عدداً من المهام له. وكان يبعدنى بحرص عن حياته المتصلة بسياسات الحزب. السياسات والشئون الدولية كانت لتك التى تعنينى. وأقر ديجول باستعدادى لأكثر المهام عالمية.

طلب منى ديجول فى يوليو ١٩٥٩ عندما عاد للرئاسة أن أعود إلى واشنطن وأزور الرئيس أيزنهاور. أرادنى أن أتحدث مع أيزنهاور عن القنبلة الذرية الفرنسية. كانت دولتان آنذاك تمتلكان القنبلة الذرية ـ الولايات المتحدة، التى استخدمتها لإنهاء الحرب فى الباسيفيك فى هيروشيما ونجازاكى؛ وبعد سنوات قصيرة كان الروس.

احتاجت فرنسا أيضا إلى القنبلة لتصبح قوة سياسية رئيسية فى أوروبا الغربية، وكافلة الاستقلال للعالم الحر، أو على الأقل لأوروبا الغربية عندما تغادر القوات الأمريكية من القارة (وكان ديجول يعتقد ذلك عاجلا قبل أجلا) . شعر بأن فرنسا احتاجت لأن تصبح القوة النووية الثالثة لتلعب دورا مركزيا فى الدفاع عن الغرب فى الحرب العالمية الثالثة ـ إلا أن ديجول أيضا أدرك أن العلماء الفرنسيين لا يتسنى لهم إنتاج بسرعة وبيسر القنبلة من جانبهم

الخاص. ويجب دفعهم خلال عملية مملة من المحاولة والخطأ الذى أزعج محاولات أمريكا الأولى فى التقدم النووى. فرنسا احتاجت المساعدة الأمريكية.

لذا رحلت إلى الولايات المتحدة من جديد بهذه المهمة الأخيرة والدقيقة. وبقليل من الأمل والنجاح بصراحة.

وتم لقاؤنا فى المكتب البيضاوى حيث جلس الرئيس بمفرده. واستقبلنى بحرارة. بدأنا بالحديث عن الحرب العالمية الثانية، والموقف السياسى فى أوروبا وفرنسا، ثم عدت إلى سبب مهمتى.

«جنرال ، ياسيدى» : بدأت بذلك. ودائما أدعو أيك **IKE** «بجنرال» لم أكن قادراً أبدا على أن أظنه أى شيئ آخر. أنا فى مهمة، مهمة شخصية للجنرال ديجول . إنه رجل تعرفه جيدا لسنوات عديدة. عملنا معا عن قرب ، وطلب منى أن أحضر وأتكلم معك عن موضوع غاية فى الدقة والحساسية».أومأ أيزنهاور ببطء وطلب منى الاستمرار فى الكلام.

«ياجنرال، إننا نحتاج مساعدتكم لبناء قنبلة ذرية فرنسية»

ضبط ايزنهاور رأسه على الفور وقال : مستحيلاً وتحدثنا باختصار لكنه من الواضح أنه لم يتحرك إزاء ذلك. كان هناك شعور متزايد من الخوف فى الولايات المتحدة بالفعل بشأن تزايد النفوذ الشيوعى فى أوربا ، فسر أيزنهاور ذلك. إنى أعرف جيدا موقفه الداخلى الذى يتضمن الحملة الشيوعية ضد ذوى الآراء السياسية المعادية التى يقودها السيناتور جوزيف مكارثى. علاوة على أنه بالنسبة لموريس طوريز وأعضاء آخرين موالين للحزب الشيوعى الفرنسى الموالى لموسكو المشترك فى أول حكومة فرنسية بعد الحرب ـ الحزب الشيوعى

الفرنسى كان شرعيا وقوة قوية فى السياسات الفرنسية ـ والكثير فى الحكومة الأمريكية بما فى ذلك أيزنهاور كانوا على علم بالتسلل الشيوعى للأبحاث الذرية الفرنسية . إنهم حقا على صواب بالنسبة للتسلل الشيوعى كما أوضحت مخابراتنا المحلية. بعدما قام الألمان بغزو روسيا فى عام ١٩٤١ أصبح الشيوعيون الفرنسيون، الذين يأخذون توجيهاتهم من الاتحاد السوفيتى، عناصر قوية فى حركة المقاومة الفرنسية المقاتلة ضد الاحتلال النازى. وصار الحزب ذاته فى نهاية الحرب يجذب عددا ضخما من طبقة المثقفين الفرنسيين. وحتى تلك المجموعة من الصفوة تضمنت الكثير من كبار علماء الذرة كذلك ـ وإنه منذ قيام أعضاء النادى الذرى بإبطال أول قنبلة ذرية للروس بحلول عام ١٩٤٨ وحدوث انفجار ذرى حرارى بالنسبة لهم فى الثانى عشر من أغسطس عام ١٩٥٣ الأمر الذى تسبب فى الحملة الأمريكية ضد المنشقين خوفا من سرقة الأسرار الذرية الغربية بعد ست سنوات وكان أمرا غير منطقى البتة.

وإنه بالرغم من محادثاتى مع ايزنهاور ومع بعض مساعديه فيما بعد فى تلك الأيام الأولى من إداراته إلاّ أنها أدت إلى رفض مؤدب لكنه صارم للغاية.

عدت إلى فرنسا وقدمت تقريرا إلى ديجول . شرحت بعناية وجهة نظر أيزنهاور ووضعه السياسى الداخلى محاولا وضع قراره فى سياق كلام (أكثر مكونات التقرير أهمية لأى ضابط مخابرات)، وكان ديجول ساخطا.

تقابلنا فى مكتبه بقصر الإليزيه فى باريس حيث أعددت تقريرى الكامل . صار ديجول ثائرا وهو يجوس المكان ذهابا وجيئة صائحا : «سأحصل على قنبلتى يا مارينشز ! هل تفهم؟ سأحصل على قنبلتى!»

أمر ديجول بمحاولات بناء قنبلة فرنسا الخاصة بها وأن تضاعف الجهود. ولم يكن الأمر كذلك حتى عام ١٩٦٠ ـ بعدما فجر البريطانيون أول قنبلة نووية أوروبية ـ عندما اشتركت فرنسا بالنادى الذرى. أوجد رفض أيزنهاور شقاقا لم يندمل فى الحقيقة أبدا، طالما بقى ديجول فى السلطة على الأقل. كان الأمر له تأثير هام على وحدة الحلف الأطلنطى مؤثرا فى الانسحاب النهائى لفرنسا من الجناح العسكرى للناتو **NATO** وإضعاف قدرة مجموعة المخابرات الأوروبية للعمل فى نموذج منسق خلال الكثير من الحرب العالمية الثالثة.

وإنه أثناء الخمس سنوات التالية عقب هذه الرحلة حينما قمت ببناء شركتى التجارية، تقاعد ديجول وأمضى وقتا قلقا فى كولوجى ـ لينى ـ ديز إجليز يراقب من خلفوه وهم يتشاحنون مع بعضهم البعض بينما تتجه فرنسا إلى حالة إهمال فاحلة ميئوس منها. واستجاب ديجول عام ١٩٥٨ لنداء بلده وعاد للحياة السياسية النشطة كأول رئيس للجمهورية الخامسة. كانت الأمة فى خراب. استمرت الحرب فى الجزائر وكانت حربا مريرة. استدعانى ديجول بعد عودته للسلطة مباشرة وسألنى إذا كنت سأقبل مركزا رسميا. فرفضت كالمرات العديدة السابقة.

شرحت للجنرال «إن السياسات لم ولا تستهوينى على الإطلاق. ولا أشعر بارتياح بين السياسيين ـ لم يكونوا مسرحى. رتبت حياتى بطريقة أفهمها. أوافق دائما على خدمة بلدى ودول الحرية للإبقاء عليهم كجزء من العالم الحر. لكننى لا أريد مركزا رسمياً.

ظل ديجول يقاوم ويسألنى إذا كنت سأوافق على استئناف دورى كضابط

اتصال بين رفقائى فى الحرب وديجول والجنرال جوين وهم الآن فى حالة خصام حيال حادثة موجعة فى تاريخ فرنسا الحديث ـ وهى الحرب المدنية المريرة فى الجزائر. إن تلك المعركة تشابه كثيرا من صفات الحرب الأهلية الأمريكية وحرب فيتنام. ففى حالتى الجزائر وفيتنام رأس الكثير فى فرنسا المعارك بمثابة جهود لفرض إرادتنا السياسية على شعب متلهف لأن يتولى بنفسه مصيره . فالمظاهرات والشعارات فى باريس وواشنطن منذ حقبة زمنية مسببه للشقاق وتهدد استقرار ووحدة الحكومة والسكان على وجه العموم. عبر القرن السابق وصل أكثر من نصف مليون فرنسى إلى الجزائر كمستعمرين ـ رواد فى الحقيقة ـ يسعون إلى بناء حياه جديدة وأفضل لأنفسهم ولعائلاتهم. كان الكثير موجودين هناك لأجيال حتى ١٩٥٤. كانت الجزائر أكثر من حقيقة بالنسبة لهم، وذلك أكثر من فرنسا حيث يتمتعون بالمواطنة كاملة. إن أبناء وطنهم الفرنسيين ينظرون إليهم بنظرة مختلفة ـ الملونين لأن الكثيرين تعودوا الذهاب إلى اسوق حافيى القدمين وإلى صحارى الجزائر حتى تم تسميتهم «الحُفَاة» . وانتهى كل ذلك فى ليلة الحادى والثلاثين من اكتوبر عام ١٩٥٤. ظهر تمرد جماعى فيما بين الشعب الجزائرى يسعون إلى الاستقلال لبلدهم عن فرنسا. بدت القوات الفرنسية العسكرية فى النقص بالذهاب إلى الحرب فى الهند الصينية، وكانت مضغوطة. وإنه مع تجمع الحفاة لأجل القضية الفرنسية تم الاشتراك فى المعركة واندلعت الحرب الأهلية. وبالعودة إلى الوطن، فى مترو بوليتان فرنسا، بدأ الشعب فى اختيار الجوانب ـ قوات التحرير والتخلص من الاستعمار اختارت جانب الثوار، وقوات الوطنية (القومية) مع الملونين (الحفاة). بدأت المعركة قبل مضى وقت طويل جدا بأن يكون لها تأثير سرطانى

واضح على الوحدة الداخلية الفرنسية وقدرتها وانتهاج سياسة خارجية قوية مستمرة. ومن هنا دخلت المسرح موافقا على طلب ديجول بالتوسط فى النزاع بينه وبين جوين.

كان من المؤسف بالنسبة لى أن أرى رفيقين قديمين فى مثل ذلك النزاع المرير. جوين، الذى ولد بالجزائر من عائلة فرنسية متواضعة رمى بثقله فى قضية مضمحله ـ قضية الملونين لأجل الحفاظ على امبراطورية شمال افريقية الفرنسية . إضافة إلى أنها مسقط رأسه فإن ارتباط جوين بافريقيا كان له تاريخ طويل وعاطفى. وكان تعيينه بعد تخرجه من سان سير ST - CYRE ، فى الطرف الغربى الفرنسى، كان مع وحدة مشاة فى المغرب.

وظل عبر الأربعين سنة التالية فى عمله بين فرنسا وشمال إفريقيا. وإنه بعد عودتنا من واشنطن فى نهاية الحرب العالمية الثانية، تم إرسال جوين ثانية إلى شمال إفريقيا «كجنرال مقيم «لفرنسا فى شمال إفريقيا . ورغم أنه تقلد عددا من المراكز العالية الأخرى فى العسكرية الفرنسية وقيادة الحلفاء فى السنوات الأخيرة، لم يفقد أبدا اتصاله بكثير من ضباطه السابقين الذين حاربوا المتمردين فى الجزائر.

لم يشارك ديجول ارتباط جوين بالجزائر. فلم يكن فَيْلَقيًّا ولا من الفرسان ولا جنديا إستعماريا مثلما كان جوين. إن تجربة ديجول فى أماكن بعيدة كانت محدودة بأقصر مدة جدا فى الشرق الأوسط وبزيارتين قصيرتين لافريقيا . بدأت وجهة نظره فى الشئون الدولية وانتهت بفرنسا، وغالبا فى عصر لويس الرابع عشر. ففى رأى ديجول كان لويس الرابع عشر الملك القوى للغاية والوحيد فى

التاريخ الفرنسى، الرجل الذى حكم فرنسا لمدة إثنتى وسبعين سنة، باسطا قوتها ونفوذها، وكان رجلا يخشى منه ويقدسه شعبه، وكان لا يقبل سوى وجهة النظر الفرنسية المركزية عن العالم يرى ديجول فى كثير من الوجوه أنه هو وريث عقلية لويس الرابع عشر (رغم أنه سياسى بالغ الحساسية ولم يعترف بهذا قط) ، وغالبا ما كان يسلك تبعا لذلك. وانه بالنسبة للذين يعرفونه كان مثل والده ملكيا بصفة جوهرية.

إن الفترة المكوكية بين ديجول وجوين، الرجلين القويين وقد تبنيا آراء معارضة حيال مصلحة فرنسا التاريخية، كانت فترة غير سعيدة تماما. بدأ نزاعهما المرير فى عام ١٩٥٨ عندما بدأ ديجول يعول بشدة على صديقه الكبير جوين لجعل الجيش فى الشرق محايدا فى النزاع الجزائرى المتزايد. وصار واضحا أن ديجول يعول بشدة على صديقه الكبير جوين لجعل الجيش فى الشرق محايدا فى النزاع الجزائرى المتزايد. وصار واضحا أن ديجول لم يثق فى جوين بالنسبة لقضية الملونين (الحفاة) فى شمال إفريقيا. ولجأ جوين إلى أكبر المدافعين عنهم، واستعد لأن يوجه جيش الشرق إلى قوة تنحت أمام كل رغبة من رغباتهم، بينما كان ديجول يحاول حل النزاع بالتفاوض. واتضح لجوين أن ديجول كان مستعدا ليبيع أبناء بلده الفرنسيين المحبوبين فى شمال إفريقيا باسم السلام مع الثوار الجزائريين. حاولت بناء على طلب ديجول التفاوض وجها لوجه مع إثنين من القادة العتاه وغير مرئيين. وانه فى النهاية بعد رحلات مكوكية متكررة بين قيادة جوين فى الجزائر ومقر إقامة ديجول رتبت للماريشال جوين لأن يحضر إلى كولومبى فيما يثبت أنه مؤتمر قمة لحفظ ماء الوجه.

تقابل ديجول وجوين فى صالة ضيقة فى منزله الريفى. ثم دخلا مكتب ديجول الخاص وتوقفت استعدادا للبقاء مع العقيد الذى كان ياور ديجول. لكنه فجأة عاد إلىّ ديجول قائلا: «آه، لا، أنت تأتى معنا».

بدأ ديجول قوله إلى جوين : «لم يكن هذا اللقاء بناءً . يجب عليك أن تعد ترتيباتك معنا. إنها بتلك البساطة.»

احتج جوين إلا أن ديجول غاص فى كعبيه. لم يقتنع. تم فقد الجزائر. يجب أن يكون الملونون (الحفاة) مستعدين ليرحلوا عن بلدهم التى تبنوها أو يقوموا بالسلام مع الثوار. وبأختصار رأى القضية ببساطة تكمن فى مصطلح أسود ـ وأبيض سواء من ناحية اتفاقية السلام أو حرب وخرج غاضبا.

لم يكن مستعدا لأن يتخاصم علنا مع ديجول آنذاك. إلا أنه من الواضح لنا، لأى منا، وكان فى كولومبى فى ذلك اليوم، أنه لامجاملة ولامهادنة.

منذ اللحظة التى حدث فيها خصام رسمى من جانب جوين فى ١٩٥٨ حتى ١٩٦١ مع رفيق السلاح السابق وتم إجباره على التقاعد من العسكرية التى أحبها، لم يعد يتعامل ثانية بود معا. ونادرا ما كانا يتعاملان مباشرة إطلاقا. وإننى كنت الوحيد الذى أجبر على قبول وطأة غضبها وذلك لأعمال بمثابة العصا المضيئة والمترجم للخصمين بالرغم من مساعىّ الحميدة والمواقف المتناقضة. فاز ديجول فى النهاية بالطبع. وحصلت الجزائر على استقلالها. وعاد كثير من الملونين (الحفاه) إلى وطنهم. كانت فرنسا قادمة على أمد تبدأ عملية تضميد الجروح التى حدثت اثناء هذه المعركة (النزاع)، واتخذت موقفا هاما، وهو قوة أوروبية موحدة. كان اشتراكى الشخصى فى نفس الوقت فى الحرب الجزائرية

أثبتت أنها مرحلة أخرى فى استعدادى لأكثر الأدورا دقة سأضطلع بها على الإطلاق ـ كرئيس للمخابرات الفرنسية.

حاولت طوال حياتى أن يكون البروفيل لى خفيا. ذلك هو السبب فى أنى أختار تجنب السياسات الانتخابية. رأيت كثيرا من الأصدقاء العظماء يتغيرون عندما ينخرطون فى ذلك الأمر. إن حزب السياسات يتطلب رغبة فى التسوية، الشيئ الذى لن أقوم به. يعرف كل أصدقائى ذلك كما يفهمه معظم زملائى المقربين فى الحياة العامة.

كان فرانسوا كاستيكس أحد هؤلاء الذين يعرفوننى جيدا. صديق قديم وأخ ضابط تزوج شقيقة كلودبومبيدو زوجه جورج بومبيدو، كان فى رأى أحد رجال الدولة الحقيقيين القلائل فى فرنسا المعاصرة. كانه لديه كل مواصفات كل سياسى يتوجب أن تكون لديه إذا ما رغب أن يصبح رجل دولة ـ الحس الجيد، الذكاء، الحساسية، الظرف، والتواضع.

إفتقدت الاتصال مع جورج بومبيدو عندما أصبح رئيسا للوزراء. إلاّ أن كاستيكس سألنى يوما ما: «هل رأيت زوج اختى مؤخرا؟ كنا نتحدث عنك ذاك اليوم، ونود رؤيتك.»

تناولنا طعام العشاء ذات مساء، فى منزل فرانسوا كاستيكس. وجدت فى الحقيقه بومبيدو نفس الرجل الذى عرفته وأحببته لسنوات مضت. وانضم بعد الحرب مباشرة مع هيئة ديجول كمدنى وتذكرت ظروف وصوله. كان لديجول روح دعابة رائعة ولاذعة وأحيانا سيئة. وكانت له أيضا موهبة طبيعية للقدرة على الكتابه بفرنسية رائعة على الاطلاق (تماما). وكان بطريقة ما مثل معظم

الفرنسيين كالشخص النادر وغير العادى بمثابة أستاذ شرف. إن الاستاذية الشرفية هى أكثر الدرجات العلمية حداثه (تقدما) فى أى جامعة فرنسية - إنها الدرجة التى يتم منحها بعد عمل رهيب للغاية وكمية من العمل المكثف جدا.

التفت ديجول يوما ما إلى أحد مساعديه، رينيه بروييه، وصاح مناديا «بروييه !» أجاب قائلا : « نعم، سيدى الجنرال ». لأنك لم تقل ياسيدى الرئيس لديجول.

« بروييه، أدركت حقيقتى كأستاذ شرف يعرف كيف يكتب فرنسية صحيحة. » بروييه قدم جورج بومبيدو رجلا متعلما حقيقيا - أستاذ شرف يتحدث ويكتب فرنسيه ماهرة يقدرها ويفهمها ديجول.

تم عبور ممراتنا من قت لآخر فى السنوات التالية. جاء بعد الحرب إلى أحد كبار مديرى البنك روتشيلد. كان يدعونى لتناول الغداء فى سرسل امريكا اللاتينيه فى شارع سان جيرمان. وكان ينادى على الجرسون فى نهاية كل وجبة ويطلب سيجارا كبيرا ليشعلها ثم يغمز بعينه ولاحظ قائلا: «أنت تعرف أنى أحب تدخين سيجار ضخم، إلاّ أننى لا أدخنه فى الخارج لأنى أحب أن أبدو كرجل بنكى ثرى. » كانت لدينا روابط أخرى تربط بيننا. كانت الروابط موجودة أولا وإلى الأبد، وإن عائلة كاستيكس كانت ونحن أصدقاء مشتركون. كانت صديقتى العظيمة، آن - مارى دوبى، عمدة كان. قابلتها أول مرة فى إيطاليا حيث كانت سائقة لعربة إسعاف فى معركة كازينو. وإنه مثلى وزوجتى خدمت تحت قيادة الجنرال جوين وأصبحت واحدة من أكثر سائقى سيارات الإسعاف

شهرة فى قوة الحملة الفرنسية فى إيطاليا. ولعب دورا هاما فيما بعد فى حكومة جورج بومبيدو بمثابة مدير مساعد فى قصر الإليزيه ـ أول سيدة وأعتقد انها السيدة الوحيدة التى تقلدت هذا المنصب. عرفتها وزوجتى وأحببناها لمدة أربعين عاما. وفهمت أنها كانت آن ـ مارى هى التى اقترحت أولا على بومبيدو لأن يجد وسيلة للاستفادة منى فى حكومته.

وبعد تناول عشائنا بعد وقت قصير فى منزل فرانسوا كاستيكس، سألنى بومبيدو أن أستدعيه إلى قصر الإليزيه. وإنه بمجرد أن جلست أمام مكتبه المزدان بدأ يعنفنى.

وقال: «لماذا لم تأت لرؤيتى طوال تلك المدة الطويلة؟»

واجبت بصدق: «لم يكن لدى شيئ أطلبه منكم.»

وقال بعد صمت قصير: «إنك الوحيد فقط الذى لم يطلب شيئا.»

وبدأنا مناقشة عريضة للموقف الدولى قبل أن يتناول مشكلته المباشرة.

وقال: بعد ديجول يجب أن نبدأ فى إصلاح ما بيننا وبين الأمريكيين. فما رأيك فى أن تصبح سفيرا فرنسيا فى واشنطن؟.

شكرته وأخبرته عن مدى تأثير اقتراحه لدى. ولكننى لاحظت قائلا: إصلاح ما بيننا وبين الأمريكيين ليس فى الحقيقة خط خبرتى.»

أومأ بومبيدو برأسه بأنه فهم، ولكن المناقشة لم تكن بحق مقنعه. لذا حاولت مسلكا آخرا لعل يفهمه.

فبدأت قائلا: «تعرف ياسيدى، لقد أمضيت فترة هائلة من الوقت فى

واشنطن فى مهام متنوعة. وإنه فى كثير من تلك المناسبات كان لدى الحظ لتناول العشاء أو الغداء وحتى قضاء الليل فى مقر السفير. وكانت تقدم لى أفخم مأدبة وأفخم الخمر. وأنا بالطبع محب كبير للحياة الجيدة والطعام الجيد والخمر الجيد. وإذا أردت لى الموت فى عام ماعليك إلا أن تعطينى هذا المركز فى واشنطن. »

ابتسم بومبيدو. وتحدثنا المزيد. وقال أخيرا: «يوجد شيئ آخر بالطبع، إلا أنه بكل أمانة يأتى تحت عنوان « مهمة مستحيلة » ولن أقترحه عليك لأنك صديق».

وفجأة وجدت نفسى فى ورطة تقريبا. «إن ذلك ممتع، ولو أنها صعبة جدا أو مهمة مستحيلة إلا أننى مهتم بذلك. أخبرنى المزيد. »

وقال هو يغوص فى كرسيه: «حسن، إن المهمة عن المخابرات. أحتاج واحداً ليتولى إعادة بنائها. ماذا تعرف عن المخابرات؟ »

اجبته بكل أمانة: «حسن، أعرف الأساسيات. ففى فرنسا المحتلة، اعتدت القيام ببعض التجسس خلال الاحتلال الألمانى. كنت أسافر إلى فيشى وازور صديقى الطبيب رالف هنزين الذى عمل بعد ذلك مع يونيتد برس، أو مع الناس فى السفارة الأمريكية، وأخبرتهم عن النشاطات المختلفة للألمان فى فرنسا المتحدة ونورماندى. ما المطارات التى قد يقومون ببنائها والتى يستخدمونها، شيئ من هذا القبيل.

ثم كانت هناك دقتى بالطبع مع الجنرال جوين عندما تعاملت مع تقارير مخابرات الحلفاء وذلك من وجهة نظر هيئة الجنرال فى السنوات النهائية للحرب.

ولكننى أخشى أن أكون أعرف القليل جدا عن الأرض الرحبة للمخابرات.»

كنت أعنى بالطبع أن بومبيدو كانت لديه مشكلة حقيقية جدا بالنسبة لجهاز مخابراته برمته. الخدمة السرية كما يسميها ـ كان اسمها الحقيقى هيئة الالمام بالمعلومات الخارجية ومكافحة التجسس ـ قد سقطت فى أوقات الشدة نظرا لعدد من حالات التدخل المفرط فى الشئون الداخلية للبلاد الأخرى ولبلدنا بما فى ذلك القتل والاغتيال. وكانت القضية الفظيعة (الفاضحة) قضية ١٩٦٥، قضية مهدى بن بركة. الاستاذ الجامعى اليسارى فى المغرب، أسس بن بركة حركة المعارضة المغربية وبعد سلسلة من الأحداث تم نفيه وحكم عليه بالإعدام غيابيا فى بلده. وقد تم منحه حق اللجوء السياسى فى باريس حيث استمر فى نشاطاته ضد النظام المغربى الذى كان لدى جهاز أمنه روابط وثيقة مع جهاز أمننا ـ وهون إرث آخر لنظامنا الاستعمارى ففى شمال إفريقيا الفرنسى. تم اختطاف بن بركة فى ليلة ٢٩ أكتوبر عام ١٩٦٥ فيما سمى بعملية مشتركة بين المخابرات الفرنسية والأمن المغربى. كان اختفاؤه ضربة أخرى عميقة الثقة لجهاز الأمن الفرنسى برمته. كانتصورته فى العالم الخارجى وحالته المعنوية فى الداخل فى أدنى الحالات لمدة طويلة. انقاذا لهذه المنظمة (الهيئة) وبناء مخابرات فرنسية على أساس احترافى جديد سيكون مهمة هائلة فى الحقيقة ـ وقد تنفجر فى وجه أى فرد قد يتولاها. وكانت المهمة أمرا ضروريا واضحا. أولا جهاز المعلومات الخارجية ومكافحة الجاسوسية احتاجت إلى أن تقام على أساس احترافى ـ وإبعاده عن السياسات الداخلية حيث لا دخل لأى مخابرات بأى عمل يلطخ يديها. ثانيا، إن المخابرات تحتاج إلى البدء فى العمل فى أسلوب يساند الأهداف الدولية الفرنسية والاستراتيجيه لفرنسا، وتلعب دورها المناسب فى

جهد التخابر للحلف الغربى الذى انخرط بعمق وفعلا فى الحرب العالمية الثالثة.

وبومبيدو بمراقبة وجهى فهم بوضوح العديد من الأفكار المتسابقة خلال ذهنى ـ وقد أدرك أيضا طبيعة المخاطرة المتمثلة فى قبول المركز. ولذلك استمر بسرعة قائلا: «إذا عشت هذه المهمة المستحيلة فلن أتركك فى موقف حرج. سأنعتك باسم «مستشار الدولة:»

لم أرد على بومبيدو ذلك المساء. وحقيقة بعد عام من وقت تلك المناقشة ـ عام خلاله راجعت تفكيرى ثانية وثانية حيال عرضه غير العادى.

تم انتخاب بومبيدو فى يونيو ١٩٦٩ كرئيبس بعدما تقاعد ديجول نهائيا، حيث كان رئيسا للوزراء وتحت هذه الترقيه.

تقابلنا ثانية بعد انتخابه بمدة قصيرة. وقال لى : «لافائدة. إن المخابرات لاتعتمل بطريقة لائقة. ويقول رئيس أركانى إن هناك شيئا واحدا يجب القيام به. إنهاء الإدارة برمتها وبدئها ثانية من جديد».

فأجبت: «إننى لا أعرف شيئا عنها، سيدى الرئيس. ولكن امهلنى بضعة أسابيع وسأفعل ما استطيع للحصول على منظر لابعاد المشكلة على الأقل.»

كان بعض أصدقاء وقت الحرب فى الخدمة السرية (المخابرات). فطفت بالآراء، وفتشت فى بعض احلك الفجوات ظلمة لأجل الأغراض المعنية غير الوحشية حقيقة. ثم عدت إلى قصر الإليزيه وجورج بومبيدو.

بدأت القول: «أظن ياسيدى الرئيس إن فكرة إنهاء الادارة والبدء فيها من جديد لهى فكرة سيئة.» لأن الوقت المحفوف بالمخاطر سيفقد هيئة جهازك

البوصلة الدقيقة. إن ما تحتاجه المخابرات هو إعادة تنظيم كامل وتطهير عدد من العناصر الهدامة. لكنه يمكن البدء فى ذلك فورا. وإذا نجح الأمر سوف يكون لديك ثانية جهاز فريد سيساعد فى إرشادك خلال القرارات الصعبة للغاية وخلال الأزمات الأكثر خطورة. إلا انه لو اضطلعت بهذا العمل فإنه يتوجب عليك أن تثق فىِّ مائة بالمائة.

فتسعة وتسعون بالمائة غير كافية.»

وافق بومبيدو على الفور. ظل أمر تعيينى سرا للغاية حتى آخر لحظة ممكنة، وأذعناه بعد اجتماع الوزراء فقط الذين وافقوا عليه. إن تعيين رئيس المخابرات فى فرنسا هو تعيين رئاسى. لايحتاج البرلمان لأن يصدق عليه ـ ولايصدق عليه سوى مستشارى الرئيس (وزارته الخاصة به). حتى ان وزارة الدفاع لم يتم إشعارها إلاّ قبل بضع ساعات من الإعلان. حدثت مفاجأة لكل واحد. وأصيب الكثير بصدمة.

إنه فى يوم الإعلان عن ذلك فى التاسعة صباحاً وصلت إلى ثكنات طوريل فى المنطقة الإدارية العشرين فى باريس وهى بعيدة. وكانت ثكنات عسكرية، إلاّ انها تستخدم كمقر للمخابرات ـ كالمخابرات المركزية الأمريكية عرفت بعد ذلك (بالادارة العامة للمخابرات الخارجية) وكانت تعرف أيضا ورسميا بحمام السباحة، وهو تعبير الصحفيين حيث يوجد حمام سباحة للبلدية بالقرب منها. إننا نسميها ببساطة (الهيئة». لم أذهب للسباحة هناك على الإطلاق.

ولكننى غصت فى أمر الفساد والعجز الذى أصاب أجزاء من المخابرات بالشلل.

اخترقت سيارتى الحكومية البوابات الرئيسية ومرت بالخضرة العريضة بسارية علم بيضاء. وقف ضابط المخابرات وقفة انتباه وأدى التحية. كان على وعى تماما بالحقيقة ولو أننى مدنى إلاّ أننى أحمل رتبة أربع ـ نجوم. اعتلينا بسرعة الدرجات وعبر الأبواب الأمامية الضخمة وجدت نفسى فى مواجهة جدار (حائط) أبيض صلب.

علقت على ذلك الجدران بعد ذلك سيف هوميروسى. ثم انحرفنا بشدة يمينا ودخلنا مكتب المدير العام ـ مساحته خمسون ياردة مربعة.

كان هناك الكثيرون ذلك الصباح فى انتظارى الذين لم ـ يحبذوا فكرة وجودى هناك. استطعت أن أرى ذلك فى عيونهم، القليل ممن رأيتهم مباشرة. كان باستطاعتى استشعار ذلك . ولم يعرفوا أن بعضا منهم كانوا على وشك الإقصاء.

كنت أحمل فى جيبى فى اليوم الأول قائمة قصيرة لكنها أساسية للأعمال التى يتولاها بعض الناس. عرفت بالضبط من أين ستكون ضربتى ومن الذى يجب إقصاؤه دون تأخير.

ولأنه توجد الكثير من القوى داخل المخابرات عرفت أنه تم رصهم ضدى، قررت أن أضرب أولا وبوحشية كبيرة. لذا كان أول صباح، فى ثلاث ساعات، اقتلعت نصف دستة من الرؤوس ينتمون إلى أناس عرفت أنهم لم يكونوا النوع الذى أردته للعمل معى. فهذا الأمر من المؤكد باغتهم.

قمت بطرد ثلث المديرين فى أول يوم ـ وأبرزهم مديرو الأبحاث، مكافحة التجسس، والتكنولوجيا. واتبعت روتينا بسيطا. الكبار، استدعيتهم إلى مكتبى الواحد تلو الآخر.

وإن أولئك الذين كانوا ضباطا عسكريين ويقفون وقفة انتباه بسبب رتبتى العسكرية ذات النجوم الأربع. وقف الآخرون ببساطة أمامى بانتظار دعوتى لهم للجلوس. وإنه بالنسبة لأولئك الذين أريد أن يأخذوا انطباعاً فظاً عنى كنت أقول لهم بغلظ بعد أن يكونوا قد عبروا مساحة عريضة من الغرفة حتى مكتبى فى الركن: «لن أطلب منك الجلوس لأنك مفصول».

حدثت لهم بالطبع صدمة. سألنى احدهم مندهشا: «حسن، ولماذا؟»

أجبت بجفاف: «لأننى لا أثق بك.»

«إلاّ أنك لاتعرفنى. هذه أول مرة نتقابل.»

«لم أقابلك من قبل، لكننى أعرف من أنت،» واختتمت القول.

ببساطة هكذا .إلا أنه لم ينه كلامه واستمر بابتسامة متكلفة على وجهه:

إنى متأكد أنه بإمكاننا عمل ترتيب.»

فنهضت من كرسيى. كنت رجلا ضخما وأكثر شبابا فى تلك الأيام وقويا مثل الثور. فجذبته من ياقته ورفعته عن الأرض. وأشرت إليه فى اتجاه الباب المغلق الذى دخل منه منذ فترة وجيزة على بعد خمسين قدما وقلت له: «هل ترى ذلك الباب؟ أمامك خمس ثوانى لتعبر عتبة الباب وأنت بكامل وعيك وإلا ستعبر دون أن أفتحه لك.»

أخبرنى مساعدى بعد ذلك أنه قال للرفيق هذا عندما خرج من الباب: «تعرف أنك محظوظ لأنك لازلت على قيد الحياة. فالمدير العام كان بإمكانه سحقك إلى قطع.»

انتشر هذا الكلام بسرعة عبر الثكنات فى طوريل فى الصباح الأول. ذلك

الأفراد الذين كانوا بالصف بعده كانوا يرتجفون برمتهم. كانت استراتيجيتى فعاله للغاية.

لذا كان الأمر مروعا لدرجة أنه فى الأيام والأسابيع التالية استلمت عدداً من التهديدات الكثير منها بالقتل. فهناك مذكرة تم تجميعها وقراءتها: «لن تدوم أسبوعاً. وقد تم تجميع هذه المذكرة من خطابات بمجلات. وهناك تحذير أخر يقول :«سوف ننال منك.»

فهناك كثير من العناصر الخطيرة فى المخابرات ، بعضهم فى مراكز عالية وقوية لم انجح بعد فى كشفهم. فإما هم أو أنا. وكما ترى، فإنى على قيد الحياة. ومخابرات فرنسا مستمرة أيضا.

الفصل الرابع

(الالف طبقة)

اللقب الخاص بى فى العمل السرى. هو «فيلنيه» وهو اسم فطيرة فرنسية مدهشة ومعروفه فى الخارج جدا مثل نابليون. وهى تتكون بدقة من عدد كبير (مليون مثلا) من طبقات رقيقة من المربى ، وهكذا كان العمل السرى ، مزيجاً من طبقات لاحصر لها من المربى . ولكنها بدلا من انتمائها الى الحلوى اللذيذه التى تتحدد كل صباح فى ايدى الخباز الماهر ، فانها قد تراكمت على مر السنين واخذت فى التحجر وهكذا فعندما حان وقت وصولى كانت قد تحجرت ، هنا يوجد فقط اناس وافكار عتيقة ومهجورة ، فى احسن الاحوال اصبح اسلوبا اقل فاعلية ، تجميع عقل ، ثم استخدام ذلك فى العمل فى رئاسة الامن القومى ، والاسود ان ذلك يصبح بالضرورة مسئولا قانونا عن احتمال اغتيال للرئيس، مطلوبا للاستجواب فى محاكمية سلطية تعوق هؤلاء الذين يديرون نوة الحياه او الموت ، نزاعته التامة فى التسلط .

إنها ستكون بالقطع مغالاة ان اصرح بأن ذلك الوضع السئ كان موقف الرئيس بومبيدو فى تلك الايام الذى كان معلوماً فور وصولى الى توريلز باراكس ، كان الرئيس غاضبا جدا من اداء الخدمة السرية ، وكان اختطاف واختفاء بن بركة فقط اهم شئ ظاهر من الممارسات الفظيعة التى نقوم بها SDECE (جهاز النشاط الخارجى ضد المواجهة الفرنسية) كان يعمل خارج فرنسا ، فى بعض الحالات حتى اهالى « ميليو» أو المافيا المؤسسة كانوا يجندون للقيام بمهام معينه تحت ستار الامن القومى ، كان يقال ان بعض

العملاء كانوا يهربون مخدرات واسلحة واخرين كانوا يكلفون بالخطف والقتل وانجاز الاهداف الدموية ، وحقيقة فإن بعض الشخصيات التافهة كانت قد القيت ملفاته لدى الشرطة وامر بفتح محل طناجن جديد للدولة الفرنسية ، غير ان الاغلبية ظل يقوم باعماله القذره بايماءة .

البزيتات الاسبانية المزيفة من السهل إدخالها الى سوق تناول العمله عن البزيتات الفرنسية كان نزيفاً ، كان يقال للمساعدة في تمويل نشاط حرب العصابات الموالية لفرنسا في الجزائر استعان ماركو فيك الحارس اليوغسلافي الخاص للنجم السينمائي الفرنسي آلان ديلون كان قد جرى همس في باريس لا يمكن تصديقه ، عن تورط مدام بيبدو في حفلات معينة حيث يكون هذا اليوغسلافي غالبا موجودا ، الاشاعة القبيحة ضد مدام بيبدو ، السيده اللطيفة جدا التى تشارك زوجها حبا عميقا ، كانت لا اصل لها ، ولكنها كانت تستخدم بواسطة مجموعة صغيرة من المعارضة السياسية لزوجها .

بالكاد مر شهر بدون ان تقع بعض الفضائح الجديدة التى تثير الصحافة ، وترتبط باسم « جهاز النشاط الخارجى ومواجهة الجاسوسية » بالنسبة لادارة الرئيس يومبيدو ، كانت ولعدة اسباب خاصة اسوأ من ايام ، ووترجيت وانعكاسات إيران تدور نحو الشخص .

هؤلاء الذين ارتبطوا بها ولو حتى بالاهمال كانوا يتطلعون في صمت الى وسيلة يمكن ان تمحو وتجلب الصفح عن مثل هذه الانشطة باسم اداره الامن ، ويجب ان تحذف بسرعة ، كانوا يستطيعون العمل على إحباط الروح المعنوية ، ارباك الجمهورية ، ومنع الرئيس معه نهائيا من اداره العمل اذا كان ممكنا .

لقد جئت للحصول على حصة كبيرة من الاختصاص وتعاطفا مع الرئيس بومبيدو فان الاختصاصات كما اعتقد كانت متفائلة ، فمنذ البداية قلت ١٠٠٪ من ثقته واطمئنانه ، تماما كما وعد هو ، كنت على وشك ان تكفل للخير التى يمكن ان تجبل قضايا سياسية صعبة جدا ، هكذا قبل ان ابدأ ، كنت منتميا الى المناصب الضعيفة فوق العادة ولم نذكر الخطر الادنى ـ الذى كنت على وشك ان اشغله وقد طلبت طلباً اخيرا وهو ان يقف معى تماما كنا نلتقى كالعادة فى تلك الايام الاول واحيانا كثيرة يتم ذلك فى مكتبه الخاص فى قصر الاليزيه، وقد كان المكتب غاية فى الزخرفة.

وكان المكان يلائم أنه يستخدم للاحتفال بمناسبة رسميه، الحوائط كانت مطعمه بماء الذهب. وقد احيط السقف الذى ارتفاعه ٢٠ قدما. بنوافذ كأرصفة للسقف والتى تفتح كالابواب على شرفات من حديد، والتى تطل بدورها على مساحات كبيرة من الحدائق، والتى تطل بدورها على مساحات كبيرة من الحدائق المقلمة بعناية، ومع أن هناك نصبح ظلاما تماما عند الاصيل، فالليل يخيم عده ساعات مبكرا فى شتاء فرنسا عنه فى واشنطن أو نيويورك. المصابيح الصغيرة ذات الاذرع الثلاثة والمسماه بنيلون كانت بالفعل قد اضيئت فى مكتب الرئيس عندما كنت اجلس فى المقعد ذى المساند موديل لويس السادس عشر والمواجه لمكتب الرئيس الذهبى المصنوع من خشب الماهوجنى.

– وبدأت الحديث قائلا: انت تعرف ياسيادة الرئيس أنك وعدتنى عندما وافقت على هذا المنصب أن احوز على ١٠٠٪ من ثقتك.

–واجاب بلطف: نعم

-يجب أن تكون لى حرية التصرف فى تعيين أو عزل من اختاره.

- واجاب ثانية: نعم.

أغلق الموضوع . وناقشنا بعض وقائع اليومين الاولين فى المنصب. لقد كان مبتهجا أن ينمى بالتظهير (جهاز النشاط الخارجى ومكافحة الجاسوسية» قد بدأ مبكرا جدا، ولكنه كان بريسر الاختصار بقدر ما يمكن بالنسبة للولايات المتحدة، والتى كان على وشك أن يقوم بزيارتها. وليونيد بريجنيف والذى بدأت صحته بالفعل فى التدهور. تحدثنا بايجاز عن كل الموضوعات ووعدت بمزيد من التفاصيل بعد مناقشة هذه الموضوعات مع خبرائنا من خلال البحث والنتائج. وهنا اخيرا يستعيد «جهاز النشاط الخارجى ومكافحة الجاسوسية» كفاءته التى لا تجارى. وقفنا.. واصطحبنى إلى الباب وبعد ذلك عانقنى بلطف وابتسم وعندئذ عرفت أنى نلت ثقته. وعزمت إلا افقدها ابدا وعاهدت نفسى ألا اسيىء استخدامهاابدا.

على ذلك فقد ايقنت، انى الآن تأكدت أن رئيس الدولة اصبح خلفى ولتحقيق خطتى بأسرع ما يمكن. بأن خطوتى الأولى كانت أن أركز اهتماماتى على رئيس الوزراء جاكوس شابان ولماس، وبالرغم من أنى احمل له احتراماً كشخص، فقد عاينت مكتبه، بؤره العاصمة السياسية فى فرنسا- بارتياب عميق. وفى فندق اتيمايتجنون، حيث المكاتب والسكن الفاخر لرئيس الوزراء، اصطحبنى الحاجب إلى السلم الرسمى الذى يبدأ حلزونياً من القاعة فإن صدى خطواتنا يدوى فى الممر الرخامى يبدو كنا بصفة للطابق الثانى.

وفى القمه، قابلت الجنرال بيير بيلوت قادما عبر الباب الضخم المزدوج لمكتب رئيس الوزراء.

لقد كان بيلوت فى موقف ما ولفترة قصيره وزيراً للدفاع وببساطة شديدة اصبح فجأة بليونيرا بدون اسباب. وتوقف لقبول كلمه موجها وجهه فى مواجهة وجهى مباشرة، ربما أنه أيضا حل ضخم فقد أصبحت انفه فى انفى « منصبك »، قالها متبجحاً، وليكن ،وقحاً! فإن الوظيفة لى قانونا ».

ابتسمت بلطف وشكرته بهدوء على كلماته الرقيقة مسترجعاً حقا، كيف يكون من الخطوره جدا الخلط بين عمل السياسى والموظف وكيف يمكن وجود هذا الصراع الحقير فى اسلوب عمل موظف توقفت تحليلاتى بعودة المساعد الذى ادخلنى بسرعه إلى مكتب السيد شابان دلماس. ومثلما كان مكتب رئيس الجمهورية، كان مكتب دلماس.. منشقاً جدا ويطل على حديقة جميلة جدا. معظم المبانى الرسمية الفرنسية كانت يوما فنادق خاصة أو بيوتا حضارية لكبار النبلاء الفرنسيين، صممت لتكون كواحه هادئة ومورقة وسط ضجيج العاصمة الفرنسية والآن، فإن كثيرا منها مازال يمثل ملجأ فى وسط الاضطراب السياسى والدبلوماسى . وقف رئيس الوزراء ليحيينى بابتسامة عريضة وبمسكة قويه من يديه:

وبدأ قائلا: صديقى العزيز، نحن كلينا محاربون قديمون . ومن المساوين المحنكين القدامى.إننى اشعر بالخجل لأنى لم افكر فيك تشغل هذه الوظيفة ما اعظم ما فعله رئيس الجمهورية ذلك أجمل أمانى، وكل ثقتى لتأتى لمقابلتى فى الوقت الذى تريده يأتى وخط تليفونى الخاصين مفتوحين لك ليلاو نهارا وتوقف ودار حول مكتبه وقال:« انت تعرف أننا نستطيع أن نعمل معا. هذا رقمى السرى وسأكون تحت امرك.

دار حديثنا حول موضوع إعادة تنظيم« جهاز النشاط الخارجي ومكافحة الجاسوسية. وعرضت افكارى حول السرعة المطلوبة والفاعلية اذا نجحت العملية واعيد علماء فرنسا إلى مواقع نافعة كأدوات لخدمه الدولة والحكومة، نكون قد عثرنا المشهد بالنسبة لبعض اصعب موضع للمشاكل فى العالم. وعندما كنا نطوى الحديث. توقف للحظة، وسألته عما إذا كان لديه اقتراحات للمساعد.

واجاب« لست لى حاجة أن اشرح لك الشئون الدولية فقد كنت فارعا فيها معظم سنوات حياتك. ماذا يجب أن اقترحه عليك؟ حسنا يوجد رجل... رجل ربما تعرفه... واراه من حين لآخر. لديه تذوق محدد جدا بالنسبة لهذا النوع من الامور. اننى اتكلم عن جنرال بيلوت».

تركت الجمله الاخيرة معلقة لفترة طويلة من الصمت .

وقلت مبتسماً:" سيادة رئيس الوزراء، اشكرك جداً لقد حدث أن قابلته خارجا من بين مكتبكم منذ دقائق قليلة "!!.

واحس بالخجل . وابتسمنا. وغيرنا الموضوع .

وانتهى حديثنا بايجاز. بالرغم من ان معظم التحويل السرى لجهاز النشاط الخارجي ومكافحة الجاسوسية يأتى من مكتب رئيس الوزراء، فإنى دائما كنت أشعر براحة اكثر بتوجيه تقاريرى إلى رئيس الجمهورية. فضلاعن ذلك فإنه كان مع بومبيدو، جيسكار وميتران اللذين عملت معهما فعلاً (غير أننى عملت مع ميتران لفترة قصيرة) .

أكثر من ذلك، كنت أشعر ان ذلك كان ان أمراً حتمياً تماما. ان الروابط التنفيذية بين السياسة الفرنسية وجهاز النشاط الخارجي مكافحة الجاسوسية

يـحب أن تدار بطريقـة باتـه. ومـكتـب رئـيس الوزراء ابـعد بـكثـير مـن خدمـة السياسـة الـفرنسيـة من مـكتـب رئيـس الجمـهوريـة. الـذى يجب طبقاً لـشرعـيتـه الطبيعيـة جداً ان يـكون ملماً بالرؤيـة الدوليـة العريضـة،والموزعـة طبقاً لـقضـايا الحريـة والسلام، والدبلـوماسيـة والاستراتيـجيـة والتـى تـتـعلـق بشكـل شرعـى ومباشر بالاستخبارات الفرنسية الخارجية. على مر التاريخ كانت دائماً تجربة مـغريـة للقائـد الاعـلى للأمـة بأن يسـتخدم الخدمات السريـة للمخابرات لانجاز عمليات تعينه تتفاعل مع السياسة الداخلية. ومع أنه كان يمثل السلطة للادارة الاعلـى فإنــه لـم يـحدث ابـداً ان طلـب منـى رئــيس فرنســى ان اقـوم بمثل هذا العمل الشاق.

كثيـر مـن الافـراد علـى اتـصالات وثيـقـة بهؤلاء الـذين قـررت ان اظهـرهم بـين جهـاز الـنشاط الخارجى ومكـافحـة الجاسوسيـة تحولـوا الى مؤيـدين للـسيـاسيـين الـذين كانـوا زرعـوهم بعـنايـة . خلال السنـوات. لقـد كان ذلـك مشكـلـة بالـنسبـة لنظام التغير الدائم للمدير العام، والذى كان واحدا من أكثر الخصائص الموغله فـى جهـاز الـنشـاط الخارجى ومـكافحـة الجاسوسيـة حتـى وصولـى. نـادرا مـا كـان المدير الـعام يملك الـقوة السيـاسية أو الثـناء للوقـت اللازم للتـخلص من بـعض هذه الشخصيات. بدلا من ذلك ارتبط العملاء ارتباطا وثيقا بالسياسيين الاقـوياء الذيـن سيطروا علـى الجهاز. إحدى هذه الخواص السياسيـة التـى اكتـشفتـها من خـلال هذه الايام المبكرة . كانت إنه كلما كان المخبر جاداً - سنقول الايطاليون- فـانه يكون اكثر مهارة حسن ذلك الذى لديه نوع ما من الاحساس الخاص عندما يصل الامر إلـى سياسه الخداع) كان هؤلاء غالبا اذكيا تماما ولديهم ومخادعون بدرجة كـافيه لا قـتلاع اى شيء يقف امامهم. احيانا مـا طلب متهم أن يقتلعوه

ربما كان معروفا فقط لا غير بالنسبة للصديق أو دوى الاتصالات الخاصة. واحيانا الخدعة ربما تكون تعود خصوصا بالنسبة لهؤلاء الذين لديهم القدرة المالية ويودون امتلاك الثروة كلما امكن.

كان هدفى كل هؤلاء فى داخل أو خارج جهاز الاستخبارات. والذين سعوا لاستقلال خدمه الدوله لأنفسم. فلو أن أحد افراد الجهاز اصبح قوة الشرطه السياسية ثم بعد ذلك اذا تغيرت الرئاسة من حزب لأخر فإن الرئيس القادم سيدمره - ضابط المخابرات ليس رجل شرطة. رجل الشرطة يريد أن يقتل الارنب أو يعتقله. أنا اريد أن اراقب الارنب لأرى أين يذهب اذا هو دمر فربما يوجد ارنب اخر، ولكن ربما قد احتاج خمس سنوات للعثور عليه: فوق ذلك فقد قررت أن استخدم كل الحرص فيما اتخذته لتضييق الجهاز امام السياسيين الفرنسيين، وليس فقط بعض المديرين العموميين الذين سبقونى ولكن ايضا الذين يأتون بعدى بقدر المستطاع حيث يكونون اقل ارتيابا وبالضرورة يقللون بشدة من استغلال جهاز النشاط الخارجي ومكافحة الجاسوسية فى تحقيق مكاسب تعود إلى جيوبهم أو جيوب اصدقائهم.

بعض الشخصيات غير المرغوب فيهم والذين كان لى شرف مواجهتهم كانوا قد عينوا بواسطة اسلافى المختلفين وكانوا مرتبطين تماما بشخصيات سياسية بالاضافه إلى الاحزاب السياسية مشكلين صفاً عريضاً من المعارضين. ولكن هدفهم النهائى كان أن يبذلوا اقصى جهد يستطيعونه من نفوذ لتحقيق كسب فى اعمالهم الشخصية وخاصة مع دول الكتلة الشرقية هذا ومع مجموعة رجال الاعمال كما كنت اطلق عليهم، يداومون على التجارة المربحة ضمن اخرين مع الدوله السوفيتيه واتباعها.

«إن علينا أن نساعد التقدم الروسى أيضا » واحد من هؤلاء المندوبين أو الوسطاء المنشقين فسر ذلك فى مكتبى محاولا تبرير دوره فى المحافظة على قدمه فى المعسكرين ومعسكرنا ومعسكرهم. إن بريجنيف يتحرك باضطراد نحو بعض الاصلاحات الليبرالية.

اننى غالبا أسمع عن مذهب يتكرر عن التحول وأن الوقت مناسب عن «جوربا تشوف يتحرك بنفس الطريق مثل دينج خويبج مثلا.

عندما بدات أتحرك نحو هؤلاء الذين خربوا جهاز النشاط الخارجي ومكافحة الجاسوسية و بالرغم من انه ليس لدى طقم مبدأ المواجهه)) و كنت ادير امورى- فى كليهما أيام التطهير المبكرة والمكيده والآن. كنت أقول دائماً لمرؤوسى سواء مدنيين أو عسكريين.

«أيها السادة. فلتكونوا واعين لتلعبوا بالكروت التى لديكم وليس بالكروت التى تتمنون أن تكون لديكم».

اخبرونى كيف سوف نقوم بذلك لاكيف لن تسطيع».

هؤلاء الذين اتبعوا هذين الامرين عملوا ما فى وسعهم خلال فتره وجودى كرئيس للاستخبارات الفرنسية. وصدقونى، لقد كنت بنفسى اقرر من الذى كان يفوز ومن الذى كان يخسر أنا بنفسى كنت اضع النهايه، بالنسبة للقرار الذى احيانا عن الحياه أو الموت . ولكن دائما كلتا عينى كاتا ثابتتين برسوخ على الهدف النهائي وشرف الخدمة.

لقد اكتشفت سريعا أن وظيفه مدير عام «جهاز النشاط الخارجى ومكافحه الجاسوسية هى واحدة من اكثر الوظائف عزلة فى العالم. فهو ليس له شركاء

قريبون . القرار النهائى له. واذا كانت النتيجه مرضية فان المجد يكون للسياسيين. ولكن اذا كانت نتيجة العمل سيئه فإن عليه أن يحصر بكل تأكيد مرارة مايترتب على ذلك.

ومن جهة اخرى فإنها وظيفه كل بل فهى القوة، والوسائل الكبيرة انت لديك فرق الصدمة لاستخدامها كما تريد، اوراق مزورة، ميزانية خاصة. لا شيء يمنعك إذا كنت ترغب فى محو أى سياسى أو حتى رئيس الدولة لانك لاترغب فى الموافقة على ما يقوله. الاراده الحديديه والسلوك الشخصى فقط هو الموضوع الذى يجب أن يرافق هذه الوظيفة المذهلة لتحمس المدير العام من اساءة استعمالقوته.

أنا آخذ اوامرى من رجل واحد فقط - هو رئيس جمهورية فرنسا. انه هو الذى يتحمل وحده المسئولية النهائيه والعبء النهائى فهو يتخذ القرار وينفذه بأمانه- مهما كنت موافقا عليه أو غير موافق ربما تحتج أو تحاول استمالته، ولكن اذا هو لم يقتنع بالعدول فان عليك أن تنفذ امره بهدوء تام. هذه القوة لتحريك أحداث العالم يتحكم فيها رئيس امريكى بواسطة ضغطه من إصبعه الذى لا يحاسب عليه- على الزر النووى مثل هذه القوة يتحكم فيها بواسطة الرئيس من خلال جهازه السرى- القوة التى تعتبر بالفعل القوة الحيوية فى قتال اعدائنا فى الحرب العالميه الرابعه والتى اصبحت فوق رؤسنا.

يوجد خاصية اخيره يجب أن يتميز بها مدير المخابرات فهو يجب أن يكون اكثر الرجال سرية ويجب الا يكون لديه طموحات سياسية، ولا طموحات اجتماعية ايضا، فانا لم التق بالصحافة ابدا لقد طلبت من رئيسى الجمهورية

اللذين خدمت معهما بصدق بأن يعفونى من الاعمال الرسمية- المآدب الانيقة فى قصر الاليزيه، حفلات الصيد الرئاسية، استخدام الصندوق فى الاوبرا، والاحتفالات الاجتماعية التى يعتز بها جدا العاملون المدنيون. بالنسبه لمدير المخابرات تكون هذه الاشياء كالاراضى الرخوة، فهى استنزاف هائل لوقته وطاقته، وربما أدت إلى ارتباك، وأيضا التعرض للشكوك والظنون والمصادمات لقد وضعت عددا من الاستثناءات مناسبات العشاء الخاصة فى قصر الاليزيه أو فيرسال، عندما يكون الرئيس الزائر لحكومة أجنبية والذى تربطنى به علاقة صداقة شخصية طويلة ويسبب غيابى عنها اساءة عميقه.

بهذه القواعد الاساسية الثابته برسوخ فى عقلى، بدأت فى الحفر فى المنطقة المعقدة التى كنت اقودها بعزم لأحولها إلى طراز هو الاصل من نوعه لتجمع استخبارات تنظيم عملى تحتاجه الدولة الفرنسية بما لديها من عيون وآذان واياد ثرية فى الخارج. الجهاز السرى الفرنسى كان ومازال يشبه فى تنظيمه لأى منظمة صناعية ضخمة، حيث يوجد نظام مالى وفروع اداريه، ومراكز ابحاث. ولكن توجد الفروع الاخرى التى لا يوجد صور منها فى المؤسسه الصناعية كاجهزة الاتصال والتجسس المضاد والعمليات.

يقسم العاملون إلى قطاع مدنى وقطاع عسكرى كل المواطنين العموميين يحملون نفس الدرجات مثل المواطنين الذين يعملون فى الخدمة المدنية.

وبهذا الخصوص فقط فهم لا يختلفون عن البيروقراطية الذين يعملون فى وزارات الزراعه والشئون الخارجية أو مكاتب البريد.

العاملون فى القطاع العسكرى يوصفون غالبا فى المراكز الكبيرة بالنسبة

لعملهم فى جهاز الخدمه المخابرات تبعاً لفاعلية تخصصاتهم- وعلى سبيل المثال فى الشئون العربية والاسلامية، أعمال البترول أو شئون قبائل البدو فى الصحراء توجد أعمال أخرى للضباط العسكريين وهم الذين ينتدبون للعمل بالجهاز لفترات قصيرة قبل عودتهم إلى وحداتهم.

يوجد ايضا ضباط احتياطيون يلحقون بالجهاز وهم الذين يحكم مواقعهم المدنية يمكن أن يكونوا فى أى وظيفة أو أى قطر. هؤلاء وغيرهم من مندوبى المخابرات يطلق عليهم «مندوبين فخريين» وهم يكملون الرسم البيانى لتنظيم جهاز الخدمة السرية- يشغلهم فى النهاية الاماكن الخالية على امتداد الحدود. فى فترة قيامهم بدورهم كرجال مخابرات ربما يرقدون ساكنين أو بلا استخدام لسنوات، ولكن ربما فجأة يصبحون اهم اعضاء جهاز المخابرات اثناء الليل. أنت قد تجد واحدا كان سائق تاكسى وآخر كان صاحب مقام كبير فى الكنيسة، أو حتى وزيرا حكوميا. البعض قد يدفعون لعملهم- للكسب تماما -مبلغاً من المال- ولكن الاغلبيه يقومون بهدوء بتأدية عملهم من خلال احساسى بحب الوطن وحبا فى الفخر فقط. انهم الرجال والنساء الفرنسيون الذين قد يقتحمون المخاطر بصمت ليصلوا بحماس شديد الى المناطق التى يستطيعون منها ان يروا ويسمعوا ما يمكن ان يكون له فائده لبلدهم .

هذا ليس معناه القول اننا نحن الفرنسيون نملك هذا الامتياز فى مثل هذا النشاط او مثل هؤلاء الافراد ، ان كل امه تتبع هذا النهج. الامريكيون يحصلون على معلوماتهم بسرعة اكثر بكثير عنا ـ مصادر من كل من البشر والمال بكثير عنا ـ مصادرهم من كل من النشر والمال تتوق العظمة ، جيراننا

السويسريون الذين يحافظون على حيادهم بحماس ، لديهم الشبكة التى تعتبر بصفة خاصة واسعة ، كل رجل سويسرى هو عضو فى ميلشيا تلك البلدة ، وهم قادرون على استدعاء الضباط الاحتياطيين الذين يسافرون بعيدا فى اعمال مركبة سرية وفى الاعمال المالية التى يفضلها السويسريون جدا ، إنهم يبتهجون بالحفاظ على الاتصال بالحكومة الفيدرالية فى برن من اى مكان يحتمل ان يكونوا فيه .

وبهذا الخصوص فإن كل اجهزة المخابرات لديها الكثير من الاتصالات ـ فهى اشبه بالعصاره الكبيرة يتم تغذيتها باعداد لاحصر لها من جزئيات المعلومات. مئات أو آلاف من هذه الجزيئات كل يوم لتتمكن من استخلاص الجوهر ومن خلال القطرات الى تتقاطر بعناية وتنقى ، سيضمنون هذا الجوهر فى التقرير اليومى المعد بقصر الاليزيه وعملية تجميع المعلومات هذه توضح واحدة من اكثر الفرق الجوهريه لجهاز المخابرات وان كانت اقل اثاره ، إنها اكثر الاعمال جهدا وكدحاً ، ليس هنا جيمس بوند بطل اقل من ماتا هيرس ، بعض قليل من الذى تم اسقاطهم بالبراشوت لحظه ما وبعد ذلك قد يتم دعمهم بجاسوسة سمراء و تجميع المعلومات يحتاج الى اخصائيين فى العديد من الانظمة السرية او المواقع فى عالمنا ـ مسلحون ليس بالبريتا ولكن بالقدرة على تفسير اكوام المعلومات من الكتب والصحافه وتوجيهات الراديو وتقارير الميدان .

انهم يجب كذلك ان يكون لديهم القدره للتفرقة من بين الحقيقة والخيال وبين المزيف والمخادع والصادق ، ونظرا للتعقيدات الدوليه فان عددا كبيرا من الرجال المتخصصين يتم اعدادهم للعمل فى مقايضة المعلومات بالنقود ، فى ظل اى

مكاسب المخابرات يقوم هؤلاء الافراد بعملياتهم ؟ الاغلبية يعملون لحسابهم الخاص ، وفى عملية الالتقاط للمشاركه فى العملية التجسسية التى قد تتعثر بسبب حقيقة هنا او هناك يحاولون كسب اجر تافه ليوم من خلال مناقشتهم فى مواضع النفايات فى العالم ، ولكن يوجد انجازات ساطعه بالفعل ، ان لديهم تخصيصاً فى المعلومات التى يحصلون عليها ـ أو التى يستنبطونها ويريدون بيعها ، كيف يتم الحصول عليها ؟ ، فى اوقات العمل النشط للمخابرات فى المنطقة التى يمارسون فيها اعمالهم الخاصة ، وفى الغالبية العظمى يكون ذلك نيتجة حضور اجتماعات ، حفلات عشاء قراءة بالصحف الاجنبية ، بالاختلاط مع مجموعات الحالمين ، ومجالس الشرب فى مناسباتهم الشخصية ، انها وظيفة المتخصصين للاستماله ، امام تبادل المال فى الايدى ، سواء كاتب المعلومة تساوى الثمن بحيث تكون قادرا على القول ما احضرته لى لاتيمة له او حقيقة اننا نعرف ذلك .

واحد من امثال هذه الشخصيات المغلوبه ، كنت قد تعرفت عليه من خلال عمله كان قد امد جهاز النشاط الخارجي ومكافحة التجسس إس ـ دى ـ إى ـ س اى بالكثير او القليل من المعلومات لسنوات عديدة قبل وصولى كمدير عام للجهاز وكان اسمه الكودى كاردينال ، اصبح ذا سمعة طيبة بعد فتره من الوقت بسبب تورطه فى الطائرات الشجاعة ـ وهى عباره عن جهاز نقل جوى غير عادى والذى قيل انه لديه القدرة على شم وجود احتياطى البترول اثناء الطيران فوق أى اراضى ، وقد كان قد كلف الحكومة الفرنسية ملايين كثيره من الدولارات لاستيعابه وكان هذا النظام ضحية لعملية اختلاس ضخمه ، نزمع انها كانت واضحة لى من التقارير الاولى ، فقد رايت ان «الكاردينال» بمساعدة

الارستقراطى بلجين الامين الساذج ، كان اكثر قليلا من مجرد رجل ذى قيمه موثوق فيه ، ما كشفت عنه تقارير المخابرات الخاصة بالكاردينال بالنسبه لما انفق عليه من المال بصعوبه ارتفعت الى المستوى المطلوب للمراقبين والذى كان الانسان يتوقعه من باحث صغير مدعوم بالمشاركة فى الصحف اليومية المختلفة . ولذلك فهو قد تزعم مجموعة ممن يحصلون على أعلى مكافآت من جهاز النشاط الخارجى ومكافحه التجسس .

خلال عده ايام من وقت وصولى وضعت وقفه مع مجموعة الكاردينال وامرت مساعدى الخاص فى ذلك الوقت ديديير ان يقذف به للخارج ، ديديير الرجل الفرنسى الحر الانيق ذو السجل الحربى تردد بعض الوقت فى تنفيذ هذا الامر الاول منى .

هكذا كانت بالنسبة لديديير اننى وجدت الغداء انى اطلقت « عمليه ابن مقرض » على خطتى لاصلاح الادارة ، تناولنا الغداء وكانت مفاجأة وبدون سابق انذار ، فان كان ديديير مرتبكا عندما كشفت اولا عن الاسم الكودى للعملية .

وقلت موضحا : عندما اقتحم « ابن مقرض » مستعمرة الارانب ، نقد الارانب رؤوسهم وهلعوا وحاولو ايجاد مخرج للخروج للهواء الطلق. كان كل المطلوب عندئذ بالنسبه للهداف هو الوصول الى أى من الفتحات .

كانت الساعات الاولى هى احرج الساعات عندما بدأ ديديير يحضر فى التنظيم ، وكما توقعت ، فان القضية كانت شخصية بالنسبة لكل رجل بعد وجد عددا من الارانب المذهولة طريقه الى مكتبه وقد بقيت فى مكتبى المجاور

منتظراً بعد عودته لكى يستكمل عمله . وكانت الاجساد مجازا قد افترشت ارضية أركان مساعدى .

شخص مثل هذا الفرد الذى قد جمع ثروة ضخمة مستغلا الامتيازات التى بنحها له جهاز النشاط الخارجى ومكافحة التجسس ، بل لم ينسى عرضا ان يأخذ الحذر من بعض القيادات السياسية الذين ربما بصفة نهائية كانوا بعض المساعدين ، تم حرقه بواسطة ديديير بناءعلى اوامرى مباشرة .

وامرت ديديير : استدعه وابلغه انه قد انتهى .

واستدعى ديديير الرجل بارتياب وابلغه خبر اقالته .

وقال الموظف متشنجا : انت تعرف ، انا رجل مهم جدا ، هل تقصد ان تخبرنى ان المدير العام نفسه يرغب ان يخبرنى انى قد احترقت ؟

وكما سمعت من خلال جهاز الاستماع المفتوح فى مكتبى ، كان ديديير يشرح بصبر قائلا : ـ

نعم ... أنك محظوظ لأنه لا يقوم بذلك بنفسه ، لانك قد تدخل مكتبه سائرا على قدميك ولكن ستخرج منه على نقاله .

كنت واقعى التفكير وصارما ولكنى مؤمن بالاعتدال . إن جهاز المخابرات ، عندما يدار بتوافق يكون مزيجا رقيقا من الحساسية الفنية والانضباط العسكرى ، وبالنسبه للعمل فيه بتوافق فى إحدى الضواحى مثل تلك الخاصة بالحرب العالمية الثالثة أو اكثر خصوصية بالنسبة للرابعة ، فانه يجب ان يكون مفهوما الفارق الرقيق لفكر العدو والمجتمع ، فى نفس الوقت بينما تقف

مستعدا للعمل مع كل جزء من الثانية لمواجهة التهديد المميت للامن القومى .

كان هدفى فى عملية «ابن القارض» هو تنقية الجهاز من هؤلاء الذين لم يكونوا لديهم الكفاءة والحماس الكافيان لانجاز هذه الرسالة ، ولاتمام عملية المزج بين المشاعر والانضباط وسط هؤلاء العملاء الذين يستمرون فى الابداع المشجع والتفكير الاصلى بينما يصرون على دقائق النظام العسكرى .

وفى يوم ، وبعد قليل من البدء فى «عملية ابن القارض» دخل نقيب شاب مترفعاً من خلال الباب الرئيسى لمكتبى وهو يلهث بشكيمه لم يعد لها وجود الآن من المعلومات. وقمت بوضعه رهينه الأحتجاز اسبوعين. العاملون بجهاز النشاط الخارجى ومكافحه التجسس كانوا يريدون أن يأخذوا أصغر مدخل للعمل جانبا .. وذات يوم بينما كنت عائدا الى «توريل باراكز» بعد الفداء فشل الحارس عند البوابه الاماميه فى ايقاف سيارتى التى كان قد ميزها جيدا ».

وقلت لسائقى: «اوقف السيارة»، واجتزنا أرض سيترون الواسعه السواد الى الموقف. وأضفت: «استدعى النقيب».

ووصل النقيب ومال نحو السيارة ببعض الارتجاف. كان واضحا أن سمعتى قد سبقتنى، وشرحت ماحدث، وقلت: «إن رجلك لم يقم بعمله»، «مرة أخرى.. وأنت تحرق».

لم أكن أبدا أقوم بتنظيم الأمور الصغيره، ولذا وقع بعض الخلاف الكبير فى جهاز النشاط الخاص ومكافحه التجسس»، الذى كنت مسئولا عنه، مهما كان السبب صغيرا. وقد اتبعت نفس القاعده كتقليد ـ النظام يجب أن يكون مضمونا من القمة الى أسفل.

الجهاز ككل كان فى حاجة أن يتم تحويله، الى فريق مواجهه واحد. وكل فرد كان عليه أن يكون معدا أن يحترم هذا الفريق ونجوم «الدولة قبل أن يخدم نفسه أو أى فرد آخر. سواء كان تنظيما أو فلسفه سياسية:

وعلى ذلك لم تأت مفاجأة أن عمليه تطهير «جهاز النشاط الخارجى ومكافحة التجسس» التى اقدمت عليها واجهت بعض اللحظات الصعبه. كان يوجد هؤلاء الذين حاولوا تحطيمى، بمجرد أن فكرت أن اسقطهم. وفى إحدى الحالات كانوا قريبين جدا من النجاح.

لقد اصبحت تعرف باسم «قضية ديليوت». ولم تأت بدون إشارات مسبقه، ومالم يكن معروفا بصفه عامة هو إن هذه القضية كانت نتيجه مباشرة لتحركاتى نحو العناصر المختلفة فى الجهاز، متابعا هذا التطهير والمحاولة لاسعاف قوه دفعه. وكحكمة تقليديه فان عمليه التطهير لم تكن تمس من وقع عليهم التطهير انفسهم. لقد مات ميعادهم وليسوا فى حاجة لأى تحد لدفعهم للمواجهة.

الأنذار بأن الخطه قد بدأت تسير قد جاء من سيرجون لـ. زميلى البريطانى المفضل فى إحدى مقابلاتنا السابقه. لقد تقابلنا فى مكاتب الـ.م.١٦ » ـ جهاز المخابرات البريطانيه ـ كان مكتبه مملوءا بصور الرؤساء المؤسسين لجهاز المخابرات البريطانيه، معظمهم فى ملابسهم المدنية والبعض فى زيهم العسكرى. وعدد منهم فى الزى الكحلى الغامق الخاص بالبحريه الملكيه.

لقد بدأ ببطء واعتدال مختارا كلماته بعناية مستخدما اسلوبه الايحائى المشهور ـ وبطريقه ارتجاليه وبذلك الأسلوب الهادئ للرجل الانجليزى المهذب

اشار قائلا: احترس. سوف يكون هناك محاولة لتدميرك.

ـ واجبت قائلا: شكرا لك لابلاغي، سير جون، ومتى وكيف سيكون ذلك؟.

ـ وقال : ترقب ذلك في الربيع.

وتماما كما أشار هو، في الربيع: انفجرت أحداث «ديلوت». لقد بدأت بمخدرات وانتهت بمأساة. ولكن لم تكن مأساتي.

كان ذلك في الصباح المبكر في٥ ابريل عام١٩٧١ عندما جاءني اتصال تليفوني من بيتي من الضابط المناوب يخبرني ان المحرر الصحفي في التليفزيون والاذاعه الفرنسيه (أو ـ آر ـ ت ـ إف ـ كما كانت تسمى حين ذلك) ويدعى روجر ديلوت، قد قبض عليه في ميناء ايليزابيث ني نيو جيرسي. بينما كان يتسلم سياره وصلت بالمركب من فرنسا وان السيارة كانت تحتوي على ٤٤,٥كيلو جرام من الهيروين الخام النقي. لم يكن عميلا «جهاز النشاط الخارجي ومكافحة التجسس» ولكن بعد عدة اسابيع من الاستجواب العنيف أخيرا إنهار واعترف للبوليس الأمريكي أنه كان يعمل لحساب «جهاز النشاط الخارجي ومكافحة التجسس» من خلال كولونيل يدعى بول فورنر، وعند ذلك اعتقل ديلوت رسميا. واودع السجن.

كان يوجد عدد من الامريكيين وقد حاولوا الخروج من القضيه والابتعاد عنها، ومن بين هؤلاء كان ممثل حكومه الولايات المتحده شاباً لمدينه نيويورك في نيوجيرسي هي بيت. ج ستيرن وبوضوح فان هدفه قد اكتفى مع اهداف اعدائي في فرنسا بصوره حقيقيه جدا. لقد كان الهدف هو اظهار أن «جهاز النشاط الخارجي ومكافحة التجسس» تحت رئاستي يستخدم في تهريب

المخدرات لحساب عملياته الخاصة أو على الاقل اعطاء انطباع بأن المخابرات الفرنسية اتجهتا للمخدرات لكسب المال.

ولقد شهدت العلاقات الفرنسية الامريكية أوقاتا صعبة جدا لعده شهور. لكن كان لى عدد من الاصدقاء الاقوياء يقفون معى. توماس واتسون ابن نوسيس الـ «آ ـ ب ـ م» وفى نفس الوقت سفير الولايات المتحده الأمريكية فى فرنسا، وكان شخصيا متورطا فى هذه القضية السيئه السمعة التى انتشرت فى فرنسا وكذلك الفساد العميق لدرجه أن الولايات المتحده اعتادت بجلاء رفض تصديق الرجل الذى كان صديقا شخصيا هاما للامريكان وأحد الجواسيس والذى كان بنفس الدرجه حليفا هاما.

لقد علمت عن محنه واستون ولكن مؤخرا عندما تقابلنا قبل زيارة كنت على وشك القيام بها الى الولايات المتحدة بعد فترة طويله حيث كانت القضيه قد اصبحت ماضيا. فى وقت ظهور قضية ديلوت. بذلت كان جهدى لأتجنب اى لقاء مع الشخصيات الامريكية حتى لا ابدو كما لو كنت اسعى للتدخل لاستقصاء اسباب القضيه فى فرنسا او الولايات المتحده.

الناس الذين كانوا وراء هذه المؤامرة قاموا ايضا بنشر اشاعه بأن موظفا صغيرا فى الـ «إس دى ـ إى ـ سى ـ اى» كان بالضرورة العقل المفكر لادارة نظام مافيا المخدرات هذا. بارشاد وتحت عين وباستغلال التسهيلات من جهاز المخابرات. لقد كنت هذا الموظف المدنى. فهو لم تكن لديه القدرة لتهريب المخدرات اكثر مما لدى من قدرة لأكون مطرانا فى الكنيسة. القصة كلها كانت ـ بالطبع ـ ملفقه من البدايه للنهايه.

وبسرعه جدا اصبحت قضية الأمة عن كلا جانبى الاطلنطى. كنت اقابل الرئيس بومبيدو بتكرار اثناء هذا الوقت الصعب. وقد كان يهاجم فى كل مكان ولكنه لم يسألنى ميزة واحدة عنها، لم يكن يرغب فى امر ارباكى وكان يعرف انه لايوجد شئ استطيع أن ابلغه له حتى اقوم بتحليل الأمر واقتناعى به، وفى الوقت الذى ليس فيه لدى شئ مجددا ايا كان لتقديمه فى تقرير. ان سلوك الرئيس بومبيدو كان يظهر الحساسية، لقد كان رجلاً فائق الخوذه. وذات صباح. و اثناء الضجة الصاخبه التى كانت اكثر من ارتباك المشكله ذاتها. كنت فى بيتى استعد للمغادرة الى مكتبى، وصل مراسل رئاسة الجمهورية بدراجته البخاريه السوداء الضخمة. دق الجرس فى الدور السفلى. وادخلته مديره منزلى وبدون كلمه. فتح صندوقا مصرفيا اسود كان يحمله ـ صندوق مرسل من رئاسه الجمهورية ـ واخرج منه طردا كان بداخله، وناوله لها ..وفتحت الطرد ووجدت فيه بروازا فضيا به صورة رسميه للرئيس جورج بومبيدو وعليها اهداء رقيق ولكن ذو معنى مربع. «بور الكسندر خادم فرنسا والذى اثق فيه تماما» توقيع جورج بومبيدو». تستطيع أن تتخيل بصعوبة اثر ذلك على. لقد تأثرت تأثرا عميقا. لقد كان ذلك اشاره ذات قيمه لدى أكبر من اى تجميل أو اشارة.اشاره توضح كرم الاخلاق الحقيقى لديه.

كان بوميبدو واقفاً معى خلال كل هذا. ولكن فى النهاية، فإننا حقيقه لم نكتشف من كان وراء محاولة الانقلاب ضد توقعى على رأس ال «إس ـ دى ـ إى ـ سى ـ اى». ماحدث كان سيمزق وحدة تكامل الجهاز واحتمال كبير سيدمر نظام الرئيس بومبيدو نفسه. التحقيق القضائى بواسطه قاضى التحقيق الفرنسى، الذى يعادل وكيل قضايا الاقليم، فشل فى ايجاد دليل الادانه، الذى

تمكن أن يثبت احضار أي بضائع غير مشروعة. في هذا المحيط حيث تكون المياه خضراء معتمة، انت احيانا ترى ظلالا بالاسماك الكبيرة ينساب أكثر ولكن انت لاتستطيع ان تفسر أي تفاصيل. هكذا كان الحال في قضية ديلوت.

مازال يوجد شئ ساخر ومأساوى مرتبط بهذه القضيه العجيبه. فى العام التالى، ابن سير جون الرجل الإنجليزى المحترم البرئ الذى نبهنى بشهامة عن مشاكلى التى فى الافق. كان متورطا فى مشكله مخدرات، كان سيرجون ينظر اليها كفضيحة، قدم استقالته من جهاز المخابرات البريطانيه. ربما كان ذلك انتقاماً نهائياً من هؤلاء الذين دبروا قضية ديلوت. ولا يحتمل ان يعرف الاجابة ابدا.

كان الهدف الرئيسى من «عملية ابن القارض»، وحقا من كل عمل قمت به خلال الأسابيع الأولى والشهور الأولى فى مكتبى، هو خلق شكل جديد من التفكير فى كل مكان من الـ «اس ـدى ـ إى ـسى ـ إى» من اقصى القمه الى ادنى القاع. كل عدد من جهاز المخابرات وكما هو معروف كل فريق علية يجب أن يعمل كما لو كانوا حقا فى الحرب.

عند وصولى فى نوفمبر ١٩٧٠ وجدت ان جهاز العمليات، الذى كان يجب أن يكون لديه القدره للعمل كقوه الضرب القوية، باعتبارها حشود الخطوط الامامية لجهاز «إس ـ دى ـ إى ـسى ـ إى» فى حربنا العالميه الثالثه، فى حاله الحرب، فى الحقيقه قد تم تخفيضها بالفعل الى لاشئ. اعادة بناء هذا الجوهر الذى لاغنى عنه لجهاز «إس ـ دى ـ أى ـسى ـ إى» كانت المهمه الاصعب لى والتى استغرقت وقتا طويلا. كانت تستلزم افساد وحدة عسكرية فاعلية من

تحت الارض. ولكن بالاضافه إلى ذلك فهى تحتاج إلى تحويل شكل على ضابط عمليات المخابرات فى جهاز « إس ـ دى ـ إى ـ سى ـ إى » وفى الجيش كلما أمكن.

فى الماضى، انتقال العادات غير المناسبة جعل الخدمه فى «إس ـ دى ـ إى ـ سى ـ إى» ضارة بالنسبة لطموحات عمل ضابط القوات المسلحة. لمدة طويله حتى كانت نتيجه المهام التى كان يكلف هو أو هى للقيام بها ـ مهام من التى لاتتلائم بشكل واضح لضابط القوات المسلحة. لقد عملت بنجاح من أجل التغيير فى جدول الترقى. بحيث ان يرقى العاملون معى من العسكريين بنفس المعدل تماما كما لو كانوا مستمرين تحت النظام العسكرى. لم انجر ابدا تماما فى انجاز هدفى النهائى ـ الاسراع بترقيه ضباط المخابرات الذين يجهزون للاقدام على تضحيات شخصية ويعيشون تحت الظروف الخطيرة جدا والتى يصبح الكثير منها جزءا من حياتهم اليومية. الحقيقية أن هؤلاء الضباط ليسوا مثل امثالهم الذين بقوا فى وحدات الجيش الفرنسى، كانوا دائما فى حالة حرب. ميدان فى معركه الترقيات كان حقيقه النظام الخاص بحياة الضباط فى القتال. بالتأكيد هكذا كانت الحالة بالنسبة لضباط المخابرات بصفه عامة.

بالنسبه لبعض الافراد أصبح ذلك ممكنا طبقا للالتزام الذى قطعته على نفسى. بعد أن اصبحت صورة الـ «إس ـ دى ـ إى ـ سى ـ إى» اكثر رسميه، أكثر «جدية» كما نحب نحن الفرنسيين إن نسمى شيئا هاما. كان يوجد، أربع حالات، حالة جنرال لاكار الذى كان معاراً لى لمدة ست سنوات وكأقدم ضابط فقد ترقى الى رتبه الجنرال، ثم انهى خدمته نهائيا كرئيس عمليات لاركان حرب الجيش الفرنسى.

وخلال فترة مسئوليتي. انشأت جهاز العمليات في الوحدة من عدة آلاف رجل وأمرأة في مناصب رسمية وغير رسمية. اعادة بناء مثل هذه الوحده يحتاج الى صبر يفوق العادة. كان جهاز العمليات وحدة الصفوة. وقد انتقلنا الى كل فرقة منفرق المظلات الهامه في الجيش الفرنسي وطلبنا متطوعين لقواتنا الخاصة. كنا نختار واحدا من العشرة. كل واحد منهم كان خبيرا ـ في الفنون الحربيه، في البنادق والمسدسات. كان فيهم مظليون، غواصون وخبراء في التخريب. جنود ممتازون.. البعض اختيرو للعمل كل الوقت في فرنسا أو تفرقوا حول العالم ـ الضباط العظام الضباط الاقدم والاحدث «إن ـ سي ـ أو» ورتب اخرى. كثيرا من الشباب كانوا قد أتموا خدمتهم العسكرية معنا وغالبا كانوا يجدون جهاز المخابرات متجانسا ويبقون فيه. كان يوجد هؤلاء الذين في حالات احتياط وآخرون في اعارة مؤقته من القوات المسلحة.

وبعناية زرعت رئاسة الجهاز من شخصيه عسكريه وقاده عسكريين هامين. الذين يكون لديهم القدره على توجيه هؤلاء الذين كان لديهم كفاءات خاصة نحن في اشد الحاجة اليها. ـ كان يوجد ـ على سبيل المثال ـ ضباط من الجيش والقوات البحريه والقوات الجوية ولديهم القدره للتحدث ببعض اللغات النادره. من الواضح إنه بالنسبه للعمل العادي في احدى فرق المشاة وأن ندرة أحد الضباط في التحدث لغه الخمير» تعتبر شيئا نادرا ذاتيمة عظيمة. لكن في جهازي يكون في النادر جدا ايجاده. وطبقا لما نحتاجه فقد اصبح معروفا أن التخصصات التي يتسع احتياجنا لها. نجدها في حوض للنبوع غير العادي في ثكنات وحدات الجيش الفرنسي.

ولكن لم يكن بالتأكيد نستثنى النساء بينما كان كثير من المتهمات يعملن فى فاحصات للمعلومات كان لدينا عدد من النساء الضباط المتخصصات فى وحدات جهاز المعلومات حسب المطلوب. بعضهن كن متخصصات فى الكمياء فى الاليكترونيات أو فى الفيزياء النووية أو فى الاستراتيجيه العسكريه والتكنيك، وأخريات كن متخصصات فى الفنون الرفيعة لاعمال الغوايه ولتشتيت العقول.

الخطوه الثانيه كانت تدريب الجنود الجدد. فقد كانوا جنود أول درجه. ولكنهم مطلوبون للعمل معا كوحدة وغالبا تحت اصعب الظروف المحدثه. فى الليالى المظلمة وفى اعماق المحيطات. ولذلك فقد عايشنا هذه الظروف. لقد اقمنا تدريبات ليليه خاصه بى فى البحر المتوسط والمحيط الاطلنطى. ولذلك فان الطائره كان يجب الا تسمع، وسيفقد المظليون من ارتفاع كبير. وبعد ذلك تفتح البراشوتات فقط على بعد عده مئات من الياردات قبل السقوط فى البحر فى اللحظه الأخيره جدا. وكانوا يحملون معهم ما كانوا يمكن ان يحتاجوه مثل ادوات الغطس. معداتهم قوارب النجاه المطاطيه. لقد كانوا متخصصين.

قبل وصولى كان يوجد نقص واضح فى النظام الخاص وكان على رجالنا ونسائنا أن يجهزوا حتى فى التدريب على ان يوهبوا حياتهم لبلدهم. بصمت وفى مواجهة اكثر الجحود عندما يدفنون فى قبور بعيده عن اوطانهم وعائلاتهم. ولكن كان يجب تشجيعهم وقد حاولت ان اكون ومشجعهم، كما لو كنت اباهم وبسرعة اكتشفت انه احيانا يكون على الرئيس ان يكون أول الداخلين فى حقل الألغام الذى حولنا. لذا فانه ذات مرة وفى لحظه وبدون إنذار

كنت امر على المكاتب واقف لاداعب وأتابع رجالنا وهم يؤدون واجباتهم. خارج باريس فى الريف وفى البحر، قواتنا الخاصة وخاصة الضفادع البشريه المقاتله المحافظين على ارضهم المختارة تنظيمات القوات الجويه والبحريه. كنت اذهب واقضى يوما معهم فى وكنا نأكل فى الميس وفى المساء بعد العشاء كنا نغنى معاً وهذه المشاعر تكفى الف مرة.

مما يثير الدهشه ان الموازنه بين المدنيين وضباط الجيش ربما كانت ادق مهمة فى الشهور الأولى كرئيس لجهاز «إس - دى - إ - سى. إى» المدنيون فى تنظيمى كانوا موظفين. ومن ضمنهم مديرو إدارات ورؤساء اقسام - مما يعادل تماما وزارة صغيره من وزارات الدولة. كان الهدف الشخصى الثالث والنهائى هو ضابط القوات المسلحة.

عند وصولى للمكتب الرئيسى كانت الاشاعات المترقبه قد بدأت تدوم بسرعة. بعض المدنيين كانوا خائفين. والأخرون يهدئونهم قائلين: «انتم لم تحصلوا على شئ يستحق القلق عليه. انه هو نفسه مدنى. هو سوف يحرق العسكريين ويجلب مدنيين فى كل مكان. كلاهما كان على خطأ.

كل شخص لديه مواطن قوه مواطن ضعف. أننى اكن قدرا من الاحترام للعاملين المدنيين الذين يكرسون اعمالهم لخدمه الدولة. والعسكريون من جهة اخرى رهن اشارة نداء كل شخص. خلال ٢٤ ساعه فى اليوم، بما فى ذلك ايام الآحاد وأيام العطلات . انهم مجندون للعمل بالكامل. وإحراق اى رجل عسكرى ليس مشكله. ببساطة نضع خطا على اسمه ونعيده الى وحدته. ولقد اكتشفت ان ايعاد موظف مدنى أمر اكثر تعقيدا. وبسرعه انشأت مجموعة صغيره من

المساعدين الشخصيين كيفما كان. والتى اصبحت ماهره جدا فى التنظيم مع الوزارات والادارات لتستعيد السيد أو السيده غير المرغوب فيهم.

هكذا ـ عن اى شئ كنت ابحث عندما جاء الى الأعضاء الجدد . ؟

أنهم يجب إن يبدأوا «أريد حياة ممتعه»

«مهما كنت او مهما كان عملى، لا اريد أن أكون مشكورا عليه. اذا صارت الامور إلى الخطأ. كنت راغبا جدا لأحصل على الدقه، لكن اخيرا من آله حقر. سوف أكون مصارعا فى سبيل الحريه».

إذا كان الشخص متوازناً جدا ولديه حراره الإحساس والحماس الابتدائى واجبت «نعم، بكل تأكيد. انضم للعمل فى المخابرات واحترم سبب الحريه.

والاحساس الخاص لدى الفرنسيين كان عديم الفائدة بالنسبة لأولئك الناس الذين يقومون بهذا النوع من العمل . وانهم ببساطه غير مطابقين لأن يكونوا بالمخابرات .

والمخابرات فى بريطانيا بالمقارنة فهى قادرة على تجنيد الصفوة من الجامعات القمة، واحد من صفوه المثقفين الذى خدعه غموض المهنة. ويكاد يكون معروفا فى بريطانيا إلى عهد حديث أى المخابرات كانت موجودة. لم يكن لدى الناس فى بريطانيا أى فكرة من الذى ترأس المخابرات. فكان كوديا ويحميهه قانون المخابرات بعناية. وكان هناك إم ١٦و بصورة رسمية. واذا برزت فضيحة مثل مسأله السلام الأخضر أو ديلويت فإن رئيس مجلس العموم أو رئيس الوزراء يقول ببساطة: «حسن، غير واضح لى أى هيئة تتحدث عنها. » ويتم إرسال خطاب خاص فى الأنحاء إلى كل صحيفة فى بريطانيا العظمى. وتنتهى

القضية وتختفى سواء من الصحافة أو العامة. كانت المخابرات باختصار المهنة الذروة للمحترف.

وجد نظراؤنا فى أوروبا الشرقية التجنيد أسهل. وإنه مع المميزات غير العادية التى تلائم مخابراتهم. حق السفر إلى الخارج وهو مهمة فى الحقيقة (بخلاف مجموع عريضه من أبناء وطنهم)، حرية الوصول إلى أفضل المطاعم والمدارس وإلى أفضل الشقق والملابس، وباختصار ميزة حياتية غير متاحة لتسعين بالمائة من أبناء وطنهم ـ فلم يكن لدى مخابرات أوروبا الشرقية مشاكل فى تجنيد الصفوة من مواطنيهم. ورغم المظاهر الخارجية كلها وماتبدو عليه من تفكك لأجهزة مخابرات أوروبا الشرقية فإنه ينصح لنا أنه ما من مشكله لديهم فى التجنيد إلى الآن. إن المخابرات السوفيتية خاصة لاتزال تقدم عملاً جذابا بدرجة كبيرة ومضمونا ومريحا لأولئك المحظوظين للغاية من يتم اختيارهم.

وهناك سبب آخر لمصاعبنا فى التجنيد عبر السنين وكان سببا ماليا ـ الموارد المحددة بوجه العموم التى كانت توضح تحت أمر مخابراتنا. أما بالنسبة لميزانيتنا فكان يتم إجبارنا على المضى قليلاً فى الحقيقة على الدرب. إن ميزانيات أوروبا الشرقية غير المحددة فى مخصصاتها بالنسبة للرجال والمواد (حسبما أفضى به الكثير من المنشقين ذوى الرتب العالية إلىّ) تشكل تناقضا مضحكا بالنسبة لمواردنا العجفاء بالنسبة لتلك المخابرات الغربية فى معظمها. إن ميزانياتنا الفرنسية، التى تتكافأ مع الميزانيات البريطانية بطريق أو بآخر، هى بدورها عجفاء بالمقارنة بميزانيات مخابرات ألمانيا الغربية ووكالة المخابرات المركزية الأمريكية.

إن الراتب المنخفض، وظروف العمل الفردية، والنقص العام فى الهيبة لمعظم مهنتنا الخطيره، فتحت باب المغريات لأى فرد من أفراد الأمن الذين لم يكرسوا أنفسهم تماما لمهنهم المخابراتية للدولة.

وإنه من المفاجأه القليلة أننى لم أترك التماسك الشخصى والأمانة الشخصية أو الجرارة العملية للجهاز السرى برمته لحسن نية ضباطنا. فالحياة معقدة جدا والمغريات فى مهمتنا منتشرة جدا. واختبرت تحولهم (ثقتهم). كان هناك دائما مخابرات داخلية لخدمة هذا الغرض. إلاّ أنه عبر السنين حيث ان الاقطاعيات الأخرى فى المخابرات الفرنسية قد اكتسبت قوة هائلة من الداخل ودعما سياسيا من خارجها فإن وظيفة الحراسة للأمن الداخلى قد حدثت بها ضمور. لذلك بعد وصولى مباشرة أضفت عددا من الأفراد المدنيين والعسكريين زيادة على ذلك كلفتهم مباشره بمهمة دقيقة وهى مراقبة الذين تستخدمهم المخابرات وكانت أفعالى التى أتيت بها غير متوقعة. وكانت أوامرى أن أوضع تحت الفحص الدقيق مثل أى واحد آخر.

وكان يشترك أكثر من ثلاثمائه فرد اشتراكاً مباشرا فى مراقبة نشاطات بقية الهيئة. كانت المراقبة فنية وبشرية ـ حيث المراقبة الإلكترونية والمراقبة الجيدة لأى اتصالات مريبة. أى واحد من هيئتنا يريد السفر للخارج على سبيل المثال فدائما ما كان يطلب إذنا خاصاً (تصريحا خاصا).

كان يتم سؤالى من آن لآخر عما إذا كانت المخابرات قد حدث بها تسلل. كنت أجيب دائما: «بالطبع حدث بها تسلل. وإن لم يحدث تسلل فى مخابرات كبرى فإن الواحد يفترض أن ذلك السبب عدم اهتمام أولئك الذين عملهم هو اختراق المخابرات المضادة».

كان الأمل يحدونى بالفعل إن أى تسلل يظل لاقيمة له أو يتم الإمساك به قبل أن يصبح خطيرا أو يفضح مصالح الهيئة أو الدولة، وإضافة إلى أى أفراد. لقد اكتشفنا فعلا عبر السنين وتخلصنا من عدد معين من الناس الذين أثاروا الشك بأدنى درجة وغالبا ما وجدنا أجهزة هامة مخبأة فى منشآت تستخدمها فى الخارج. وإنه فى تفتيش لسفارتنا فى وارسو اكتشفنا أربعا وأربعين ميكروفونا أو أجهزة تصنت أخرى، كلها أقيمت فى شهرين منذ التفتيش السابق. عندما علمت أن أحد أكبر خبرائنا فى مكافحة التجسس الإلكترونى عاد من توه من هذه الزيارة الطارئة إلى وارسو طلبت أن يأتينى لرؤيتى وفى اليوم الثانى ظهر فى مكتبى. أجلسته وقدمت إليه شرابا وبدأ تقريره.

قال بافتخار :« آه، ياسيدى ، تعلم أنه فى مكتب السفير وحده كانت هناك أربعة ميكروفونات. وجدناها كلها ». كان يستخدم شنطة مليئة بالأجهزة الكاشفة والمضادة للإزعاج.

كان من المفترض أن محادثاتنا التليفونية يتم مراقبتها وكان يتم ملاحقتنا من جانب رجالنا أو الطرف الآخر. إن قانوننا سمح لنا على الأقل بتنفيذ مثل تلك الملاحظة وتصرفنا وفق ذلك لم اشجع التخمين. لم نكن بمجانين ارتياب إلاّ أن ذلك جعلنا متيقظين. رفضت إجازة أى نوع من جنون العظمة فيما بيننا، ذلك الذى ازداد فى وكالة المخابرات المركزيه الأمريكية على يد جيمس أنجلتون. تولى انجلتون مهمة التخلص من سرطان التسلل (التخلل) السوفيتى.

تولى أنجلتون لمدة عشرين سنة تقريبا وحدة مكافحة التجسس فى وكالة المخابرات المركزية وهو انتاج عبقرى من ييل وأوس شاعر متأمل له أسماء كروية

متنوعة ـ أم، زهرة الأوركيد، الشبح الأشهب، الجينه (الجثة) الصياد، الطائر ـ تحدث مجلدات عما يرتئيه بنفسه وعما يراه الآخرون عنه. وإنه فى بداية العشرين من ديسمبر ١٩٥٤ تم إعطاء أنجلتون تعليمات بيروقراطية المخابرات المركزية الأمريكية الرهيبة بالفعل باحثا عن نوع واحد من الحيوان ـ الخلد (الشخص الذى يعمل فى الظلام) وهو اختصار المخابرات بالنسبة للعملاء الذين كانوا حقيقة يعملون للجانب الآخر ، فى حالة أنجلتون ، الإمبراطورية السوفيتية.

استخدم «استاذ الجواسيس» البارع لمدة العشرين سنة التالية كل الوسائل فى طلبه المركز بالنسبة للشخص الذى يعمل فى الظلام المراوغ فى قمة المخابرات الأمريكية. إن ثلاثمائة عميل أو أكثر استجابوا لكل رغبة من رغباته. أثناء هذه الفترة وبموجب حمايته قامت وكالة المخابرات الأمريكية بفتح عشرات الآلاف من الخطابات المرسلة بالبريد من الولايات المتحدة إلى الاتحاد السوفيتى وطورت «قائمة المراقبة» عن طريق الكومبيوتر المكونه من إثنين مليون إسم. وكان الأمر غير شرعى بالطبع حتى بالنسبة للعملاء الحكوميين فتح الخطابات للولايات المتحدة.

إلاّ أن كثيرا من أصدقاء أنجلتون وأعدائه على السواء ظنوا أن أكبر خسارة الحق بها بها المخابرات الأمريكيه قد اتت فى فترة ردة واستجواب أثنين من كبار الجواسيس السوفيتيه ـ أناتولى جوليتسن الذى هرب من هلسنكى فى ديسمبر ١٩٦١، يورى نوسنكو الذى وصل من سويسرا فى فبراير ١٩٦٤. شكت عناصر مختلفة فى كل واحد داخل وكالة المخابرات بأنه عميل مزدوج

وصلت إليهم تعليمات بعدم نشر الحقائق أو بالشك فى الآخر. تعلق انجلتون على أية حال بجوليتسن كمنشق حقيقى وفتح الملفات الشخصية للقسم السوفيتى لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية أمام دراسته وتأمله فى محاولة لتحديد الأشخاص الروس الذين يعملون فى الظلام. تحول عشرات الأخصائيين السوفييت ذوى الخبرة خلال شهور عن العمل بناء على أوامر أنجلتون السريعه وعلى الشكل الردئ أو التلميح. كان القسم السوفيتى فى وكالة المخابرات المركزية الأمريكيه مشلولاً لسنوات، علاوة على قدرة الوكالة بصفة عامه لتقييم المنشقين من أى نوع بأى معنى موضوعى. وكان ذلك خطأ أقسمت ألا أرتكبه على الإطلاق.

وإنه بعدما اضطلعت بمهام المكتب فى عام ١٩٧١ بفترة قصيرة قمت بأول زيارة لى إلى لانجلى وفرجينيا لأقابل نظيرى الأمريكى ريتشارد هيلمز ولأرى أستاذ الجواسيس جيمس أنجلتون مباشرة .

فى اليوم التالى من مقابلتى لهيلمز بقيت لرؤية انجلتون ـ الأسطورة الآن.. وبدأت محادثتنا ببداية غريبة للغاية.

قال فى صوت منخفض يقرب إلى الهمس: «أى شيئ سرى وموثوق حقيقة. أنت تأتى إلىّ وليس إلى المدير.»

وصدمنى ما كان بالنسبة لى فى الحقيقة حالة نادرة عجز اللسان عن وصفها، ولذا استمر دون مقاطعة.

قال أنجلتون: «على أية حال فإن رجلنا فى باريس هو عميل للمخابرات السوفيتيه وإن زوجته أسوأ منه أيضا.»

وإن رئيس فرع وكالة المخابرات المركزية الأمريكية فى باريس كان رجلال جيدا جدا، من وجهة نظرى. كنت آنذاك لاأستطيع التنفس إلا بشق الأنفس. وشارفت الساعة على الخامسة مساءً، لذا فتح زجاجة ويسكى وبدأنا نشرب، ونجحت فى النهاية أن أتمتم بالإجابة.

فبدأت قائلا: «مستر أنجلتون، إذا كان هو جاسوساً للمخابرات السوفيتية فلماذا لا تبعده وتقبض عليه؟» ولم يقم بالإجابة. واستمرا يتجرعان الويسكى حيث فى نهاية أمسيتنا أفلح بدرجة كبيرة على إنهاء المناقشة. لم أتناول أكثر من مشروب أو اثنين من الويسكى فى أى أمسية.

حيث انه نهض فى النهاية ليصطحبنى إلى الباب استنتجت أنه كان على أن أستجيب لملاحظته الافتتاحية على نحو حاسم.

قلت: «عزيزى السيد أنجلتون، أنا مدير عام المخابرات الفرنسية وإنى أتعامل مع مديركم ومع مديركم فقط.»

ثم أضفت: «إنى آمل الا تلقوا القبض علىّ قبل أن أغادر مكتبكم». فابتسم، وغادرت ربما اعتقد أننى كنت جاسوسا أيضا أو عميلاً للمخابرات العربية السوفيتية - النظير للمخابرات السوفيتية المدنية.

كان جيمس انجلتون فى رأيى ليس بالرجل الذى تريده ليترأس وحدتك لمكافة الجاسوسية. فإذا بدأت بالتشكك فى كل واحد، وبينهم أخلص أصدقائك، حينئذ أين ستذهب؟ طالب عملاؤنا لمكافحة التجسس بثلاثة مطالب. لا، لجنون العظمة. لا، لاحتساء الخمر. لا، لتكوين الآراء المقبولة - اختيار نوع معين من الأفراد من الواضح أنهم عرضة للانشقاق والخداع. كان كلنا فى معركة مع عدو

غير معرض لجنون العظمة ولكنه ميال إلى الموضوعية؛ الذى يعامل كل فرد بتشككية سليمة إلاّ أنه وافق على الحاجة إلى تقييم المخابرات من جهة وقائع الحالة الموضوعية لها.

لكن هناك الكثير من الأنماط التى لها صلة قليلة بالمخابرات المعاصرة. أخشى أننى لم أواجه جاسوسة جادة جدا، المرأة الفاتنة المهلكة ذات الملابس السوداء وبقلاده فى عنقها، وشفاه شهوانية ومبسم سجاير طوله ياردة. هناك الأساطير القوية عن المخابرات ينقلها التليفزيون وتتضمنها الروايات والمجلات والأفلام السينمائية من كل نوع. وإنه مع الحب فالتجسس هو معظم المشاهد. يربط السيناريو الحب بالجاسوسية، ذلك السيناريو من الصعب أن يحدث به خطأ. لأنه من المؤكد أن العامة تستوعبه ـ مشاهد الإثارة التى يثق بها أكثر من الشخصيات فى الحياة الحقيقية، الحركة والمؤامرة السرية بطريق أو بآخر، السحر والحب، الدم والدموع. حتى أنا لم أكن محصنا ضد هذه النوعية المتنوعة من السينما. كنت ببساطة حذرا بدرجة أكبر قليلا حيال إطلاق العنان لأذواقى.

لذا فإننى هنا أعترف طمعا فى العفو. كنت استقل قطارا أو طائرة إلى جنيف من وقت لأخر أو إلى بروكسل مرتديا عامة معطفا بياقة مرتفعة استطيع جذبها حول وجهى. فإننى بالنسبة للقطار أسافر فى أواخر بعد الظهر من محطة الشمال أو محطة الشرق. كنت آخذ معى رواية عاديه رواية قليلة الصفحات مثلا ـ وأجلس بجوار النافذة بهدوء لمشاهدة الريف. عندما أصل إلى جنيف أو بروكسل، أذهب إلى صف التاكسيات انتظر بصبر تاكسيا، وأذهب إلى سينما اخترتها بعناية مقدما. وأمتع نفسى بفيلم جيمس بوند. وظللت

أحتفظ بقرارى هادئا للغاية. لم أغامر بالذهاب لمشاهدة مثل ذلك الفيلم فى باريس حيث أن أى شخص ماكر من المؤكد جدا أن يرصدنى ويبدأ فى نشر الإشاعة الماكرة. أو لأنه ربما يروجها كالآتى : « ياإلهى ـ ترى كم الهيئة السرية سقطت إلى حد بعيد عندما يتطلع رئيسها إلى الأسرار فى فيلم جيمس بوند! ».

ربما هذا الهمس يأتى من أحد المنافسين لى أو أكثر داخل جهاز الأمن الفرنسى. لأننى اكتشفت بسرعة ولأسفى أن الهيئة السرية للمخابرات لم تكن سلاح الأمن الوحيد للدولة. وكان التنافس المستمر بينهما وبين الـD.S.T غالبا ما يضعف وأحيانا ما يكون محرجا إن لم يكن ضد مصالح الدولة الفرنسية ذاتها.

إن D.S.T(إدارة مراقبة المنطقة) مكلفة باختصاص واحد من العمل داخل الأرض الفرنسية وهى المسأو القريب للمباحث الفيدرالية. أما هيئتى، وهى SDECE فهى هيئة مكافحة التجسس الخارجى والمخابرات (مع استثنائين) تتولى مسئولية العمل فى أى مكان ما عدا داخل فرنسا. أمضت الـ SDECE لسنوات الكثير من وقتها وطاقتها تناضل ضد وزارة الداخلية التى تشرف علىDST إداره مراقبة المنطقة.

حاولت بالمفهوم العام أن أنشئ علاقة عمل بين الإثنتين وكانت علاقة فعالة لبضع سنين. إن ذلك التجمع لتماسك المخابرات الداخليه والخارجية لم يكن فعالاً أكثر من محاربة أنواع من المعارك التى كانت فى الحرب العالمية الثالثة وتظهر أنها حتمية فى الحرب العالمية الرابعة. تم اختراق الحدود فى كلتا الحالتين قبل الاشتراك فى المعارك.

لذا كانت أولى زياراتى بعد تعيينى فى عام ١٩٧٠ هى زيارة وزير الداخلية، ريموند مارسيللن، لأدعه يعرف أرائى القوية عن هذه الأمور. وكانت زيارتى الثانية هى زيارة جان روشيه، خدم كرئيس لإدارة مراقبة المنطقة فى ذاك الوقت، وكان وطنيا كبيرا. ودخلت مكاتبه المزدانه فى مبنى هائل عتيد يلى مباشرة وزارة الداخلية خلف قصر الإليزيه فى مدينه باريس. وجلسنا فى كراسى مريحه فى ركن بعيدا عن المكتب الضخم حيث يقوم بأعماله اليومية الخاصة بمراقبة الأمن الداخلى للشعب الفرنسى، وقد قررت الدخول مباشرة إلى الموضوع. كان جدول أعمالى جدولا بسيطا ـ نهاية للتناقس الذى كان موجودا حقيقة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية بين جهازى الأمن الأساسيين للجمهورية الفرنسية.

وبدأت الحديث: «أنا لست من اليمين ولا من اليسار. اهتمامى الوحيد هو خدمة فرنسا والحكومة.» أصغى روشيه بعناية حيث استمررت فى الحديث: «لذا، من فضلكم، دعنا نعيش فى وئام. لا قتال بين الأجهزة، ودعنا نحصل على العدو!»

كان من الصعب، طبعا، بالنسبة لأى مدير إدارة مراقبة المنطقة أن ألايوافق علنا على مفهوم فى صالح الحكومة الفرنسية بكل وضوح، لذا كنت مقتنعا بنفس الدرجة بأن معظم سابقيه تحولوا إلى تعويض مثل هذا الاتفاق. إنى أعتقد بإخلاص تماماً بأن روشيه بذل كل مجهود أثناء توليه منصبه للتأكيد على هذا التعاون بأن يصبح بمثل تلك الحقيقة بقدر ما سمحت به حقب التنافس الماضى.

لم يكن ذلك الشيئ بالشيئ الذى أتى بصورة طبيعية أو بسهولة لأى رئيس إدارة مراقبة المنطقة أو مدير هيئة الأمن السرية بالنسبة لذلك الأمر، ولا لأى من هيئتى الأمن المقارنتين للمباحث الفيدرالية ووكالة المخابرات المركزية الأمريكية. كان شيئا توجب علينا العمل لأجله، ولقد عملنا بالفعل لأجله. وإنه بعد أول اتصال مع روشيه مباشرة تقريبا فى محاولة لجعل هذه الفترة الزمنية الجديده ذات شعور طيب راسخ حقيقة رتبت التعهد بالاشتراك فى التدريبات فى كورسيكا تحت قيادة موحدة ـ متضمنة كوماندوز ادارة مراقبة المنطقة والأمن السرى.

إن رجال الشرطة الشبان لإدارة مراقبة المنطقة العاملين إلى جانب عملائنا كغطاسين وخبراء تدمير يستخدمون طائرات وطائرات عمودية. وأقمنا فى اليوم الأخير حفل عشاء ضخما وحفل شواء فى الهواء الطلق. وحضر كل من روشيه ومارسلين وزير الداخلية الذى يقدم إليه تقريرا، وصعدنا فى طائراتنا لقضاء اليوم. وإن الجهود التى مثل هذه هى التى ساعدت حقيقة على كسر بعض من عدم الثقة، على الأقل على المستوى العملى بين هيئتينا.

لايزال هناك قدر كبير من النزاع بين المخابرات الفرنسية (المعروفة بالإدارة العامة للأمن الخارجى) وإدارة مراقبة المنطقة. لم يكن الجو متوترا مثلما كان كالمعتاد إلاّ أن هناك منافسة شديدة لازالت باقية. عند تناول أنماط الحرب التى تميز الحرب العالمية الرابعة فإن كفاحنا ضد الإرهاب أو تهريب المخدرات على الحدود يستفيد حقيقة من فصلنا بين المخابرات المحلية والعالمية، وعلى كل المخابرات المشتركة أن تتخذ الإجراءات المناسبة. غالبا ما يكون هناك وقت

للتشاور الوثيق. يجب على المخابرات ببساطة تامة العمل معا على نحو جيد طول الوقت ويعرف كل منها ما يدور على الحلبة الأخرى.

إن إدارة مراقبة المنطقة والإدارة العامة للأمن الخارجي قامتا في ١٩٨٣ بتحديد كبار عملاء المخابرات السوفيتية العاملين خارج السفارة في باريس في شارع لانْ و قام الرئيس باتخاذ قرار وهو قرار سياسي لطردهم جميعا. وكانت لفته تراجيدية حقيقية. كانت معلوماتنا أيضا أن هذه اللفته وجهت ضربة خطيرة لجهاز المخابرات السوفيتيه في فرنسا لسنوات آتية.

كان أحد هؤلاء العملاء عضوا في القسم الصحفي في السفارة السوفيتيه.وكان ابن أحد أعضاء المكتب السياسي السوفيتي قد تم تطهيره إبان فترة خروشوف وتم إرساله في النهاية إلى طوكيو كسفير، وكان قد خدم سابقاً كعضو في البعثة التجارية السوفيتية في الجزائر حيث تمت معرفته في أول الأمر كأحد كبار المخابرات العاملين. وكان تميزه في اللغة الغرنسية يحدده قلبا وقالبا. سرعان ما اشتغل بهذا الإتقان في لقاء كبار المراسلين الفرنسيين وعمل صداقات معهم خاصة العاملين في الاذاعةوالتليفزيون، والمراسلين الأمريكيين خصوصا من الأجانب الموجودين في باريس. وأصبح كاتم أسرار يولي فورو نتسوف أقوى سفير سوفيتي في باريس عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الذي عاد إلى موسكو كنائب وزير الخارجية وسفير في محادثات الأسلحة الاستراتيجية مع الأمريكيين في جنيف. وإنه كنتيجة لاتصالاته وموقعه فإن عميل المخابرات السوفيتيه كان قادرا على إمداد معلومات غير سوية لمراسلين أجانب غربيين.

كان هناك على سبيل المثال تأكيد على أن السوفييت أو أى من أصدقائهم أو حلفائهم لايساعدون ولايحرضون أبو العباس جناح جبهة تحرير فلسطين الذى قام بتنفيذ الاختطاف المميت للعبارة أكيلى لورو. إن وسيلة وصوله إلى أعلى الصحفيين الفرنسيين وكبار المراسلين الغربيين الذى غالبا ما كان «يبيع» لهم المعلومات قد مكنته من الامتزاج بحالة الرأى العام الدقيقة فى الغرب خاصة فى فرنسا وأوروبا الغربية وبالرأى الأمريكى حيال الشئون الأوروبية والاحساس بكيفية استخدامها بطريقة أفضل.

ظللنا نراقب هذا الفرد عن قرب. قامت إدارة مراقبة المنطقة بمراقبة نشاطاته عن قرب فى فرنسا والاتصالات المتطورة فيما بين أولئك الصحفيين، بما فيهم بعض الأمريكيين الذين كان على اتصال بهم. وقامت الإدارة العامة للأمن الخارجى بمراقبه رحلاته إلى الخارج ـ لوكسمبورج، بروكسل وجنيف. قمنا بتحديده ومراقبته والإحاطة به.

لماذا لم نُسَرّ فى الإبقاء عليه فى الغرب ـ حالة الأرنب الذى عرفناه مُراقبا بعنايه؟كان يتم الإبراق إليه تماماً. إن أولئك الصحفيين الذين كان على اتصال منتظم معهم كان يتم اخطارهم بدوافعه واهتماماته. إلاّ أن الروس فى النهاية صاروا ماكرين واستدعوه. لقد كانت الحالة هي حالة تعاون نموذجيه بين جهازينا الأمنيين ـ ادارة مراقبة المنطقه والإدارة العامة للمخابرات الخارجية. لم تعمل هذه الحالة بفعالية دائما لسوء الحظ. كان التقسيم هو الأمر المقبول ببساطة بين الهيئات الأمنية لفرنسا التى تخدم الدولة.

لقد عقدت العزم ألاّ أدع مثل تلك الممارسات تؤثر على علاقاتنا مع حلفائنا

الغربيين واننى منذ الأيام الأولى فى منصبى فعلت ما فى وسعى للتعاون مع هيئات المخابرات الأخرى للعائلة الغربية. وطالبت زملائى الأوروبيين بهذه النقطة وجعلتهم يعرفونها.

كانت استراتيجيتى ترتيب لقاءات مرتين سنويا أو حيثما تقتضى الضرورة، حيث لم يحدث ذلك من قبل أبدا؛ وناقشنا فى اللقاءات الأمور التى تهمنا جميعا. أجرينا لقاء فى باريس ولندن وميونخ بالتناوب. وكانت اللقاءات يحضرها فقط رؤساء المخابرات الأوروبية الاساسيون ـ الفرنسية والبريطانية والألمانية، حيث كان التعاون ضروريا للغاية إذا كنا سنشترك فعلا فى مقاتلة الامبراطورية السوفيتيه فى الحرب العالمية الثالثة.

لم يكن الأمريكيون حاضرين فى تلك الدورات (الاجتماعات). وانه أثناء عملى كمدير للمخابرات الفرنسيه لم يكن هناك لقاء مشترك بين رئيس وكالة المخابرات المركزية الأمريكيه ورؤساء وكالات المخابرات القيادية الثلاث للحلفاء فى أوروبا. وقمت بدلا من ذلك بترتيب محادثات نصف سنوية مع الأمريكيين. كان جورج بوش يحضر عندما كان رئيسا لوكالة المخابرات المركزية الأمريكيه.

لقد اتهمونى مرات بعدم تقديم معلومات كاملة للأمريكيين. ولاشك فى أن هذا لايدعم الوحدة بين قوى المخابرات الرئيسية الشمالية أو الغربية مما يجعل تنفيذ الحرب العالمية الثالثة أسهل وللدفاع عن أنفسنا فى الحرب العالمية الرابعة ممكنا. إلاّ أن هناك أسباباً لهذا الموقف. هناك سبب بسيط جدا فى الحقيقة كما حذرت وليام كاسى أثناء أحد لقاءاتنا الأولى: أنه بالنسبة لمعظم تلك السنوات أيما أبلغت به الأمريكيين كان يعرفه العامة فى الصباح التالى.

إن أول مرة قابلت الزملاء الأوروبيين كشفت كل أوراقى على المنضدة. كانت هناك من الواضح شكوك كثيرة عميقة يرجع تاريخ بعضها للحرب العالمية الثانية. إن مدير المخابرات الألمانية الرهيبة كان موجودا مع باقى الحلفاء ماعدا الأمريكان. إن الغيرة والعاطفة المكثفتين اللتين لاتزالا تقسمان أوروبا تقسمان أيضا أجهزة مخابراتنا (ولايزال هذا الأمر إلى حد معين حتى الآن).

منذ أن طلبت عقد اللقاء الأول وافتتاحه فى مكتبنا الرئيسى فى باريس، إنما طلبت النظام وبدأت حديثى: «أيها السادة أنا رئيس المخابرات الفرنسيه. سأدافع عن مصالح فرنسا. لكننى رئيس حليف أيضا. وأنا لا أخفى أى شيئ. قلبى معكم وفى الاتجاه الصحيح. لو كانت هناك أى مشاكل أو نزاعات بيننا، دعونا نطرحها على المائدة الآن ونتحدث بشأنها. إننا جميعا نقاتل نفس الأعداء، أعداء الديمقراطية. وإذا كانت حكوماتنا لديها مشاكل أو خلافات فإنه يجب وضعها على المائدة ونتحدث بشأنها بحرية.».

كانت هناك همهمات بالموافقة حول المائدة بينما استمررت فى الحديث: «وأود أن أقول شيئا واحداً أخيراً قبل أن نبدأ - لن أكذب عليكم أبدا لأننى لا أعتقد فى الكذب. مثل ساشا جويترى» - التفت إلى المندوب البريطانى وابتسمت - «إن برنارد شو الفرنسى اعتاد القول: «لاتكذب أبدا، لأنك ستحتاج إلى ذاكرة كبيرة جدا.»

كانت نتيجة هذا اللقاء مستوى غير عادى من التعاون فيما بين رؤساء المخابرات الأوروبية القيادية الذى لم يكن له نسخة أخرى. وعندما قام سير بريان توفى، الرجل المشهور الذى ترأس إدارة التصنت فى تشلتنهام (أقوى

عملية مخابرات الكترونية بريطانية ذائعة الصيت بإرسال نسخة اعتراضية للعميل فى لندن، وأرسل لى نسخة فى باريس كذلك. لديه تلكس كودى خاص تم تركيبه فى مكاتبنا. لم يكن هناك أجزاء محصورة أفضل من البريطانية فى أجزاء كثيرة من العالم، ويعرفها كلانا.

إن فلسفة الاخلاص التام التى أوضحتها أثناء اللقاء الأول مع زملائى الحلفاء والتى أثبتت أن الاستجابة لها جيدة كانت أساس فلسفتى فى إدارة الأعمال والتعامل مع نظرائى الأجانب، وبالطبع زملائى فى الجهاز الخاص بنا.

ملحق الفصل الرابع ـ اختصارات..

CIA مخابرات مركزية أمريكية

DST إدارة مكافحة التجسس والارهاب

SDECE المخابراتالفرنسية

STS المخابراتالبريطانية

NCO ضباط الصف

FBTI إدارة التحقيقات الفيدرالية

KGB المخابراتالسرفيتية

GRU توسيع لمخابرات العسكريه

RAF توسيع القوات الجويه الملكيه

الفصل الخامس

مسرح العمليات أو الأحلام

إن المعلومات نوع من الألعاب المتكررة، تتكون من عدة أشكال وألوان والتى تتشكل بصورة ثابتة أو لا تتشكل. والمعلومات تتكون من البحث الذى لاينتهى أبداً عن عدد من الأجزاء المنفصلة التى تقوم بتحليلات الخدمات السرية بتجميعها لإكمال اللعبة أو اللغز وعندما تقرر أن تملأ إحدى الثغرات بأجزاء جديدة، يتبدل شكل اللغز. إنها عملية تطور لاتنتهى. وهى من بعض النواحى مثل لوحة الآلات فى إحدى الطائرات. وهى أيضاً الرجل الذى يصنع القرارات. مثل الطيار، رئيس الدولة، وتوافر المعلومات أمامه أمر حيوى. وبدونها، فإنه لايستطيع أن يقود الطائرة لأعلى بأمان. وإذا كانت الخدمة السرية لاتتسم بالكفاءة، أي مليئة بإناس غير محترفين أو أشخاص غير أكفاء أو أغنياء أو أسوأ من ذلك، فإن هذا سوف يؤثر على الرئيس بدون ذكر «الركاب» الذين معه ـ الأشخاص الذين يحكمهم. ومن الواضح أن وضعه الدولى سوف يضعف أيضاً، وسوف تفشل البوصلة التى ترشده، ولن يتمكن من حيازة جميع الأدوات التى تمكنه من اختيار الطريق المباشر لغايته.

والعالم ينطبق عليه ما سبق حتى انه فى الظروف الطبيعية، يقوم الرئيس بالطيران فى احوال مناوئه وعادة فى مجال رؤية تصل نسبته إلى صفر. فإذا كان أيضا بدون الأدوات الأساسية التى تحذره إلى ما يجب أن يتوقعه، فكيف يمكنه تجنب حدوث كارثة؟ ولم يحدث فى أى وقت فى التاريخ أن تمكنت «دولة» تستحق أن يطلق عليها «دولة» من الاستمرار بدون جهاز مخابرات.

وقد لاحظ الفيلسوف الصينى الكبير وكان من سادة الحرب، صمن نزو، وذلك منذ خمسة وعشرين قرناً «أن الاستخبارات الجيده هى الخطوه التمهيدية للنجاح». وكان معروفا عن هذا الرجل أنه عميل للمخابرات.

ولكن كلمة «النصر» اليوم تعد أقل وضوحاً عما كانت عليه من قبل. فالنصر قد يشمل النجاح العسكرى، السياسى أو الدبلوماسى.

ولكن من الممكن أن يشمل أيضا الانتصارات المعنوية، التى تتضح بصورة كبيرة فى أوقات تزايد الربح، ويعنى بهذه الانتصارات الاقتصاديه.

والمخابرات الاقتصادية أصبحت سلاحا استراتيجيا له تأثير قوى، وخاصه على أعدائنا الجدد فى الحرب العالمية الرابعة، اقتصاديات العالم الثالث الهشة التى تعتمد بصورة كبيرة على الثروة البترولية، وديكتاتوريون تعتمد قوتهم على القوة الاقتصادية والقدرة على شراء الاسلحة من الأسواق العالمية. واليوم فى الوقت الذى تتناقص أهمية بعض فروع أجهزة المخابرات فإن الخدمات الاقتصاديه أصبحت حاليا قائمه بذاتها فى الأهميه، خاصة هؤلاء المتعاملين مع دول القمر الصناعى بأوربا الشرقيه.

والتجسس الاقتصادى أصبح عنصرا رئيسياً من قدرات القتال الحربى. والسلاح الاقتصادى عادة مايكون أول سلاح يُستهدف فى أوقات الأزمات والمواجهة.

الأكثر من ذلك فى أنه إذا استخدم بصورة سليمة فإنه يمكن أن يثبت أنه نقطه الضغط الخطيره التى تخنق النشاطات العنيفه للقادة غير المنطقيين فى مثل هذه الحالات، كما هو الحال فى صدد المخابرات السياسية، الدبلوماسيه أو

العسكريه التقليدية، يمكن أن تكون المعلومات غير الدقيقه فى حد ذاتها سلاحا قويا وذلك عندما يتم استخدامها بصورة سليمه. وعلى سبيل المثال: فى نهاية نوفمبر ١٩٧١، مع قرب انتهاء وصول مشكله «ديلوت» إلى نهاية متأزمة، تلقيت معلومات بأن الأمريكيين سوف يقومون بتخفيض قيمة الدولار فى ١٨ ديسمبر. والمحلل الذى جلب لى هذه المعلومات فى المقر الرئيسى كان من أكثر المديرين الذين أشملهم بثقتى. كان رئيساً لما نسميه جهاز المخابرات الاقتصادى، الذى لايضم فقط المخابرات الماليه والاقتصاديه ولكن، كما اكتشفت فى بدايه عملي، التجسس الصناعى أيضاً وهناك مناسبات عديدة يمكن أن نقول فيهاان جهاز المخابرات هذا كان أكثر من قادر على تأدية مهامه، بل وفى الحقيقية تمهيد الطريق وتأدية جميع عمليات المخابرات الخاصة بالحكومة الفرنسية.

وكانت هذه احدى المناسبات. عندما تلقيت التقرير الخاص بقرب قيام الأمريكيين بخفض قيمه الدولار، أمسكت فوراً بالخط الساخن الأحمر الذى يربطنى مباشرة بمكتب الرئيس وطلبت إجراء مقابلة عاجلة مع الرئيس «بومبيدو» فى قصر الإليزيه ويبدو أن مصدرنا لم يعرف فقط تاريخ التخفيض ولكن ايضاً مستوى التخفيض ولهذا دخلت إلى مكتب «بومبيدو» مستعداً للأسئله التى لايمكن تجنبها والتى سيفرضها هذا الفرنسى المتميز فى مجال البنوك لمعرفه مزيد من التفاصيل.

وبسرعة قدمت السيناريو له ، معبراً عن ثقتى فى دقة المعلومات وثقتى فى مصدر المعلومات.

طلبت من الرئيس «هل يمكن أن تعطينى السلطة لكى أقدم هذه المعلومات لشخص أخر ـ لوزير الماليه على سبيل المثال؟»

رد قائلا «لا، لى أنا فقط»

ولأسباب جزئيا للخلفية التى يتمتع بها، وجزئيا بسبب طبعه العصبى، فإن «بومبيدو» كان يتصرف عادة بصورة مباشرة فى مثل هذه الأمور الحساسة مع البنك الفرنسى ومديره. وفى هذه الحالة لم يكن الأمر مختلفاً.

كان بومبيدو يتمسك بشدة بمفهوم خاص أعرفه (كأنه من المقدسات، وأن هذا أمر أساسى بالنسبة لأى نوع من عمليات المخابرات، وهو المفهوم الخاص بالحاجه إلى المعرفه. وفى حين إننى خرجت منذ هذه النقطة من أنشوطه المعلومات، إلا أننى كنت قادرا على تتبع الخطوط الرئيسية للموقف عبر أجهزة المراقبة الخاصة بنا.

وقد كان البنك الفرنسى، وهو البنك المركزى الفرنسى والذى يوازى البنك الفيدرالى للولايات المتحدة، قادراً على القيام وتنفيذ مجموعة من العمليات التى أثبتت نجاحها بصورة عاليه وذلك بالعمل بهدوء عبر مجالات متعددة يمكن أن توصف فقط بأنها تشكيلات متباينه، أو مع أشخاص يتم إنكار صلتهم بالحكومة.

وقد كان البنك المركزى الفرنسى قادرا وقتها على تحقيق أرباح ضخمة بمفرده، وهى أرباح كافية لتحويل جميع عمليات جهاز المخابرات فى فترة قيامى بتولى المنصب، ومن المحتمل حتى نهاية القرن، وذلك عن طريق القيام ببيع الدولارات وشراء الفرنك؛ فى عدد من الأسواق حول العالم بهدوء. وهل كان من الممكن ألا

نستطيع من سوء حظ دولة صديقه أو حليفة؟ من المحتمل، ولكن فى بعض الأحيان يكون هذا جزءاً من اللعبه، مع أن هذه الفرص نادرة جداً.

ويوماً بعد يوم، كان يمر علينا حالات تؤكد لنا مكرراً مدى فاعليه ماتجمعه المخابرات من معلومات فى مجال إدارة أعمال الدولة، حتى فى أوقات الهدوء عن أوقات الأزمات. وفى بعض المناسبات كنت أقوم بإعطاء الرئيس ملف عن أحد القادة الأجانب قبل أن يقوم بزيارة فرنسا. وعادة ما يكون الملف المطلوب ملفا الرجل الشخصى، والذى تم تجميعه فى بلدة من قبل الأجهزه الأمنية الخاصة بدولته. ونتيجة لذلك، كان الرئيس يعرف الإجابات التى سوف يعطيها له قبل أن يقوم الضيف الزائر بطرح الأسئلة.

وعملية جمع المعلومات التى تقوم بها المخابرات تقدم معلومات أيضاً يكون لها مكاسب شخصية مباشرة. وعلى سبيل المثال، إذا أراد شخص أجنبى ذو مقام رفيع أن يلتقى بى أثناء زيارته، فكان عليه بصفة عامة أن يتصل بسفارته فى باريس قبل سفره. وكنت، بالتأكيد، قادراً على قراءة مثل هذه الرسائل.

وفى الأسابيع أو الشهور التى تتخلل ذلك، تقوم السفارة بتكوين صورة عامة عنى، والتى يمكن أيضا أن تصلنى عن طريق مراقبينا.

وأخيراً يقوم ذو المقام الرفيع بإرسال برقية لسفيره: «هذا ما أريد أن أناقشه معه. فكيف عن المحتمل أن يكون رد فعل «الكونت» تجاه اسئلتى؟ كيف ستسير الأمور فى رأيك».

وفى الوقت الذى يصل فيه إلى مكتبى، أكون قد عرفت عنه ليس فقط

شكله وصفاته المميزه والخاصة، ولكن مايريده أيضاً من لقائنا والمدى الذى يمكننى أن أسايره إليه، ومتى وأين أقوم بشد الخط.

إن التجسس بالمعنى الصحيح أصبح يتركز بصورة متزايده على ادارة الأعمال والاقتصادو العلوم والصناعة.. ومع تزايد تعقيد وصعوبة تكنولوجيا الإرهاب وأسلحة الإرهاب، اضطرت أجهزه المخابرات العظمى إلى التركيز على أحدث انواع التكنولوجيا المنتظر استخدامها فى الحرب العالمية الرابعة. وذلك لتحديدماينوى عليه الأعداء، وكيف نحمى منشآتنا الصناعية من التخريب، الهجوم والسرقة. ومن المحتوم، أن هذا التركيز أدى إلى بعض الاكتشافات التى أثبتت فائدتها الكبيرة فى المناطق غيرالعسكرية. هذه النوعيه من المعلومات تُمكن الجهاز من اكتشاف عملية تستخدم فى دولة أخرى وكان يمكن أن تستغرق سنوات وملايين الفرنكات لتتطور أو تصل للكمال.

وقد بذل السوفييت مجهودا ضخما فى هذا المجال. وفى نيويورك، كان هناك نصف دسته من مسئولى القنصلية السوفيتيه يقومون يوميا بزيارة مكنت براءة الإختراعات بالولايات المتحدة ومكتب العلامات التجارية. وهم يذهبون إلى هناك، بصورة قانونية، ليقوموا ببساطة بنسخ جميع الاختراعات التى تم تسجيلها خلال الـ ٢٤ ساعة السابقة.

ولكن هناك عمليات تتسم بكونها أقل شرعية ومن النادر أن يتم إعطاء الأجهزه العسكرية براءة اختراع.. وطالما كان الجهاز من ضمن المحظورات أو من ضمن الأسرار العليا، فإنه لايكون فى حاجه ليحصل على براءة اختراع. بالاضافه إلى أن البراءات نادراً ما تعطى فى مراحل التطوير الأوليه. ومع ذلك

فإنه فى هذه المرحله. قد يكون للأجهزه قيمة كبيرة، ويمكن بذلك أن يحقق التجسس الصناعى أعظم المكاسب.

واليابانيون متخصصون فى مثل هذه الأمور. والصناعة اليابانية لها علاقات وثيقه مع الحكومة. وقد قمت أنا ومنفذو عملياتى بدراسة عملياتهم فى الخارج، فى محاوله لفهم ومعرفة هدفهم التالى فى فرنسا، وكيفيه وصول التكنولوجيا التى ينسخونها لأعدائنا الأساسيين فى دول أخرى. وفى فرنسا يتم تولى عمليات مواجهة التجسس الصناعى مجموعة ـ وهى عملية تتم بمهارة. وفى بعض الأوقات كنا نقوم باقتسام المسئوليات والمعلومات. والتكنيك اليابانى كان بسيطا بصورة خادعة فعندما كانوا يلاحظون أنهم يحتاجون فى أحد الصناعات التى تتطلب تكنولوجيا ماليه إلى جهاز معين أو إحدى الأدوات، كانوا يقومون باختبار الوضع العالمى. فإذا توصلوا إلى استنتاج يشير إلى أن فرنسا أو سويسرا، على سبيل المثال، تعد إفادة العالم فى هذا النوع من المنتجات، كانوا يقومون بإرسال وفد،.

وهذا حدث فى نهاية سنة ٧٨ مع نظام تحويل التليفونات الرقمية الحديثه والتى توصلت إليها إحدى شركات الاتصالات الفرنسيه الكبيره، وقد تحققنا من اهتمام اليابان بهذا المجال عن طريق محادثه زملائنا البريطانيين فى « ستلنهام « والذين قرروا اعتراض طريق اليابانيين وعندما أجرينا اتصالنا بالشركة الفرنسيه، وممثليها فى طوكيو، كانوا مندهشين، فقد افترضوا، بعد التحقيقات الدولية مع اليابانيين، أنهم كانوا على وشك القيام بمبيعات كبيرة، وليس السرقة. وقد أعرب أحد العملاء اليابانيين فى إحدى المحادثات مع

المثلين الفرنسيين للشركة فى طوكيو قائلاً: «إننا عملاء لبعض منتجاتكم».

وهذا الحديث أدى إلى الاتفاق على تعاقد كبير جداً، يكفى لأن يجعل لرجال الصناعة الفرنسيين والسويسريين يجرون لاهثين لفتح باب مصانعهم على مصراعيه أمام الزائرين فى هذه الحالة، كان اليابانيون يصلون فى جماعات من اثنين أو ثلاثه، الكاميرات تتأرجح على صدورهم، وطلبوا رؤيه معدات معينه وعمليات تصنيع معينه. وقد أكدت معلوماتنا أنهم وجدوا عددا من الابتكارات التكنولوجيه التى جذبت اهتمامهم بصفه خاصة.

وقد كنا نقوم بمراقبتهم عن قرب طوال اليوم وخلال الليل. وفى هذا المساء ناقشوا المسألة فيما بينهم خلال لقاء فى جناح رئيس الوفد، والذى كان مقيما فى فندق «انتركونتننتال» الذى يطل على حدائق «تويلرى» وقاموا بتبادل الملاحظات المفصله وتبادلوا الصور التى التقطوها وتم تحليلها بدقه. وفى النهاية، ثم توزيع مزيد من الأعمال عليهم. وقد تم تخصيص أحد أعضاء الوفد لإقناع أحد المصممين الفرنسيين البارزين لمناقشة اختراعه.

كما تم إرسال شخص ثانيا لأخذ صور أكثر تفصيلاً.

وفى اليوم التالى. تم تقسيم المصنع إلى اقسام تمهيدا للزيارة الثانيه والأخيره. وكان الوفد قد خطط القيام بهذه الزيارة لهدف واحد فى رأسهم وهو الحصول على أكثر المعلومات تفصيلاً حول طبيعه وعمليه إنتاج الأجهزة. ولكن العاملين الفنيين بالمؤسسة الفرنسية كانوا على علم بذلك من قبل عملائنا. ولكن فجأة تم إلغاء الزيارة بصورة غير رسمية، ومحادثات توقيع العقد انتهت، وعاد اليابانيون إلى وطنهم بفشل مُخزٍ. وهذه العمليه الخاصة بمواجهة

التجسس، وياللحسرة، كانت تعد نجاحاً معزولاً. وكانت هناك عمليات أخرى با ءت بالفشل، وتم نقل الابتكارات التكنولوجيه من أوربا الغربيه، وأمريكا أيضاً، إلى اليابان كنتيجة لعمليات مماثله. وعادة مايقوم رجال الصناعة الغربيون بالتعامل مع اليابانيين بصورة أكثر مباشره. فهم عادة مستعدون حتى إلى إرسال نماذج للأجهزة التى من انتاجهم إلى اليابان، بسبب انبهارهم بفكرة العقود المجزية التى يقدمها اليابانيون.

وفى إحدى المرات وبعد مرور عدة أشهر، ولحزنهم الشديد، وجدوا نفس المنتج الذى ينتجونه فى أحد المعارض التجارية الغربية ولكن صنعه أجود، وأقل تكلفة وعليه علامة «صنع فى اليابان» مطبوعة عليه. والأكثر خطورة أن بعض هذه المنتجات عرفت طريقها إلى أيادى الأعداء.

وقد شعرت شركة «توشيبا» بحرج شديد عندما تم الكشف عن أن التكنولوجيا المتقدمة ذات التصميم الأمريكى والتى تستخدم فى تصنيع مراوح الغواصات تم استخدامها فى الاسطول النووى السوفيتى. ومن المعروف أن دول الكتله الشرقية تحاول دائما الحصول على هذه النوعيه من التكنولوجيا بصورة مباشرة منذ أعوام - شاهده على سبيل المثال المحاولة السوفيتية لتصنيع نسخة مطابقة لطائرة الكونكورد وبالرغم من فشل المحاولات النهائيه لطيرانها، ولكنها كانت فى الحقيقه مطابقة لطائره الكونكورد الفرنسية - البريطانيه «فيما عدا طريقة تصنيعها المخزية، والتى تسببت» فى النهاية، إلى سقوطها مكرراً اثناء تجربتها. وعرفت هذه الطائرة باسم «كونكوردسكى» وهذا يعد مثلاً تقليدياً لعملية التجسس الصناعى على المستوى الدولى.

كيف يمكن تجنب مثل هذه السرقات التكنولوجيه فى مجتمعاتنا المفتوحة فى الغرب؟ على مدى أعوام، كان الفرنسيون وقوى غربية أخرى يقومون بإمداد السوفييت، علانية وقانونيا، بعمليات تصنيع حربى يطلق عليها «مفتاح التحويل» وقد أطلق عليها ذلك لأنه على الشارى أن يدير فقط المفتاح فى الباب ليذهب الى العمل.

وقد تم تصنيع الشاحنات العسكرية التى تم استخدامها أثناء الأحتلال السوفيتى لأفغانستان فى منطقه مشروع شاحنات «نهر كاما» الذى تولته مؤسسة من أوربا الغربيه.

وفى هذه القضيه (الحاله) وحالات اخرى كان جشع الأفراد أو المؤسسات هو الدافع الأساسى، ومن المحتمل أن يكون جديراً بالثناء فى محيط المؤسسة، ولكن تضع المؤسسة موضع تساؤل أمام الأمن القومى. ومثل هذا النشاط يتم تقييده فقط بشق الأنفس من قبل تنظيمات الدولة. والتكنولوجيا الأكثر تقدماً والتى لها أهمية أمنيه وطنيه واضحة هى فقط التى يتم حظر تصديرها إلى الكتله السوفيتيه فى إطار اتفاقية(وهو لجنه تنسيق التحكم فى التصدير المتعدد) المنعقده بين الدول الغربية التى ظهرت منذ سنه ١٩٥٠.

وهذا يترك مجالاً مفتوحاً وواسعاً أمام الذين يفكرون فى التجارة مع الشرق ـ وهى تجارة مربحه لمؤسساتهم، ولكنها تعد مساعدة ضخمه وراحة كبيره للقوى الشيوعيه، ولأعدائنا فى الحرب العالميه الثالثه. وقد وصف «لينين» الأشخاص المسئولين عن مثل هذه الصفقات «أغبياء نافعين». وكان «أماندهامر» والده، أول موردين فى هذا المجال للاتحاد السوفيتى، من ضمن

هذا التصنيف الذى وضعه لينين. وفى بعض الحالات، كان أعداؤنا فى الحرب العالميه الرابعة يتسمون بأنهم أكثر عنفاً فى عمليه التودر إلى الشركات الصناعية الغربية أو الشمالية ومتجى الأسلحة. وقد قام مثلا تجار الأسلحة بدفع مبالغ نقدية سخيه فى مبيعات الأسلحه الفرنسيه ومراكب الحراسه السريعه لإيران وطائرات حربيه للعراق.

وقام الرئيس الليبى معمر القذافى باستثمار مبالغ ضخمه فى شركات السيارات الأوربيه وأما باكستان وبعض الدول الأخرى فقد قاموا ببدء حمله شرائيه واسعة المدى فى الغرب لجمع المعدات اللازمة للتحرك تجاه الوصول إلى انتاج الاسلحة النووية. وقد شعر الألمانى ديملر بنز» بالحرج الشديد عندما تكشفت أن الشاحنات الخاصة به تم استخدامها فى نقل الجنود العراقيين إلى الجبهة فى حرب الخليج سنه ١٩٩١. والشئ الذى كان أكثر إحراجاً هو استخدام العراقيين لطائرات الميراج ٢٠٠٠ التى كانت فرنسا قد باعتهم للعراق لاستخدامها خلال الحرب الإيرانية العراقيه. ووجود نفس هذه الطائرات فى السماء فوق الكويت كان يعنى أن جزءاً من القوى الجوية الفرنسيه سيتم تركه أرضاً بعيداً عن ساحة القتال خلال حرب الخليج خوفاً من أن تقوم طائرات الحلفاء بالخلط بين الميراج الفرنسيه وبين طائرات صدام وتقوم بإسقاطهم. ومع ذلك فإن التعاملات الرسميه، التى يعلن عنها بصورة كبيرة بعد ذلك، وغيرها والتى تتم فى الخفاء غالباً ما تكون مادة التكريم الشخصى على نطاق واسع وذلك من قبل المسئولين الذين قاموا بالتركيب لها وللصناعات الغربية التى استطاعت الحصول على هذه العقود المربحه.

وبخلاف هذه العمليات التجارية، هناك الكثير من العمليات التى تتم بعيداً عن أضواء التليفزيون وذلك على يد عملاء المخابرات من جميع دول الكتله الشرقيه وعدد من دول الشرق الأوسط وأفريقيا والتى تعد تهديداً مستمراً لمعارضيهم الشرقيين. وعادة ما يتم حجب هؤلاء العملاء وراء ستار الدبلوماسيه، وهؤلاء العملاء يحصلون على نسبه ضخمة تتراوح بين ٣٥ و٦٠٪ من السفارات والقنصليات، ومنظمات التصدير والاستيراد. وفى المجتمعات الدكتاتوريه والشيوعيه، تكون هذه الجماعات ككل مسئولة بصورة مباشرة أمام الحكومه. بما أن لديهم كل شخص يُعد مسئولاً.

إن امتياز السفر والعيش فى الخارج فى المناطق الغنيه فى الغرب عادة ما يحمل معه مهمة تقديم أى خدمات من أى نوع كان التجسس الصناعى، الاستخبار السياسى، وحتى القيام بعمليات إرهابية ـ قد تطلبها دولته الأم. وهذا يعد صحيحاً بالنسبه لدول الكتله الشرقيه وعدد من أعدائنا فى الدول الديكتاتوريه فى العالم النامى. والسلطات الفرنسيه تعتقد أن مسئولاً أمنياً سورياً كبيراً، يتظاهر بأنه دبلوماسى فى سفاره سوريا فى باريس، قد تورط بصورة مباشرة فى عدد من التفجيرات الإرهابيه فى العاصمة الفرنسيه فى بدايه سنة ١٩٨٠، بما فى ذلك الانفجار المهلك الذى حدث فى أحد المطاعم اللبنانيه فى شارع «ماربيف» بالقرب من الإليزيه.

ويجب علينا أن نعزز قدراتنا الخاصة بمواجهة التجسس بما أن أعداءنا قد قاموا بتعزيز مجهوداتهم ضد عملائنا، حكوماتنا، أعمالنا وصناعتنا. ويجب علينا أن نساوى أعداد الدبلوماسيين أو الجواسيس المخول لهم الالتحاق بالعمل

على الجانبين لتخفيف عبء المراقبه. وفى نفس الوقت يجب علينا ان نمتنع كلياً عن الاستعانه بعاملين أجانب فى قواعدنا العسكرية فى الخارج، كما كان يفعل دائما الأمريكيون والفرنسيون فى الماضى ـ وكما امتنع السوفييت عن فعل ذلك،. والتطبيق العملى كذلك يؤدى فقط إلى المتاعب.

ففى كل حالة، كان السوفييت سيحاولن اغتنام كل فرصة للسيطره على ساحه اللعب لصالحهم. وفى واشنطن، قاموا باختيار موقع مميز لسفارتهم الجديده على تل يُطل ويكشف العاصمة ـ موقع يساعدهم على القيام بنشاطهم فى مجال جمع المعلومات إليكترونيا. وفى موسكو، عندما كان يتم بناء سفارة أمريكيه جديده فى نفس الوقت فى بدايه الثمانينات، اختتم السوفييت الفرصة وملأوا المكان بأجهزه التصنت السمعى الإلكترونيه الخاصة بهم.

والأكثر من ذلك، أنه لايجب علينا أن نسعد بالافتراض الذى يشير إلى أن مصادرنا يمكن أن تكون أكثر فائده إذا طبقت فى أى مكان أخر بعد إزاحة التهديد السوفيتى. ولكن المخابرات السوفيتيه، المخابرات العسكريه مستمرتان فى العمل فى فرنسا، بالاضافه إلى عملهما فى الإمبراطوريه السوفيتيه ككل. وفى الوقت الذى نأمل فيه أن تقل قوتهما فى المستقبل، وهذه ليست القضيه الآن فى الوقت الحاضر، لا يجب علينا أن نخفض عدد مراقبينا.

ومازال هناك أشخاص من المخابرات السوفيتيه فى باريس، مارسيليا، وليون (حيث افتتحت منظمه البوليس الدولى، الإنتربول، مؤخراً مقر القيادة العالمى الجديد)، وفى مناطق أخرى. ويجب علينا أن نستمر فى استخدام مواردنا

لمراقبة عملاء الأعداء باستمرار فى كل قطاع يعمل فى الخفاء، خاصة عملاء أعدائنا الجدد. ولقد فشلت مراراً فى فهم «لماذا يجب على السوفييت أن يكون لهم مراقبون فى بلدنا يزيد عددهم أربع أو خمس مرات عن عدد مراقبينا فى بلادهم؟ المساواة يجب أن تكون القاعدة. ولقد استطعنا منذ فترة تحديد نسبه ملائمة لبعض ديكتاتوريات العالم الثالث. ففى بلادهم تكون تحت المراقبه الكليه، لايمكنك أن تتحرك خطوه بدون أن تكون مراقباً. ولاشئ من هذا قد تغير فعلياً فى الاتحاد السوفيتى ولقد زاد العدد أكثر فى بعض العواصم منذ حرب الخليج الفارسى ولايزال الدبلوماسيون أو الجواسيس يتحركون بحريه فى كل مكان يريدونه فى فرنسا. ويتمتع عملاء المخابرات السوفيتيه والمخابرات العسكرية بحياة رائعة. فهم يمكنهم زيارة أى شخص يريدونه، وهم يمكنهم السفر إلى أى مكان يريدونه (مع بعض قيود محدودة جداً). وكل هذا بدون رقابة فعلية أو إشراف. وقد بلغ عدد المتواجدين فى مدينه مثل باريس الذروة فى السبعينات وبدايه الثمانينات، فقد كان مئات من مسئولى وعملاء المخابرات من الكتله الشرقيه، ولاداعى لذكر المئات الذين ينتمون لديكتاتوريات العالم الثالث، يعملون فى باريس كدبلوماسيين، وأصبح من الصعب جداً تتبعهم جميعاً. وفى موسكو، هناك عدد قليل من السيارات ولذلك يمكن تتبع أى شخص بسهولة. ولكن حاول ذلك فى لندن، باريس أو نيويورك حيث تجعل أزمة المرور هذا الأمر مستحيلاً.

وعملاؤنا، ودبلوماسيونا أيضا، لم يكن يسمح لهم بالرحيل من موسكو بدون إذن خاص. فكان هناك نقاط لضباط القوات المسلحة النظامية كل عشرين أو ثلاثين ميلاً على الطرق السريعة الرئيسيه تقوم بالتفتيش على الأجانب.

وإذا لم نصل إلى أحد نقاط التفتيش هذه فى وقت معقول بعد أن نترك النقطه السابقه، كان يتم إرسال بعض الضباط ليبحثوا عنا. وهم لايقومون أبداً بمساعدتنا فى تغيير اطار السيارة.

وفى أحد أيام صيف سنه ١٩٧٦ قابلت وزير الخارجيه الفرنسى فى احدى الحفلات الرسميه فى باريس، والذى قدمنى إلى وزير الخارجيه للولايات المتحده. ومع أننا نعرف بعضنا منذ أعوام، إلا أننا نادرا ماكان لنا لقاء مباشر خلال عملى فى المخابرات الفرنسيه. وقد كانت معلوماتى تمر إلى أيدى الرئيس مباشرة، فى حين أن الاعتمادات الماليه للجهاز كانت تمر على مكتب رئيس الوزراء. وكانت الخارجيه الفرنسيه والموازين لوزارة الخارجيه الأمريكيه، والتى يرأسها وزير الخارجيه مجرى أخر للمعلومات والتقارير. وكان ضباط الجهاز الخارجى، أو الدبلوماسيون، يقومون بالتحقيق عن مدى صحة نوعيه المعلومات التى يقدمها عملاء المخابرات التابعون لى والذين يقدمونها بصورة منفصله للحكومة.

وقد بدأ وزير الخارجيه حديثه قائلا: «لدى بعض الأخبار السارة، فلقد رأيت فى النوم بعض أصدقائنا الروس فى موسكو، وسوف يسمح لنا بفتح قنصليه عامه فى «لينِنجراد». وسوف يفعلون نفس الشئ فى مارسيليا.

قلت «ياإلهى. هل يمكن أن أسأل عن عدد الأشخاص الذين سيعملون فى مارسيليا؟. رد قائلاً «حوالى خمسين».

قلت «وماذا عن عددنا فى لينِنجراد».

قال «خمسة» إذا وجدنا عاملين مدنيين مستعدين للذهاب الى لينِنجراد».

فأسرعت مباشرة لرؤية الرئيس وأطلعته على ما أعتبرت أنه ليس خبراً جيداً ولكن أسوأ خبر ممكن سماعه. ونتيجه لذلك، تم تخفيض العدد المسموح به للعاملين السوفييت فى القنصليه السوفيتيه العامة فى مارسيليا.

ومع ذلك، بعد مرور عدة شهور، عندما بدأ مسئولو الأمن الفرنسيون العمليه الروتينيه الخاصه بالتقصى عن الروس العاملين فى مارسيليا، وجدنا أن نصف عدد موظفى قنصليتهم جواسيس محترفون يعملون من أجل واحدة من منظمات الجاسوسيه السوفيتيه أو الآخرى. فلماذا يمكن أن يكون السوفييت مهتمين لهذه الدرجة بهذه المنطقه من فرنسا؟ والسبب، بالتأكيد، أنها الميناء الرئيسى لفرنسا وإحدى المنشآت البحرية على البحر الأبيض وكانت الغواصات النوويه الفرنسيه التى تستقر فى طولون ومازالت هى التى تجنب اهتمام العسكريين السوفييت بصورة مكثفه - ليس فقط بسبب وصول أورميل هذه السفن فى حد ذاتها والتى اصبح من السهل مراقبتها حاليا عن طريق الأقمار الصناعيه والوسائل الاليكترونيه ولكن بسبب الحاجة إلى معلومات عن الاسطول البحرى ايضا. خطط الانتشار وحالة التأهب فى الدولة والنوايا العسكريه يمكن الكشف عنها فقط عن طريق الاتصال الشخصى بين عملاء المخابرات السوفيتيه وبين ملاحى البحرية الفرنسية.

ولكن لا يجب علينا أن ننسى أيضا أنه قرب منطقه مارسيليا، فى الكوت دازور هناك عدد يتزايد من معاهد الأبحاث الفرنسيه الخاصة والهامة. وشركة وعدد من الشركات الدوليه الأخرى لها معامل أبحاث هناك. وقد تأكدت أسوأ مخاوفى بعد مرور عدة أشهر من فتح السوفييت لقنصليتهم فى مارسيليا. فقد قام رئيس شركه فى فرنسا بزيارتى فى مكتبى فى باريس.

وقد بدأ كلامه بجديه قائلاً «لدى مشكلة، وبما أننى أعرفك، فلقد سمحت لنفسى أن أحضر لرؤيتك. لقد وقع أحد مهندسى الأبحاث العاملين فى مركز لاجود (وهو مركز الأبحاث الرئيسى لشركه فى جنوب فرنسا) فى غرام فتاه من القنصليه السوفيتيه العامة فى مارسيليا ـ وأنا أتساءل لماذا ؟»

وكان ردى «لماذا لايثير هذا دهشتى؟»، وشرحت أصل فكرة تبادل القنصليات فى مارسيليا ولينينجراد، بالاضافه إلى طبيعه الوجود السوفيتى الجديد فى «الكوت دازور». وبالتأكيد، ان لينينجراد لها نفس الأهمية لنا كمركز استماع لجهاز المخابرات الخاص بنا. فلماذا إذن هذا التناقض الكبير فى مستوى عدد العاملين فى الجانبين؟»

أولا:، ليس لدينا العدد الكافى من الاشخاص المدنيين والعسكريين. والأكثر من ذلك أن الجهاز الدبلوماسى الفرنسى ينفر من تقديم خدمات خاصة بتوصيل المأكولات وتوفير المسكن والمساعدات الرئيسية للاشخاص التابعين للمخابرات.

وهناك شعور عميق ومتبادل بعدم الثقه بين أعضاء الجهاز الدبلوماسى الفرنسى وبين جهاز المخابرات يفوق بكثير أى انقسامات يمكن أن تكون فى مثيله الامريكى والبريطانى فهناك سوء فهم رئيسى لعملنا، حتى بين الدبلوماسيين المحترفين، الذين يجب أن يكون لديهم دراية أفضل بكيفية قيامنا بعملنا. والدبلوماسيون يعملون فى ضوء النهار، أما عملاء المخابرات فهم يعملون من وراء ستار كثيف.

وبالنسبة للفرنسيين، فإن زملاءنا كانوا عادة ما يجدون صعوبه فى التفريق

بين وظيفتنا كضباط مخابرات وبين عمل الاشخاص من العسكريين الفرنسيين. بدون سؤال، أغلب الأشخاص الذين كانوا يقومون بعملياتنا جاءوا من وحدات الجيش النظامي وهذا هو الحال بالنسبة لبعض المنظمات الأخرى الخاصة بالمخابرات ولهذا السبب، فليس من الممكن تجنب وجود بعض سوء التفاهم.

ولكن عادة ما يتزايد حدة سوء التفاهم وينقلب إلى كراهية وشكوك واضحة.

كيف إذن تختلف عملياتنا عن عمل هؤلاء الجنود أو الدبلوماسيين؟ أن من صميم عمل الجيش أن يعرف مدى قوة جيوش حلف وارسو. ولكن معرفه ما يفكر فيه ضباطهم، ومعرفة اخلاقياتهم. ودوافعهم. وحالتهم النفسية تبعد أكثر الامور صعوبة، ولكنه هدف مساو فى الحيوية لمعرفة قوة جيشهم. ولهذا السبب فإن ضرورة اكتشاف كيفية تحوك الإرهابيين تجاه اهدافهم، أو كيفية اختبارهم لأهدافهم، ونقاط التسلل، وأسلحتهم وحلفائهم يمكن أن يمنع أكثر النتائج سوءا والتى توصف بالكارثة. والمعلومات التى من هذا النوع تكون ضرورية لمنع تجارة المواد المخدرة، والتجسس الصناعى، والتهديدات المميتة الأخرى التى تهدد بقاءنا والتى تعد فى تزايد مستمر فى الوقت الذى يقل فيه خطورة «حلف وراسو».

وخلال الفترة التى كنت فيها رئيسا للمخابرات الفرنسية، كان من الواضح أن الانذار المبكر الذى يسبق أى تحرك لبعض الوحدات العسكرية الرئيسية حلف وارسو، أو رفع حاله التأهب، وإن كان يسبقه بعدة أسابيع أو عدة أيام أو حتى عدة ساعات، يمكن أن يثبت أنه شىء ذو أهمية قصوى بالنسبه لدفاع أوربا الغربيه. وقد أولينا اهتماماً كبيراً ، على سبيل المثال، لخطط الجيش الميكانيكى العشرين للحرس «وكان الروس يقومون فى بعض الحالات باطلاق

أسماء القياصرة على الوحدات». وساحة عمليات هذه المجموعة كانت تنحصر بصفة خاصة فى شرق برلين، وكان من الممكن أن تكون هذه الوحدة إحدى الوحدات الهجومية الخاطفه إذا حدث غزو من قبل قوات «حلف وارسو» وإذا تم اعطاؤهم أمرا بالتحرك، كان من المحتمل أن يكونوا وحدة تعبر الستار الحديدى فى طريقها تجاه منطقه برست **Brest** وإلى القناه.

وفى أحد الايام تلقيت مكالمة تليفونية فى منزلى. وقد كان إلى جانب فراشى هاتفان. أحدهما الخط العادى، والآخر هو الخط المباشر مع ضابط الخدمة فى المكتب الرئيسى للمخابرات وكثيرا ما كان التليفون الثانى يرن فى وقت متأخر من الليل.

وهذه المرة كان يبدو أن التقرير ينذر بالسوء بشكل ما. وقال أحد مساعدى بشفرة سريه موجزه« هناك شىء إضافى حدث منذ ظهيرة هذا اليوم فى هذا العمل الغريب».

وقد كان ذلك فى اكتوبر سنه ١٩٧٣، عندما قامت القوات المصرية والسورية بشن هجوم بمفردهم ضد إسرائيل، وبصورة تبشر بكارثه، تحولت الحرب لصالح العرب. وبعد الظهيرة قال لى مدير المخابرات: « ان هذا شىء غريب، ولكن فرقه الباراشوت السوفيتية لا ترو. ولا تستطيع الوصول إليها على أى جهاز من أجهزة المراقبة الخاصة بنا».

وهذه الوحدة كانت من الفرق الممتازة فى الجيش الاحمر، وتتمركز فى مكان جنوب موسكو. وقد كنا معتادين على الاستماع لها بصورة متقطعة. والآن اختفت بصورة مفاجئة ويبدو أنها تلتزم الصمت.

بعد أن استمعت لتقارير جميع المراقبين أصدرت له أمرا« اطلعني أولا بأول الحقائق الجارية » وسنستند إليها ،ثم نسأل حلفاءنا ».

واتخذت من مكتبى مقرا للاقامة وكنت أحصل على موجز الاخبار على فترات منفصله.

وفى كل مرة كان التقرير مشابه لسابقه« مازالت لا ترو » الفرقة السوفيتيه كلها اختفت وخلال الليل،. أصبح الموقف معقداً بصورة متزايده. بدأت التقارير فى الوصول وتشير إلى أن طائرات ذات حمولة ثقيله تطير جنوبا فوق تركيا، حيث يوجد تسهيلات وأجهزة مراقبة دقيقة تعمل بجدية فائقة للولايات المتحدة.

وبتجميع جميع هذه العناصر، واستنتجت بسرعة أن أسوأ الامور أصبح من المحتمل حدوثه. وعدت إلى رئيس مساعدى وقلت له:« حسناً، هذا هو الامر. إنهم سوف يتدخلون فى الشرق الأوسط.

وانتقل خبير الطيران التابع لى إلى الخرائط والرسومات التى قمنا بفرشها على مائدة المؤتمرات فى مكتبى. واستغرقنا فى التفكير حول الاوراق، وكنا نحاول الوصول إلى عدد ساعات الطيران التى استغرقها اختفاء فرقة الباراشوت السوفيتيه واحتمال وصولها إلى مجال أحد الاهداف المحتملة فى الشرق الأوسط- بكلمه أخرى، حتى يمكن أن يكون لدينا تأكيد حاسم، مصحوب بكارثة ، بأن الروس قد وصلوا. وقد كان هناك عدة أهداف أساسية محتملة، من ضمنها مرتفعات الجولان، حيث تم تدميرو واهلاك الجزء الأعظم من الجيش السورى ومعداته السوفيتيه الصنع على يد القوات الجوية الإسرائيلية

وهناك أيضا سينــاء ، حيث قـام الإسرائيليـون بتثبيـت القـوات المسلحـة المصريـة ككل.

ولقد كنت محاطا بكبار ضباط المخابرات الفرنسية والمتخصصين المدنيين.

كل منهـم أعطانى موجزا من أخبارهم، ثم تركزت جميع العيون على. وعند هذه النقطة، سألت نفسى السؤال الحساس، كمدير عام للجهاز السرى، هل يجب أن أحادث رئيس الجمهورية على الهاتف.

وقررت، بغريزتى أو بالحاسة السادسة، بأنه لا يجب أن أوقظ الرئيس . وفى النهايـة ثبت أن الانذار لم يكن له أساس. وبعد عدة ساعات، تم التقاط أصوات الفرقة السوفيتيه ثانيا على الموجة المعتادة. واتضح أنها لم تترك موقعها أبدا. ولم نعرف أى تفسير لما حدث. ولكن هذه الحادثة توضح القاعدة الأساسية لعمل المخابرات وهى الحاجه إلى تجميع العديد من العناصر الممكنه بالاضافه إلى أى كم ممكن من المعلومات .وفى التحليل النهائى، يتوقف الأمر على بديهة الشخص، والشعور الخاص الذى تولده سنوات الخبرة، لاتخاذ القرار النهائى. وعلى هذا القرار يتعلق مصير أمة.

وهناك العديد من الدروس التى يمكن استنباطها من هذه الحادثة. أولا، واحتمال أنه أكثر الدروس أهمية، يتعلق بشكل العلاقة بين المدير العام للمخابرات الفرنسية ورئيس الجمهورية فخلال هذا المسار وصلنا إلى نقطه معينة بدا لنا خلالها أننا على حافة أزمه دولية بسبب تدخل السوفييت فى الشرق الأوسط. وأنا لدى خط مباشر مع الرئيس على ركن مكتبى. ولكن هل كان على أن أزعجه، ولم يحدث شىء، عندئذ كانت مصداقيتى لديه ستتعرض

للضرر بشدة. والعملة الوحيدة الرابعة لمدير المخابرات لدى رئيسه، رئيس الجمهورية هى مصداقيته. وخاصة عندما لا يكون هناك أى فعل أمر الرئيس بالقيام به، فإن درجة التسامح تكون صفرا للطفل الصغير الذى أبكى الذئاب ويمكن السماح له بإنذار خاطىء. ولكن الإنذار الثانى يمثل مشكلة. وفى المرة الثالثه عندما يحدث شىء حقيقى، فإن رد الفعل يكون« ها قد بدأنا ثانيا ». وأنت فى هذا العمل وحيد. فالافراد الذين معك فى طاقم موظفيك، والفنيين، والمتخصصين يمكن أن يمدوك بمعلومات كاملة ومفصله من وجهة نظر المخابرات. ولكن ليس لهم سلطة اتخاذ القرار. وقرارك له المتخصص يعد مصدر المعلومات الجوهرية والنهائية. وهذا ما تحتاج له أغلب الدول الأوربية حيث لا يتم اتخاذ القرار عن طريق لجنه ما، كما هو الحال عادة فى الولايات المتحدة، ولكن يتم اتخاذ القرار عن طريق المسئولين المنعزلين الذين يعملون بنصائح الخبراء الذين عينوهم ووثقوا بهم.

وهذا يؤدى إلى الدرس الرئيسى الثانى والمستفاد من قصة الفرقة السوفيتيه.

وهو يتعلق بمشكلة تقسيم وترجمة معلومات المخابرات غير المصقولة، وكيفيه استخدامها أو التصرف بصددها. وبعد أن أصبحت وسائلنا لاصطياد المعلومات أكثر تحسنا وتتسم بأنها لحظية أى أن لها توقيتاً معيناً، فإن الاعداء أيضا أصبح أكثر مراوغة ذلك يجب أن نصبح أكثر إنجازا ودقة فى التقييم والتصرف. وهذا يعنى العودة إلى القاعدة الرئيسيه الخاصة بالاستنتاج والمحلل الخبير المتمرس فى الأحداث العالمية هو القادر على القيام بذلك.

وهذا يعنى سرعة تقييم معلومات المخابرات فى أقصر وقت، وتقييم المحيط والخلفيه المتعلقة بالموقف وتفسير فجواتها وتقييم مغزاها، وفى النهاية أن تتوافر القدرة على العمل بسهولة وثقه مع الاستنتاجات التى تم التوصل لها من خلال هذه العملية السابقة.

وللبريطانيين عرف عظيم فى مجال التحليل. ويقوم الجهاز الجوى الخاص(SAS) والجهاز الخاص بالسفن (SAS) بتنفيذ العمليات البريطانية، ولكنهم إذا كانوا يحتاجون إلى نقل شيء ، كان عليهم أن يذهبوا إلى القوات الجويه الملكية، وإذا احتاجوا إلى مزيد من الأشخاص لتعزيز وحدات العمليات الخاصة بهم، كان عليهم الذهاب إلى الجيش النظامى أو البحرية، وقبعا تهم فى أيديهم وكرئيس (SDECE) المخابرات الفرنسية، كنت الرئيس الوحيد لإحدى منظمات المخابرات الغربية الذى له سلطة كاملة على وحدات العمليات الخاصة والتى تشمل الرجال، الطائرات، والمعلومات حيث كنت أجمع هذه العناصر معا بسهولة وثقة، ولايهم نوعيه أو طبيعة العملية. ومثل هذه الارتباطات كانت تتطلب حقيقة وجود وحدات مترابطة.

فمثلا عند ما تنزل فى قطاع ما من الأدغال، وإذا كان الشخصان الصغيران اللذان وصلا بعجلاتهما البخارية فى منتصف الليل ومعهما الأنوار اللازمة لإرشادك من نفس الوحدة التى تنتمى إليها، وكنت تأكل معهما نفس الشيء كل يوم، فإنك ستثق فيهما كليا. والسبب أنهما فى المرة القادمة سيكونان فى نفس موقفك وستكون أنت الشخص الذى معه الأضواء الكاشفة التى سترشدهما على الأرض. هذه هى نوعيه العمليات الخاصة التى نتفوق فيها. وجهاز

عمليات الأمن القومى الأمريكى لديه نظام رفيع المستوى خاص باعتراض المعلومات الاليكترونية ، وهذا يساعد على جمع معلومات متباينه. وما يفرق بين الأمريكيين عن كل من البريطانيين والفرنسيين أن جهاز المخابرات الخاص بالولايات المتحدة يقوم بجمع كثير جدا من المعلومات ويتصرفون تجاهها بصورة غير نظامية حيث يؤدى ذلك إلى فقدان قدرة البريطانيين على بلورة معنى المعلومات وتحليل مغزاها أو قدرة الفرنسيين على اتخاذ موقف سريع وفعال.

وبالتأكيد فى النهاية كل ما يستطيع أن يفعله أى رئيس للمخابرات هو تقديم أفضل تقييم للموقف إلى رئيس الدولة الذى وحده لديه سلطة التصرف وخلال الحرب العالمية الثانية، فى إطار تعاملاتى مع مسئول الحلفاء فى فرساى، سمعت إحدى القصص الغريبة عن « تشرشل » والتى توضح مدى ضرورة وأهمية اتخاذ القرارات فى المواقف الخطيرة على أساس أفضل المعلومات الممكنه.

وقد قرر البريطانون فى ذلك الوقت، فى أوج الحرب البريطانية ـ الحرب الجوية التى شنها الألمان على إنجلترا، أن يحلوا شفرة الرسائل الألمانية. والتوصل إلى حل هذه الشفرة، والتى من المحتمل كانت من أحد الأسرار الهامة خلال الحرب العالمية الثانية، ثم تمكننا من قراءة الرسائل التى تحمل أدق أسرار العمليات الألمانية خلال الغارات الجوية، وهذا كان له فائدة عظيمة لطيارى الحلفاء خلال القتال الجوى ضد النازى. وفى أحد الأيام، أطلع قائد القوات الجوية الملكية (RAF) تشرشل على أخبار صاعقة .

قال له « سيدى رئيس الوزراء ، لقد سمعنا من خلال شفراتهم أنهم

سوف يقومون بضربة خاطفة على إحدى المدن البريطانية » وكان عليه أن يبلغ تشرشل.

سأله تشرشل « أى مدينة أيها المارشال؟ »

رد « سيدى رئيس الوزراء، لست أدرى، ولكنى سأعرف خلال أيام قليلة».

وخلال أيام عاد ثانيا وأقر تشرشل بأنها مدينه كوفنترى Covntry ».

« سوف يقومون باحتلال كوفنترى.ماذا يجب أن نفعل يا رئيس الوزراء؟ إذا قمنا بترحيل مواطنى كوفنترى. فإنهم سوف يغيرون الشفره. وسنكون كالعمى والصمم فى المستقبل».

وتشرشل لم يكن لديه اعتراض. ولكن المقربين له كانوا يعتقدون أنه أحد أصعب القرارات، والأقل شيوعا التى اتخذها تشرشل أثناء الحرب. فقد قال ببساطة « لن نفعل شيئا ».

وفى ليلة ١٤-١٥ نوفمبر سنة ١٩٤٠ قامت القوات الألمانية بتدمير المدينة، وحولوها إلى جحيم حقيقى. ويمثل قرار تشرشل هذا الاستخدام النهائى للمعلومات. بمعنى آخر معرفة ما سيحدث بدقة- وأن تتوافر القوة المناسبة للتصرف أو عدم التصرف على الإطلاق.

وأى دولة تريد أن تكون ذات قوة يحسب حسابها، تكون فى حاجة أولا وقبل أى شىء إلى قيادة وطنية يمكن الثقة فى قوتها وقدرتها على صنع القرار حتى تستطيع فرض سياستها الدوليه والداخلية بما يتماشى مع قدرها . ويجب على الشعب أن يكون لديه الدافع والرغبة فى البقاء كقوة فى الصفوف الأولى لا يمكن أن تتخلى عن مسئولياتها.

وإحدى أدوات مثل هذه القوى يجب أن يكون جهاز الاستخبارات المضادة والذى يكون مستعدا لمواجهة أى تهديد. وكان أول لقاء لى فى واشنطن مع « ادجار هوڤر» تم سنه ١٩٧٠ ، بعد أن توليت منصبى بقليل، وخلال نفس الرحلة التى التقيت فيها د « هلمز وأنجلتون».

ومع أنه خدم كرئيس للجهاز الأمريكى الموازى لـ (DST) الخاص بنا مفضلا ذلك على(SDECE) إلا أن «هوفر» كانت له سمعة بأنه «وحش مقدس» فى مواجهة الإرهاب. ولذلك قمت بتجريب إحدى القصص عليه والتى استخدمتها فيما بعد وكان لها أثر كبير مع كل من الرئيس بومبيدو ووچيسكار دستان.

وكنا وقتها نجلس فى مكتب هوفر الهادئ والأنيق فى المبنى الحراينتى الذى يضم المقر الرئيسى لـ FBI فى واشنطن وكنت أجلس على مقعد ومعى فنجان قهوة وطرحت عليه الموقف الافتراضى التالى.

دعنا نعترض أنك ذهبت إلى جزء منعزل فى قلب فرنسا وحدث هناك انفجار وعندما حضر البوليس لرؤيه ما حدث ، ولم يبق شيء ولا حتى فرخة على مدى ألف أكر ولهذا قاموا باستدعاء خبراء الذرة من باريس وأكدوا أن ذلك كان ما كنت تخشاه، جهاز نووى صغير. لأ يخصك . وليس قنبلة سوڤيتية ولكن بعد مرور عدة ساعات، وقبل تسرب الأخبار، جاءت مكالمة لرئيس الجمهورية. وقام الصوت المتحدث بتحديد إسم إحدى المنظمات الثورية غير المعروفة كمساءلة عن الحادث».

قال « ان هذا يعد عينه صغيره لما يمكن أن نفعله. فى منطقة ما فى باريس، قمنا بإخفاء جهاز قوته تزيد على الجهاز الذى حكيت عنه مليون مرة. وكانت

شروطنا كالتالى: أن تفرق الاسطول الفرنسى فى منتصف المحيط الأطلنطى. أن تقوم بتسليم كل الذهب الموجود فى بنك فرنسا. وغدا بعد الظهر تقوم بالذهاب إلى « قصر الإليزيه» وأنت عار ولا يسترك غير ريشه« ماذا كان الرئيس سيفعل عندئذ؟ » هذا يمكن أن يحدث ثم رد ببساطة« هذا ما يحتاجنا من أجله». وضحكت فقد كان رد شرطى محنك، واثق بصفه أساسية من قدرات البوليس أو منظمة المخابرات التى انشأها لترتفع إلى مستوى المسئولية فى أى مناسبة وقد كان يعتقد، أنه هو ومنظمته مساوون لأى تهديد داخلى. وكان «هوفر» على حق: فمنظمته كانت من نفس نوعيه المنظمات التى قام الفرنسيون باقامتها، قد تزيد عنها أو تقل. ولكن معروف أن **FBi** كانت دائما فى حاجة لمزيد من الرجال، مزيد من المعدات ومزيد من الدعم المالى وكانت تحصل عليه ووكالات المخابرات اليوم، سواء كانت محلية أو دولية، فى حاجة إلى وسائل تجعلها تستجيب بمرونه لكل تهديد- وتجمع المعلومات، وتقوم بتفسيرها، وأن تقوم بالتصرف إذا كان ذلك ضرورياً. إننا نلعب فى حقل العمليات وحقل الأحلام.

وحتى تكون فرنسا، وحتى الولايات المتحدة، قوة عاليه يجب عليها أن تصل إلى مستوى العالميه وذلك بتوسيع مجال قدراتها السياسية، الدبلوماسيه والعسكرية. فالكلمات وحدها لا يمكنها أن تشكل قوة من الطبقة الأولى.

والقدرة على التأثير بفعاليه على الموقف- حتى مع ملاحظة أن الولايات المتحدة أو فرنسا قادرتان على مواجهة هذا الموقف- أمر ضرورى لمساندة المبادرات السياسية والقرارات الدبلوماسية. وهذا المبدأ صحيح بصورة مزدوجة

فى مصر الدمار والحرب العالميه الرابعة، عندما لا يفهم الإرهابيون والحكومات التى أرسلتهم فى هذه المهام المميته إلا مفهوم توقيع عقوبه ما بسرعة وبدونه رحمه.

وفى بعض الأحيان، تمر لحظات لا يمكن معها استخدام ورقة اللعب الدبلوماسى أكثر من ذلك، هنا يجب أن يفسح اسلوب المخادعة الطريق لاتخاذ موقف. وبدون إعلان حرب حقيقيه، يجب على الدولة أن تكون قادرة على القيام بعدة عمليات فى الخارج- أن تكون قادرة على مساعدة شعب يتعرض للخطر أو انقاذ ومساعدة أبنائها المغتربين أو الرهائن المحتجزين على غير رغبتهم أو إجراء جراحة عاجلة لاستئصال ورم سرطانى يسمم حليفاً يتم الاعتماد عليه. وتحل مهمة وحدات الجيش التقليدى فى وقت محدد ، وتتلخص فى غرو الإقليم ، والسيطرة عليه. وعملياتنا ، التى يطلق عليها رد الفعل الجراحى، يجب أن تتم ليلا ومع حلول الفجر يجب أن تكون أمراً واقعياً. وهذه الضربة الجراحية طبقا لمصطلحات الجيش والأكثر من ذلك، أن فرق الهجوم الجراحى هذه هى أيضا ال LCBM لأكثر معارضينا خطورة فى الحرب العالمية الرابعة، وهم ليس لديهم لا الوسيلة ولا الرغبة على مواجهة جيش ضخم، ومنشآت عسكرية ضخمة فى جزر منعزلة، وسفن ضخمة قادرة على نقل العتاد العسكرى الثقيل وليس لديهم حاجة فى الحصول على أى شىء مما سبق.

والخلايا الإرهابية الصغيرة التى تخطط وتنفذ أكثر الأفعال هلاكا ، والتى تثير الرعب والخوف، لهم نفس التأثير السابق- فهم يضعفون معنوياتنا ويضعفون رغبتنا فى المقاومة. ومثلما شجعنا الهبوط فى نورماندى الاستيلاء

على « Lwo jino » على الاستمرار فى القتال، فسوف تكون فى حاجة إلى الانتصار فى الحرب العالمية الرابعة ضد هذا الشكل الجديد من الأعداء وهذا إذا توافرت لنا الرغبة فى النصر. وإذا كان علينا أن نقاتلهم بنفس اسلوبهم، فيجب أن يكون لدينا فريق ممتاز لمنافسة قدراتهم بل التقدم عليها وأن يتوافر لنا قوات خاصة والتى تعد الأسلحة النووية فى عالم المخابرات النشطة.

وقد كانت هناك أوقات، قبل قيامى بتولى العمل كمدير عام، قام فيها الجهاز بشن عمليات خاطئه من الناحية الاخلاقية، بل ويحرمها القانون. وبالتأكيدأن هذه السقطات لم تكن مقيدة لفرنسا. وقد تم من قبل اتهام المخابرات المركزية الأمريكية باستخدام بعض رجال المافيا. وحتى رئيس المخابرات السابق لى كان عادة ما يستأجر القتلة المجرمين، وقاطعى الطرق، لتنظيم الجرائم، والعصابات، والقوادين. وفى مفهومه لم يكن هناك شىء يمكن أن يطلق عليه خطأ فاضح بالنسبة لجهاز الأمن.

وأنا أرى أن القاتل المأجور أو الهجام يمثلون خطراً عظيماً وعادة ما يكون غير فعالين.

والسبب أن اهتمامه الأول هو أجره، وليس المهمة التى سيقوم بها. وهو يقوم بأفعال غير قانونية من أجل الربح. والأكثر من ذلك، أن من أجل مضاعفة ربحه، قد يقوم بمحاولة ابتزاز أو الاغتصاب، وعند هذه النقطة سيكون من الضرورى تصفيته جسديا أى قتله، وبذلك ندخل فى دائرة وحشية أسوأ من عدم الاحتراف، وتتم بالاجرام إلى أبعدحد والمرسوم الذى أرسيته كان مبسطا: اقبلو تعيين هؤلاء الذين يتصفون بالشرف، بحسن التدريب، والذين يتسمون بسرعة الحركة فقط.

وكل منهم يجب أن يعمل بدافع الوطنية وخدمة الدولة لأن الافراد العاملين في الجهاز السرى يعدون فى حرب دائمة.

وقد قام رئيس المخابرات السرية الإسرائيلية فى احدى المرات بإضفاء مجاملة عظيمه لى.

وتعد الموساد من أكثر أجهزة المخابرات احترافا والتزاما فى العالم. وقد قام رئيسها بزيارتى فى مكتبى مرة واحدة فى توريل باراكس Tawralles Bareacla فى باريس .وقد بدأ كلامه قائلا: سيدى المدير العام، أنت، ونحن معك، الأشخاص القادرين على تنفيذ إحدى الهجمات من نفس نوعية عملية «عنتيبى» وانهائها على أكمل وجه.

ولسوء حظك، فإن هناك شيئين ينقصانك- طائرات ذات مدى بعيد والشجاعة السياسية والالتزام من جانب حكومتكم. »

ولم أعترض على كلامه فى ردى وقلت« بالنسبة للاقتراح الأول، ليس من السهل تنفيذه، وبالنسبة للثانى هناك طرق ووسائل للوصول إليه».

وفى أيامى بالوظيفة، قمنا بتنفيذ عدد كبير من العمليات على نفس نمط عملية غارة« عنتيبى» والتى كانت كلها ناجحة- والدليل على نجاحها أن العالم لم يسمع أبدا كلمة عن هذه العمليات . وقد كنا نقوم بثلاث أو أربع عمليات فى السنه- أى أكثر من اربعين عمليه خلال عملى كرئيس للمخابرات الفرنسية. ولم تسير واحدة منها فى طريق خاطئ أربعين عمليه أو أكثر لم يسمع عنها أبدا أى شخص خارج المخابرات والقيادة العليا بالحكومة الفرنسية

وهناك عمليات أخرى قمنا بها بنوع أكثر من الموضوع . وبعض نذكرها فى

هذا العمل ومن بينها الإطاحة بالامبراطور بوكاد Bakadda قائد امبراطورية أفريقيا الوسطى وعملية البوليس فى زائير. وكان لبعض هذه المهام، بالتأكيد، عواقب مأساويه- بأفراد يقتلون أو يجرح عدد من الجهاز الفرنسى وهؤلاء الرجال والنساء يموتون فى سرية ومعهم بطولاتهم التى لا تعرف أمتهم عنها شيئا بالصورة اللائقة لهم.

ولكن هذا هو ما يدور حوله الجهاز السرى- وليس الجهاز السرى الخاص بجيمس بوند- فهو الجهاز الذى يعمل فى ظلال العالم الحقيقى وفى جهاز SDECE يعد تقليدا لسكوت السمة المميزة والقوية. وقد كان هناك شعور بالتضامن وروح الجماعة وإحساس بالمسئولية وقد برز كل ذلك على مدى أعوام طويلة. ولن أتمكن أبدا من الثناء على مدى الشجاعة الفائقه، ونكران الذات والاخلاص الذى أبداه الأشخاص الذين كان لى شرف العمل معهم وتحت قيادتى لمدة طويلة.

وكل هذا يعود بنا إلى أحد المسؤلين الرئيسيين اللذى طرحهما رئيس الموساد. ومن وجهة نظرى، أن الشجاعة السياسية والتزام الحكومة الفرنسية كانا دائما موجودين عندما كنت أحتاجهما.

وبالتأكيد، أن هذا يمكن أن يكون أسهل فى بيئه تنادى بالتدقيق البرلمانى أو الشعبى المحدود لعملياتنا «سواء كانت ناجحة أو فاشلة». وفى مثل هذا المناخ، يمكن لرئيس الدولة ومستشاريه أتخاذ قرار يتعلق بالقيام بإحدى المهام بعد دراسة الوقائع الموضوعية لها باعتبار أنها أداة للسياسة، الدبلوماسية والسياسية العسكرية والتى تدخل جميعا فى مجال فن إدارة شئون الدولة.

ولكن هناك سبباً آخر وعميقاً خاصاً بالقدرة على التصرف بصورة سريعة وبدون اعتراض عندما تتطلب الأحداث اتخاذ حكم أكيد وسريع وقد كان هناك دائما شعور خفي فى الدوائر السياسية فى فرنسا- وفى أغلب دول أوربا- بأن أى شىء ضرورى للدفاع عن مصالح الجمهورية يعد مقبولا ، فى إطار عدة حدود أخلاقية.

ورئيس الجمهورية هو الذى يضع أساس هذه الحدود الأخلاقية والاجابة عنها أيضا فى النهاية. ومع انتخابه رئيساً، يعطى امتياز الشك وتفويضاً رسمياً لايساءل عليه.

وبهذا المعنى، على الأقل ، يصبح هو الوريث المباشر للصولجان ومجد ملوك فرنسا.

ونحن الأوربيين لدينا اصطلاح لجميع هذه الأشياء، كما أشرت. ونطلق عليها «سبب وجود الدوله».

إنه من الصعب على الأمريكى ، يفهم أن أجهزة أى دولة يجب عليها أن تفعل، فى بعض المناسبات، أشياء غير أخلاقيه وحتى غير شرعية. وفى بعض الأوقات، مثل هذا القرار يمكن أن يتم اتخاذه فقط من قبل رئيس الجمهورية. ولكن خلال عملى كرئيس للمخابرات الفرنسية، كان عادة ما يترك الأمر لاختيارى الشخصى فيما إذا كنت أتخذ القرار بنفسى أو أن هناك ضرورة لنقل الأمر إلى الرئيس.

على سبيل المثال، لم أكن أستطيع أن أتخذ قراراً منفرداً للتخلص من رئيس دولة ما- ودائما كان لدينا واحد فى عقلنا. فى مثل هذه الحالة، كنت أذهب إلى

الرئيس وأقول« إننى أنصحك بأن يتم التعامل مع فلان الذى فعل كذا بالطريقه المناسبة ». وكان الأمر يتوقف عندئذ على الرئيس ليقول« لا، ليس كليا إننى أرفض ذلك» أو ببساطة لا يرد.

وهذه هى الشفره التى وضعتها مع رؤساء الدوله الثلاث الذين تعاملت معهم. والسكوت على الموافقة وفى إحدى المرات وأنا أناقش هذه المسألة، أخبرت الرئيس ريجان بقصة حول « تاليراند وزير خارجية نابليون والذى من المحتمل أن كان أكثر الرجال دهاء وذكاء فى عصره، فى أوائل القرن التاسع عشر، وقد كان نابغة. وفى خلال عمله مع نابليون، قام البوليس السرى فى تلك الفترة باعتقال، على الجانب الاخر من الحدود البلچيكية، دون إنجيان **Englien** وعدد من البيت الملكى البربونى الذى كان يدعى حقه فى هرش فرنسا، وعدواً للتاج كما وصفه نابليون وكان الدوق، رجلاً وسيماً جدا وشباب شديد الذكاء، وقد تم القبض عليه أثناء الليل وتم نقله إلى باريس. وكان نابليون يخشى منه لأن كان بوربونى، وكان رجلاً قوياً له أتباع كثيرون ومع وصوله إلى باريس، أخذه البوليس السرى إلى قلعة فينش **Vineemer** فى أطراف باريس، وقاموا بإعدامه فى الزنزانة أمام فرقة إطلاق نار. وفى اليوم التالى، عندما علم تاليراند» بهذا التصرف، كان ثائرا من شده الغضب واندفع إلى غرفة نابليون.

وبدأ كلامة قائلا» سيدى إن هذا التصرف أسوأ من الجريمة أنه غلطة».

وما كان يقصده كان شديد الوضوح. ففى هذه المرحلة، التى كان فيها نابليون امبراطورا، كانت الجريمة السياسية تعبر الخط الرفيع الذى كان يفسر

بالحرب ويتعدى مقتضيات الدوله بل أنه لم يعد من ضمن المعانى الخاصة بأسباب بقاء الدوله وتصبح عندئذ عملية ثأر شخصيه وقد يكون أفضل وصف لهذا المفهوم- أنه خدمه للقانون.

والعلاقة بين أجهزة المخابرات والحكومة مختلفة تماما فى الولايات المتحدة، كما اكتشفت خلال تعاملاتى مع وكالة المخابرات المركزية وقادتها المختلفين للأسف. فكل رئيس للمخابرات المركزية كان يجبر على النظر من فوق أكتافه على كل بادرة. وكان يجب عليه باستمرار أن يهتم بالعواقب السياسية والدبلوماسية لأى عملية يتولاها.

وبالتأكيد، ان الشعب الأمريكى أكثر حساسية تجاه المشاكل الاخلاقية. ومن المحتمل أن يكون ذلك نتيجة للآلام والانقسام الذين كانوا منه أثناء حرب فيتنام وأغلب الأمريكيين لا يقلبون بصورة عمياء مبدأ أن أى شىء ضرورى للأمن القومى يجب أن يكون مقبولا.

فكل تصرف سياسى، وبالتأكيد أى عملية شبه عسكرية ما يتم فحصها بدقة ومعرفة احتمالات قبولها الجانب الأخلاقى الأمريكى بصورة أدق عنا نحن الأوربيين، وخاصة أننا الفرنسيين لنا تاريخ طويل ملىء بالحروب التى حاربناها على أرضنا. ومن البداية إلى النهاية، يقوم الأمريكيون باستخدام تكنيك يمكن أن يوصف فقط على أن تعريف إحدى اللجان، بأن كل شىء يعد طريقة لحدوث كارثة فى العالم الذى يتحرك سريعا فى عهد الحرب العالمية الرابعة.

إن النظام الحكومى الخاص بالاختبار والموازنه، والذى ينبع بعمق من حياة الشعب الأمريكى منذ وضع القوانين، ومازال يقيد أيدى مديرى جهاز المخابرات المركزى الامريكى .

فإن العمل الرقابى الرسمى الذى يقوم به الكرنجرس يجعله يجرى باستمرار إلى « الكابيقول هيل » قبل ، وخلال ، وبعد أى عمليه سواء كانت ناجحة أو فاشله.

ولم أقف أبدا أمام لجنه برلمانيه عاصفة على مدى عملى الذى استمر عاماً. ولكنى لا أعارض جوهريا فكرة الاتصال بالقيادة السياسية لدولتنا. وعندما سألت، أخبرت عدداً من المديرين الأمريكيين بالمخابرات المركزية بأننى لا أرى أى مشكلة فى أن يقوموا بانتقاء بعض أعضاء الكونجرس الذين يمكنهم العمل معهم مباشرة. فبعد مرور العديد من الأعوام فى إدارة عمليات المخابرات فى أى دولة غربية، يواجه مدير المخابرات مخاطر فريدة حيث يجد نفسه بعيدا عن الحقائق الخاصة بالسياسة المحلية وأفراد الشعب الذى هو مكلف بحمايتهم والعمل مع ساسة موثوق فيهم ولهم قدرات عقليه عاليه يمكن أن يصبح إلى حد ما اختباراً للحقيقة، أو تصحيحاً لها. وسيرتكبون أخطاء غير مقصودة أقل إذا كان العمل يتسم بروح التعاون، وأعضاء الكونجرس يمكن أن يضيفوا منظورهم السياسى إلى المعلومات ووجهات النظر العسكرية الخاصة بمدير المخابرات المركزية.

وخلال مدة خدمتى، كنت أقابل بعض رجال البرلمان من وقت للاخر - كأصدقاء.

ومؤخرا تم تشكيل لجة استخبارات تضم الوزراء تحت إشراف مكتب رئيس الوزراء ويرأسها رئيس الوزراء أو ممثل عنه. ولم يكن لهذه اللجنة حق الاعتراض على ما أقوم به، لأنه لم يكن على أن أوضح ما سأقوم به مقدما فى

أى عمليه استخبارية وقد كنت أتمتع أنا وأغلب المديرين السابقين على والذين جاءوا وأن بعدى بسلطة لا حدود لها. لقد كان لدينا سلطه خيانه الرئيس. وكان لنا سيطرة على الموارد الضخمة للاعتمادات السريه والحقيقة سيطرة على كل الاعتمادات السرية للحكومة الفرنسية، فقد كنا نسيطر على أكثر من النصف ، وهذا على أى حال كان يعطينا الموارد الماليه التى يحصل عليها زملاؤنا الأمريكيون السوفييت أو حتى البريطانيون والألمان. وكانت لدينا أساليبنا الخاصة فقد كنا نستطيع القيام، كقادة للمخابرات، بتزوير جوازات السفر، وتزوير المستندات بجميع أنواعها، ولم نكن نعرف حدوداً لتصرفاتنا.

وكانت لنا وحدة شبه عسكرية خاصة بنا، وقوة جوية خاصة بنا. وعلى مدى ١١ عاماً ، لم يتم تفتيشى فى المطار أو وقفى للتأكد من جواز سفرى. القوة التى كنا نقودها كانت مرهبه بطريقة ما، ولكنها ضرورية ومراقبة كل تصرف لرئيس مخابرات يعنى توريطة فى المتاعب. وتقييد القدرة الدولة على الرد على أكثر التهديدات الأخلاقية المحتمله لها.

الفصل السادس

ذكريات وسياسات

عندما بدأت بحثي عبر المباني والأراضي الخاصة بالمخابرات SDECE والتي توليتها سنة ١٩٧٠، اكتشفت عددا من المباني الإضافية المهملة، وفي احد الايام وفي احد هذه المباني، عرض علي رزمة ضخمه من الاوراق بدت وانها مستندات تم تخزينها خلف إحدي الغرف المحكمة، وقد كانت مرصوصة بغير انتظام على ارفف معلقه في أحد الاركان.

وقد سألت مدير الأرشيف، الذي كان يصاحبني «ما كل هذا»؟

رد ببساطة «أه، انه المحفوظات الالمانية»

لقد كانت المحفوظات النازيه الشهيرة «للجستابو وأبو يهر»، والتي تم التحفظ عليها عند تحرير باريس، حيث ان الألمان لم يقرروا أن يأخذوها معهم عندما انسحبوا من باريس سألته «ما الكمية الموجودة»؟

رد قائلا: «عشرة أطنان، قد تزيد أو تنقص»

في اوربا المحتلة، كانت المخابرات العسكريه، الابويهر، والجستابو، منتشرة في كل مكان والاكثر من ذلك إن هذه الشبكه الأمنية الألمانية كانت تقوم بنسخ جميع الأوراق بالكربون كل ورقة من نسخة أو سبع نسخ، واحدة تبقى في المكتب المحلى، واخرى ترسل للقائد في باريس، وبالتاكيد ترسل واحدة للقائد العام لل Wehrmacht في فرنسا، وبالتأكيد ترسل نسخة الى برلين، وفي برلين هناك وثائق خاصة بكل شخصية مهمة، ولكل عميل يتم

اختياره من بين أفراد الشعب ، ولكل حادثه محدودة ظهرت فى كل ارض محتله ، وقد كانت هناك وثائق مشابهه فى الأرشيف المركزى فى باريس لكل فرنسا ، كما هو الحال فى عاصمة كل دولة محتلة .

والسوفييت فهموا هذا النظام ، ومن المعتقد ان ستالين اراد ان يذهب الى برلين أولا فى نهاية الحرب لأسباب سياسية ونفسيه وقد استجاب الحلفاء لطلبه بسبب ملايين القتلى الذين عانى الروس منهم على يد جيوش النازى الغازية ، ولكن السبب الحقيقى وراء رغبه السوفييت فى دخول برلين اولا هو وضع يدهم على الارشيف المركزى للنازيين ـ الأرشيف العسكرى والمدنى الألمانى الرئيسى للجستابو والابويهر ، وكان هدفهم هو ابتزاز المتواطئين مع النازيين فى الاراضى التى احتلها النازيون فى أوربا ، وقد استفاد السوفييت بصورة جيدة من هذا الارشيف ، وبالفعل ، وعلى مدى اعوام ، قام السوفييت بالتعرف و الاتصال ببعض الاشخاص الذين ورد وردت اسماؤهم فى ملفات النازيين ، وكل ارشيف من هؤلاء كان يعطى فرصة فريدة للسيطرة على اشخاص اصبحوا بعد انتهاء الحرب نموذجا للاحترام ، وحماة للمجتمع فى أوطانهم ، وكنت فى مناسبات التقى مصادفة مع بعض هؤلاء سيئ الحظ وبسبب تعاونهم السابق مع العدو ، وبسبب وصول الروس لسجلاتهم وإمساكها ضدهم فقد تعرضوا للابتزاز بأسوأ معانيه ، واصبحوا مضطرين للقيام بعدة خدمات لأسيادهم الجدد من السوفييت والذين لم يكونوا يشاركونهم اى تعاطف او مصالح.

فقد كانوا ببساطة يحاولون بشتى الطرق الحفاظ على أسمائهم وسمعتهم ، وكانت المقالات التى يقومون بنشرها فى بعض الصحف ذات النفوذ ، والمقابلات

التى يجرونها فى التليفزيون أو الراديو والتى يعبرون فيها عن وجهات نظر معينه كانت كلها نتيجه الابتزاز الذى حول حياتهم الخاصة الى جحيم .

هذه التكتيكات تعتبر مساوية للهجوم الموجه والمباشر لبعض مواطنينا المحترمين من قبل الأعداء، وهو تكتيك جديد وضعه الروس لبدء حرب جديدة، ففى الحقيقه هم أول من أطلق شرارة بدء الحرب العالمية الثالثه فى أوربا.

وعدد قليل جداً فى فرنسا يعلم أن المخابرات الفرنسيه SDECE لديها أغلب المحفوظات والسجلات الفرنسيه. ووزارة العدل لديها بعضها أيضاً، وكذلك الشرطه لديها بعضها وكل من هاتين الوكالتين مازالت تقوم بحراسة النسخ الخاصة بها.

وكذلك تقوم المخابرات الفرنسيه بحراسة نسخها وكذلك خليفتها فى هذا المجال الـ DGSE وبالمقارنه بالغنيمة الروسية، فان ماتملكه يعد البقايا، ولكنه فى الحقيقه يُعد مادة متفجره بالنسبه لفرنسا.

وعلى مدى خمسة وعشرين عاماً، لم يجرؤ أحد على الإطلاع عليهم أو حتى إلقاء نظرة عليهم. وقد وجدت أن هذا شئ يصعب تصديقه، وقد طلبت منهم تقييماً للمدة التى يمكن أن تستغرقها عملية الإطلاع وتنظيم هذه السجلات. وبعد دراسة استغرقت عدة أيام، عاد إلى مدير المحفوظات التابع لى. وبدأ كلامه قائلاً: «سيدى المدير العام، إن الأمر سيتطلب أشياء. من ضمنها أولاً أنه سيتكلف مبلغاً كبيراً من المال. ثانياً، سيأخذ وقت طويلاً، إلا إذا قمنا بالاستعانه بعدد كبير من الأشخاص للكشف على هذه السجلات. وبالاضافه الى أن إيجاد خبراء للاستفادة من كل ما يمكن أن تحتويه هذه

السجلات لن يكون سهلاً. وسوف نحتاج إلى أشخاص يتحدثون الألمانيه بطلاقة ولهم معرفة خاصة عن منظمه الخدمة السرية الألمانية.

وهذا بالتأكيد ضيق مجال البحث. فهناك عدد قليل من الأفراد يتمتعون بهذه الصفات، وأغلبهم من الألزاس. وقد قمت بتجميع فريق صغير ـ مكون من ضابط معروف، كولونيل «U» ؛ وأحد الضباط المساعدين، الى جانب نصف دسته من ضباط الصف، تساندهم عدة سكرتيرات ملمات بعدة لغات وعلى درايه بمثل هذه النوعيه من الوثائق. ومع مثل هذه المجموعة الصغيرة، سوف تستغرق العمليه عامين و التكاليف ستكون ضخمة.

وقررت أن أتقدم ببطء وأمرت ببدء عمليه استطلاع تمهيدى ـ وسحب بعض السجلات بصورة عشوائيه من الأرشيف. والنتيجه كانت مؤسفة، بل مؤلمة فكان من السهل اكتشاف أن بعض هذه الوثائق تتعلق بالضرورة ببعض الأفراد الذين مازالوا على قيد الحياة ومازالوا نشطين فى مجال الأعمال.

وظهرت أسماء بعض الأفراد المعروفين، رجال ونساء لهم احترامهم ووضعهم، الذين إدعوا أثناء الحرب أنهم كانوا أعضاء يدينون بالولاء للمقاومة ـ ويتسمون بروح وطنيه حقه. وبدلاً من كل هذا، كانت الحقيقة تشير إلى أنهم كانوا أعضاء بالجهاز السرى الألمانى، الجستابو. بل قد قاموا بتوقيع بعض إيصالات برواتبهم وقد كانت أجرا لخيانتهم. وقد فكرت فى ذلك الوقت، ولا زلت أعتقد، أن أحد أكثر الأشياء ضرراً للنواب الفرنسيين هو الشقاق والانقسام. وحيث أن الأشخاص الذين تعرفنا عليهم فى هذه السجلات الغريبه مازالوا أحياء، فلم يكن هناك ضرورة للتنقيب فى صناديق القمامة أو إثارة

الأتربه، حتى إذا كان لذلك بعض الأثار الهامة والمفيده، أو على الأقل دروس عمليه للمستقبل. والأكثر من ذلك، إننى لم أنس أبداً مرحلة تهدئه الجراح التى تلت الحرب فى فرنسا. فمع كل الأشياء الرائعة التى تتعلق بتحرير فرنسا، كانت هناك نسبه متساوية من المساوئ والتعذيب وأشياء أسوأ من ذلك.

وقد قمت برؤية بعض هذه السجلات شخصياً، تلك التى جذبت انتباهى بصورة مباشرة. وعرفت بعض الأسماء التى لم يتم النشر عنها ـ هؤلاء الذين كانوا يعملون إلى جانب النازيين، وهؤلاء الذين إدعوا أنهم من المقاومة، ولكنهم كانوا بدلاً من ذلك- كانوا- من بين المرتدين الجديرين بالإزدراء. وقد تم استنكار قرارى بأن آخذ هذه الأسماء معى إلى قبرى صراحة.

ولكن إطلاعى على سجلات النازيين اكد لى صحة قرارى الذى عزمت أن أتمسك به ـ وهو التركيز على التطوير الحالى والمستقبلى للمخابرات الفرنسية بدون الكشف عن الأشياء المرعبه الماضيه. وعمل أى شئ غير ذلك كان يمكن أن يبعدنى عن القضايا الأساسيه ـ وهى إدارة الحروب الخاصة بالمخابرات حول العالم. والأكثر من ذلك، أنه كان من الممكن أن يجرنى إلى نفس الفضائح الداخليه الفرنسيه التى وقع فى شركها الرئيس السابق لى، بالإضافه إلى إرباك المخابرات الفرنسيه ككل، بل وتدمير فاعليتها كمنظمه تجسس عالمية. ولهذا بقيت العشرة أطنان من الوثائق المتفجرة مهملة فى أحد المخازن المظلمه فى إحدى ضواحى باريس. وتأكدت من أن السكوت على مثل هذه الأشياء، فى الولايات المتحدة أو بريطانيا العظمى لمدة ٢٥ أو ٤٠ عاماً بعد الحدث، يجعل من الصعب تضديقها ولكن يجب أن أشير إلى أنه لا الولايات المتحدة ولا

بريطانيا العظمى عانت من الاحتلال. والمشكلة على أية حال متشابهة.

ووكالة المخابرات المركزية، مثل المخابرات البريطانيه والفرنسيه، تضع يدها على بعض سجلات الجستابو و«أبو يهر» منذ نهاية الحرب. والأكثر من ذلك، أنه من المؤكد أن الأمريكيين قد حصلوا على مزيد من السجلات، لأنهم بعد نهايه الحرب مباشره عملوا مع الجنرال الألمانى «رينهارد جهلن» «NREINHARD GEHLE » لفتره طويله، وقد كان من أكبر القادة داخل المخابرات العسكرية الألمانية. وقد كان من المعروف أنه أحضر معه عددا كبير ا من الأشخاص الأكفاء إلى جانب سجلاتهم وذلك أثناء تكوين.

الـ « BUNDESNA CHRICHTEN DIENT »

وهؤلاء الأشخاص كان لديهم خرائط موضحة للطرق التى تؤدى إلى الأشياء المادية التى تم تجميعها على يد الجستابو والأبويهر خلال سير الحرب وخلال الاحتلال الألمانى لأوربا الغربية والشرقية.

وهناك بالتأكيد حالة معروفة لتجريم أحد الأشخاص لعلاقاته مع الجهاز النازى خلال الحرب ـ وهو كورت فالد هايم . وهو الرجل الذى وصل الى رئاسة جمهورية النمسا وكان له ماض وفى وجهة نظر مؤيديه، وخاصة فى النمسا، كانوا يرونه بريئا وفى رأى الآخرين، يعتبر ماضيه مروعا. وخلال توليه منصبه كسكرتير عام للأمم المتحده، لم يتم انتقاد «كورت فالدهايم» أبداً بسبب مبادئه المحافظه. على العكس ثم انتقاده بصوره متكررة بسبب تطبيقه لسياسات يمكن أن تفسر على أنها فى صالح الكتله الشرقيه بصورة ملحوظه. فهل يمكن أن يكون السوفييت محتفظين بهذه الوثائق التى تدينه كل هذه الأعوام؟ يحتمل.

ولكن لماذا، إذن، قاموا بالكشف عنها فقط بعد أن وصلوا إلى نقطة فصول أحد الرجال الذين يستطيعون الاستمرار فى فرض سيطرتهم الكاملة عليه إلى منصب رئيس جمهوريه النمسا؟ ونحن قد لا نتمكن أبداً من الإجابة عن هذه الأسئله. ولكن قيل ان الحكومه العسكرية الفرنسيه التى إحتلت القطاع الفرنسى فى برلين كانت تمتلك ملفاً ذا أصل ألمانى عن فالدهايم» وأنا لا أتذكر إننى رأيت هذا الملف، ولكن تنظيم المجتمع الدولى عمليه لاتتشابك مع وظيفه أجهزه المخابرات السرية فى الغرب. ويتوقف الأمر على الحكومة لتطلب من أجهزة الأمن، جهاز المخابرات وجهاز مواجهه التجسس رأيهم فى شخص معين. وخلال فترة عملى، لم يطلب منا أبداً هذا السؤال عن كورت فالدهايم. ومع ذلك فإن الأرشيف الخاص بنا وبالسوفييت مازال سليماً لم يُمس.اليوم، لدينا ومسائل آخرى للتحقق من صدق الأشخاص المرموقين حول العالم. وفى المال الذى يحيط بالحرب العالميه الرابعة، عندما يقوم الإرهابيون ومعربى المخدرات، الذين يعدون جُند المصادمة، بتغيير أسمائهم وهوياتهم بصورة اعتياديه كما يغيرون ملابسهم الليليه، وعندما يحمل إسم محمد أحمد أو أحمد محمد نفس المعنى مثل جون أو أوجون ديبون، وعندما يبتلع السوق أحد المغتالين القتله مثل الهوة السوداء، فإن المعلومات الشخصيه الدقيقه يمكن أن تكون أكثر خطورة عن الذخائر الحربية الدقيقة التوجية. والمخابرات السوفيتيه « وبعض أجهزه المخابرات الشرقيه الأخرى لديها قدرات خانقه فى مجال المخابرات الشخصيه. أخد الطرق هى الاستفادة من مسئولى المنظمات الدوليه الهامة والذين يحتفظون بملفات كثيرة لأشخاص فى جميع أنحاء العالم. وهذه النوعيه من الأنشطه رئيسيه لعمل أى منظمه لمخابرات دولية.

ويقوم جهاز المخابرات الروسى بصفه ثابته، مثل المخابرات الفرنسية، بوضع رجاله فى بعض النقاط الهامة فى بعض المنظمات الدولية. ومن المعروف جيداً أن عددا من عملاء المخابرات الحاليين والسابقين يشغلون مناصب ديبلوماسيه هامة. فمثلا الجنرال «فرنون والترز» الذي خدم كنائب مدير المخابرات المركزية فى الـ CIA أصبح مؤخراً سفير الولايات المتحدة لدى الأمم المتحدة، وقام بعدة مهام دبلوماسية سرية حساسة لصالح رئيس الولايات المتحدة، كما عمل كأول سفير أمريكى لدى ألمانيا الموحدة قبل عودته إلى الولايات المتحدة ومنذ عدة أعوام، استطعنا التعرف على الوحشين المقدسين للمخابرات، ومن الحقيقى أننا قد وحافظنا على صداقتنا وقمنا بتبادل وجهات النظر معاً كلما كان ذلك ممكنا فى باريس، نيويورك أو مكان نجد فيه أنفسنا معاً.

وبما أن الاستخبار الشخصى شديد الأهمية لمهام الأجهزة السرية فى الحرب العالميه الرابعة، مع عدم ذكر أهميته للحروب التى حدثت من قبل، فإنه دائما ما يُفترض أن مسئولى المخابرات الرئيسى ليسوا إلا مخلوقات لديها قدرة على الوجود فى كل مكان فى كل الأوقات ـ وأنه لدينا قوة حقيقيه غير محدودة لمعرفة كل ما يمكن أن يُعرف عن أى شخص.

والحقيقه، عندما تعمل فى المخابرات مدة مثل التى عملت بها فيها، فإنك عادة ما تجمع حجماً كبيراً من المعلومات حول أشخاص بارزين قدلاتتمكن حتى من مصافحتهم باليد. ومن المعتقد بصفة عامة أننا وصلنا لمثل هذه المعلومات عن طريق ا استراق الأسلاك (وهو مصطلح يعنى إقامه اتصال غير مشروع مع اسلاك البرق أو الهاتف بنيه الاطلاع على المخابرات الجاريه بواسطتها). ومن

المؤكد أن المراقبه الالكترونيه إحدى أهم الأدوات. وفى فرنسا ، تقوم بالفعل بعمليه المراقبه التليفونية المجازه. ويتحكم رئيس الوزراء مباشرة فى الميزانيه، ولكن بعض العمليات يتم القيام بها من قبل أجهزة الأمن المختلفه. وعلى مدى أحد عشر عاما ، كان يقدم لى تقرير عن تسجيلات محادثات المسئولين على مكتبى كل صباح. وكان عبارة عن ملخص للمحادثات، ولكن لكل التسجيلات بصورة مختزلة، ولم يكن على إلا أن أطلب من أحد المساعدين أحد الأشرطه ويكون لدى خلال دقائق. وقد تعهدت على ألا أخون أبداً هذه الآمانه. ومازال يمكننى أن أعترف أنه كان لدى بعض لحظات الضعف. فخلال العام الأول بعد تولى جهاز المخابرات، قبل أن أنسحب من الحياة الإجتماعيه العامة، كنت عادة اتناول عشائى فى المدينه لتكوين عدد كبير وفرص أكثر للاتصال بالأصدقاء الذين أهملتهم بعد ذلك. وفى هذا العام أصابتى تعب فى كبدى جعلنى مجبرا على الدخول فى اختبارات على صحتى، بالاضافة إلى بعض المتاعب فى أذنى. وأصبح السؤال الذى يراودنى فى هل أنا أصبحت معتلاً< والذى كنت أجيب عليه» يجب أن تفكر فى نفسك أكثر من ذلك؟ ».

وفى بعض المرات، كان لى لعبه (خدعة) صغيرة، كنت أظن أنها لاتضر، وكنت مولعاً بلعبها فى الحفلات النادرة التى أحضرها، وكنت أفضل الحفلات المبهجة، والتى عند استرجاعها أسلم بأنها كانت فى الواقع ذات طعم خاص. ومع ذلك كنت أستمتع بها. وعندما كنت أرى أحد الأشخاص المعروفين والذين يقدرون أنفسهم أكثر مما يستحقون والله يعلم أن باريس، وأغلب دول العالم من بينها نيويورك وواشنطن، مليئه بهم، كنت أقترب منه وأهُزْ إصبعى تحت أنفه (وهذا التصرف بالتأكيد فى حد ذاته كان تصرفاً فظاً).

وكنت أقول مبتسماً » آه ! آه! آه! «

وكنت أجد الشخص يتحول لونه إلى لون شاحب وأظن أنه كان يفكر مرعوباً يجب أن يكون على علم! «

وكنت ألعب هذه الخدعة كثيرا. وفى إحدى المرات إنقلب على أحد أصدقائى المقربين، وقد كان جندياً متميزا خلال الحرب العالمية الثانية، بيير ميسمر Piearsee messmer ، وأصبح رئيس وزراء فرنسا بعد ذلك، ويعد رجل دولة حقيقياً، ولم يكن به أى عيب من أى ناحيه، فعندما قمت بهز إصبعى أمام أنفه، حملق فى ببرود وقال ببطء:

« ماذا اتقصد بـ آه! آه !!ه؟ »

وكانت هذه نهاية لعبتىء الصغيرة يومها وبعد ذلك.

ومن الحقيقى أن الذين ليس لديهم شىء يخفونه من الوجوه السياسية المعروفه قليلون جدا. ولاشك فى أنهم أقل ندرة فى الولايات المتحدة، حيث يرتفع كثيرا المستوى الأخلاقى للقادة الشعبيين عنه فى بلدنا الأكثر ملائمة ولكن هؤلاء الذين يثبت أن لديهم شيئاً يخفوفه يكونون متأكدين من أن المدير العام للمخابرات الفرنسية يعرفه كل شىء عنهم ولكن نقطه ضعف أغلب الأشخاص أنهم لا يعلمون ما الذى يعرفه عنهم. فأنا لم أعترض أى شخص. بل أفضل أن أتركهم وهم لا يعملون فيما أفكر. وعلى نطاق واسع، فإن هذه السياسة تعد رأياً تقليدياً للمخابرات وتقوم باستخدامها كثيرا لمزاياها الجيدة. ويكون تأثيرها أعظم بين الارهابيين المعزولين عن تأثيرها المنظمات الاستخبارية التى لديها دراية دولية جيدة بالمعلومات فالارهابيون عادة

يفترضون أن لدينا معلومات أكثر عمقا من نشاطاتهم عما نقتنيه بالفعل. ومجهوداتهم المكثفة لاخفاء أثارهم التى قد لا نكتشفها أبداً تجعلهم يتسمون ببطء الحركة بصورة لا يمكن تجنبها. وهدف بطيىء متحرك خير من هدف سريع تحت أى ظروف.

وما يثير الفضول أن الساسة مشتركون مع الارهابيين ومهربى المخدرات فى افتراض معرفتهم الكاملة بكل شىء يتعلق بالمنظمات الخاصة بالتجسس. وفى بعض المناسبات، سمعت بعض الساسة البارزين يتذكرون بعض الفضائح الاقتصادية التى تثير الاشمئزاز والتى أكدوا لى أنهم لم يشتركوا فيها. ولكن قيامهم بذكر هذه الحقائق، ومناقشه أدق تفاصيل هذه المسائل، جعلنى أتاكد من انحرافهم. وعلاوة على ذلك فإننى اكتشفت سريعا خلال عملى الجديد، أنه فى السياسة هناك عادة مفهوم مختلف جدا عن الصح والخطأ- ونقيقه مستويات اخلاقية شديدة الاختلاف. وكان هذا سبباً يجبرنا على البقاء بعيدا عن ساحة السياسة الداخلية، مع وجود بعض الاستثناءات النادرة والمقررة والتى تتعلق بالصالح الاقتصادى والأمن للدولة نفسها.

الفصل السابع

خدمة سيدين

خلال مدة خدمتى كرئيس للمخابرات الفرنسيه قمت بخدمة سيدين مختلفين تماما هما «چورچ بومبيدو» و«ڤاليرى چيسكار ديستان» والمشكلة العظمى لرئيس المخابرات العام هى أنه لا يجب عليه أن يحاول إرضاء أحد أبداً.

فى إحدى المناسبات الخاصة والصعبة وبعد مناقشه طويله ومتشابكه مع الرئيس «چيسكار ديستان»، توقفت واستدرت عند الباب وأنا على وشك الخروج من مكتبه فى قصر الإليزيه.

وقلت له« سيدى الرئيس: إنى أذكرك له بمقولة ذكرها« ماريشال دى« ڤيلار» فى خطاب «للويس» عندما كنت: « سيدى، أن ليس من اليسير على الإنسان أن يخدم ويرضى». والحقيقة، أن العلاقات بين قصر الإليزيه والمخابرات الفرنسية كانت سلسة بصورة تُحد عليها ومنتعشه بصورة كبيرة فى عهد الرئيس « بومبيدو»، ولكنها اتصفت بأنها أقل من ذلك خلال فترة رئاسة «چيسكار ديستان» التى تلتها.

وبدون سؤال، كان كل من الرئيسين لديه ثقه كاملة فى شخصى وإلا لما كنت لأستطيع أبدا أن أخدم بهذه الكثافة بصورة تكاد تصل إلى درجة الحرية الكاملة فى التصرف.

ولكن طابعهما كان مختلفا بصورة جوهرية طبقا لشخصية كل منهما، وخاصة التجارب السابقة لكلاهما. وقد استطعت أن أعرف «بومبيدو» جيدا

جدا. ولكن «جيسكار» ظل بالنسبه لى لغزا داخل شخص غامض. ومفاهيمهما عن طبيعه السلطة واستخدام المعلومات يختلف جوهريا، فكلاهما كان يتناول المشاكل ويحاول حلها بإسلوب شديد الاختلاف عن الآخر. وكان «بومبيدو» أشبه بصبى من الحرب العالميه الثانية جاء فى عصر معارك الحرب الثالثة. أما «چيسكار» فقد تعلم عقيدته السياسية أثناء الحرب العالميه الثالثة وحاول، سواء نجح بصورة كبيرة أم قليله، تطبيقها على الحرب العالمية الرابعه.

التى اشتعلت بدايتها وهو يستعد للرحيل من منصبه. أما فرانسوا ميتران، خليفة چيسكار، والذى عملت معه لمدة شهور قليله كفترة انتقالية، فكان خليطاً غريباً من الاثنين السابقين، فهو نتاج الحرب العالمية الثانية التى قرر أن يحول الدروس المستفاده منها بطريقة ما إلى مفهوم حقيقى للحرب العالمية الرابعة بدون الاقتراب أبدا من مفاهيم الحرب الباردة التى تقع بينهما.

وكخادم لبومبيدو وچيسكار، فقد حضرت فترتين مختلفتين تماما فى تاريخ فرنسا والمخابرات الفرنسية- وكانت مهمتى هى تحويل قدراتنا الاستخبارية الضخمة بزاوية ٩٠ درجة وجعلها ذات مركز حيوى فى التاريخ. وأصبحت أعتقد أن الفجوة بين الاثنين كانت نتيجة الصلات الشديدة التباين التى كانت لكل منهما مع «شارل ديجول» والحرب العالمية الثانيه وقد ولد بومبيدو سنه ١٩٨١، وكان لديه ٣٣ عاما فى الوقت الذى تم فيه تحرير فرنسا، عندما وجده أحد مساعدى «ديجول» أثناء بحثه عن بعض الأشخاص البارزين الذين يستطيعون التحدث الفرنسية! وقد مر بفترة الانقلاب الرباعى المذهل عندما تحول ستالين الروس من صديق محايد للغرب إلى حليف لألمانيا الهتلرية ثم

إلى عدو للنازية وعضو بالتحالف الغربى ثم إلى الامبراطورية الشيطانيه للحرب العالميه الثالثه. وهو لم يتمكن أبدا أن ينظر إلى الاتحاد السوفيتى بأى شيء سوى بعين الشك العميق الذى ولد من هذه المجموعة من الخيانات.

وقد أثر ذلك على منظوره الكلى لدورنا فى متابعة الحرب العالمية الثالثة. وفى نفس الوقت، عاصر فترة التخلص من الاستعمار، وخدم إلى جانب ديجول خلال الحرب الاهلية فى الجزائر، ووصل إلى منصب رئيس الوزراء خلال تساقط المستعمرات الفرنسية الأخيرة فى ثلاث قارات. والإرهاب بالنوعية التى عرفناه بها يعد محطاً للحرب العالميه الرابعه وكان بالنسبة «لبومبيدو» أقل من أن يوصف بأنه وسيلة متميزة للعدوان الخارجى بل كان نتاجاً للحرب الاهلية التى كان يريد أن ينهيها بأسرع وقت وبأقل الام ممكنه.

أما «چيسكار» فكان على أى حال أصغر من بومبيدو بنصف جيل . فقد ولد سنه ١٩٢٦ ، وكان عمره ١٨ عاما بالكاد فى وقت تحرير فرنسا ولم ينضم إلى الدائرة السياسية لديجول فى قيام حرب الجزائر . وبالنسبة له، كانت المفاهيم العسكرية للحرب العالمية الثانية شيئاً تاريخياً أكثر منه حقيقه واقعيه ملموسة، ولهذا فقد قرر التطوع فى الجيش سنه ١٩٤٥ عندما قاربت الحرب فى المانيا على الانتهاء. وكانت الحرب العالميـة الثالثه هى التى تعلم خلالها تكتيكه العسكرى- السياسى، وقد كانت الشرارة الأولى للحرب العالمية الرابعه حقيقه خطيرة وملحة.

وعندما كان « بومبيدو » رئيسا ، كنت عادة ما أذهب إلى قصر الإليزيه بعد العمل.

وكل هؤلاء الأفراد الذين كانوا يشكلون فريق الرئيس كانوا يتواجدون هناك، يجلسون حوله على الكنب المزركش والمقاعد التى تملأ المكتب الخاص بالرئيس.

ومن بين المنتظمين فى الحضور كان هناك رجل طويل دمث الأخلاق له عينيان متقدتا الذكاء وسلوكه يتسم بالقلق. وكان ذلك هو چاك شيراك، الذى خدم بعد ذلك كوزير للاقتصاد، وأصبح أخيرا رئيسا للوزراء وحاول مكررا، ود ائماً بدون نجاح، الوصول إلى منصب رئيس الجمهورية وكان لى عمل مشترك مع «بيير جويليه» ، المستشار المتمرس فى السياسة الخاصة بالرئيس وكنت على اتصال به لعدة مرات منذ المناسبه الأولى كلفنى الرئيس «بومبيدو» بمهمة إعادة بناء المخابرات الفرنسية حتى اللحظة التى قبلت فيها التخلى عن منصبى وبما أننى كنت أقوم بزيارات متكررة للإليزيه خلال السنوات الأولى التى اتسمت بأنها كانت أكثر صعوبة فى حياتى العملية، فكان لدينا العديد من الفرص للقاء ومناقشه بعض التفاصيل فيما بيننا، شخصيا، أو، على الخط الأمن الخاص بين الوزراء، والذى يقع على مكتبى جهة يدى اليمنى. ولكن كانت مناقشاتنا عادة ما كانت تتجاوز الشئون العاجلة للدولة أو التجسس.

ووصولى إلى منصب رئيس الجهاز السرى لم يجىء بعد فترة طويله من الفضيحة الكبيرة التى يطلق عليها « فضيحة ماركو فيك - **Markovic** - وهى عملية إعدام «ستيفان ماركوفيك»، أحد الحراس الشخصيين لممثل الأفلام الفرنسى «آلان ديلون». وقد ثارت أقاويل حول اشتراك ماركو فيك فى الحفلات الهمجية الشاذة حيث أخذت بعض الصور لبعض كبار مسئولى الحكومة.

وقتها بعض الأشخاص أن « بومبيدو » قد عينى خصيصا لمعرفة أساس وعمق هذه الفضيحة والشائعات التى تناولت ذكر عائلة بومبيدو، ومن أجل التصرف مع البقايا السيئه التى خلفتها الفضيحة. ولكن هذا ببساطة لم يكن صحيحا. فوجهة النظر هذه تظهر التجاهل الكلى للاعمال الداخلية للنظام. وأنا أستطيع أن أتذكر مناقشه للرئيس معى حول مشاعره العميقة تجاه جميع هذه المحاولات لتلطيخ إسمه النظيف وإسم زوجته وعائلته وذلك فى مناسبة واحدة فقط. وذلك خلال أحد لقاءتنا المنفردة المتعددة فى نهاية أحد الأيام الشاقة، وبدأ يومها بفتح قلبه لى وقد اغرورقت عيناه بالدموع وهو يصف لى ماذا يفعل أعداؤه لزوجته، فما بالك ما يفعلون به شخصيا وهذا الثنائى كانت له إحدى الفضائل التى تتزايد ندرتها هذه الايام- وهى أنهما أحبا بعضهما بشدة وكانا شديدا الاخلاص.

وأنا اعترف أننى شعرت أننى تعوزنى بعض البراعة خلال هذا الحديث وقد حذرت الرئيس ضد مفهوم «الكل لباريس» ، وباريس بلدة المشهورين الذين يتعاملون مع الشائعات، والسفرية والطعن فى الذمم- كل شخص يحاول أن يتغلب على ذكاء وقدرة الآخر فى جرح وتشويه الوجوه المعروفه شعبيا. فهم مثل أسماك القرش التى ما أن تشم الدم أولا فى الماء، حتى تقوم بالذهاب إلى مكانه من أجل القتل.

وأضفت أحد الأمثال لكلامى: « عندما يحضر القرويون إلى باريس فإنهم عادة ما يرتبكون من تألق وسقوط ضحايا إغراءاتها. وعادة ما يفشلون فى رؤية الظلال الاجتماعيه القائمة التى تكمن فى عالم النساء المشبوهات. »

وبعد انتهاء كلامي، لاذ «بومبيدو» بالصمت، وتحققت فورا من أنه يعكس كلامي على وضعه الخاص- وأنه شعر بأنه أساء الحكم على المحيطين به.

ولا يوجد شك يساورني في أن نهاية «بومبيدو» ، ومرضه الخطير كان بسبب مثل هؤلاء الاشخاص، ومن بينهم بعض الساسة من داخل مزيه الديجولي، والذين أرادوا تدميره بفضيحة «ماركوفيك» وببعض المناسبات المعدودة التي تلت ذلك.

هذا بالاضافة إلى أن محاولات تشويه سمعة والحط من قدر مدام «ركلودبومبيدو» السيدة الأولى، أضاف أعباء آخرى على زوجها. وكل هذا اضيف ظلاله على إدارته ككل خلال ساعاتها الآخيرة.

ومع ذلك فقد قررا إلا ينافس ذلك، وقد أصبحت أشعر بالقلق بعد أن توليت منصبي تجاه خطورة مرضه- والذى لم يصبح واضحا للعالم إلا في وقت متأخر جدا من رئاسته.

وكنت أشعر بتقدير كبير، ومزيد من الاحترام والاعتزاز لشخصه وقد دفعني ذلك لاحترام مشاعره الخاصة بضرورة كتمان مسألة مرضه. وقراره بتجنب المحتوم وكتمان خبر مرضه والتصرف وكأن شيئاً لم يحدث ، نابع من وطنيته واعتقاده القلبي أن من واجبه أن يستمر في قيادة دولته حتى اخر دقيقة ممكنه.

وقد كان البعض يفضل أن يقوم بالاستقالة ولكنه كان واثقا من أنهم لن يتمكنوا أبدا من طرح هذا الموضوع في وجوده. وكانت لقاءاته المنتظمة مع وزارئه كل أربعاء، ولقاءاته الشعبيه والخاصة، تتم بدون فشل . والاسبوع

الأخير له فى مارس ١٩٧٤، لم يكن إستثناء عما سبق. وفى يوم الخميس، التقى بـ «چيسكارديستان» ، وزير ماليته. ويوم الجمعة، أعطى وجهات نظره الخاصة بالوضع الدولى لـ«ميشيل چوبرت» وزير خارجيتة. وفى عطله نهاية الاسبوع، ذهب إلى« أورڤيلييه»، حيث منزله الريفى ولم يكن هناك دلائل تشير إلى أن مرضه، نوع من السرطان اللنفاوى، كان فى مراحله الاخيره. ولكنه شعر بالتعب فجأة يوم الأحد فى الريف. وتم إعادته إلى باريس بسيارة إسعاف يوم الإثنين إلى شقته فى «Ruaide Betherne» فى باريس. وقد قمت بزيارة هذه الشقة عدة مرات خلال فترة صداقتنا لم تكن شقه شديده الفخامة، على مستوى مكاتب الساسة المرموقين فى فرنسا. ولكن بومبيدو نفسه لم يمتلك مثل هذه المكاتب، مع أن أغلب زملائه كان لهم مكاتبهم الفخمة. ولم تتوافر له أبدا سبل شراء مثل هذه الشقه- وهو لم يحاول أبدا أن ينتفع من الوظيفة التى كان بها أو من خدماته لدولته. وقد كانت إحدى شركات التأمين تمتلك هذه الشقه، حيث تقوم شركات التأمين باستئجار عدة بنايات فى باريس، وكان بومبيدو من المستأجرين وفى اليوم التالى، الثلاثاء، كان ما يزال قادرا على وضع توقيعه على بعض الوثائق والموافقة على جدول عمل اللقاء الوزارى الذى كان سيتم فى اليوم التالى فى قصر الإليزيه، الذى كان سيرأسه بيير مسمر، رئيس وزرائه. وفى هذا المساء ذهب إلى النوم، فدخل فى غيبوبة وفى الساعة التاسعة مساء، مات بهدوء.

ونهاية «بومبيدو» المفاجئه وغير المتوقفه تسببت لنا جميعا فى الألم والأسى. وقد تدافقت حشود كبيرة إلى قصر الإليزيه فى الليله التى مات فيها. وكانت الساحة الرئيسيه للقصر مضاءة، وكانت هناك كاميرات

وميكروفونات فى كل مكان. ولم أكن قد وصلت بعد إلى القصر لتقديم واجب العزاء، عندما عرفت حاشيه الرئيس- مستشاريه السياسيين وعائلته- يريدوننى بصورة عاجله. أبلغنى رجالى بالتليفون الذى فى سيارتى أن الإليزيه يحاول الوصول إلى. فعدت فوراً. إلى مكتبى للتحدث عبر تليفونى الخاص وطلبت مكتب الرئيس على الدائرة الوزارية الداخلية ويبدو أن بعض هؤلاء المقربين من الرئيس فكروا فى احتمال أن يكون« بومبيدو » قد ترك وصيه سياسية سرية. وكانت الفكرة بالتأكيد تستحق الدراسة. ومثل هذه الوثيقة كانت ستتضمن معلومات هامة عن الخليفه الذى اختاره لمنصب الرئيس. وإذا كان « بومبيدو » عين شخصاً محدداً على أساس أنه ملائم لهذا المنصب » أو على أنه الشخص الذى يوصى به لفرنسا، لكان الشعب قاموا بانتخابه فورا بجره قلم خلال الانتخابات القادمة لاختيار خليفه له وقد اكتشفت، فى مكالمتى لقصر الإليزيه، أن هناك مشكلة عاجلة. فلا يوجد أحد يستطيع أن يفتح الخزانة الخاصة بـ « ببومبيدو » لأنه لا أحد كان يعلم مكان المفتاح.

ويبدو أن هذه الخزانة الفرنسية، كان لها مفتاح، بالاضافة إلى القفل الرقمى، وفى فوضى المرض المفاجىء « لبومبيدو »، لم يتم التمكن من تحديد المكان الذى وضع فيه المفتاح ومن بين القدرات الأخرى التى تتمتع بها المخابرات ، ومن المعروف أنها الفرع الوحيد بالحكومة الفرنسية التى لديها القدرة على فتح الخزائن. فقد كان لدينا أكثر الأشخاص براعة فى قطاع صناعة الاقفال. وفى ثكنة « توريل » كانت هناك غرفة مليئه بالخزن التى تمثل أحدث المنتجات فى هذا المجال على مستوى العالم. وكان خبرائى يستطيعون فتح أى واحدة منها بدون مفتاح خلال دقيقتين أو أقل من ذلك. ،وزوارى الذين شاهدوهم وهم

يقومون بذلك كانوا يصرفون قائلين ، يا إلهى، إن هذا مرعب» ومن المؤكد أنهم كانوا يفكرون فى مدى إمكانية تعرض أشيائهم الثمينة إلى الخطر. وفتح الخزانة لا يفرض أى عقبة على الإطلاق بالنسبة لعدد محدود من المتخصصين المحظوظين. والأمن الحقيقى يعنى منع الأشخاص من الاقتراب من الخزانة، والتى تعد قيمتها الأساسية فى حماية المحتويات من أى دخيل غير نظامى أو هاو.وقبل أن اترك المقر الرئيسى للمخابرات لأذهب إلى قصر الاليزيه هذه الليله، تحققت من أن خزانة الرئيس من طراز «فيشيت٣» ولها ثلاثه أقفال رقميه يجب أن يتم إدارتها قبل أن يتم استخدام المفتاح. وفى ذلك الوقت ، وكانت الساعة العاشرة تقريبا . قمت بالاتصال الاقفال بقسم الخاص بنا.

وسألتهم « أين خبيركم المتخصص فى فتح خزن فيشيت».

« أخشى أنه فى مهمة فى الخارج».

« هل هناك شخص آخر موجود ؟ »

«نعم ، يمكن أن يكون فى بيته فى منطقة خارج المدينة»

قمنا بالإرسال فورا وأطلقت الإليزيه على الخط الآمن أننى سأصل مع صانع الأقفال التابع لى ومعه مجموعة مفاتيحه، ولكن يجب أن نتخلص بأى ثمن من تجمع الصحفيين والمصورين المتواجدين فى الساحة الرئيسية بالقصر، يشاهدون جميع القادمين والذاهبين. وقد اقتربت سيارتنا من القصر من الجهة الخلفية من «شارع جابريل». وكما اتفقنا، أعطينا إشارة خاصة بالضوء العالى للسيارة، فقام شرطى بفتح البوابه الحديدية الضخمة لمدخل الحديقة على ناحية شارع الاليزيه وطريق «جابريل». وشارع الإليزيه فى حدذاته طريق خاص صغير

يشبه الزقاق الذى يربط بين البيت الأبيض ومبنى المكتب التنفيذى فى واشنطن، وجميع المبانى المواجهة لقصر الإليزيه من هذا الجانب تشغلها مكاتب الرئاسة. وقد عبرنا الممر بسرعة إلى القصر نفسه، ودخلنا من المدخل الجانبى الذى يقع إلى جانب الأبواب الزجاجيه لقائمة المناسبات الكبرى ، والتى تطل على الفناء، ثم قمنا بارتقاء السلالم الخلفية إلى الشقة الخاصة بالرئيس.

وقد عرفونا فورا بمكان الخزانة، ووجدنا أنفسنا فى منتصف حمام الرئيس.

وقام خبيرى بفتح حقيبه المفاتيح، ورفع أكمامه، وحل رباط العنق (الذى ارتداه تمشيا مع المناسبه ومكان عمله، مع أننى كنت أشك فى أنه ليست لديه أى فكرة عن المكان الذى يمكن أن نجد أنفسنا فيه، وقد استدرت تجاهه وهو يفحص الخزانة وكنت جالساً على حافه البانيو. وسألته: ما الوقت الذى ستأخذه فى فتحها ؟ »

« سيدى المدير العام » دقيقتين أو ثلاث ».

وكان يجلس على الأرض أمام الخزانة وكان على وشك أن يبدأ عمله، عندما مرت بخاطرى فجأة فكرة مرعبة . وقلت لنفسى يجب أن يكون هناك شهود . ماذا سيحدث إذا لم يكن هناك شهود ؟ » فقط تخيل أنه قام بفتح الخزانة فى ثوان. ووجدت ظرفاً مطوياً ومكتوباً عليه وصية سياسية. » وفتحته . (وكان هذا بالتأكيد يبدو وكأنه حلم، حيث أن هذه ليست طبيعتى أو أسلوبى.) وكانت الوصية تحدد إسم السيد ، الذى لا أحبه.ووضعت الوصية السياسية فى جيبى، وتغير مجرى التاريخ نتيجة لذلك. كل هذا انساق فى تفكيرى خلال ثوانى. ووجدتنى أصرخ عالياً مما أثار دهشة صانع الاقفال وقلت «انتظر»

وفتحت باب الحمام، وطلبت السيد «آلان بومبيدو» إبن الرئيس ، و«بيير چويلييه» رئيس وزرائه، وطلبت منهم الدخول إلى الحمام اثناء فتح الخزانة. وكانت الغرفة صغيرة على أن نكون فيها نحن الأربعة ولكن فى النهاية، بعد مرور دقيقتين انجز الرجل عمله وانفتح باب الخزانة. ولم يكن هناك وصية سياسية بأى شكل من الأشكال.

وفى هذه اللحظة انتهى عهد بومبيدو وبدأ عهد چيسكار ديستان.

وقد تم أول لقاء بينى وبين ڤاليرى چيسكار ديستان عندما جاء ليتناول غداءة فى «ثكنات توريل» فى ٢٠ يوليه سنه ١٩٧٣. وفى ذلك الوقت لم يكن متمرسا جيدا فى الشئون الدوليه، على عكس الشئون الماليه الدوليه، حيث إنه خدم كوزير للاقتصاد والماليه وكخريج من المدرسة، ذات المكانه العاليه، الدولية للإدارة، كانت خلفيته المهنية كلها بيروقراطية - بيروقراطى فى الفروع الاقتصادية والمالية للحكومة الفرنسية. وبما أنه كانت لديه قدرة ذكية فكان على معرفة أين تقع القوة السياسية الحقيقية فى فرنسا.

وكان چيسكار منذ أيامه الأولى مدمناً للسلطة. وقد كانت للشئون الدولية والعسكرية، وخاصة المخابرات فائدة فقط إذا ساعدته على تنفيذ سياساته الجوهرية- وخاصة إنهاء أى مشاكل فى أى حملة سياسية أو إيجاد وسائل لخلق تحالف مع أخرين يهتمون بمثل هذه المشاكل ويستطيعون مساعدته. وكان هناك تساؤل بسيط عن أنه لم يكن على صلة جيدة مع وزير الخارجية الفرنسى، «ميشيل جوبر»، والذى كان ينظر له على أنه منافس سياسى له. إذن فقد كان أمام «بومبيدو» أقل من عام فى الحياه، وأنا كنت على علم مقدماً بأنه مريض

جداً. وفي وجهه نظرى كان هناك خليفتان محتملان في يوليو سنه ٧٣- فرنسوا ميتران وڤاليرى چيسكار ديستان. وقد كنت أشعر بالقلق من أنه ستكون كارثه على فرنسا أن يكون رئيسها المستقبلى غير مطلع كليا على أعمال أداة معقدة مثل التى أديرها، والتى لها صلة مباشرة بالاحداث اليومية الأكثر خطورة والتى تواجه الجمهورية. وفي بعض الأوقات كنت أشعر باحساس بأننى ألعب دور الدكتور الذى يستمع جيدا بواسطة سماعه طبيب إلى الأصوات الضعيفة داخل صدر مريضه- وذلك خلال بحثى عن أول بادرة تبشر بأى خطر، وأى أحداث عنف يمكن أن تظهر فجأة وبدون أى إنذار مبكر وحيث أن المصدر الوحيد الممكن لوجود رأى ثان يتعلق بما اكتشفته كامن فى رئيس الدولة، فيجب عليه ان يكون مطلعا على مجريات الامور بالقدر الذى تسمح به سلطاتى وافضل الاشخاص تمهنا يجب أن يكون لديه درجه معينه من التواضع الشخصى ونسبه جيدة من الصبر فى الأمور التى يستعرضها ويواليها .

وابنة عمى وهى تيريزدى سان فال، وهو أحد الكتاب واكبر الناشرين الأدبيين فى فرنسا.

ولديها معرفه شخصية واسعة بالامور السياسية اقترحت يوما أن يحضر «چيسكار ديستان» ليتناول الغداء معى. وفي ذلك الوقت كان چيسكار يعمل كوزير للخزانة ، ولكنه كان من ضمن الذين يريدون أن يصلوا إلى منصب الرئيس.

ومر «چيسكار» على «تيريز» وأخذها من مكتبها فى «فلاماريو ، وهو مقر الناشرين فى « أوديون » إلى حيث كانت تعمل مديره ورئيسه تحرير. وما

أن وصلت سيارتهم إلى ساحة المقر الرئيسى للمخابرات ووقفت عند بدايه الطريق الأخضر الصغير، تقدم أحد مساعدى لاستقبال «چيسكار» وإبنة عمى» ، وأرشدهم إلى سلم المدخل الذى يوصل إلى مكتب المدير العام، وكانت هناك صورة لى معلقة على الحائط، ومضاءة بنور جعل لها خيالاً طويلاً. وقد لاحظ چيسكار مدى تأثير هذا الرمز.

وما أن دخلا مكتبى، وقفت ولاحظت أن عينا چيسكار ضاقت وركزت فورا على أحد الجدران المعلق عليه خريطة ضخمة للعالم منقوشة بسهام مغناطيسيه ملونه، بعضها موجه تجاه إسرائيل لماذا كل هذه السهام، ولماذا هى موجهه لإسرائيل؟ » هذه كانت أول كلمات لچيسكار فى مكتبى شرحت له فورا أن جميع معلوماتنا تؤكد أن إسرائيل على وشك أن تتعرض لغزو مشترك من قبل الجيوش العربية». وكان چيسكار يشعربالدهشة من كل شىء، حيث ان بومبيدو كان قد عزله بصورة فعاله عندما كان وزيرا للاقتصاد والمالية عن أى شىء له صلة بالشئون الخارجية، والسياسية العسكرية أو المخابرات.

وقد بدأنا فى أكل بعض المشهيات بعد أن جلسنا على أريكه كبيرة من الجلد وعلى كرسيين كبيرين، تحت صورة بيضاء وكان الفارس يمسك فى يده عصا القيادة، ويمتطى جواداً صغيراً رائعاً وقد قام چيسكار بدراسة اللوحة جيدا. ثم جلسنا بعد ذلك لتناول الغداء الذى أعده طباخي المتميز وكان مكونا أولا: من بعض أنواع البيض مع البطاطس. ثم طبق لحوم، ثم أعده طباخى المتميز وكان مكوناً أولا: من بعض أنواع البيض مع البطاطس. ثم طبق لحوم، ثم الحلو، وهو تارت المشمش. واستدار «چيسكار» كلياً إلى الخريطة خلال

الغداء معبرا عن دهشته، على سبيل المثال، على عدد السهام الموجهة لإسرائيل ومصر. وقد وضعت له الإمكانيه القويه لوقوع حرب بين الدولتين. والشىء الذى يدعو إلى السخرية بالنظر إلى أهمية الغزو السوفيتى لأفغانستان- وهوالحدث الذى أحتل مساحة جيدة من وقت الرئيس خلال الاعوام السابقة، أنه قام بابداء اهتمام خاص بهذا الموضوع ودهشة من السهام الموجهة من الجزء الجنوبى من روسيا تجاه أفغانستان وإلى بالوفستان فى شمال ايران وقد تناول حديثنا خلال لقاء الغداء الأول لنا عدة مواضيع تدور حول أكثر البقع اضطرابا. فى العالم، وقد أطلعته على جميع معلوماتى. وبعد الغداء، فى الوقت الذى كان يستعد فيه «چيسكار» للمغادرة، اقترحت عليه أن أقوم بإرسال عدة تحليلات له والتى كانت معده بالفعل وبالرغم من هذه البداية السعيدة، إلا أننى لم اكن أبدا قريبا من الرئيس چيسكار كما كنت مع الرئيس «بومبيدو» ومع أن هذا لم يتضح أبدا، ولكننى أشك أن المشكلة تعود إلى تجاربنا الشخصية السابقة والمتباينه ومناظيرنا الشديده الاختلاف فأنا كنت مثل بومبيدو، نتاجاً للحرب العالمية الثانيه ومراقباً مطلعاً على الأحقاد الشديده للامبراطورية السوفيتية. ولذلك فإننى لم أتمكن أبدا أن أوقف عدم اعتقادى وثقتى فيما يتعلق بموسكو، عدونا فى الحرب العالمية الثالثة. ولهذا عندما أصبح چيسكار رئيساً عادة ما كان يقوم بعض حاشيته بإبداء تضررهم من تمييزه فى الوثوق فى معلومات المخابرات الشديدة الحساسية أو فى مهام السياسة الخارجية من الوثوق فى أصدقاء الرئيس الذين يتمتعون بسلوك معتدل ولصالحى تجاه السوفييت، وتجاه بعض اعدائنا فى الحرب العالمية الرابعة أيضا.»

وهؤلاء الخبراء الهواه فى التجسس وشئون السياسة الدولية لديهم فكرة بسيطة عن مدى دقة التنظيمات الخاصة بالوسائل التى يستخدمون الجهاز فى القيام بعملياته ومدى الصرامة التى نستخدمها فى إعداد تقرير وتقييم التقدم الذى يصاحب أى مهمة أو عملية. وأحد هؤلاء المستشارين الهواه والذى كان يلجأ إليه «چيسكار» كثيرا، وخاصة فى تعامله مع السوفييت، كان «جون بابيتست دومنج».

وكان لدينا ملف كبير عن «دومنج»، بالاضافة إلى إدارة مواجهة التجسس وكان« دومنج »، متخصصاً فى التجارة الزراعية مع الكتله الشرقيه، وقد قرر أن يجمع ثروة عظيمه من عمليه بيع القمح، الزبد، وبعض نوعيات الأحذيه الأخرى للسوفييت فى مقابل منتجات يمكن إعادة بيعها إلى الدول الفقيرة فى أفريقيا والتى تسيطر عليها فرنسا والتى كان له صلة وثيقة بها، ويقوم بالاستثمار فى معظم دول القارة الأفريقية . وعملاؤنا الذين كانوا يعملون فى أفريقيا كان عليهم أن يجروا فى أثره فى عدد من المناسبات التى لا تحصى.

وأصول « دومنج » السياسية كانت واضحة جدا وقد كان أكثر من مليونير بمراحل، وكان أيضا عضواً فى وأحد المتبرعين الأساسيين للحزب الشيوعى الفرنسى ومع مرور الأعوام أصبح «دومنج» بصورة فعاله، البديل الفرنسى « لأرماند هامر» والذى مع ذلك قرر أن يجعل نفسه فى خدمة چيسكار وبعض أعضاء حاشية الرئيس والمشكلة الأساسية فى الاعتماد على مثل هؤلاء الرجال، الذين لهم قدم فى معسكر والآخرى فى معسكر آخر، أنك لا يمكن أن تتأكد أبدا عن أى معسكر يتحدثون فى أى وقت.

ومع ذلك، قرر «دومنج» كسب ثقة عدد من القادة الفرنسيين فى الربع الماضى من هذا القرن وإحدى نتائج هذا التعاون قرار «چيسكار» المفاجئ والغريب بالذهاب إلى «وارسو» لحضور مؤتمر مع الرئيس السوفيتى وقتها «ليونيد بريحنيف» فى ١٩ مايو ١٩٨٠، ويحتمل أنها الحالة الوحيدة التى غير فيها أى رئيس فرنسى عدم مصداقيته للسوفييت، أو حتى أى قائد غربى، وفى أى وقت خلال الفترة التى سبقت الحرب وقد أساء «چيسكار ديستان» فهم كل من الوضع الدولى وقدرته الشخصية على التأثير عليه «بأى طريقة بناءة.

واللقاء بين القائدين - بريجنيف وچيسكار الشرق والغرب - تم فى لحظة تتسم بالحساسية، بعد أن قام الجيش الأحمر بغزو أفغانستان بخمسة شهور فى ديسمبر ١٩٧٩ وقد كان الغزو مصمماً على الاقل جزئيا- على أساس السيطرة على دولة ينظر إليها الكرملين على أنها دولة استراتيجية بالنسبة للإمبريالية السوفيتية. وخطوة تجاه الوصول إلى البحار الدافئة فى الجنوب.

وقد تم لقاء چيسكار وبريجنيف فى بولندا، وهى الدولة الوحيدة على الحدود السوفيتية التى كان لها دين، كاثوليكية، قادرة على دفع أهله إلى المقاومة المسلحة، مقاومة لها صلة بالجمهوريات الكاثوليكية التابعه للسوفييت، ودول البلطيق، والتى فرضت سيطرتها عليها فى نهاية الحرب العالميه الثانية وأول بذور هذه المقاومة كانت تتزايد فى بولندا فى عقول الشعب الذى شكل حركة تضامن قوية تحت قيادة «ليسخ واليسا».

وإذا كان هناك مكان لا يريد أن يلتقى فيه قائد غربى كبير بقائد روسى، فهو بولندا فالروس يحتضرون البولنديين والبولنديون ممتلئون بكره، بالاضافه إلى الخوف من الروس.

وكل هذه الخلفيات لا يمكن أن تؤدى إلى حوار بناء فى أحد اللقاءات، حيث سيكون المناخ بصورة لا يمكن تجنبها مليئاً بالشحن والتوتر. والاكثر من ذلك، أن زيارة رئيس الجمهورية الفرنسية لوارسو لحضور لقاء مع امبراطور السوفييت فقط يمكن أن يبعث إشارة لأى بولندى أن فرنسا أو الرئيس الفرنسى، لن يتمكن من تقديم أى مساندة معنوية أو مادية لشعب بولندا وفى نفس الوقت كيف يتمكن رئيس دولة فرنسى من السماح لنفسه فى التفكير أنه يمكن أن يكون لديه أى أمل فى فرض تأثيره على ليونيد بريجنيف فى قضيه مثل أفغانستان أو بولندا ؟

وقد واجه التضامن البولندى هجوماً ضاراً منذ عدة شهور قليله. وقد أمسكت الإمبراطورية السوفيتية عن التنفس بعد موت «ليونيد بريجنيف»، وكان الوقت قد حان وقتها للنظر تجاه المستقبل والحقيقة تجاه نهاية لعبه الحرب العالميه الثالثه.

بدلا من ذلك، كان «چيسكار» ومستشاروه يقومون بوضع سيناريو للتصالح والتكيف الذى يمكن أن يوفر لأعدائنا السوفييت متنفساً، بالضبط فى الوقت الذى استطعنا فيه أن نجعل إمبراطورية الشيطان تغطى ظهرها إلى الحائط.

وللتحضير لهذا اللقاء المشئوم الذى كان يرغب فيه بشدة أصدقاء «دومنج» فى الشرق، تولى المستشار الشخصى المقرب للرئيس ديستان، ميشيل بونيا توسكى، عملية الإعداد له.

ولإجراء المحادثات السريه فى وارسو، قام الرئيس بالطيران إلى العاصمة

البولندية فى طائرة «دومنج» الخاصة والمثير للدهشة كما يبدو، بالرغم من إننى المدير العام للمخابرات إننى لم أتلقى أى إشارة مسبقة عن أهمية إقامة هذا اللقاء الحيوى بين رئيس جمهورية فرنسا وبين السكرتير العام للجنه المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى. وبالتأكيد، لم أتجرأ أبداً على محاولة تشكيل مجرى مثل هذا اللقاء، وعلاوة على ذلك فقد كان لدى نفاد بصيرة وبدلا من ذلك حصلت على معلومات عن زيارة جيسكار من بعض المصادر المتميزة «لچون بابتيست دومنج وأصدقائه، والذين كان لديهم جدولهم السياسى الخاص.جدا بهم. ومع أن الناخبين أبدوا دلائل ارتياح تجاه ذهاب «چيسكار» للقاء «وارسو» إلا أنه كان يشعر أنه فى حاجة إلى تطورر مفاجىء ومثير وغريب يضمن فوزه. وهذا الموقف المفترض انقلب ضده وأصبح غلطة جباره. وعلى الأقل، فقد كلف فرنسا، التى كان من الممكن أن يجعل عدد سكانها الكبير من البولنديين والكاثوليك شريكه غربيه مثاليه للتضامن معها، الفرصة للعب دور فى المساعدة على إرشاد النظام الديمقراطى الذى ظهر فى فرنسا بعد ثلاثة أشهر من هذا اللقاء.

وخلال الحملة الانتخابية الرئاسية العنيفة سنه ١٩٨١، نظر الناخبون إلى لقاء وارسو على انه خيانة من أجل مصلحة القيادة السوفيتية، وقد انتهز « فرنسوا ميتران» هذا اللقاء كمخرج له فى هذه الحملة الانتخابية الغريبة. وفى كل مناسبة، كان يشير الى «چيسكار» بأنه عامل تلغرافى صغير من وارسو. و هكذا ، فى أقل من عام بعد هذه الزيارة المظفرة لوارسو كان چيسكار ديستان قد خرج من منصبه، تاركا المكان« لفرنسوا ميتران» وحزبه الاشتراكى، وبالمصادفة تضمنت حكومة «ميتران» الأولى بعض الأصدقاء

المقربين جداً لـ «دومنج» من الحزب الشيوعى الفرنسى.

وقد كانت هناك مناقشات جديرة بالاعتبار حتى بين أقرب مستشارى «چيسكار» حول ما قيل بالضبط بين «چيسكار» و«بريجنيف» خلال ساعات لقائهم المنفرد.

وعلى حد علمى، لم يتمكن أحد منهم أبدا أن يقرر بصورة قاطعة ما دار بينهما فى اللقاء، ولكن بعد انتهاء نظام «چيسكار» فى وقت لاحق، وكذلك نظام بريجنيف بعده مباشرة، أصبحت هذه الأسئله غير المجابة مجردة ليس لها أهميه عمليه. ولكن الطعم السىء لها بقى فى فم كل مفكر مستقل تقريبا فى أوربا الشرقية، والتى أصبحت تنظر إلى فرنسا وخاصة إلى «چيسكار» باحتقار وهذه الذكريات لم تختف سريعا.

ومع أن هذه الرحلة كانت أخر تصرف لنظام فاشل فى كل من الدولتين، إلا أنها كانت تعد مثلاً جيداً للطريقه التى ناضلت بها إدارة «چيسكار» أثناء الحرب العالمية الثالثه- وذلك بالنظر إلى معسكر الأعداء عبر نظارات ورديه اللون، بدلا من نوعيه الشك الصحى المزمن الذى يساند أفضل أنواع التجسس.

والقبول غير المشكوك فيه لدوافع أعدائنا ليس له مكان حقيقى فى عملية جمع المعلومات (الاستخبار) أوصنع السياسة التى تؤدى إلى الانتصارات فى محيط الحربين العالميتين الثالثة والرابعة.

الفصل الثامن

الإرهابيون وغيرهم من الرومانسيين

وعادة وعلى نحو تقليدى يوجد عدد قليل من المجالات الهامة للامن القومى فى فرنسا والتى يتحكم فيها عن قرب من قصر الإليزيه حتى مع وجود المخابرات أو قوات عسكرية يتم استدعاؤها عند الحاجه واحد تلك المجالات الشئون الأفريقية، لأن فرنسا كان لها وجود ولفترة طويلة متصلة بأفريقيا والمجال الآخر هو قوة الردع النووية الفرنسية، المسماة بقوة الضرب. والمجال الثالث هو الإرهاب، لأنه من دواعى اهتمامات بقاء الجمهورية الفرنسية ذاتها وأمن كل فرد من مواطنيها.

ورغم هذا، أو ربما لأن، الرغبة الثانية لكل رئيس فرنسى، فلقد استفدت من البقاء قريبا منه، السيطرة على كل من المجالات الاستراتيجية الثلاث بجانب هذا فقد كنت أضعها فى مقدمة أولوياتى من أول يوم لى فى العمل. وقد علمت وبسرعة، ان دور فرنسا فى أفريقيا وادارتنا لقوة الردع النووية كانت فى ذلك الحين تحت أيدينا وبصورة طيبة. كما كان من الضرورى فقط التأكد من أن التقنية الميكانيكية تعمل فى مكانها كما هو مطلوب- جمع المعلومات اللازمة والعمل بها وفقا لرغبة الرئيس.. والأسبقية الوطنيه الثالثه، الارهاب، كان بالنسبه له اصعب مشكلة استراتيجية واجهتها، والتى لايمكن تجنب الدعوة لتطبيقها بأعظم مالدينا من مهارات. فضلا عن هذا فقد تعلمنا، ولفترة طويلة تلك المنعطفات التى ننطلق إليها، وخلال فترة قصيرة جدا ومميتة أيضا توصلنا إلى الذروة.

ومن خلال مجريات استعدادى لتولى شئون SDECE تعلمت دروسا حرجة عديدة من رجالنا السريين لمواجهة الإرهاب ــ كلاهما فى الداخل فى DST وفى الخارج وهى التى كنت أتولى توجيهها.

إن الإرهابيين هم قمة الرومانسيين ـ تعين من خلال اعتقادهم الاساسى بأنهم يساعدون قضيتهم عن طريق العنف. وفى وسطهم المعزول المشوة، فإنهم يسافرون معاً، ويعيشون معاً، ويأكلون معاً، ويجامعون معاً. كما انهم ينتظمون داخل خلايا متناهية الصغر ـ بها من خمسه إلى خمسين شخصا. لديهم الأبطال والأدغال الذين يعملون وفق هواهم. ولايجب أن نعتقد انهم وبكل بساطه من المتعطشين لامتصاص الدماء. انهم يشعرون بالاحباط، كما انهم تافهون يعيشون فى دنيا الخيال. ومع ذلك وفى الواقع فإن الكثير منهم أذكياء. وبعد سنوات طويلة من مراقبتهم، يمكننى تفسير كيف يعملون.

لقد تعودنا أن نقول: «إن الحمار هو حصان الفقراء والعنز هى بقرة الفقراء والارهاب هو مقاتل الفقراء». ولكن لكى يتم القيام بعملية ارهابيه واحده فان الامر يستدعى وجود قوة بشرية صغيرة جدا، وقدر فعال من المال. ومع هذا فان نتيجه اشتباك واحد واننى استخدم هذا المصطلح عن عمد، من الممكن أن تكون مميته وخطرة كمعظم الهجمات العسكريه المكثفه من جانب فرقة من القوات الضاربة والمسلحة تسليحا ثقيلا.

والاسلوب الوحيد فى مقاومة الارهابيين من الناحية التكتيكية، ومعارضة للمفهوم الاستراتيجى هو النزول الى مستواهم. وبكل بساطة لأن تصبح واحدا منهم تماما ـ تسافر معهم، تنام معهم، تعمل معهم، وأحيانا لعدة سنوات.

وبالتأكيد، فان المنظمات الاستخبارية الغربية القياديه نجحت كثيرا فى التسلل إلى الصفوف الكبيرة للشيوعية السوفيتيه، بجانب هذا فإننا نفهم الاستعداد الذهنى للأوروبيين الشرقيين جيدا. وفوق كل ذلك، وكما شرحت لكل رئيس من رؤساء فرنسا ولأى عدد من زعماء العالم، انهم اوروبيون مثلنا.

أما. الارهابيون، مع بعض الاستثناءات، ليسوا على وجه العموم اوربيين. وإذا كانوا اوربيين ـ على سبيل المثال اللواء الأحمر، عصابه بادر ـ ماينهوف، وحتى الجيش الجمهورى الايرلندى ـ فإنهم اختاروا العديد من التكتيكات، وفى الواقع وفى كثير من الأحيان، تدربوا فى نفس معسكرات التدريب، لأخوانهم الارهابيين فى العالم الاسلامى الذين اخترعوا التكتيك الذى يستخدمه الارهابيون الأوروبيون. أو أنهم يطبقون ذلك التكنيك الذى تعلموه من الكتله الشيوعيه وفى الوقت الذى يستمرون فيه فى صقلها واتقانها. ورغم أن معظم ارهابيى الشرق الأوسط الضارين قد تدربوا على أيدى السوفييت، أو الألمان الشرقيين، أو خبراء الكتله الشيوعيه على استعمال السلاح أو أى تكنيك أخر، فانهم فى هذه الأوقات، ولسوء الحظ، قد تفوقوا على مدربهم. فضلا عن هذا فإن معظم سياسيينا الغربيين أو الشماليين لم يفهموا فهماً كاملا عقليه الارهابيين. فضلا عن هذا فانهم لايعرفون أو يفهمون الأماكن التى يخرجون منها أو كيف ينشطون.

ولمقاومة الارهابيين، يجب علينا أولا أن نحرمهم من القواعد الطبيعيه حيث يعملون ويتدربون. انهم فى حاجه الى السلاح. وأكثر من هذا فان بامكانك شراء السلاح من أى مكان. كما أنهم فى حاجه إلى عدد قليل من الرجال.

ولكن لابد وأن يكون هؤلاء الرجال على مستوى عال من التدريب. بجانب هذا فان أي فلاح فى استطاعته أن يصنع خليطا من قنابل مولوتوف، لكن ليس بامكانه أن يصنع متفجرا بالستيكيا متقدما له زناد ثنائي ذى ارتفاع عال. وإذا ماقمنا بالضغط على الدول التى تأويهم، فإلى اين سيذهبون؟ إن جنودهم من المشاه يمكنهم التقهقر إلى اعماق الصحراء للتدرب. ومع هذا فان الصحارى مكشوفه إلى حد كبير ومعرضة لهجمات القاده. وإذا ما وقفت ما فى مكان ما قى الصحراء، ففى خلال خمس دقائق سقبض على خمسة رجال مع وجود ثلاثة أقمار صناعة للتجسس تراقبكم. إن الصحراء مكان موحش جدا وسيئ لكى يختبئ فيه قادة الارهاب. وأفضل مكان لهم هو المدينة الكبيرة ـ فى الشرق الأوسط، بالتأكيد، وعلى نحو متزايد فى أوروبا ذاتها.

ومن بعض الأمور فقد تعاملنا مع مشكلة الارهاب الدولى والى حد بعيد، بخبرة بسيطة أكثر مما تعاملنا مع مشكلة الارهاب الداخلى المتزايد فى فرنسا ـ الانفصاليين الكورسيكيين إن هؤلاء الكورسيكيين يمثلون نشاطا دائما على أرض فرنسية، وعنفهم، فى كثير من الأحيان يكون على صورة هجمات دموية موجهة إلى مكاتب ومؤسسات الحكومة الفرنسية، وحتى إلى كبار المسئولين الحكوميين. وخلال فترة خدمتى فى الـSDECE قام الانفصاليون بوابل من الدعاية الجماهيريه يحثون فيها على القيام بحملة من العصيان المدنى والظ المتعمد ضد فرنسا. وقد انبعث الكثير من تلك الدعامة من إحدى محطات الاذاعة وقاعدة فى البا، وهى الجزيرة التى أبعد اليها نابليون عام ١٨١٤، والتى أصبحت حاليا ارضاً ايطاليه، ومن ثم فان الكورسيكيين يعتقدون أنهم بعيدون عن متناول العدالة الفرنسية. إلا أنه مع ذلك فإن السلطات الايطاليه

متجهون اتجاها آخر، ومن ثم قمنا بتفجير المنشأة بأكملها. وجزيرة البا بها جبل كبير على شاطئها. وفى احدى الليالى، هبطت احدى مجموعاتنا من رجال الكوماندوز، واتخذت طريقها إلى أعلى الجبل، حاملة معها ملابس ارهابيين. وفى اليوم التالى، أكملوا عملية الاستطلاع وهم بملابس الارهابيين وفى تلك الليلة وزعوا شحنات المتفجرات حول المعسكر الكورسيكى بأكمله وفجروها كلها فى وقت واحد. وفى خلال عشرين ثانيه ضاع جهاز يقدر بسبعة ملايين دولار. وفى اليوم التالى، زعماء الارهاب الكورسيكون لعقد اجتماع طارئ فى مقرهم الرئيسى لمنفاهم داخل ليفورنو، بايطاليا. وقد طلبت من أحد ضباط الصف الكورسيكيين التابعين لنا الاتصال هاتفيا بالمركز الرئيسى حيث كنا قد حصلنا على رقم تليفونه.

فقال بلهجة كورسيكيه جيده: «أترون ما فعلنا بكم ليلة البارحه. والمرة القادمة سننسفكم ايضا، وليس الجهاز فقط.، وأفضل برهان لقدرتنا على فعل ذلك هو أننى أتحدث اليكم هاتفيا من المكان الذى تعقدون فيه اجتماعكم وعلى أعلى مستوى من السريه.

لم يحدث شئ، لمدة الاشهر الستة التالية ـ لاكلمة، ولاعمل، من جانب المقاومة الكورسيكية . فلقد تخلصنا من أحد عناصرهم الحاسمه ـ قاعدة تأمين العمليات.

وبعد ذلك بوقت قصير، قمت بتطوير خطه أخرى للتعامل مع الارهابيين الكورسيكيين. فلقد تعرفنا وحددنا بدقة متناهية شخصية خمسة من كبار قادتهم. كما أننى أشرت على الرئيس چيسكار دستان، بأن نأخذ أول اسم

ارهابى فى القائمة ونجعله يختفى. وبعد فترة، نأخذ الاسم الثانى فى القائمة. ونعمل نفس الشئ.

بجانب ذلك فقد قلت للرئيس، ونحن جلوس فى مكتبه بقصر الأليزيه: «لن نحصل أبدا على الاسم الثالث فى القائمه. إن هؤلاء الناس يرغبون فى العيش والتمتع بالحياة. انهم ليسوا مثل البعض من المتعصبين الشرقى أو سطيين أو اليابانيين الذين على أتم استعداد بأن يضحوا بحياتهم من أجل قضية يؤمنون بها. إن لديهم الأموال. انهم يعيشون فى قصور فخمه، مع فتيات. انهم أبطال عظام داخل وسطهم الصغير. كما أنهم يحبونه. انهم لايريدون أن يموتوا».

إلا أن الرئيس لن يحبز هذا العمل غير القانونى.

بجانب هذا فإن مثل ذلك الاستراتيجيه لن تتلاءم مع أبى نضال أو كارلوس أو أى ارهابى من الشرق الأوسط إو اليابان. أنهم لا يعبأون بالموت. وبالنسبة لهم لابد وأن توجد وسائل أخرى للهجوم. لابد وأن نتسلل إلى كل خليه من خلاياهم لنعرف العمليات التى يخططونها يوما بيوم، اسبوعا بأسبوع.

وعن طريق الوسائل السياسية والدبلوماسية، وفى النهاية بالقوه العسكرية المطلقه إذا لزم الأمر، لابد أيضا أن نزيل القواعد التى تساندهم، وأن نعمل، فى تحييد تلك الدول التى أصبحت أعداءنا الطبيعيين، وباحتضار، وفى الواقع المشاركة فى الحرب العالمية الرابعة كما فعلنا فى الحروب الثلاث التى سبقتها فى هذا القرن.

ونحن الفرنسيون كنا دائما مؤثرين إلى حد كبير عن الأمريكيين فى اختراق الجماعات الاسلاميه، كما أننا اصبحنا مشهورين بخبرتنا. علاوة على ذلك فان

القرن والنصف الذى قضيناه كقوة استعمارية أورثنا ميراثا لايقدر بثمن من عدد كامل من مصغر للورنس العرب. بالاضافه إلى هذا فان لدى عدداً من الناس فى الدول العربية ممن يتحدثون اللغه العربيه وفى الحقيقه لايمكن تمييزهم عن العرب. وكان العديد منهم من الضباط السابقين فرقه الجمل، من الفيالق التى تشارك فى ركوب الجمال ويشبهون العرب.» وكان أحد العملاء طبيبا قضى أكثر من عقد محترقاً قلب أحد المنظمات الارهابيه الشرقى أوسطيه. ومع هذا وفى أحد الأيام، اكتشف الارهابيون هذا الشخص الذى يعمل فى الظلام وسطهم، واختفى الطبيب بكل بساطة تماما. وعملية الاختراق فانها تستغرق من عشرة، خمسه عشر أو اكثر من الأعوام. ومن ثم فعليك أن تبدأ مع العميل وهو شاب، كما أنه يجب عليه أن يتخذ طريقه متسللا داخل هذا التنظيم ويكبر معه، ويصبح جزءا لايتجزأ منها، ويصبح فى أحد الأيام أحد القادة.

وهكذا فقد خدم عملاؤنا فى أفريقيا مصالح فرنسا القوميه فى مناسبات عدة ويحذوروننا من العمليات الارهابيه، ويحولون دون وقوع أى حوادث ارهابيه والتى من المحتمل أن تكون سببا فى موت ودمار لايمكن تصوره. هذا وقد أغتيل أحد هؤلاء الضباط فى شهر سبتمبر ١٩٨٩ فى ابيدجان. ولقد كان يخدم مصالحنا ومصالح فيلكس هويهوت ـ يوبتى، رئيس ساحل العاج، بمراقبته عن كثب أنشطه بعض الفتيان الفاسدين ـ والتى اصبحت قريبة جدا. ولمدة عشرين عاما، كنت أقول لهويهوت، «لاتدع أفراداً من الشرق الأوسط يأتون إلى بلدكم لأنهم سيجلبون مشكلاتهم معهم». تلك بعد عشر سنوات من الاستماع إلىّ نسى فى النهاية نصيحتى، وقد أعجبته الرغبه لأن يصبح ساحل العاج ملاذا حقيقيا للاجئين السياسيين من كافه الأنواع ـ ويقول بعض الناس،

ان جزءا من طلبه المحير والذى لاطائل تحته كان من أجل الحصول على جائزة نوبل للسلام. بجانب هذا فقد كان الرئيس هويهوت يأمل من ترحيبه بتلك العناصر الارهابيه علانيه أنه سيعزل بلاده عن هجمات الارهابيين ـ وأسفاه، توقع مفرط فى التفاؤل. بجانب ذلك فان هؤلاء الذين منحهم هويهوت الملجأ بدأوا فى الواقع فى العمل وقتل بعضهم البعض فى ابيدجان. وباستخدامهم لساحل العاج كقاعدة، كان فى مقدورهم السفر إلى حد كبير وكان كل منهم يحمل اثنى عشر جواز سفر أو أكثر، وكلها دون استثناء تحمل اسماء متماثله وصورا غير محددة الشكل، وكانت تعمل أى شخص شبه الكل ولكن من المستحيل اقتفاء اثره. وفى الحقيقه فان تواجد الارهاب فى ساحل العاج أصبح أحد اهتمامات الحكومة الفرنسية لانها اعتبرته أمن مستعمرتها القديمه والتى تعتبر مرتكزا لسياستها الأفريقية. وأكثر من هذا، وبالروابط المختاره بين ساحل العاج وفرنسا، فقد كان السهل، الهروب المباشر لأى ارهابى أو متعاطف مع. وهكذا فإنه فى أحد الايام، عندما حضر هويهوت إلى باريس وقال «لايوجد عندى من يراقبهم» وهنا أحضرت له واحدا. فقد كان عندى أحد ضباطى الممتازين المخلصين كان لتوه قد أحيل إلى الاستيداع، ارسلته إلى أبيدجان. لقد كان كفئاً جدا. وأسفاه، فقد تدخل فى الاماكن التى لم يكن من الواجب أن يكون فيها. وفى أقل من عام، كان ميتا.

وكان هناك حادثه أخرى مثيرة جدا فى أواخر السبعينيات. فقد تصادف أن تقابل عضوان من الفلسطينيين القياديين من إحدى الخلايا مع فنانتين فرنسيتين شابتين فى أحد النوادى الليلية فى حيفا، المصيف على البحر الأحمر والذى اكتشف الكثير من الشباب الفرنسى أنه ملتجأ جميل تماما. وقد قام

الفلسطينيان بمصادقة الفاتتين الفرنسيتين الشابتين الرقيقتين، وناما معهما، ثم قالا أن لديهما بعض الهدايا يريدان ارسالها ألى آمهما التى تعيش، كما قالا للفنانيتن، فى فرنسا، وبطبيعة الحال، وضعت الفنانتان ـ قنابل من المحتمل انفجارها بعد وصولهما إلى فرنسا ـ فى حقائب ملابسهما. ولم يقبض أبداً على الارهابيين. ولكن حيث أن لنا عميلا فى الجماعة التى صنعت القنبله، استطعنا أن نحذر سلطات الجمارك بوقت وصولهم المتوقع. وتم اكتشاف القنابل وبسرعة تم ابطال مفعولها. وهكذا تم تجنب حدوث كارثه مهولة فى وسط باريس.

ورغم هذا فان احراق خلايا الارهاب فى القاعدة يعتبر أكثر بقليل من الاشتباك العسكرى المعادل لمستوى السريه ـ عنصر فردى، معزول عن احدى الحملات فى مسرح الأحداث الحربيه بأكمله ـ وفى النهاية، فقد كان من الضرورى التحرك على سلم المسئوليه، ونضع ونفحص الاستراتيجيه على الاساس العلوم السياسية الطبيعيه، وكذلك التكتيكية. وهكذا فان الكثير من أصدقائنا وفى الشرق الأوسط من المحتمل أن يدركوا الصياغة الجديدة للقول المأثور لكوزويتس، «إن الارهاب حرب بوسائل اخرى. وطوال السبعينيات وإلى الثمانينات، اصبح الارهاب القوة الضاربة الاساسية لاعدائنا فى الحرب العالميه الرابعة. ومع هذا فقد كان لها ايضا سقطه هامة داخل الدول العربيه المعتدله فى الشرق الأوسط، والتى كان يشعر قادتها بفزع متكرر من وحشية جيرانهم الأكثر راديكالية والتى كانوا يرتكبونها بهدف السلطة والجشع. وقد ادركت فى وقت مبكر أن حلفاءنا الطبيعيين فى الحرب العالميه الرابعة كانت تلك الدول المعتدلة فى الجنوب والتى ادركت أن مصلحتها الذاتية الاساسية، فى الحقيقه هى أمنهم وحياتهم، بمعنى وضع قدرهم فى ايدينا. هذا وقد تماثلت تلك الدول

المعتدله، مدفوعين بشعور الكراهيه لأعمال جيرانهم البرابرة، مع الأهتمام الأكثر عملية للحفاظ على نوعيه من النظام العالمى، ولذا انضموا إلى بعض قادة المخابرات الغربية لتشكيل ما عرف بأنه نادى الرحلات (سفارى).

ونادى السفارى (الرحلات)، مجموعة غير عادية وغير معروفة حقيقه، تم تنظيمه خلال أزمة النفط عام ١٩٧٣، وهى أخطر فترة بالنسبه للغرب. وكثيرا ما كان من النادر الادراك بأن تلك الفترة من خطر شحن النفط كان من اكثر الفترات خطورة على الشرق الأوسط ايضا وذلك عندما كان الاطار الهش للاقتصاد الدولى والذى اعتمد عليه العالم المنتج للنفط حيث كان العائد فى خطر شديد. ولقد اعتقدت أنه من الأمور الحيويه أن نجمع بعض الممثلين الرئيسيين للعالم الاسلامى والغرب لتكوين جبهه متحده فى مواجهة العناصر غير المسئولة والذين من المحتمل أن ينتهزوا تلك الأزمة الاقتصادية لاثارة مواجهة دبلوماسيه أو عسكريه على النطاق العالمى.

وكان أول اتصالاتى بشأن ايران، وملوك السعودية والمغرب، والرئيس المصرى أنور السادات. وقمت بزيارة شخصية لكل من تلك الشخصيات، وأغراءه بالاقبال على تلك الفكرة و فى حالة إذا ما انضممنا إلى تلك القوة فمن المحتمل أن نخرج من تلك الأزمة أكثر قوة وأكثر تفاهماً للكيفيه التى ربما يتعامل بها بعضنا البعض فى المستقبل لتجنب تكرارها. وفى نفس الوقت، فإن الاجتماعات الدورية بالامكان أن تصلح لتكون وسيلة لتبادل الاستخبارات بخصوص العمليات التى يقوم بها جيرانهم المتطرفون راديكاليا. ولقد كنت صريحاً فى مناقشاتى مع كل من هؤلاء الزعماء للتأكيد على أننى، فى الوقت

الذى كان فيه الرئيس الفرنسى على علم بأعمالى، لا أعمل بصفتى الشخصية كمدير للـ SDECE لكن بالاحرى لتسهيل الأمور بصفة شخصية وذلك لأن سياستى العملية كانت معروفة لكل واحد من هؤلاء الزعماء.

وكانت اجتماعاتنا متتاليه فى العواصم المختلفه لبلد كل منهم على أساس دورى. بجانب هذا فقد كان لنادى السفارى قنواته الاذاعيه الخاصه، وشفرته واجهزته الخاصة. وكانت كل دولة على وجه العموم ممثلة إما برئيس مخابراتها أو مستشار الأمن القومى لرئيس الدولة. وعلى سبيل المثال، فقد كان هناك اللواء أحمد دليمى، المستشار الأول للملك حسن الثانى ملك المغرب، ومن مصر جاء رئيس المخابرات العامة، - قوات الأمن والمخابرات -. ومن ايران جاء لواء بأربع نجوم والذى كان يرأس جهاز السافاك وكان يعمل كمساعد للمشاة والنائب الأول لرئيس وزراء ايران، اللواء نعمة الله ناصرى.

وفى أحد اجتماعات نادى السفارى والتى جاءت على وجه الخصوص بسبب الاسلوب الغريب الذى وحدت به خيوط الحرب الثالثة والرابعة العالميتين. وقد عقدت الدورة فى المغرب وبعد حل أزمة النفط عام ١٩٧٣ ـ ٧٤ كان اجتماعنا فى الرباط، وحضر كل مشارك فى طائرته النفاثه الخاصة. وقد طلبت من المغاربة أن يضعوا طائرتى، من طراز ميستير ٢٠، فى سالبه ، مطار الرباط، بنهاية نطاق المطار، وحيث ان الطائرة كانت تحمل العلم الفرنسى الثلاثى الألوان الخاص باحدى الطائرات الرسميه، فقد شعرت بأنه لابد وأن نظل بعيداً عن العيون. بقيت فى الرباط لمدة يومين. وفى صباح اليوم الثانى، كانت الشرطه المغربيه تقوم بدورية بالطريق الصغير خارج المطار المجاور للقطاع الذى تقف

فيه طائرات، على بعد يقرب من الثلاثين يارده. وفى الساعة السادسة صباحا، اكتشفت الشرطة وجود سيارة وبداخلها رجل ويخرج رأسه من النافذة وهو يحدق فى اتجاه طائرتى.

وقد سألوه «ياسيدى، ما الذى تفعله هناك».

أجاب بطريقة تدعو إلى الشك اننى « استنشق هواء المغرب المنعش فى الصباح».

وقد قال لى رجل الشرطة مستمرا فى حديثه «حسنا، هذا شئ جميل، لكن ذلك اهتمام بتلك الطائرة التى تحملق فيها وأنت تراقبها لمدة خمس عشرة دقيقه السابقه؟».

«نعم، اننى أحب النظر إلى الطائرة. ليس هناك أى شئ غير قانونى فى ذلك، أليس كذلك؟»

وقال الضابط «هل لى أن أسأل من تكون؟»

اننى سكرتير أول السفارة البلغاريه فى المغرب».

لم يكن معروفا عن البلغاريين خبثهم بأمور التجسس، لكنهم معروفون بوحشيتهم. وأكثر من هذا، فلم يكن هناك شئ قانونى فيما كانوا يفعلونه وليس هناك من سبب لاحتجاز هذا الدبلوماسى. لكن كان واضحا أن هناك اهتماماً إلى حد كبير فى علميات نادى السفارى. وفى ذلك الوقت، كان متورطاً إلى حد خطير بالامبراطوريه السوفيتيه فى الحرب العالمية الثالثه. لقد كان السوفييت نشطين فى كل مكان فى العالم، ولكن على وجه الخصوص،

حيث كانوا يعتقدون أنهم ربما يجدون حلفاء قادرين على مهاجمة وحداث عدم استقرار لاعدائهم في الغرب. وقد أثار نادى السفارى الاهتمام الى حد كبير بجانب أحداثه قلقا ليس فقط للسوفييت ، بل أيضا لاصدقائهم فى الشرق الأوسط ، والذين كانت تسعى موسكو وعلى نحو متواصل لتشجيعهم ورعايتهم.

وبعد الغداء فى أخر يوم، تركنا المكان للعودة إلى عواصم بلادنا على التوالى. وكما كنت معتادا أن أفعل بعد كل وحدة فقد ذكرت كافه المشاركين بأن يهتموا كثيرا بأماكن تركهم محافظتهم المحليه ومن الذى له حق حرية الوصول الى اوراقهم السريه وفى المساء، طرت عائداً إلى باريس، ووصلت إلى المكتب وسجلت اسمى، ثم توجهت إلى البيت ومباشرة إلى السرير. وفى حوال الساعه ١٠,٠٠ صباحا، دق جرس التليفون، وكان على الخط الضابط المنوب عن المكتب المركزى.

بدأ يقوله: «سيدى المدير العام، اننى أسف لاقلاقك، لكن على ما يبدو أنه قبل سفره إلى طهران، فقد توقف اللواء ناصرى لقضاء ليلة فى الميس ليتناول طعام الغداء مع السيده حرمه وبعض الأصدقاء. وفى الوقت الذى كان يتناول فيه الغداء فى الميس، تم السطو على شقته ليلا. كان بها قدر كبير من المال والجواهر، ولكن لم يختف شئ.

وعلى الفور علمت بما حدث، وفورا اتصلت هاتفيا باللواء ناصر، وهو رئيس جهاز السافاك وصديق طفولة موثوق به وزميل دراسة للشاه، كان يميل لاتخاذ إلى حد ما العديد من الاحتياطيات التى تتسم بالفروسية والتى يتخذها

اخصائيو المخابرات المحترفون باهتمام مفرط. وعلى الأقل، فقد كان موقفه في وطنه كما كان يشعر لايمكن مهاجمته ويعطيه حقوقا وحتى امتيازات، والتي كانت بكل مافي الكلمة من معنى بعيدة عن مكان موقعه. لقد كانت مجرد اشارة للعشاء الذي كان بادئا في ذلك الحين ينهش في ايران في ظل حكم الشاه.

وبسرعة اتصلت بناصري تليفونياً. ياصديقي العزيز، ياعزيزي اللواء، آمل ألا يكون معك شئ من أوراقك» بدأت معه حديثي.

أجاب : « آه، اطلاقا، بالطبع لا. الحمد لله لقد ارسلها مباشرة من المغرب إلى طهران.

لقد عرفت أنه يكذب. لكن في صباح اليوم التالي، للتأكد من صحة افتراضاتي: أرسلت رسالة إلى المغاربة، طالبا قائمة بكل الطائرات الخاصة أو التجارية التي أقلعت من المغرب مع خطه الطيران إلى طهران في اليوم السابق. وجاء لي الرد الذي توقعته ـ لم تكن هناك.

وهكذا عرفني. لقد عرف ذلك البلغاري الذي كان يراقب الطائرات في الصباح بموعد اقلاع طائرة ناصري. وقد حذر البلغاريون نظراءهم السوفييت، الذين راقبوا شقة ناصري في الميس عن كثب، بعدئذ قاموا باقتحام الشقه في نفس تلك اللية ـ الليلة الوحيده التي سيكون فيها على بعد مؤثر، معرض للهجوم الشامل والصريح لرجالهم السريين. لقد أعجبت بتنظيمهم، ولكنني أصبحت لأن أعرف وذلك من أجل التأكد إذا ما كانوا قد حصلوا على ماجاءوا من أجله.

وفي اليوم التالي، وذلك بعد يومين من فض اجتماع نادي السفاري واليوم الذي عاد فيه ناصري الى طهران، طلبت من المغاربة ارسال رسالة، بشفرة نادي

السفاري، إلى اللواء ناصري في طهران للتأكد من الحادثة وطلب تفاصيل حادثه السطو الليلي. لتكون ضمن الملفات. لكن الشفرة كانت قد ضاعت منه حيث أنها كانت ضمن الأوراق التي سرقت من شقته. ولم يجب اطلاقا على الرسالة الشفريه حيث انه لم يستطع أن يقرأها. وقد علمنا في حينه أن الجانب الأخر حصل على الشفرة ـ تلك الشفرة التي كانت تتغير بعد كل اجتماع وأن تلك التي ناصري يحملها في محفظته الجلديه والتي لم تعد في حوزته.

لقد كنا مجبرين على تغيير الشفرة فورا. وبمعلومات حول مداولاتنا، تمكن السوفييت من إحراز العديد من النقاط في الواقع مع كثير من تلك الامم الشرق اوسطية والتي استثنيناها عن عمد من نادي السفاري.

وكانت احدى الدول التي تم استثناؤها من نادي السفاري، وهي العراق، رغم أنه منذ عام ١٩٧٠، كان التقارب المثير بين فرنسا والعراق يعتبر حجر الزاوية للسياسة الفرنسية في الشرق الأوسط لقد كان هذا التقارب جزءا من خطة متعمدة ومدروسة تم تصورها على أعلى المستويات للجمهورية الفرنسية للعمل في النصف الثاني للمعادلة المناهضة للارهاب ـ لابعاد التأييد على المستوى الحكومي التوجيه من الجماعات الارهابيه، وعزل الدول المرتدة الواحده تلو الأخرى وبشكل مؤثر، وهي التي تستعد للدخول في معارك ضده في الحرب العالميه الرابعه.

وفي ذلك الوقت، كان أمامنا جدول أعمال متساو في أهميته فيما يتعلق بالعراق ـ واحدة كانت أكثر صلة بالعلوم السياسية الطبيعية عن اهتمامات بعض جيران العراق، والذين يخشون بجلاء أكثر من يحول بغداد التوسعية.

وكان جدول أعمالنا الآخر مرتبطا بأولوياتنا المباشرة لمقاومة الحرب العالمية الثالثة،. وكان قصدنا المحاولة بيأس لإبعاد صدام حسين وبلاده عن السيطرة الشاملة للروس، والذين كانوا يخسرون أرضا فى هذا الجزء من العالم ـ وأجبروا على الخروج من بلد تلو الأخر لاسباب سياسية، أو عسكرية أو دينيه. وفى الواقع، فقد كان العراق آخر خيول السوفييت التى يتسترون وراءها لصيد الفريسه وكانت موسكو تأمل فى استغلال الطموحات السياسية الطبيعية لبغداد واستخدامها للهجوم على الغرب فى كل مناسبه.

لقد كان انهماكى مع العراقيين بسيطا. و لم أقل، ويجب أن تخلصوا انفسكم من الروس وترتموا فى احضان المغرب. وبكل وضوح، لم يكن من المحتمل أن تقبل بغداد مثل ذلك السخف الواضح ـ على الأقل من وجهة نظرهم ـ وعدم الاشارة إلى المشورة الخطرة. وفوق كل هذا، فقد كان السوفييت ممولا العراق الأول بالسلاح. بجانب هذا فقد كانت مناقشتى بسيطه جدا: «ألا تعتقدون أنه يجب عليكم أن تبتعدوا عن المخاطر ويكون لكم أصدقاء فى الغرب».

وبعد أن وجد الرئيس المصرى السادات أنه من الحكمة أن يطرد مستشاريه الروس، اصبح واضحا على نحو متزايد للصدام أن نصيحتى كانت سليمه وقد بنى قرار صدام على تفاعل معقد للاحتياجات والرغبات المتزجه بكثير من المخاوف الشرق أو سطيه التقليديه. أولا، فقد اتضح له، كما كان الحال بالنسبه للسادات، أن السوفييت دون ريب ممولون للسلاح والذخيرة لايعتمد عليهم. كان لايمكن الاعتماد عليهم لسبب الاسعار المرتفعه والتى كانوا يستعدون

لانتزاعها بالكامل لكل دبابة غير قياسية أو مدفع ميدان من الدرجة الثالثه، والأجهزه التى لاتتماثل مع أى من الذخيرة التى يقوم الغرب بامداد جيران العراق، واعدائه الاحتماليين بها. هذا ولم تكن كارثه الجيوش العربيه فى معاركها مع اسرائيل فى ١٩١٧، ١٩٧٣ تقع على عائق صدام وقد تحقق صدام بكل وضوح أن الامداد المضمون من الغرب، وعلى وجه الخصوص من فرنسا، للسلاح والذى كان يدُفع ثمنه بالدولارات النفطيه التى كانت تتدفق دون تعصب إلى خزانه حرية القومية، كانت أفضل من الاسلحة السوفيتيه الرديئه والتى يتم دفع ثمنها بعملة الامتثال الايديولوجيه. كما أنه، وبالتخطيط المستقبلى الواضح، لم يكن مستعدا لقبول أى فيتو احتمالى لخططه التوسعيه فى المنطقه. ويتجنبه الرهان على الغرب والشرق، فقد اعتقد صدام أن مثل ذلك الفيتو من المحتمل أن يكون والى حد كبير أقل قوة فى تنفيذه.

لقد كانت مقابلتى الأولى لسعدون شاكر فى أوائل السبعينيات، وقد كان هذا الرجل اليد اليمنى ومحل ثقه صدام حسين. وكان شاكر فى ذلك الوقت يعمل كرئيس لادارة المخابرات العامة، تلك المخابرات الخطرة، والتى كانت تعمل كعيون وآذان صدام فى الخارج والمساندة من داخل تنظيم حزب البعث. وعلى طول البلاد، فان صدام ممسك بزمام الحكم بيد من حديد، كما أن هؤلاء الذين يشكلون فريقه كانوا قساة، وقد شقوا طريقهم إلى السلطة عنوة بالقوة العضليه، ويقومون بتنفيذ حكم الاعدام فى أعدائهم على طول الطريق إلا أن سعدون كان شابا، حسن المظهر. ذكيا، وجذابا، كما كان قاسيا.

وفى أحد الأيام، ليس بفترة طويلة بعد أن توليت سلطاتى، جاء سعدون

لزيارتى فى باريس. تناولنا طعام الغداء فى مكتبى برئاسة الـ SDECE كان بصحبته أحد مساعديه ، وكان معى واحد من خبرائى فى شئون الشرق الأوسط.

وفى الوقت الذى كان نقدم فيه القهوة بعد الغداء التفت إلى سعدون وبدأت فى القول:

«إذا سمحتم لى معاليكم، فإننى سوف أتحدث بفظاظة بل بقسوة إن شعورى إزاء بلدكم يكاد يكون حزينا. انكم تحتاجون فقط للتوجيه إلى متحف العاديات فى بغداد لتتعرفوا على تاريخكم وماضيكم بين أعتى الخبرات البشريه، أكثر قدما حتى عن مصر. أما اليوم فإنكم الوحيدون فى العالم العربى الذين تمتلكون المياه والنفط. اذا كنتم تؤثرون ذلك، ومعاليكم ـ قد قدر أن معظم الدول والمتوافر لديهم ، الماء ليس لديهم فقط والعكس بالعكس. وهذا أمر غريب، ربما، ولكن هذا هو الحال. أما انتم فإنكم حالة مستثناة. وبفضل الانهار الضخمه التى تأتى من جبال القوقاز وطورمس، ودجلة والفرات، فلديكم الماء بوفرة، وكما أكد لى خبراؤكم (والتفت وأنا ابتسم لمساعدى). وامكانيات خرافية من المعادن والنفط. والبعض يزيد فى اعتباركم انكم تأتون فى المرتبه الثانيه بعد السعوديه. كما أنكم أيضا تعتبرون ـ ويمكن تبريره تماما ـ أنكم الشعب البروسى فى العالم العربى ـ أعظم المحاربين. فما الذى تفعلونه فى الوقت الراهن؟».

وتركت السؤال معلقا فى الوقت الذى كنا فيه نغادر قاعة مائدة الطعام وانتقلنا إلى المقاعد الجلديه ذات المسافه المريحه فى مكتبى. جلس سعدون

على نـفس الكنبه الطويلة التى جلس عليها جيسكار دستان خلال أول غداء فى مكتبى.

ثم استأنفت «إذن ما الذى يشغلكم بين هذا الماضى الهائل ومستقبل ربما يؤدى بكم إلى انتصارات غير عادية والثروة مرة أخرى؟ أنكم تقومون بأعمال ضئيلة تدل على الحمق فى القرى الجبلية. انكم تمارسون أعمالا ارهابيه أولية.»

قفز سعدون واقفا على قدميه معترضا. مددت يدى فى هدوء وأشرت عليه بالعودة الى الكرسى.

«حشاشون» عبرت عما جال فى ذهنى من غير تردد، الكلمه العربيه للحشاشين فى عهد الحروب الصليبيه. انكم تقبضون على شبابكم، كما كان الاتراك يقبضون على الانكشاريين. لقد وضعوا هؤلاء الشباب فى أحد القصور ـ جنه حقيقيه فى الأرض ـ وأروهم حدائق القصر، أرضا عجيبة حيث تغنى الطيور كما كان هنالك نساء جميلات. ويبقى الشباب هناك لمدة يومين أو ثلاثه أيام فقط، وبعد ذلك تخرجوهم ويصبحون حشاشين ولقد كان ذلك فى العصور الوسطى، لكنكم تفعلون نفس الشئ فى عراق اليوم.

أننى لا أسألكم إذا كنتم تساعدون الأرهابيين، أننى أخبركم»، وقد استمرت. وقمت باخراج دفتر تقويم صغير من جيبى.

وبدأت أقول وأنا افتحه «اليس هذا حقاً فى انه فى اليوم الرابع والعشرين من شهر يوليو قمتم بإرسال شيك قيمته مائه الف دولار لأحد الأشخاص فى القاهره؟ «وذكرت له اسمه هذا الشخص والحساب المصرفى.احمر وجه سعدون خجلا وقال «نعم».وعرضت الكتاب عليه «وبعد سته شهور ألم ترسلوا له شيكا آخر، بهذا الرقم؟»

أجاب بهدوء «صحيح». «هل لى أن استمر؟»

قال «كلا، معى رسالة».

لقد كان واضحا بصورة متساويه مما كان يدور فى ذهن سعدون من أفكار - ربما كان هنا ويجد فى الحقيقه شخصاً ما يمكننا التحدث معه! وربما كان تخليص العراق من الارهابيين، كان أدنى ثمن تدفعه بغداد من أجل السلاح الغربى الذى تحتاج اليه بصورة بائسه.

فى ذلك الحين بدأ صدام حسين فى التفكير مليا بأن الارهابيين سواء أكانوا من أمريكا الجنوبيه، أو أوروبا، أو أفريقيا، أو الشرق الأوسط أو اليابان، حلفاء لايمكن الاعتماد عليهم بوضوح. وفى الوقت الذى استمر فيه فى تقديمه العفوى المعنوى والمالى لبعض العناصر من منظمه التحرير الفلسطينيه، ادرك بكل وضوح أن المنظمات الارهابية وأجنحتها العسكريه العاملة داخل العراق كانت قادرة على اشاعه عدم الاستقرار فى بلده بدرجه مساوية للديمقراطيات الغربيه. لقد كان ذلك نفس النوع من الاهتمام الذى ادى بملك الأردن حسين لطرد منظمة التحرير الفلسطينيه. وخلال عام ١٩٧٨، كان من المحتمل أن تغلق بغداد مكاتب منظمة فتح التابعة لمنظمه التحرير الفلسطينيه فى العراق وايقاف المعونه المالية لمنظمة التحرير الفلسطينيه نفسها . (رغم أنه بالنسبه لبعض من زمرتها) والاستيلاء على مصانع السلاح التابع لمنظمة فتح، ومصادرة كميات كبيرة من السلاح فى العراق والتى تنقل من الصين إلى قوات منظمة التحرير الفلسطينيه فى لبنان. هذا وكان قد تم طرد معظم الأعضاء الأساسيين فيما يسمى بجبهة الرفض الفلسطينيه (سميت هذا لرفضها أى

تسويه تعقدها منظمة التحرير الفلسطينيه مع اسرائيل) من العراق. وتضمنت تلك المجموعات جبهة جورج حبش الشعبيه لتحرير فلسطين . والقيادة العامة للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، التي يقودها العقل المدبر للهجوم على أخيل لوارو، أبو العباس، وفرع العمليات الخاصة للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، بقيادة وديع حداد ، ومنظمه فتح ـ المجلس الثورى، بقيادة أبو نضال السئ السمعه. وفى النهاية انتهى جميعهم فى سوريا وايران، الدولتين اللتين تعتبران من الد أعداء العراق ومنافسيه للسيطرة الاقليميه.

الشرق اوسطية.

وإذا ما تخيلنا إذا ماكان فى مقدور صدام حسين، خلال عمليات عاصفة الصحراء، أن يحشد ذلك النوع من التأمين الارهابى، والذى بإمكان ايران أو سوريا أن تستدعيه هذه الأيام من بين تلك العناصر التى منحوها الملاذ. فى هذه الحالة حقيقه لكان العالم قد تحول إلى جحيم فوضوى يدل على الغباء. غير أنه تم احتواء الارهابيين وقيدت حركتهم بسبب عداء زعماء سوريا وايران، اللذين يسيطران ويدعمان العمليات الارهابيه، لصدام حسين. بجانب هذا فان هؤلاء القادة الوطنيين الأخرين الذين من المحتمل أن يطلقوا العنان لموجة الارهاب على الشمال، بدلا من ذلك انتهزوا الفرصة لاستخدام القوات المتحالفة للقيام بعمل مالم تتمكن قواتهم العسكرية الخاصة بتحقيقه ـ تحييد العراق، الجيش الوحيد والأكثرها قوة فى الشرق الأوسط.

وباختصار، فان الاسس التى وضعناها منذ أكثر من عقد مضى مكنتنا من أن نستخدم العواطف الجياشه التى قسمت أعداءنا فى الحرب العالمية الرابعة وتحولها لمصلحتنا فى حملة عاصفه الصحراء.

وفى أول ليلة تقابلت بها مع سعدون شاكر فى مكتبى، أبدأ حوارا بيننا نحن الاثنين كان من المحتمل أن يستمر لعدة سنوات، حوار أدى إلى قيامى بأول زيارة رسمية لبغداد عام ١٩٧٤ لمقابلة صدام حسين نفسه. ولقد اخبرت الأمريكيين بنوايا ـ أن استميل صدام حسين الى جانب الغرب وأحرم الارهابيين من قواعدهم فى تلك الدولة. ولذا شرعت فى القيام برحلات مكوكية منتظمة إلى بغداد، وسلسلة من الاجتماعات مع صدام. وفى احدى تلك الزيارات، سألنى لمصاحبته إلى استاد بغداد الكبير.

قلت «بالتأكيد، طالما أننى فى أحد الأركان حيث لايرانى أحد». لكن بينما كانت الأمورتأخذ مجراها، وجدت نفسى قد وقعت فى شرك بجواره فى الوقت الذى تركت فيه حاشيته موكب السيارات وتحركوا خلال الحشود من العراقيين إلى الاستاد ذاته. وفى الاستاد فى ذلك اليوم القائظ الحرارة فى الصيف كان هناك بحر من البشر لديه رغبة واحدة ـ لمبايعة زعيمهم الأوحد. وكانت المناسبة منح الميداليات العسكريه لابطال الحرب ضد العدو الكريه، ايران. وكان الروس هناك بملابسهم العسكريه ـ والجميع متألق فى زيه الرسمى، وكان من بينهم مسئول الـ كى جى بى بكتفيتهم الحمراء. وقد استمر أحد الجنرالات فى الاشارة إلى الفرنسى الضخم الجالس بجوار صدام، متسائلا «من يكون» من يكون؟«لقد كان دون شك مندهشا عندما عرف فيما بعد أن الضيف الرسمى هو مدير الـ SDECE .

وحتى عندما هذبنا صدام حسين، وبدأنا فى بيعه طائرات جويه وذخيرة، كنا نراقب باستمرار اعادة السوفييت المستمرة لامداد العراق بالقوات العسكريه،

وعلى الأخص صواريخ سكود القويه والتى ربما كانت السلاح الوحيد المؤثر ضد القوات الاسرائيليه والحلفاء خلال حرب الخليج. وبعدم قطع العلاقات الدبلوماسيه، والعسكريه والاستخباريه مع العراق، كان فى مقدورنا كذلك أن نظل على تلقى المعلومات وبشكل معتدل عن حالة القدرات العسكريه العراقيه. وقد تحول هذا النوع من الاستخبارات ليكون له قيمته التى لاتقدر بثمن وذلك عندما هبت القوات المسلحة لعاصفه الصحراء فى النهاية ضد ما آمنت به الحكمة التقليديه بأن آله عسكرية عراقية التى تقريبا لاتقهر.

لقد كان صدام نفسه فى ذلك الوقت رجلا مؤثرا تماما ـ مكتمل الرجولة، طويلا، وقويا وحسن الطلعه إلى حدما. لقد كان الرجل حاكما مستبدأ، دون شك، لكنه قادر على التأثير لاخلاص اتباعه بصورة غير عادية.

وعندما قابلته، لقد كان ذلك بشكل عام فى مكتبه الخاص بقصر الرئاسه المزخرف. وكان سعدون شاكر فى العادة بجانبه ولم يكن هناك مايثير الدهشه على وجه الخصوص عندما طرقت مسألة دعم العراق للارهاب الدولى. وفى كل مرة، كان صدام يتلقى تأكيداتى دون تعليق. لقد كان سعدون يلخص له كل شئ جيدا، وكان من الواضح أنه قد استقر رأيه على المشكلات الاساسيه ـ قطع العلاقات مع الارهابيين والتحرك تجاه القوى الكبرى للغرب والشمال، لكن وفقا لخطواته الخاصة.

وبالتأكيد، فقد كان هناك قلق بالغ لوضع نهاية لاقامة علاقات وديه مع الغرب أو على الأخص مع فرنسا. ومن المحتمل وبكل وضوح ألا تتوقف عنه أى شئ لنسف أى تفاهم جديد ووثيق. وفى خلال سلسلة اجتماعاتى مع كبار

المسئولين العراقيين، قمت من جانب المائدة لأمد ساقى وأخطو إلى النافذة لالقى نظره على الساعة العامة. وقمت بإزاحه احدى الستائر من أجل مشاهدة أفضل وهنا سقط ميكروفون على الأرض محدثا قعقعة، وأنه مع المضيفين لى، وهم فى حالة ارتباك شديد.

ابتسمت قائلا« هيا. لاتبدوا هكذا. اننى مقتنع من أنكم تعرفون كيف تثبتون ميكروفونا على نحو كامل تماما. كما أن عملا غير متفق كهذا يمكن أن يعنى شيئا واحدا فقط ـ من يكون ذلك الذى وضعه هنا لابد وأنه كان يقصد وقوعه خلال اجتماعنا ». ولكن من بجانب العراقيين الذى من المحتمل أن يكون له حرية الوصول الى مثل تلك الحجرة؟ وأحدهم، حلفاؤهم» السوفييت ، وبعض الارهابيين العرب كذلك . وفوق كل هذا ايران آيه الله الخومينى.

وكان صدام فى ذلك الوقت يخطط للاستيلاء على ايران. ومن يكون أفضل الحلفاء عن «الشياطين» الكبار والصغار ـ الحكومات الغربية التى كانت الهدف الرئيسى للذميين الايرانيين وكان العدوان الارهابى الخومينى هو الراعى الشخصى. لقد كان العراق أول دولة يلجأ اليها الخومينى بعد طرده من ايران عام ١٩٦٣، فى وقت مبكر تماما ومن حكم الشاه وفى ذلك الحين أتخذ الخومينى مقرا له فى المنطقه التى يسيطر عليها الشيعه بجنوب العراق حيث تم الترحيب به كنبى. وظل آيه الله فى المنفى لمدينه النجف، وبالكامل على حساب العراقيين لمدة خمسة عشر عاما. وان وجوده يجيز له أن يعامل كاحد كبار السكان الشيعة العراقيين وكشوكة فى جنب الشاه.

لقد كان لسعدون شاكر حق الرعاية الكاملة للخوميني، وقد لخص لى تفصيلا شخصية الخوميني. وكما قال لى، فان آيه الله له شخصية يصعب التعامل معها. لقد كان أقل بكثير من أحد طغاة العصور الوسطى. وفى أحد الأيام، تشاجر أحد الأطفال من الحاشية التى تبعته إلى المنفى مع أحد الاطفال العراقيين المقيمين فى الجوار وقد طلب الخوميني باعدام الطفل العراقى الذى تجرأ برفع قبضة يده ضد «ذريته» الدينيه. لقد كان ذلك فقط أول طلباته الفظيعه العديدة والتى وقعتها العراقيون.

وطوال فترة منفاه فى العراق، كان الخوميني يبذل ما فى وسعه بالغاء خطب مثيرة للعصيان من أجل اثارة القلاقل فى الامبراطوريه الايرانيه، اعتقادا منه بأن له حسابا شخصيا لتسويته مع الشاه، رغم أن الشاه نفسه أبقى عليه حياً بنفيه عام ١٩٦٣. وللسخريه، فان الجنرال باكر فان، السفير الايرانى السابق فى باريس، والذى كان مستشارا عسكريا للشاه، كان هو الذى انقذ بالفعل حياة الخوميني. كان فان ماكراً فى ذلك الحين يعمل كرئيس لجهاز السافاك، بوليس الشاه السرى المخيف، الذى حث الحاكم لنفى الخوميني بدلا من اعدامه. وبعد ثلاث سنوات طرد باكرافان من الخدمة بواسطة الشاه، لعدم كفاءته فى التعامل مع عناصر المعارضه. وبعد سنوات، عاد الخوميني منتصراً إلى طهران، وتم استدعاء باكرافان إلى ايران من وظيفته الدبلوماسيه فى فرنسا. وأمر الخوميني بالقبض عليه واعدامه رمياً بالرصاص ـ لمنعه من اعلان، أن الخوميني مدين بحياته لمن كان فى يوم من الأيام رئيسا لجهاز السافاك.

ولم يمر وقت طويل بعد لقائى الأول مع صدام حسين، فقد اتضح لى أن القائد العراقى يبذل جهودا مضنية لاعادة قيام علاقات وديه مع الشاه. وقد تضمن جزء من تلك المفاوضات طلبات ايرانيه من أن يخمد صدام أنشطة

الخومينى الفوضويه المتزايدة وهو فى المنفى. وفى نفس الأسبوع علمت بتلك الأحاديث، ومن ثم قمت بارسال مساعدى الرئيس إلى بغداد ومع رسالة شفوية شخصية لصدام حسين.

كن حذرا من ذلك الرجل الخومينى. انه مثير للفتنه والقلاقل. ولا يوجد شئ أخطر من نار الغابه، لأن الريح القويه تزيد من جذوتها، ومن الممكن ان تهب فجأه على الشوارع، والحدود ـ حتى حدود العقل ـ وتبتلع الغابات المجاورة ».

وعلى أيه حال فإن مثل تلك التحذيرات، ومراقبه سعدون شاكر الشخصية وعن قرب بالداخل لم تواجهها آذان صماء. وعندما عاد مبعوثى إلى باريس بعد يومين، قدم لى تقريرا جاء فيه:

«سيدى المدير العام، ستشعرون بغبطه عندما تعلمون أنه تم اتخاذ قرار مؤثر من جانب العراقيين بطرد الخومينى».

وبالطبع، فان الخومينى لم يتلق ذلك الأمر بالقبول. فلقد هدد بأن يتعامل مع هؤلاء المتواجدين بالسلطة فى العراق فى أحد الأيام، الذين وضعوا قرار طرده، متناسين عن اقتناع بأنهم هم نفس الأفراد الذين قدموا له ولحاشيته باكملها الملاذ، دون الاشاره إلى السكن والاقامة الكاملة، لمدة الخمس عشرة سنه السابقه. هذا ولم يكن صدام حسين متعودا على مثل تلك التهديدات. ولذا كان قراره سارى المفعول.

ومع هذا، فان صدام فى تلك الايام، كان من الممكن اقناعه، كما هو الحال بالنسبه للأسد هذه الأيام، أن يوجه القرارات السياسيه فى الواقع فى مصلحته ـ وعلى سبيل المثال، قرار ممارسة الحذر فى العنايه وتدريب الارهابيين. واننى غير واثق بأنه مازال محتفظا بتلك المرونه.

وبعد عامين، كانت عراق صدام حسين وايران التى كان يحكمها فى ذلك الحين أيه الله فى حالة حرب. ومن ثم فان القرار الذى اتخذه صدام منذ سنين مضت بقبول التضحيه المحسوسة ويسعى للتقارب مع أصدقائه فى الغرب كات له نتائجه المتميزة. وعلى هذا فقد كانت الاسلحة والذخيره الغربيه هى الميزه الوحيدة لصدام حسين هى التى أبقت على الموجات البشريه لتعصب الخومينى دون أن ينطلق لها العنان على القوات العراقيه.

وخلال تلك الحرب، واتتنى فرصه لاشاهد مباشره الدلالة الأكثر حيوية لما يعنيه تماما وحقيقه مثل ذلك التعصب العسكرى الاسلامى. وكنت أزور صدام حسين فى قصر الرئاسة ببغداد.

سألنى « ما الذى تود أن تراه وقت تواجدك فى بلادى ؟ هل تريد أن ترى الجبهه؟! »

«سيدى الرئيس، صراحة، لدى الكثير من ذلك، أحببته وأنا أشير الى الزيارات المتكرره لرجالنا العسكريين والتى قاموا بها إلى ميدان المعارك مع ايران» إلا أن هناك شيئاً واحداً، إذا لم يكن لديكم أى قلق. هنالك بعض الأحاديث التى تدور فى الغرب حول آلاف الشباب الايرانى، معظمهم فقد الراية، موجودين لديكم اسرى فى معسكرات الحرب.

«ما الذى ترمى اليه؟» تراجع صدام فجأة إلى الخلف، وهو يلتفت مباشرة إلى أحد مساعديه.

«باكر صباحا» قلت. وهذا ما تم فعله.

اصطحبت معى واحدا من المترجمين العاملين معى. كما أننى أعرف الحيل التى يلعبها المترجمون. لكننى لم أكن مستعدا للمنظر الذى سأراه ـ صوره

مؤلمة جدا لما يمكن أن تعنيه الحرب فى الشرق الأوسط، حرب يشنها متعصبون مشايعون لله. لقد كانت الصورة نذيرا بالحرب العالميه الرابعة والتى بدأنا ندركها دون وضوح على شاشات الرادار.

وكان معسكر أسرى الحرب فى حد ذاته مناسبا، كان مبتسما بالبساطه ولكنه نظيف. وكان الطعام متوافراً. لم يكن شقاقاً فى مبنى فيندوم لكن ما كان يجعله مختلفا عن معسكرات أسرى الحرب فى أماكن أخرى فى العالم الغربى هو أن النزلاء كانوا أطفالا ـ ثمانيه، عشره، أثنى عشر ، أربعه عشر عاما. اخترت واحداً من هؤلاء الأطفال عشوائيا.

سألته بلطف، وأنا انحنى حتى أكون فى مستوى عتبه «كم عمرك؟»

أجاب بهدوء «ثلاثه عشر عاما».

«كم مضى عليك وأنت أسير حرب هنا؟»

«ثلاثسنوات».

لقد تم أسره وهو فى العاشرة من عمره. ومثله مثل مئات الأطفال الايرانيين فقد تم استخدامه ككشاف بشرى للألغام، حيث كان يجرى خلال حقول الألغام لتفجيرها قبل هجوم قوات المشاه. ومن بقى على الحياة، فى كثير من الأحيان بدون ساق أو بدون كلاهما، عادة ما كان يتم اسرهم فى أعقاب المعركة. ولعدم قدرتهم على الزحف بعيدا فلم يكن أمامهم مكان أخر للذهاب اليه.

ولقد لاحظت مفتاحا من البلاستيك حول رقبته.

«انه مفتاح الجنه» ، شرح وهو يبتسم لأول مرة خلال فتره حديثنا القصير . لقد كان ذلك هو الدافع ـ تعصب دينى لعقليه القرن السابع عشر ـ والذى تعودوا أن يدفعوا به الشباب إلى أهوال لايمكن تصورها.

الفصل التاسع

حقول الألغام فى الشرق الأوسط

لمدة ألف عام، والمعركة بين السنة والشيعة معركة مريرة ومثيرة للأنقسامات مثلها مثل المعركة بين الكاثوليك والبروتستانت في الستر وتلك التى بين المسيحيين والمسلمين فى بيروت، والتى بين اليهود والعرب فى إسرائيل.. إنه ثأر يرجع تاريخه إلى القرن السابع منذ الخلاف حول خلافة الرسول محمد نفسه. هل حقاً أن عليا ابن عم الرسول محمد وزوج ابنته و هو وريث الحق فى خلافة الرسول ومنه إلى الخلفاء الاثنى عشر الذين لم يكشف عن آخرهم حتى يومنا هذا ؟ إن الشيعة مازالوا يتنازعون على هذه الخلافة، ومازالوا فى انتظار وصول الإمام الثانى عشر. ووفقا للتقاليد الشيعيه، فإن هذا الخليفة فقط هو القائد الحقيقى للعالم الإسلامى. أما السنيون، فلايعترفون إلا بالرسول محمد نفسه كأساس لدينهم.. وعلى العكس من ذلك، يعتبر الشيعة أن أى شخص يناقش حقاً على الشرعى فى القيادة (الخلافة)، لايختلف عن الكفرة. والسنيون الذين يحكمون العراق والسعودية ومصر ومعظم الدول الإسلامية الأخرى هم مثل هؤلاء الكفرة. فالنسبة للشيعة ، يُعَد رفض السنيين الاعتراف بعلى كـ «ولى الله» سبباً شرعياً لأن يلاقى أى شخص موتاً لامثيل له (لايمكن تصوره).

وأحدث إعادة لهذا الشقاق القديم هو كان الصراع الضارى بين إيران والعراق، الذى اندلع بعد عودة آية الله خومينى إلى السلطة فى إيران سنه ١٩٧٩. فصدام حسين رئيس العراق، سنى مسلم، مثله مثل جميع أعضاء

القيادة العراقيه. وبالرغم من أن غالبية سكان العراق من الشيعة، فإن حكومته (العراق) السنية تجعله البقعة الوحيدة غير الشيعية فى المنطقة. وإذا وقع انقلاب سياسى جاء للسلطة بحكومة شيعية فى بغداد، حينئذ ستقوم امبراطورية شيعية يمتد نفوذها من بكستان عبر العراق ولبنان إلى البحر الأبيض المتوسط. لقد كان من السهل تقدير الخطر الكبير الذى قد يشكله العراق الشيعى لتركيا، عضو حلف شمال الأطلنطى، ناهيك عن مصر والمملكة السعودية. فدولة شيعية عراقية ستجمع كل القدرة العسكرية للسلاح العراقى مع الهوس الدينى، ناهيك عن الدعم العسكرى لإيران، القوة الشيعية الكبرى الأخرى فى المنطقة. فعلى المستوى الجغرافى، ستشكل هذه القوة حرية موجهة فى أربعة اتجاهات، نحو السعودية وشبه الجزيرة العربيه فى الجنوب والشرق» ونحو تركيا فى الشمال، ونحو إسرائيل وحتى مصر فى الغرب.

لقد وضعت بذور الصراع القائم اليوم بين الجنوب والشمال فى الأيام الأولى للسلطة الشيعية. ولقد هبت رياح الحرب هذه عبر الصحراء فى العراق وسوريا من ألف عام مضت عندما بدأ صلاح الدين أولى رحلات جهاده. وفى إيران، كانت ملموسة تلك القوى التى قادت جنود الإسلام قبل وصول آيات الله إلى السلطة بزمن طويل. قبل وصول هؤلاء الذين، باسم دين الشيعة، احتجزوا رهائننا فى بيروت وتحدوا صدام حسين وغذُّوا فيه جنون العظمة. ونشروا بذور التذمر الدينى (التمرد الدينى) من الامبراطورية السوفيتيه وحتى بوابة البحر الأبيض المتوسط.

إن إيران اليوم هى موطن هؤلاء الذين مازالوا ينتظرون وصول الإمام الثانى

عشر ومازالوا يدافعون عن اسم (على) على حساب أبشع ثمن يبذله الآخرون.

إن إيران إحدى القوى العظمى الحقيقية فى الجنوب، بمخزونها الهائل من البترول ومساحتها الشاسعة وعدد سكانها الكبير. وهذه الامبراطورية التى عُرفت باسم الفرس لمدة ألف عام وحكمت يوماً ما المنطقة بأسرها، تثير فى وقت واحد الخوف والإعجاب، الرعب والحسد بين جيرانها من الشعوب العربية. لقد اكتشفت خلال زياراتى الأولى للمنطقة إلى أى مدى مازال العرب يخافون الفرس الذين، رغم كونهم مسلمين، ليسوا من أصل عربى ولا ذوى خلفية ثقافية عربية. وكان العرب يخافون سلطة ونفوذ إيران تحت حكم الشاه، ويخافونها أكثر تحت حكم آيات الله. ويأتى هذا الخوف من ناحية نتيجة للنفوذ الجغرافى، ومن ناحية أخرى نتيجة للطبيعة الشرسة للفرس أنفسهم. نهم «رجال العنف» فى الشرق الأوسط. ويكون خطرهم مضاعفاً عندما يسرى نى دمائهم أدرينالين التعصب الدينى ومصادر البترول. وهم كشعب تغيروا قليلاً على مدى القرون. وأصبح ضرورياً الآن أكثر من أى وقت مضى فهمهم ودراستهم ومحاربتهم.

طيلة هذا الوقت، والتكتلات فى إيران سلاح فظيع فى أيدى أى شخص يحكمهم، وبشكل مضاعف عندما يكونون فى أيدى من لهم مصادر ماليه حسابية كبيرة ومهارات تنظيمية. ورجال الدين الشيعة وأتباعهم فى إيران كانوا مؤهلين تماماً للعنف الذى كان دائماً جزءاً مكملاً لتاريخهم وثقافتهم ودينهم. إن الشيعة، بسبب رغبتهم فى حفظ شروط الإيمان التى نقلت عن على، ولى الله، هم أكثر فروع طوائف الإسلام بدائية وعنفاً وتعصباً دينياً.

ولأنهم مسيطرون فى إيران فهم يساندون مراكز الأقليات فى معظم الدول الإسلاميه السنية فى الشرق الأوسط. فى كل مكان يُسانَد الشيعة لكى يظهروا ويعلوا ويعطوا الفرصة، وخلاف ذلك هم قانعون بإقامة شعائرهم.

وقد فطن الشاه إلى الخطر الذى تشكله هذه الطائفة الدينية، إلا أنه ظنه أقل مما هو فعلاً أو على الأقل استضخم قدرته على احتوائه عن طريق الإجراءات القمعية الشرسة. إن إحدى المآسى الحقيقية لإيران فى ظل حكم الشاه كانت أن هذا الحكم القوى لم يعِ تماماً المصادر الغنية التى كان يمكنه السيطرة عليها لو أنه حاول أن يمتلك ناحيتهم (الشيعة). ويبدو أن الشاه ضخَّم (ظنه كبيراً) إعجاب التكتلات الإيرانية بمحاولاته المشئومة لتحديث بلاده. فلا فلاحو الريف ولاحتى تجار الطبقه المتوسطة أخذوا نصيباً من الثروة التى كونها أفراد الطبقة العليا المراءون الذين وثقوا صلاتهم بالبلاط الملكى فى طهران، وبدلاً من ذلك وجد هؤلاء الملايين من الشيعة أنهم سيجازون من على ومحمد الرسول بعد ذلك فقط إذا التزموا بوصاياهم مخلصين واتبعوا تعاليم آيات الله وأحاديث الرسول المقدسه.

وهناك هدفان للمخابرات الفرنسية فى هذا الجزء من العالم: الأول هو فهم القوى التى تعمل فى إيران والقوى التى كانت تحاول فى الداخل والخارج، السيطرة على هذه القوى وكان زيادة اهتمامنا بالأحداث فى المنطقه والقدرة على رصدها شيئاً جوهرياً بسبب موقع إيران الاستراتيجى ومخزونها من البترول ذى الأهمية الكبيرة لفرنسا والغرب. وكان مهما أيضاً أن نتعاون مع ايران من أجل جدول أعمالنا الموسع. وحيث أن إيران تشترك مع الاتحاد

السوفيتى فى حدود يصل طولها إلى ١٢٠٠ ميل ومع أفغانستان فى حدود قدرها ٥٣٠ ميلاً، فهى فى موقع يعطى منظوراً فريداً للامتدادات الجنوبية للامبراطورية السوفيتيه بأكملها. وقد تصنتت محطات الرصد المشتركه التابعة لنا على حدود الاتحاد السوفيتى لسنوات على تبادلات الكترونية هامة بما فى ذلك أكثر الاتصالات الحربية تفصيلاً.

أما هدفنا الثانى فكان أن نجعل إيران، التى كانت فى موقع استراتيجى وغير مأمون الجانب فى ذات الوقت، محايدة على أسوأ الفروض وأن تدخل فى أفضل الأحوال الى الجانب الشمالى فى الحرب العالمية الرابعة التى لاحت فى الأفق آنذاك. ومع تطور الأمر، كان ذلك أملاً يائساً. فإيران كانت دائماً وستظل دولة جنوبية ذات عقلية جماعية تغيرت قليلاً عما كانت عليه أيام الخلفاء، من القرن السابع، الذين سعوا إلى تأكيد خلافتهم للرسول. وبالرغم من أن الشاهنشاه رضا بهلوى كان ذا ميول شمالية وغريبة مؤكده، فإن صداقتنا وتدعيمنا للملكية الإيرانية أجلّت فقط الأمر الذى لم يكن منه بُد.

ومنذ الأيام الأولى لحكم الشاه بدأنا نلمح دلائل تشير إلى قلاقل لايستهان بها. قبل أن أقابل الشاه لأول مرة بسنوات، استقبل جلالته أدميرال من الأسطول الفرنسى لكى يطلعه الأخير على ملف على درجة عالية من التكنيكية. وعند وصوله إلى القصر الملكى، اكتشف الأدميرال أن هناك كارثة تقترب. فقد كانت هناك محاولة فى ذلك اليوم للقضاء على حياة الشاه الشاب حيث أطلق عليه أحد الحراس النار ونتج عن ذلك تراشق بالنيران. وبينما يتخذ الضابط الفرنسى طريقه إلى حجرة الاستقبالات. كان يسير وسط بقايا الزجاج

والحطام الذى لم يكن تم ازالته بعد . وكان الحائط ملطخاً بالدماء التى نتجت عن القتال الذى وقع بعد الهجوم الفاشل. ورغم ذلك كان الشاه محتفظاً باتزانه، وأوضح لزائره أن مثل هذه المحاولات ليست بالشئ غير العادى. إلا أن هذه الحوادث رغم تكرارها لم تفلح فى أن تلقن الحاكم درساً عن إلى أى مدى يكرهه العديد من أفراد شعبه.

كانت هناك أحياناً مقارنة بين الشاه، ولم تكن هذه المقارنة فى صالحه، وبين والده الذى كان ضابطاً أصبح بعد ذلك كولونيل ثم إلى مقاتل رجال حارب مع البريطانيين خلال الحرب العالمية الأولى.

لقد كان عملاقاً ضخم الجثة وليس صغيرا (ضئيل) الجسم مثل ابنه، وفى أثناء إحدى زياراتى همس لى أحد رجال البلاط الذى عرف كليهما «لم يكن فى إمكان أحد أن يكذب على الوالد، أما الابن فلا يجرؤ أحد على أن يقول له الحقيقة». ومضمون هذه العبارة هو أن الرسول يمكن أن يدفع وظيفته أو مستقبله أو حياته ثمنا للرسالة التى يجب أن تسلم مباشرة قبل فوات الأوان. وهذا لسوء الحظ مطابقاً لما يحدث فى عديد من الدول حيث يزيد عدم الاستقرار عندما يخلف رجلاً قوياً مسيطراً وريث ضعيف أو متحضر للغاية.

وفى خلال السبعينيات من هذا القرن، وبفضل رئيس محطتنا فى إيران، كانت المخابرات الفرنسية هى أول أجهزة المخابرات الغربية التى اكتشفت مدى الاضطرابات التى تغلى فى مجتمع الشيعة فى إيران. ففى عام ١٩٧٢، كانت التقارير تصل إلى مكتبى عن الثورة والاضطراب بين العناصر الدينية الأساسية. وأمدتنا شبكة الـ **SDECE** بتقارير تركز على «تزايد التذمر...

ودلائل الثورة عند رجال الدين». وكنا نعرض هذه التقارير التى نتلقاها عن التذمر المتصاعد على الشاه. وفى زياراتى الدورية معه، أوضح أنه يعتمد عليّ فى أن أخبره بالحقائق غير السارة التى يخفيها عنه الآخرون، وللتأكد من سلامة الشاه لم يكن هناك شك فى أنه كان يحتاج إلى أن يُحذْر مما كان يحدث. أما كونه يتصرف بناء على هذه المعلومات أم لا، فهذه مسألة أخرى.

وذات مرة، بينما كنا جالسين فى مكتبه الخاص، أخبرنى «إنك الوحيد الذى يخبرنى بهذه المعلومات. أما الأخرون فيخبروننى بالعكس.»

وكان ردى عليه اسمح لى أن أوضح لجلالتك أن مايهم ليس هو عدد الأصوات وإنما دقة المعلومات.»

وعلى طول مدة نمو المعارضة لحكم الشاه. حذرته من الاضطرابات فى الأسواق وبين رجال الدين فى أقصى القرى تطرفاً (بعداً) وفى قلب العاصمة. وقد وصلت تقارير من عملائنا بها تفاصيل على قدر من الأهمية عن الرعب الذى تسببه تصرفات صغيرة تتم بلامبالاة وبدون حساسية أو إدراك لتأثيرها على الشعب المتدين. وقبل ذلك بسنوات وخلال ما أطلق عليه «الثورة البيضاء» قام الشاه بتوزيع ملايين الأفدنة على الفلاحين الفقراء.وكان جزء من هذه الأراضى ملكاً للكنيسة وبعضها ملكاً لأسرة الخومينى. لقد كان تجاهه الغربى ورغبته الحارة فى نقل بلاده من القرن التاسع الى القرن العشرين أى تخطى أحد عشر قرناً فى مدة حياة واحدة سبباً فى عدد من سوء الحسابات القاتله التى كانت نتيجة للأحقاد أكثر منها نتيجة لقصر النظر.

لقد حذرته مراراً من تجاوزات رجال بلاطه ونظام حكمه ــ ومن سوء

استعمالهم لثروتهم ومكانتهم ورفضهم الاكتراث بالمعتقدات الدينية لكتلة كبيرة من أهل بلاده وفشلهم فى التغلب على الفقر المدقع فى الريف.

بدأت مرة اخرى محاوراتى معه بهذا السؤال «هل تعتقد ياسيدى أن المكاسب التى تأتى من البترول تتسم كما ينبغى؟»

وأومأ برأسه، متقبلاً هذا النقد الذى لم يكن ليسمعه من أحد من حاشيته ولم يجد أبداً الوقت المناسب للتصرف بصدده.

لقد حاولنا استخدام أوراق المخابرات التى وجدناها لاختراق أفكار وعقول هؤلاء الذين يعيشون فى إيران وكنا نراهم على أنهم أعداؤنا. وخلال هذه الفترة كنت أدبر «حيل حرب» تخص إيران (تتضمن إيران). وكان رئيس المخابرات الخاصة بالشرق الأوسط وإيران ومتخصص العمليات يجتمعان فى مكتبى.

وكنت أقف وأعبر الحجرة قائلاً: «حسناً، سنفكر فى المشكلة الإيرانية».

«أيها السادة. لسنا مسيحيين ويهود نهاية القرن العشرين. اننا اوروبيون أو فرنسيون فى القرن الحادى عشر. اننا رجال فى زمن الحروب الصليبية. كيف سيكون رد فعلنا؟ إذا كنا الخومينى ورجال الدين فى إيران ولنا نفس عقليتهم، كيف كنا سنفكر؟» ونظرت إلى مساعدى الذى يتحدث الفارسية وقلت له «ليس لدينا طريق أو طائرات هليكوبتر هناك فقط عداء وصل وأعلن أن أول القوات تعبر الإمبراطورية من بغداد القديمة فماذا نفعل؟».

ولم نكن نفلح دائما فى الوصول إلى إجابه مرضية بالرغم من تزايد شبكة مخابراتنا فى أسواق ومساجد إيران.

وبينما كنا نبنى قدراتنا الاستخبارية، كان زملاؤنا الأمريكان يملأون الدولة بآلاف من العملاء وكان العديد منهم يعمل مباشرة مع المخابرات المركزيه. ولاشك فى أن بعض هؤلاء الأفراد على درجه من التميز ولهم اتصالات كبيرة مع مراكز هامة فى السلطة مثل أى من أمثالهم الفرنسيين. إلا أن تحذيراتهم لم تلق أبداً أهمية كافية بحيث تؤثر على مجالس السلطة فى واشنطن حيث كانت تصر وزارة وراء وزارة على تقسيم العالم إلى معسكرين. أصدقاء وأعداء. وفيما يتعلق بأصدقاء أمريكا، لم يكن أبدا هناك إشارة أو إلماح إلى أن هناك شيئاً سيئاً يحدث، وكانت إيران مثالاً آخر على مدى فشل الأمريكان فى فهم القوى المؤثرة فى العالم الجنوبى ـ تلك القوى التى كانت أساس الكوارث الأولى للحرب العالمية الرابعة وما صاحبها من عنف وموت.

إلا أن إشارات التحذير الواضحة لنا جميعاً تم تجاهلها ليس فقط من قبل الأمريكان وانما كذلك من قبل الفرنسيين بل كل الغرب الذى اعتبر إيران قوة صديقة يُعتمد عليها. ولم نكن على استعداد لإقرار أى معلومة تهز هذه البديهية الجغرافية السياسية.

وقد شاركت أسطورة الجهاز الإيرانى السرى المرعب الذى كان يعُتقد أنه يسيطر على كل موقف فى فشلنا فى التحليل فيما يتعلق بإيران ـ الأمر الذى يعد من أكبر سوء تقديرات أجهزة المخابرات فى القرن العشرين. فقد كان الـ SAUPK أقرب إلى قوة الشرطة منه إلى عملية مخابرات، كما هو الحال عادة فى الدول الجنوبية حيث يهتم الحكام بالقمع والإرهاب أكثر من اهتمامهم بجمع المعلومات. وقد بدأت أدرك مبكراً أن هناك حلقة هامة مفقودة فى سلسلة

المخابرات الإيرانية. فمهما كانت المعلومات التى نقدمها نحن أو أى مصادر أخرى دقيقة يساء تفسيرها اساساً. وكان يتم ترشيحها عن طريق العقول الغربية للشاه الذى تعلم فى أوروبا وأخذ من الغرب ثقافته وأسلوبه وفوق ذلك سياسته. فقد اختار مستشاريه المقربين ورجالة الثقات ممن تعلم مثله وكان يفكر مثله، فلو كان الشاه لديه انعكاسات العقلية الشرقية، لكان عندما يقع اضطراب فى الاسواق أو المساجد، يسحقه بلا تردد أو يحتويه ويخمده. ولكنه بدلاً من ذلك تردد فكانت خسارته.

وكجزء من مهمتنا، كنا نمد الشاه بأكثر من المعلومات المنتظمة عن مدى وحجم التذمر فى امبراطوريته. كما كنا نقوم بجهود حقيقية، فى حدود قدرتنا على الاقناع أو الاعتراض، لمساعدته على معالجة المناهضة المنتشرة والمتزايدة لحكمه وله هو شخصياً. وقد سألنى صراحة فى احد لقاءاتنا الأخيرة: «ما هو السئ فىّ؟»

وأجبته بصراحة «جلالة الشاه، إن صورتك بشعة. فكثير من الناس لايوافقون عليك. إلا أن هناك متخصصين فى تصحيح تلك الأمور. فنفس نوعيات الناس التى تبيع السيارات والطعام المحفوظ والسجائر يمكنها أن تحسن صورتك.» فعملية تكوين صورة الحاكم لها أهمية فى العالم الجنوبى لاتقل عن أهميتها فى العالم الشمالى. إلا أنها ببساطة أقل استخداماً ونادراً ما يتم فهمها.

وتساءل الشاه «ومن هو أفضل من يقوم بذلك فى العالم؟»

فأجبته «ديفيد أوجيلفى. وهو عبقرى فى الدعاية والإعلان وصديق عزيز لى»

فقال الشاه «حسناً، أحضره لى.»

وعدت بعد ذلك بعدة أسابيع مع أوجيلفى. ودخلنا معاً إلى مكتب الشاه الخاص وبعد تقديمنا إليه، تحول الشاه إلى أوجيلفى وتكلم معه مباشرة فى الموضوع وبدأ قائلاً. «أخبرنى الكونت أنك الأفضل فى العالم.»

«هل تحب أن تقوم بجولة فى إيران. ثم تعود وترانى؟» ووافق أوجيلفى.

وأعطيت أوجيلفى رجلنا فى طهران لكى يصحبه وكان قادراً على أن يُظهر لأوجيلفى إلى أى مدى اخترقت الدودة التفاحة (ساءت الأمور). وعاد أوجيلفى إلى قصره فى فرنسا وأعد خطة للشاه قُدمت له بعد ذلك بوقت قصير. إلا أن رجال البلاط، الذين كانوا ينظرون إلى أى محاولة خارجية لتغير التوازن فى القوى الذى فرضوه فى إيران على أنها تحد كبير لمكانتهم، تم معارضتهم بشدة. ولم تُنفذ خطة أوجيلفى أبداً فى أى مكان. وفى كل جهة، حاولت أن أحمى الشاه من أعدائه فى الخارج والداخل. وفى كل مرة يظهر دليل على وجود مشكلات، كنت أواجه الشاه بشكل مباشر بقدر المستطاع. وأخيراً أصبحت هناك كثير من الثغرات.

وقد حذرت الشاه قائلاً. «إحذر من حكومة كارتر، لقد قرر الرئيس كارتر استبدالك» وجاء هذا القرار، الذى علمنا به، بعد زيارة كارتر لطهران أثناء موسم نيويورك سنه ١٩٧٨ عندما سمح الشاه لكارتر المرعوب بأن يشهر بنفسه فساد وخراب بلاط الشاه.

وقد أتبعت تحذيرى بتفصيلات لم يصدقها الشاه عن أسماء الأشخاص الذين وكلت إليهم فى الولايات المتحدة مسئولية رحيل الشاه واستبداله، وعن موعد

ومكان اجتماع لقاء حضرته أنا مع مسئولين بارزين فى المخابرات الأمريكية لبحث هذا الأمر وكيفية ترحيله والشخص الذى سيخلفه.

إلا أن الشاه لم يكن مقتنعاً حيث قال لى :«اننى أصدق أى شئ تقوله لى إلا هذا »

وسألته: « لماذا لاتصدق ذلك ياصاحب الجلالة؟ »

فأجاب: «لأنه سيكون محض غباء أن يستبدولنى. فأنا أفضل وسيلة للدفاع لدى الغرب فى هذا الجزء من العالم. فلدى أفضل جيش وأفضل جهاز مخابرات وأكبر قدرة لحكم دولة مستقرة. فهذا شئ غبى للغاية ولايمكننى أن أصدقه. »

فسألته: «ولكن ماذا اذا كان الأمريكيون لايفهمون ذلك؟ »

وابتسم الشاه ابتسامة ساخرة وهز رأسه.

ولم يتصور الأمريكيون قصيرو النظر، بأى حال من الأحوال، أن حماقة الإسراع بعزل الشاه سيتبعها مباشرة وصول آيه الله خومينى إلى السلط.

كانت تلك هى الفترة، التى بدأت فى أكتوبر ١٩٧٨ بترحيل العراق للخمينى، عندما بدأت مراراً فى حث جيسكار (ديستان) أولاً عل عدم إعطاء الخمينى، ألد أعداء الشاه، حق اللجوء السياسى فى فرنسا، ثم على الأقل تقييد نشاطات أيه الله التى كانت تزعزع استقرار الدولة، وأخيراً عدم السماح له بالعودة منتصراً لبلاده. وقوبلت نصيحتى بالتجاهل من قبل جيسكار ومستشاريه حيث شعروا بقوة بأن فرنسا يجب أن تكون حرة فى منح حق

اللجوء السياسى لأى شخص عانى من الاضطهاد السياسى وفى بناء جسور مع شخص يعلمون جيداً أنه قد يكون خليفة الشاه. إلا أن جيسكار أخطأ فى تقدير جزاء حسن ضيافة فرنسا للخونة ، وأن هذه الضيافة ستقابل أساساً بالصداقة.

فعن طريق السماح لآية الله وحاشيته بإقامة متجر فى حى (نوفل لو شاتوً) فى باريس، لعب الفرنسيون دون أن يدروا دوراً هاماً فى عودة الخمينى منتصراً إلى طهران: فقد وقعت مهمة مراقبة حاشية آيه الله على عاتق وزارة الداخلية التى اعتبرت هذه مهمة بعيدة عن كونها ذات أولوية قصوى. إلا أنها كانت بالنسبة لنا أولوية قصوى، وخصوصاً بعد أن عثرنا على شرائط الكاسيت التى تحمل دعاية مضادة للشاه والتى كانت تخرج من بيت الخومينى لتلهب مشاعر الرغبة فى العودة إلى الوطن فى طهران. وكانت هذه الشرائط مليئة بالتحذيرات والصلوات (الدعوات) والحقد المرير على الشاه وكل من كانوا يحكمون ويفسدون طهران والإسلام، كل ذلك بصوت الخمينى القوى المؤثر. وكانت هذه الشرائط التى سجلت فى باريس تنقل إلى سفارة ألمانيا الشرقية هناك ثم تنقل بسرعة عن طريق الحقائب الدبلوماسية إلى برلين الشرقيه، حيث يوجد مقر حزب توره الحزب الشيوعى الإيرانى السرى، فى المنفى. هناك يستخدم حزب توده الأجهزة الإلكترونية الألمانية الشرقيه لعمل آلاف النسخ من الشرائط ونقلهم (شحنهم) إلى إيران. وعن طريق شبكة معقدة من البازارات تنتقل الشرائط إلى صناديق البريد فى طهران أو عبر أسوار الحدائق فى أصفهان وإلى اصغر التجمعات الريفية.

وفى نهاية عام ١٩٧٨، ذهبت بتقرير عن هذه التطورات غير العادية إلى جيسكار نفسه وتوسلت إليه آن يرسل الخومينى إلى دولة أخرى، خاصة إحدى دول الشرق الأوسط أو شمال أفريقيا من الدول التى يكون لها مصلحة فى إسكاته، وحيث يمكن التعامل معه كما ينبغى أو يمكن السيطرة عليه بشكل أكثر فاعلية.

وفى الصباح التالى، دخل مكتبى أحد مساعدى الأساسيين واسمه ميشيل روسين وعلى وجهه ابتسامة واسعة وقال لى: «لقد نلت ماتريد ياسيدى، غداً أو بعد غد سيُخبَر الخومينى أن عليه أن يترك فرنسا. سيقال له ذلك بشكل مهزب، ولكنه سيقال له.»

إلا أن هذه المعلومة التى نقلها لى روسين كانت لسوء الحظ سابقة لأوانها. فقد حضر إلى مكتبى فى اليوم التالى بمزاج مختلف تماماً. وقال لى: «الأنباء اليوم ليست سارة ياسيدى، فقد تحولت الرياح التى تهب من قصر الإليزيه. سيبقى الخومينى. فقد نقل السفير الإيرانى إلى وزارة الخارجية الفرنسية طلب الشاه الشخصى بأن يبقى الخومينى فى فرنسا.».

ودهشت من أن الشاه أثبت مرة أخرى وأخيرة أنه قصير النظر فى ساعاته الأخيرة كما كان خلال أغلب فترة حكمه. وقررت أن أذهب إلى طهران على الفور لأسمع هذا القرار مباشرة من الشاه نفسه. وعندما استقليت طائرتى، علمنا أن طهران تحيطها النيران، وأن هناك إضراباً عاماً أحدث شللاً فى مطار مهر أباد خارج العاصمة وليس هناك مساعدات ملاحية تعمل، فلم يكن هناك وقود للطائرة، ونظراً للمدى القصير لطائرتى (يستير ٢٠)، كان من الضرورى

أن نهبط فى لارناكا فى قبرص. وكان روسين فى صحبتى مع كابتن شاب متميز كان متخصصاً فى الشئون الإيرانية.

وفى صباح اليوم التالى باكراً، وصلنا إلى طهران. ولم يكن برج المراقبة (السيطرة) يعمل، وكان هناك رجال مسلحون يبدو الشر على وجوههم يجوبون ممرات الطائرات (مهابط الطائرات)، ولم يكونوا فى زى عسكرى. وأمرت الطاقم أن يبقى مع الطائرة. ولأنى كنت على اتصال لاسلكى مباشر مع أحد مساعدى الشاه، قابلتنا سيارة. وأخذت وقتاً طويلاً نوعاً لعبور المدينه حيث كانت الشوارع تزدحم بجموع تهتف.

واستقبلنى الشاه فى القصر فى مكتب لم أره من قبل. فقد كان حجره صغيرة يضيؤها مصباح وحيد له مظلة كبيرة وينشر ضوءاً خافتاً فى أنحاء الحجرة، وكان مضيفى (الشاه) يرتدى نظارات سوداء كثيفة السواد تخفى نصف وجهه، ولم أره أبداً فى مثل هذه النظارات من قبل. وأجلسنى ومساعدى على ثلاثه مقاعد بجوار المكتب.

وتطرقت للموضوع مباشرة، حيث اعربت له عن دهشتى وصدمتى لسماع أنه شخصياً رفض طلبى بأن يقوم جيسكار بترحيل الخومينى من فرنسا. حيث كان هذا الترحيل سيؤدى بآيه الله إلى دولة يمكن فيها التعامل معه بشكل أكثر فاعليه أو على الأقل كان يمكن فيها خرق (تمزيق) شبكة الدعاية التى كان يقوم بها.

وأكملت حديثى قائلاً: «صاحب الجلالة، ربما كنت ضحية لأحد أفراد حاشيتك أو ربما أسئ فهم احدى إشاراتك او أن سفيرك فى فرنسا قد خانك؟»

وأجاب الشاه «لم يحدث شئ من ذلك، فهذا بناء على تعليماتى بالضبط.»

ونظرت إليه مدهوشاً، واتسعت عيناى من الدهشة والمفاجأة.

وأكمل الشاه: «دعنى أشرح لك أسبابى، إذا لم تبق على الخومينى فى فرنسا، فسوف يذهب إلى دمشق فى سوريا، ودمشق قريبه جدا من إيران. ولدى معلومات تقول انه إن لم يذهب إلى دمشق، فسوف يأخذ طريقة إلى طرابلس عند العقيد القذافى. وسيكون هذا هو أسوأ الأمور. وحيث ان علاقاتى بفرنسا جيدة بشكل خاص، فإنى أطلب منك أن توضح لرئيسكم أننى أعول على صداقته فى أن يحكم سيطرته. وعموماً أنا أفضل أن يبقى الخومينى معكم حيث سيكون تحت المراقبة الشديدة.» وقلت لنفسى ان الشاه، رغم اعتياده ومعرفته بمجتمعنا، إلا أنه لايفهم جيداً الأعمال الداخلية للنظم الديمقراطية الشمالية، على الأقل فيما يتعلق بهذا الأمر الدقيق وهو الوسائل الضعيفة التى تملكها لإسكات الخومينى فى الوقت الذى يعلو فيه صوته. كما لم يدرك الشاه أنه مع وجود معجزة الاتصالات الحديثة فإن البعد الجغرافى للخومينى عن إيران لم يكن ليحدث فرقاً كبيراً.

وتحولنا للحديث عن الوضع الداخلى فى إيران ووصفت له رحلتى من المطار والحشود الغاضبة فى الشوارع.

وقال لى الشاه « كن مطمئناً ياعزيزى الكونت ، فلن أطلق النار أبداً على شعبى.»

وقررت فى تلك اللحظة أنه ليس هناك وقت لتزيين الكلمات والحشود تنشر الرعب فى طهران. فقلت له ببساطه: «فى هذه الحالة، فإنك ضعت ياصاحب

الجلالة »..وهز الشاه كتفيه استهجاناً وقام من مقعده.

وانتهى اجتماعنا وصحبنى الشاه إلى الباب وفتحه وفجأه غمر ضوء غرفة الانتظار المكتب الذى كان نصف مظلم. وخلع الشاه نظارته ورفع لى يده، ونظرت إليه قبل أن أنحنى ورأيت وجهه لأول مرة فى إضاءة كامله، وجهاً أصبح معتاداً لى على مر السنوات، إلا أنه كان مختلفاً بشكل كبير عن الوجه الذى رأيته قبل أسابيع قليلة من هذا اللقاء. فقد دمره السرطان الذى قضى على الشاه بعد ذلك.

وذهبنا على الفور إلى سيارتنا لكى نعود إلى المطار، مارين بعشرة أو أكثر من نقاط احتجاز على الطريق عليها جنود عصبيون يحملون أسلحة أوتوماتيكيه. ولحسن الحظ الذى يشبه المعجزة لم تمس طائرتنا.

وفى الصباح التالى، ذهبت على الفور إلى مكتب رئيس الجمهورية. وقام جيسكار ديستان بنشاط وعبر الحجرة لمقابلتى.

وسأل بسرعة: «حسناً؟»

وأجبت: «انه لويس سيز (لويس السادس)»

فقال ببساطه: «فى هذه الحالة، فإن هذه هى النهاية.»

وكان ذلك هو أخر اتصال بين شاه ايران والجمهورية الفرنسية. حيث أنه كان واضحاً أن الشاه غير مستعد لمساعدة نفسه، ومن واقع الاعتقاد بأن عليه فى القريب العاجل أن يواجه الخومينى باعتباره القوة القائدة فى إيران، لم تبذل الحكومة الفرنسية مزيداً من الجهد لإعاقة الخومينى (عرقلته). واستمرينا نحن

فى مراقبته وتركنا التاريخ يأخذ مجراه. وفى غضون أسابيع. كان الشاه فى منفاه. وأصبح الخومينى حاكماً على ملايين من أتباعه الغاضبين.

ومن واقع وجوده فى السلطة، قام الخومينى بسلسلة من المغامرات الدولية بهدف نشر أقصى درجة من الرعب فى أنحاء معظم دول الشرق الأوسط والعالم الشمالى فى السنوات التاليه. وبدأ جهاده أو حربه المقدسة.

وبالرغم من أن عملاء مخابراتنا ومحللينا درسوا ذلك بشكل مكثف، وبالرغم من أنى أمعنت الفكير فى هذا اللغز لسنوات، فإنه مايزال غير واضح بالنسبه لى لماذا وبأى دافع بدأ الخومينى نشاطاته الإرهابية الموجهة لفرنسا أو الأهداف الفرنسية واحتجاز الرهائن الفرنسيين مراراً فى بيروت عن طريق نوابه من المتعصبين الشيعة بما فى ذلك حزب الله. ومن الواضح أن هذا كان جزءاً من خطة أوسع، تتصل مباشرة برغبة آيات الله، فى شن حرب ضد الشمال تخترق قلب حضارتنا. وكانت الاستراتيجية واضحة ، إلا أن التكتيكات كانت غالباً مبهمة.

ولم يكن الهدف الأول لآيه الله هو فرنسا أو الفرنسيين، وإنما كان الشاه الذى طارده رجال الدين الإيرانيون وأتباعهم حتى الساعات الأخيره من حياته. وقد ترك الشاه إيران فى أسوأ الظروف ولجأ إلى مصر حيث كان فى حماية صديقه الرئيس أنور السادات ثم من هناك إلى المغرب فى حماية صديقه الحميم الآخر بين القادة العرب الملك الحسن الثانى.

واستقبله الملك الحسن هو وعائلته (الشاه) وأعطاه قصراً للمنفيين الإيرانيين. وحيث أن الملك الحسن الثانى كان صديقاً حميماً لفرنسا وأن المغرب

دولة ذات أهمية استراتيجية فى شمال إفريقيا، فقد قمنا برصد زيارة الشاه عن كثب. والملك الحسن يعتبر قائداً غير عادى فى العالم الجنوبى، فهو قائد يجمع بين الإيمان الدينى العميق والوعى بالحاجة الى بناء جسور على كافة المستويات مع الشمال إذا كانت هناك رغبة فى تحقيق نوع من التوازن الدولى. وهو رجل حساس للغاية فى مراعاة المشاعر والرغبات العميقة لشعبه.

وفى غضون أيام من وصول حاشية الشاه، بدأ عملاؤنا فى المغرب فى الكشف عن تقارير مقلقه. فالدوائر المعارضة كانت تبدأ فى إثارة الاضطرابات، حيث يتهامسون عن «عار الترحيب بهذا الطاغية فى بلادنا». وبدأ ظهور الشعارات والرسومات على حوائط كازابلانكا، فالبسنة للمسلم، يعد الخنزير هو أكثر الحيوانات إثارة للخزى والعار ويليه الكلب. فالسباب فى الدول الغربيه «ابن الكلبة» يعد أكثر سوءاً فى العربية «ابن الكلب». وكان مايكتب على الحوائط فى كازابلانكا هو «الملك هو كلب الشاه»*

وقد عرفت الملك الحسن الثانى مما يقرب من أربعين عاماً، منذ أن كان أميراً شاباً. وقد نشأت زوجتى فى المغرب حيث كانت ابنة لأحد الموظفين المدنيين ـ المعينين هناك. وبعد الحرب العالمية الثانيه بوقت قصير، اقترح الكولونيل فيليكس إيدون وهو ضابط سابق فى سلاح الفرسان خدم لسنوات عديدة فى كاميل كوربس أن أقابل الأمير الشاب الحسن، حيث كان يعلم مبلغ ولعى بالمغرب والمغاربة. وقد تناولنا الغداء وبدأنا صداقة استمرت عمراً.

ولذلك بمجرد علمى بمدى الخطر المحدق، طرت إلى الرباط لتحذير الحسن من الخطر الذى يشكله وجود الشاه على مملكته.

وبعد أن عرضت عليه أبعاد المشكله أوضح لى الملك الحسن قائلاً: «يجب أن تعلم أننى لا أستطيع رفض استضافة رجل يعيش مرحلة مأساوية من حياته. علاوة على أن هذا الرجل هو ملك مسلم، وكما تعلم، نحن المغاربة نعتبر الضيافة واجباً مقدساً.»

«إن الشاه موجود هنا، وسيبقى هنا طالما يرغب هو فى ذلك.»

وأجبته: «صاحب الجلالة، هذه هى الإجابة التى توقعت أن أسمعها، ولكننى الآن يجب على أن أخبرك بشئ مؤلم للغاية. لقد وقع سادة إيران الجدد، آيات الله، عقداً مع عدد من القتلة المأجورين من الشرق الأوسط لاختطاف أفراد من عائلة جلالتك. الملكة أو أحد الأمراء الصغار ـ للمساومة عليهم فى مقابل تسليم العائلة الإمبراطورية الإيرانية.

وقبض الملك على ذراعى مقعده وامتقع لون يديه وتوترت ملامحه وتمكن أخيراً من أن يقول متلعثماً : «مع أن الأمر شنيع إلى هذا الحد، فإنى لن أغير قرارى.»

وأخذت أبذل قصارى جهدى لإقناعه. وأوضحت له أنه ليس فقط الحاكم المبجل فى المغرب، وإنما له أيضاً واجبات دينية مهمة فى العالم الإسلامى. وأنه هو وملك أسبانيا حارسا مضيق جبل طارق الاستراتيجى، والذى هو المفتاح للبحر الأبيض المتوسط. إلا أننى علمت أنه من المستحيل على الملك أن يطلب شخصياً من الشاه وعائلته أن يرحلوا. وتطوعت أنا بالقيام بهذه المهمة القذرة. ووافق الملك، الحسن بعد تردد.

وفى الصباح التالى، استقبلنى الشاه فى القصر الصغير الذى وضع تحت

تصرفه. وكانت الشهبانة معه، بينما كان الأولاد بعيداً. وكانت هذه احد أكثر اللقاءات مأساوية فى حياتى من حيث إيجازها ومحتواها (مضمونها).

صفت له الأخطار المرعبة التى تحيق بعائلة مضيفه: ومخاوفى على أمن المملكة االمغربية نفسها، وما يمنحه وجوده من قوة للمعارضة المتزايدة، وإن كانت ضعيفة، للملك الحسن الثانى. وفى خلال ذلك، بقى الشاه صامتاً، وقوراً، مختفياً وراء نظارته السوداء التى كان يرتديها حينئذ فى أى وقت يقابل فيه غريباً.

وفى النهاية، رد بهدوء وبساطة: «سأفعل كما تقترح.»

وبعد ذلك بأسبوعين، رحل، مكملاً رحلته إلى جزر البهاما، وإلى نيويورك وأخيراً إلى مصر حيث توفى.

وكان واضحاً من هذه المؤشرات الأولى أن آيات الله لن يقفوا عن حد فى سبيل تحقيق ما اعتبروه مهمة أوكلت إليهم من قبل الله. وكان الجهاد شيئاً غير قابل للتفاوض بشأنه. وأصبح حلفاؤهم أكثر العناصر غير المقبولة فى العالم العربى. فهم مستعدون للعمل فى مقابل المال وأحياناً فى مقابل الجزاء الموعود فى الأخرة، ويقومون بأفظع الجرائم ضد الله أو الإنسان.

وفى الوقت الذى وصل فيه الشاه إلى مركز سرطان (سلون كيتيرنج) فى نيويورك، كان آيات الله ينتقلون بالفعل إلى هدفهم التالى ـ السفارة الأمريكية ودبلوماسييها فى طهران.

وفى ٤ نوفمبر سنه ١٩٧٩، قام عدد كبير من «الطلبة» الإيرانيين وكلهم من المسلمين المتعصبين المستعدين للموت فى سبيل الله، باحتلال مبنى السفارة

فـى طهران. واحتـجزوا ٥٢ دبلوماسية أمريكيا كرهائن وبدأت مـواجهة استمرت لمدة عام تعد أصعب مشكلة دبولوماسية وعسكريه فى الفترة الأولى من حرب الجنوب والشمال. وأصبحت مطالبة الطلبة سريعاً مطالبة رجال الدين الإيرانيين أنفسهم والذين سيطروا على الحكومة الإيرانيه. حيث طالبوا الولايات المتحدة بأن تسلم الشاه وعائلته بالكامل التى استقرت فى نيويورك حيث كان الشاه المخلوع يعُالج من السرطان الذى تسبب فى موته بعد ذلك بثمانية أشهر.

وبعد احتجاز الرهائن الأمريكيين بيومين، طلبنى ثلاثة من المسئولين البارزين فى وكالة المخابرات المركزيه فى مقرى فى باريس،. وكنا معروفين بقدراتنا الفعالة فى طهران وبفهمنا العميق لإيران وقادتها الجدد عل ماهم عليه من السوء.

ودخل قائد فرقة وكالة المخابرات المركزية إلى صلب الموضوع مباشرة وسأل «ماذا نستطيع أن نفعل؟».

وأجبت. «لست متأكدا مما يمكنكم عمله الآن، فلو سألتمونى فى غضون الخمس دقائق الأولى، أو الخمس ساعات الآولى، لربما اقترحت القيام بعملية تتضمن نقل قوات بالطائرات إلى مبنى السفارة بالطائرات الهليكوبتر. حتى فى حالة اقتراح المخاطرة بالوصول إلى المدينة المكتظة التى بها ٣ ملايين من الناس، ثم الهبوط على أرض السفارة أو وسطحها، فإن المتطرفين المتدينيين وحراس الثورة،سيكون لديهم أكثر من الوقت اللازم لقتل آخر فرد من الرهائن. ربما سيقتل بعض الثوار، إلا أن هذا سيكون الإرضاء الوحيد لكم، فلن يعود الرهائن أبداً إلى الحياة.»

وقام الأمريكيون لكى يغادروا وقال لى أحدهم: «أرجوك استمر فى التفكير فى هذا الأمر.» ووافقت على ذلك.

وقد فعلنا أكثر من ذلك. فقد أرسلت بعض عملائنا المتمرسين إلى إيران، وكان هناك خطر كبير على كل منهم. وكان واضحاً لنا أن الأمريكيين ليس لديهم مايفعلونه. فليس لديهم أوراق للعب أو خدع للتمويه أو ضغط يستطيعون ممارسته.

وكما تعلمنا خلال سنوات التجربة المريرة، فإن أول وسيلة للتحكم فى الإرهاب، هى الا تلعب وأنت خالى الوفاض (صفر اليدين). فالإرهابيون والديكتاتوريون لايفهمون ولايحترمون إلا القوة والسيطرة. فسوف ينتهزون أى فرصه يجدونها خاصه فيما يتعلق بأشكال الأموال والرهائن وأنواع التهديدات التى تنقل بشكل واضح خلال وسائل الإعلام (الوسائل) الدولية. ولذلك كان هدفنا هو إيجاد كارت لكى يلعب به الأمريكيون.

اكشتفنا أولاً ماعرفه العالم جيداً بعد ذلك عن أن آية الله له عادة العودة مراراً الى منزله فى مدينة قم المقدسة. فقد عاش فى منطقه هادئة قريبه الشبه بالأرض الخراب حيث يمكن للطائرات الهليوكبتر أن تهبط بسهولة. ودعت الخطة التى بدأنا فى صياغتها إلى اعتراض طريق الخومينى عند وصوله إلى مدينة قم، ومرافقته إلى طائرات الهليوكبتر المنتظرة ومنها إلى سفينة منتظرة فى شمال المحيط الهندى فى بحر عمان. ورسمنا الخطة بالتفاصيل الدقيقه مع خريطة لمدينة قم بيتاً بيتاً ورسوم تخطيطية لمقر الخومينى، وتحركات كل عنصر خطوة بخطوة وثانية بثانية. وكانت العملية من عدة نواحى تشبه العمليه

الناجحة التى قام بها لويس الحادى عشر على الكاردينال (دى لا بالو). هذا الأسقف البارز، تم الكشف عن تورطه فى مفاوضات غادره مع أمير (دوق) بورجون، وتم احتجازه فى ليلة فى عملية شديدة الدقة ونقل إلى شاتو دى لوش، حيث بقى مسجوناً لمدة احدى عشر عاماً.

ولم يسمع الأمريكيون بأمر الكاردينال الطيب. إلا أن ذلك لم يُحدث فرقاً. فهذه الخطة كانت قابلة للعمل. وتم مناقشتها على أعلى المستويات فى واشنطن، وأخيراً تم تقديمها للرئيس كارتر نفسه، ودرس كارتر الخرائط، والخطة وأعجب بالتفاصيل الدقيقة. إلا أنه رفض فى النهاية قائلاً:. «لايمكن أن تفعلوا ذلك مع رجل دين، وبالتأكيد ليس مع رجل فى سنه».

وانتهت الخطه فى المكتب البيضاوى (فى البيت الأبيض).

وبدلاً من ذلك، حاولت للولايات المتحدة، بعد ذلك بخمسة أشهر، تنفيذ عملية إنقاذ خاصه بها تحت قيادة الكولونيل تشارلز بيكويز هذه العملة لم يُحسَن تصورها أو قيادتها. وكانت هذه هى المهمة التى ناقشها أول زوارى من المخابرات المركزيه معى بعد يومين من احتجاز الرهائن. والتى حذرتهم أنا وزملائى من أنها مضللة ومستحيل القيام بها. ولحسن الحظ لم تصل هذه المهمة إلى مبنى السفارة الأمريكية نفسها فى طهران حيث كان سيؤدى فشلها حتماً إلى موت بعض، إن لم يكن كل الرهائن ومعظم الفريق الذى سيقوم بها كذلك. وبدلاً من ذلك، خابت العملية فى الصحراء الإيرانية حيث تعرقلت الطائرات الهليوكبتر فى الرمال المتحركة، وكان بيكويز نفسه مثل خنزير مقيد يوجه القادة كل حركة من حركاته من واشطن على بعد آلاف الأميال.

وقد تسببت هذه الخيبه بالإضافة إلى طنين المفاوضات غير العادى والأخذ والرد والتهديدات والفرص المفقودة (الضائعة) فى إطالة مأساة الرهائن الأمريكيين إلى ٤٤٤ يوماً مؤلماً، ولم تفعل إلا أن أكدت شكوك كل زعيم عصابة ورأس خيانة فى دول العالم الجنوبى فى أن الولايات المتحدة ليست عازمة على اتخاذ الخطوات اللازمة لفرض مفهوم دمار معين فلم يكن الانتقام جزءاً من التوازن الاستراتيجى فى ذلك الوقت فى معارك الحرب العالمية الرابعة. ولذلك وجد حكام إيران، ناهيك عن سوريا وليبيا والعراق، مجالاً واسعاً لتدعيم إراقه الدم على المستوى العالمى بشكل تعسفى. واحتضنوا حرية القيام بهذه العمليات بقلب مفتوح.

هناك عديدون فى الشرق الأوسط وفى أجزاء أخرى من العالم استراحوا واطمأنوا لهذا الفشل الذى لحق بالغرب فى الرد على إيران. فعلى سبيل المثال، ليس هناك حدود لمساندة القذافى للإرهاب ـ ويبدو أن دافعه الوحيد هو زعزعة استقرار النظم الديمقراطية الشمالية وتوسيع مدى نفوذه المباشر. ونتيجة لذلك. ينتشر الإرهابيون الذين يقودهم ويمولهم فى انحاء أوروبا. وتتركز قواته العسكريه وأجهزه مخابراته من تشاد إلى الجمهورية الأفريقيه المركزيه حيث لاتخفى خطط القذافى التوسعية. ويدعم القذافى معسكرات تدريب للإرهابيين فى عدة مواقع فى ليبيا. وعندما يحتاج هؤلاء الإرهابيون إلى أموال، يقدمها هو لهم، كما قدم من قبل مساعدات لمدربين من تشيكوسلوفاكيا وألمانيا الشرقية وفلسطينيين للعمل فى هذه المعسكرات كمتخصصين فى أنواع المهارات التى يحتاجها الإرهابيون اليوم ليكونوا على أعلى مستوى من الفنية والتقدم. وهذا واضح من مصادر الرصد والمعلومات التابعة لنا. وبالرغم

من أنه تم حل جهاز الشرطة الخاص بدولة ألمانيا الشرقية، فإن عدداً كافياً من هؤلاء المدربين تحولوا إلى مركز للمرتزقه (الجنود المأجورين). وتم طرد عدد من الإرهابيين ذوى المهارة العالية من داخل الدولة ولذلك استمرت عمليات التدريب دون تناقص ـ وأصبحت صفوة الإرهابيين لدى القذافى فى ليبيا قادرة على البقاء والاستمرار من تلقاء نفسها.

وفى النصف الأول من عام ١٩٩٠، أكد فتح بعض الملفات الخاصة بعمليات البوليس السرية فى أوروبا الشرقية العديد من هذه النشاطات. وقد استخلصت أجهزتنا معلومات من مسئولين سابقين فى البوليس السرى التشيكوسلوفاكى الذين أقروا بالقيام باختبارات لمعرفة كمية المادة المتفجرة من مادة السيمتكس البلاستيكية اللازمة لتفجير طائرة ركاب فى الجو. وقد كشفت هذه التجارب، التى تمت فى نوفمبر سنه ١٩٨٤ أن ٢٠٠ جرام فقط من مادة سيمتكس ، الدرجة الأعلى فاعلية، يمكنها أن تفجر (تحدث) فجوة (ثقب) فى جانب الطائرة، وقبل ذلك بخمس سنوات، باع التشيكوسلوفاكيون ١٠٠٠ طن من هذه المادة المتفجرة للقناص الذى أصبح وسيطاً أساسياً حيث تم نقل المتفجرات الى جيش الثورة الأيرلندى. الذى يعمل ضد البريطانيين فى أيرلندا الشماليه وإلى عدد من الجماعات الإرهابية فى الشرق الأوسط تتمركز فى الأراضى الليبية ومنها الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ـ القيادة العامة. وهناك معلومات قوية عن أن الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ـ القيادة العامة استخدمت مادة السيمتكس المتفجرة لاسقاط الطائرة بان أمريكان فى رحلتها رقم ١٠٣ فوق لوكيربى باسكتلندا فى ديسمبر سنه ١٩٨٨. وبينما عملت هذه الخلية فى ألمانيا الغربية، فإن مصادر المخابرات تظهر أن عدداً من أعضائها على الأقل تم

تدريبهم فى المعسكرات الليبية وفى نوفمبر سنه ١٩٩١، اتهمت المحكمة العليا فى الولايات المتحدة ضابطين من المخابرات الليبية بمسئوليتهما عن قتل ١٩٣ شخصاً والقيام بمؤامرة لتفجير الطائرة بان أمريكان ١٠٣.

وتعد الأماكن والأسلحة والأموال وجوازات السفر عناصر خطيرة يقدمها القذافى وتسمح لهؤلاء الإرهابيين بالعمل فى انحاء الدول الغربية. لقد استخدم إليش راميريز سانشيز، الإرهابى المعروف باسم كارلوس، هو وخمسة وثلاثون من رجاله جوازات سفر دبلوماسية ليبية للتحرك فى المجر وألمانيا الشرقيه وفى أوروبا الغربية . فموظفو السفارات الليبية فى أماكن مثل برلين يساعدون الإرهابيين على القيام بأعمالهم بل يساعدون فى التخطيط للهجمات الإرهابية.

فالجماعة الإرهابية الليبية ـ الفلسطينية التى فجرت ديسكوتك (ملهى) فى برلين الغربية فى إبريل سنه ١٩٨٦، وقتلت أمريكيين وأمرأة تركية وتسببت فى إصابة ٢٢٩ شخصاً بجراح،. كان يديرها موظف فلسطينى فى السفارة الليبية فى برلين الشرقية يدعى ياسر شريدى. وشخص أخر ليبى يدعى مصباح أبو الجاسم.

وقد رصدنا القذافى وشبكته الدولية عن قرب، حيث ان العديد من عملائه يمرون عبر فرنسا أو بالقرب منها أى على أراضينا أو أراضى حلفائنا القريبين . ولأن العمليات الإرهابية التى يرعاها القذافى هى جزء مكمل للإرهاب الدولى، فقد كان من الضرورى معرفة النشاطات التى تتم فى ليبيا لمنع أو مواجهة الأخطار الإرهابية. وليس هناك خلاف على أنه خلال السبعينيات

والثمانينات، كان القذافى عميلاً هاماً للعمليات السوفيتيه فى منطقة البحر الابيض المتوسط على الاقل فى حدود مايخدم أغراضه. بعبارة أخرى، شغلت ليبيا بشكل مباشر الحيز الزمنى بين الحرب العالميه الثالثة والحرب العالمية الرابعة. ولذلك كرسنا جهداً خاصاً لمراقبة القادمين والذاهبين من المقيمين فى المعسكرات وفيض الأموال التى تدعم عملياتهم والمواد التى استخدموها فى حيلهم القذرة.

وكانت ثروة القذافى هى مصدر قوته الأساسى، وكان مخزون البترول هو مصدر ثروته. إلا أن البترول، فى حد ذاته، لم يكن أبداً ضمانا للقوة السياسيه أو الاقتصاديه فى العالم الجنوبى أو أى مكان أخر. فيجب أن يتحول إلى شكل من أشكال النقد، فأشكال النقد التى يفضلها القذافى، مثل غيره من المستبدين الجنوبيين هى الأسلحة والذهب. وكان الاتحاد السوفيتى سعيداً بأن يمده بهما فى مقابل البترول ـ بتخفيض جيد بالطبع.

وانتقلت كميات هائلة من السلاح إلى الأجزاء المتطرفة من الصحراء الليبية ثم أتشرت فى مخابئ مختلفة حتى تكون أقل عرضة للهجوم المفاجئ من أى من أعداد القذافى الكثيرين. وفى ذات الوقت. ساهم ذلك فى قصر عمر هذه الأسلحة حيث ان رمال الصحراء مثلها مثل ملح المحيط تنخر فى الأسلحة التى لم تصُنع لتحمل هذه العناصر. ولأن ليبيا يحدها البحر المتوسط من الشمال وبأقصى البيئات الصحراوية قسوة من الجنوب، فإن لديها كلا من الملك والرمال. وبعد ستة أشهر فى الصحراء، لاتعمل أى من هذه الأسلحة. فالليبيون ليسوا ماهرين فى طرق الحفظ. فوجود الملح مع الهواء والرمال يكون بيئة سيئة للغاية

للأسلحة المتطورة. وبالطبع كان السوفييت سعداء بالاستمرار فى الاستبدال الدورى لهذه الأسلحة والمعدات فى مقابل البترول. ومجموعة المهندسين التشيكوسلوفاكيين الذين أتوا بهم أخيراً للعناية بهذه الأسلحة كانوا قليلين للغاية وجاءوا متأخرين جدا.

وكان السوفييت سعداء كذلك بأن يمدوا القذافى بالذهب الذى استخدمه فى تمويل عملياته والعمليات الخاصة بأصدقائه المقربين. وقد عثرنا أولاً على طريق الذهب فى بريطانيا فى منتصف السبعينات. وهو المرحلة الأخيرة فى طريق طويل خاص. واكتشفنا أن الذهب الذى يخرج من المناجم السوفيتيه يأخذ طريقه إلى ليبيا ومنها إلى كوبا حيث يُستخدم جزء منه لتمويل حركة كوبا الحرة. ومن كوبا، يمر ما تبقى من الذهب إلى جيش الثورة الأيرلندى. ومن هناك، يجد الذهب المتبقى طريقه إلى بريطانيا حيث عثرنا على المخبأ فى أيدى جماعات بريطانية متفرقة كانت تقوم بهجمات عنيفة على أهداف فرنسية. وتبقى بعد ذلك كمية كبيرة من الذهب تكفى لشراء أسلحة أتوماتيكية ومتفجرات كلها من أصل تشيكوسلوفاكى، ويتكون الذهب من أعمدة يزن كل منها كيلو ومن عملات ذهبية ليبية.

وقد كانت أيدى الروس تظهر بوضوح فى مناسبات عديدة عندما يكون الليبيون فى واجهة الأمر. وميناء طرابلس ذو المياه العميقه، وهو أكثر التيسيرات من هذا النوع تطوراً فى جنوب البحر المتوسط، ميناء أنشأه القذافى، إلا أن السوفييت استخدموه بشكل مكثف.

واكتشفنا أن الليبيين، بمساعدة السوفييت غالباً، يتجولون بعيداً عن

وطنهم. ولعل أكثر مغامراتهم إثارة كانت غزوهم لجزر تونجا. كل عام، كنت أتلقى زيارة من رئيس الخدمات السرية فى نيوزيلاند، وعادة مايكون فى طريقه من أو إلى اجتماع على مستوى عال مع زملائه البريطانيين فى لندن. وذات مرة فى أوائل السبعينيات، جاء ليقضى نهاية الأسبوع فى شقتى فى باريس. وكان أحد المحاربين القدماء فى الحرب العالمية الثانية، وهناك ذكريات عديدة مشتركة بيننا عن تلك الفتره. .

وبعد العشاء يوم السبت، تحول لى ويبدأ حديثه قائلاً: «على أن أخبرك أننى لسنوات كنت مفتوناً بالقصص التى رويتها لى عما يسير عليه العالم عموماً فى مجال مهنتنا. ولأننى أعيش فى الجزء المقابل من الكرة الأرضية، فإننى نادراً ما كنت قادراً على المشاركة فى الحديث. إلا أننى لهذه المرة لدى شئ قد تجده مفيداً.»

فقلت له: «حسناً، حدثنى بالمزيد»

فقال مباشرة:.«قبل مغادرتى لأوكلاند مباشرة، جاءتنا معلومات عن أن ملك تونجا تلقى رسالتين من القذافى.»

ومملكة تونجا هى مجموعة جزر صغيره فى جنوب المحيط الهادى، وهى أكثر الجزر الجنوبية الأهلة بالسكان قبل الوصول إلى أرض أنتركتكا.

وملك تونجا حاكم لديه قوه هائلة ـ وحجم ضخم كذلك. وفى الواقع، فان الملك يتم اختياره لأنه أكبر رجل بين شعب من ذوى القامة والحجم الضخم، وهم فى الأصل شعب مقاتل فى المحيط الهادى الجنوبى. وعلى وجه الدقة فإنهم شعب لايعرف الخوف كليه. فضلا عن هذا فإنهم لايدينون لأى انسان أو دوله بأى شئ.

واستمر صديقى القادم من نيوزيلندة فى قوله. «لقد اكتشفنا أن هذين الرسولين، كانا يجلبان معهما حقيبتى ملابس سامسونيت ثقيلتى الوزن، فقد كانتا مملوءتين بالمال. لكن الذى كان يريده القذافى بالضبط من تونجا مازال غامضا تماما بالنسبه لنا.»

وفى صباح اليوم التالى، استدعيت واحدا من جنرالاتى، وكان أيضا أدميرالا فى البحرية الفرنسية، وكلفته بعمل التحريات.

وعاد بعد ثلاثه أيام ـ عاد ـ «حسنا، لقد كانت البحرية، كما كنت أنا، مذهولين»، قدم الادميرال تقريره مزهوا بنفسه. «ومع هذا فقد توصلنا إلى أن توجد أهمية استراتيجيه حقيقية فى هذه المعلومات الاستخباريه. ففى وقت الحرب، فان هذا الجزء من المحيط الهادى من الممكن أن يكون مشوقاً جدا كلمجأ لبعض الغواصات الروسية. وفى الواقع فان مكاناً لتلك الغواصات أو سفن تموينهم لدخول الميناء من المحتمل أن يكون مفيدا تماماً.»

هذا ولم تبدأ الغواصات الروسية اطلاقا بزيارة الميناء الداخلى لتونجا بقدر مايمكننا تحديده. كما أنه لم يكن واضحا أن السوفييت قد أحاطوا بالقذافى علما بهذه المغامرة الخاصه. ومع هذا لم يكن هناك أى تساؤل أن القذافى فى أحسن الأحوال، يتلاعب بجدول أعمال متعدد الجوانب ـ حماية ما كان يراه أنه أجنحه الجيش. ، أو أنه يهذب التفاحه، الاتحاد السوفيتى ـ الذى يمده بالذخيرة والخبره الفنية. وفى نفس الوقت، فمن المحتمل أن يخدم اهتماماته ومصالحه الخاصه ـ متوقعا تكوين حليف جديد استراتيجى هام فى أحد أطراف العالم الحرجه بالنسبه للصراع العالمى القادم الجنوب فى مواجهة الشمال.

لم يكن القذافى فى ذلك الحين ولا الآن عميلا للروس بالمفهوم التقليدى الكلاسيكى. والعميل الروسى فرد غالٍ. ولابد أن يحصل على أجره بنهاية كل شهر، وأن يُدفع له بسخاء. وعلى النقيض من هذا، فان القذافى سيدفع للروس، ثمنا لسلاحه ومساندته فى نقل الجنود وايوائهم وتموينهم. فضلا عن هذا فانه يستفيد من الروس كما يستفيدون منه. إلا ان القذافى، على النقيض مع الكثير من القادة المفتونين، يميل لأن يتعامل مستقلا تماما، ويتفاعل فقط مع خيالات جنون العظمة الشخصية ضد أعدائه ـ سواء أكانوا حقيقيين أو خياليين. ولذا فلم يتردد فى مطاردة المعارضين السياسيين، حلفاء أى من المتعاطفين مع ملك ليبيا المخلوع ادريس، أينما وجدوا ومهما كانت النتائج بالنسبه للمتفرجين الأبرياء.

إن القذافى ليس بالرجل المجنون. انه ثعلب صحراء ماكر جدا. انه رجل له رؤيا وتخيلات ملتوية فريدة فى نوعها، إلا أنه رغم هذا له رؤيا وتخيلات. ومن أحد أقسام تلك الرؤيا التقسيم، ثم السيطرة على جزء كبير من القارة الأفريقية والتى يُلقى عليها نظرة شاملة من مكانه العالى فى اقصى امتداد شمال البحر المتوسط. ومن المحتمل أن نضمن ذلك الاستيلاء على أكبر رقعه من الأرض ـ تشاد وجمهورية أفريقيا الوسطى، ويصبح بذلك كخنجر مسلط مباشرة إلى دولة زائير الغنية بمعادتها ويقسم بصورة متقنه شرق أفريقيا عن غربها. وهكذا يمكن لليبيين استغلال قصر من هذا النوع بتركيز اهتمامهم السياسى، إن لم يكن العسكرى، إما على خليج غينيا إلى الغرب، أو البحر الأحمر والقرن الأفريقى تجاه الشرق والجنوب، وفى وقت ما بالإمكان توفير التأييد للحكام الشيوعيين فى أثيوبيا. ومن ثم يحتمل جعل جزءا كبيرا من

أفريقيا مجبرا على الركوع، ودفع الجزيره للعقيد معمر القذافى. وهذا الجزء من أفريقيا به مخزون من المعادن الاستراتيجيه والتى تعتبر حيويه بالنسبة للشمال وتشتمل على عدد كبير من السكان والدول التى لها روابط ثقافيه، واجتماعيه وسياسيه واقتصاديه طويلة وعميقه مع الدول الأوروبيه.

بجانب هذا فإن جمهوريه أفريقيا الوسطى كانت لفتره طويلة من الزمان من أكثر الأمم المحرومة والمتخلفة على كوكب الأرض. ومصدر ثروتها الوحيد الحقيقى هو الماس الذى له خاصة صناعيه، والذى يستخرج منه سنويا قرابه الربع مليون قيراط. وفى ٣١ ديسمبر عام ١٩٦٥، خضعت لسيطرة جان ـ بيدل بوكاسا، وهو حاكم مصاب بجنون العظمه الحقيقيه، والذى أطاح بالرئيس «ديفيد دكو، واستولى على السلطة بالانقلاب. وقد أعلن نفسه رئيسا مدى الحياه» فى عام ١٩٧٢، ثم لقب نفسه بلقب الامبراطور بوكاسا الأول فى عام ١٩٧٦ وبعد ذلك بعام توج نفسه امبراطورا فى احتفال تمكن أن يطلق عليه مهزلة (كوميديام الجادة) داخل عربة مزينه باكملها بالذهب. وكانت تكلفه هذا الاحتفال وحدها تكفى لتغذيه أمة بأكملها لمدة عام. ورغم هذا، حيث ان أمته كانت المرتكز لأفريقيا الفرنسية السابقة، فقد وجهت فرنسا انتباهها باشراف على بوكاسا. وكانت البلاد ملائمة للعبه صيد ضخمه، واصبح بوكاسا ذلك النوع من حراس المرسى الخصوصيين للجمهوريه الفرنسيه والذين يحكمون حكومتها وصناعتها. كما كانت ايضا منطقه ارتحال اساسيه للطيران والقوات البريه الفرنسية التى كانت تضمن أمن الكثير من وسط أفريقيا.

وبسبب اهتمام فرنسا الكبير بالشئون الأفريقيه ـ جنباً إلى جنب مع الارهاب

والتهديد النووى، فقد كانت واحدة من الاهتمامات الأمنية الثلاث الرئيسية لفرنسا ـ وقد كنا نراقب بوكاسا وحكمه الاستبدادى عن كثب.

وفى أوائل توليتى للسلطة، وبعد فترة قصيره من اعلان بوكاسا نفسه رئيسا مدى الحياة، بدأت فى تحذير جيسكار ديستان من الخطر الذى يمثله الحاكم ولقد ترك مسلكه شيئا كثيرا ليكون مرغوبا. وفى الوقت الذى توج فيه بوكاسا نفسه امبراطورا، اصبح سكيرا خطيرا. وبدأت الاشاعات الشاذة تظهر على السطح. وعند احدى النقاط، وبتتبع انتشار قصة خبيثة على وجه الخصوص، حيث قمنا بفحص سرى للثلاجة فى قصر الرئاسة. لم يوجد بها أى لحم بشرى. بالاضافه إلى هذا فقد كانت هناك قصص متكررة عن مأساته. وفى أوائل عام ١٩٧٩، كانت المجله الاسبوعية الفرنسيه الهجاءة كانار أنشانيه الشهرية تشعر بالسعادة لكشف النقاب عن قصص الهدايا عن مآسى وسط افريقيا الغالى الثمن والذى كانوا يجودون به على جيسكار خلال رحلات الصيد العديده التى قام بها فى الأمبراطورية. حتى ان جماهير الشعب الفرنسى. والذى معظمه على وجه العموم متسامح بالنسبة للافراط الزائد لحكامه، وفى الواقع يُتوقع منهم أن يحيوا حياة الترف بالشكل الملائم لورثة العرش الفرنسى الحقيقيين ـ وجدوا أن هذا الافراط فى مصاحبه طاغيه أفريقى حقير وضيق الأفق كثير جدا. وفى الوقت الذى أصبحت فيه هدايا بوكاسا لجيسكار ديستان مشهورة وتسببت تقريبا فى سقوط الحكومة الفرنسية، وفى الحقيقه فان الامبراطور وزع هبات مناجم بلاده إلى حد كبير جدا. إن جمهورية وسط أفريقيا تنتج الماس الصناعى، كما تفعل لكثير من الدول. إلا أنه يثبت فى النهايه أنها قطع صغيرة من الماس ـ صحيه بعيده عن

الماسه الواحده ذات اللون الأبيض المشرب بالزرقه أو مجوهرات تاج بريطانيا ـ ومع ذلك، فان بوكاسا كان مسرورا لوضع مأساته الصغيره جدا للعرض السخي، وتقديمها للضيوف الذين يشعرون بالمعاناه. وكان جيسكار وحزبه من المتلقين، سيئى الحظ، لما يمكن أن يطلق عليه لصعوبه هبات. فضلا عن هذا فقد كانت هدايا بوكاسا غير ذات قيمة والأمر كله كان ضربة خطيرة وكريهة لرئيس فرنسا.

إلا أن مايثير اهتمامنا بدرجة كبيرة ـ والذى ننظر اليه بحرص وعن كثب ـ هو أن أى تورط أجنبى مع بوكاسا من الجائز أن ينبغى أنه ضار بالمصالح الفرنسيه. وفى ربيع عام ١٩٧٩، عملنا جادين للكشف عن دلالة لمثل هذا التورط. ولقد طلبت مقابلة رسمية مع چيسكار. ووضعت أمامه خطه مفصلة لوصول قوات خاصة ليبية الى عاصمة ما أعيد تسميتها بامبراطوريه أفريقيا الوسطى. ولقد شعر جيسكار بعدم رغبة فى مواصلة الحديث. لقد اصبح بوكاسا، وراء نطاق الماس، حارس ملعبه الخاص وأنه يتمتع بصيد الأفيال والاسود.

وبعد تقديمى تفاصيل علاقة بوكاسا الليبيه اندفع فجأة قائلا: «كيف عرفت كل هذا؟»

«عادة، ياسيدى الرئيس، لقد كان لزاما على ألا أخبرك بكل تفاصيل مهنتنا. لكننى أخبرك هذه المرة».

وهكذا قمت باخراج بعض الصور الفوتوغرافيه من جيبى. وبدأت أقول «إن أدلتنا تجئ من عدة مصادر، عملاء عاملين فى تنظيمات فرنسيه، والمقيمين

المحليين الذين تعاونوا معنا. كما أن رجالنا الخصوصيين كانوا ماهرين فى سرقه تلك الصور فى الوقت الذى كان فيه اصحاب محافظ الجيب يتدربون أو يستحمون فى حمامات السباحه». بجانب هذا فان الليبيين ليسوا بروسيين بالضبط فى سلوكياتهم. ورغم أنه فى الوقت الذى كان فيه الليبيون فى امبراطورية أفريقيا الوسطى يرتدون الملابس المدنيه، فقد كشفت الصور الفوتوغرافيه، التى فى محافظهم مع أماتهم، أو آبائهم، أو صديقاتهم، الثقاب عن زيهم الرسمى الذى يرتدونه كاملا بالميداليات والشارات المميزة لقوات الخدمات السرية الليبيه (المخابرات). وقد كان من الواضح أنهم ليسوا المستشارين المدنيين كما كانوا يدعون.

واستمررت فى حديثى. ان الليبيين شئ واحد. لكن ما الذى سيحدث فيما بعد عندما تكتشف ايضا أن برفقتهم مستشارين من المانيا الشرقيه او من كوبا، وفجأة نكون متورطين فى مواجهة شاملة؟ سيدى الرئيس، سأقوم بتدوين ذلك عند عودتى إلى مكتبى. وإذا حدث أى شئ هناك، ستكون فى الملفات.

فكر جيسكار برهه. وقال «حسنا، وهو كذلك، أفعل ماتريد».

وفى أواخر صيف عام ١٩٧٩، اكتشفنا أن بوكاسا كان يخطط للقيام بزيارة لأحد أصدقائه، العقيد القذافى. ووضح أنه قد حان الوقت فى تلك الآونة للتخلص من بوكاسا، وهكذا تم ميلاد عمليه باراكودا وكان هدفنا الاطاحة ببوكاسا دون اطلاق طلقه واحده وتعيين وتنصيب خليفه له يتحرك تجاه استعادة الديمقراطيه، حكم حليف للغرب، وكان الرجل المناسب للقائمة تماما هو ذلك الرجل الذى أطاح به بوكاسا منذ أربعة عشر عاما. لقد كان ديفيد داكو

لاجئا سياسيا فى فرنسا. ولم يكن من السهل اقناعه بأن يأخذ على عاتقه ما يحتمل أن يكون بالحتميه عملية صعبة وخطيرة. بجانب هذا فان داكو لم يكن شابا، لكنه فى النهاية اقتنع بأن تلك المناورة كانت ضرورية لانقاذ أمنه من خراب شامل.

وعلى هذا قمنا بارسال العديد من المبعوثين للتحدث معه فى بيته خارج باريس.

وقد قيل له «اننا نستهل هذه العملية بمفهوم أنك ستلقى بيانك الخاص المستقل عند الوصول. أننا لسنا مستعمرين نحاول استعادة إحدى المستعمرات، بل نحن أناس لديهم الرغبه لاحباط كارثه ستأتى إذا ما اقام الليبيون مركزا فى وسط أفريقيا».

وأجاب «من الذى سيكون هناك لاستقبالى عند وصولى؟»

وقد بذلنا ما فى وسعنا لكى نؤكد له من جديد أنه ستوجد بنيه اساسية كاملة للترحيب به فى بانجوى وقت هبوط طائرته. وفوق كل هذا، فقد أقنعناه بأننا لانريد أى شئ أبعد من اعادة تنصيبه كرئيس للحكومة.

وخلال الاسبوعين التاليين، أعد داكو، بمساعدة كتاب الخطب العاملين لدينا، رسالة وصوله، كما جهزنا لعمليتنا. هذا ومن المعروف أن مثل تلك العمليات لابد وأن تكون دقيقه ـ على أن تباشر فى سرية تامة ـ تحت غطاء من الظلام، وباستخدام كحد أقصى من ١٠٠ إلى ١٥٠ رجلا. وفى كل حالة، فاننا نصل مع مهبط الليل ونخرج مع أول ضوء للنهار صباح اليوم التالى.

لقد كان مجال استخباراتنا نموذجا لمثل تلك العملية، فى أى مكان فى

العالم. لقد عكفت على خططى زهاء ثلاثه أعوام. وطوال ذلك الوقت، وكلما كان عندى ضابط يقضى أجازة، أعطيه أو أعطيها تذكرة طائرة - بدلا من كوت دازور أو ايطاليا - إلى امبراطورية أفريقيا الوسطى. وكل واحد كان يصطحب صديقه أو صديقاً، أو زوجه أو زوجاً وأطفالاً. وعندما يصلون يبدأون فى التقاط الصور فى كل مكان - تماما مثل السياح. وكانت الصور تلتقط أمام مكتب البريد، محطة التليفزيون ثكنات الجيش ومركز تشغيل التليفون. وقد وضعنا ضباطاً أخرين ممن كانوا يتمركزون فى جمهورية أفريقيا الوسطى خلال فترة الاستعمار، وحتى تلك اللحظة كما كانوا فى الماضى يتحدثون اللغه القبليه لحرس الشركة فى مطار بانجوى.

هذا وقد تم استخدام طائرتين من طائرات SDECE الخاصة لنقل قواتنا إلى نانجوى. وكان قد سبق ارسال عدد صغير مقدما، لكى يتأكدوا بالضبط من كيفيه تشغيل المطار، عندما يفتح ويغلق، أين توجد الاضواء، ومن يقوم بتشغيل برج المراقبه، وهكذا. بجانب ذلك فقد كان هناك مدفعان رشاشان فى الحقل لحمايته، ويقوم بتشغيلهما حرس مطار الشركة، والذين كما علمنا أنهم لم يتسلموا رواتبهم لمدة شهر. وأكثر من هذا، فان أخر مرة تسلموا فيها رواتبهم، كانت بالعملة المحليه، والتى أدى إلى التضخم السريع وكانت تقدم الكثير مما ليس له قيمة.

وهكذا وبحلول ليل العملية، يوم ٢١ سبتمبر ١٩٧٩، كنا جميعنا على أهبة الاستعداد. وكان هناك اثنان من طيارينا فى اماكنهما على الممر الجوى المظلم، ومجهزين بمصابيح فضاء بالبطاريات لارشاد طائراتنا. وفى ذلك الحين كانت

الطائرات الفرنسيه فى الجو قادمة من فرنسا عندما حدث تداخل. كانت هناك طائرة مصرية، على الأرض فى الكونجو المجاورة، تطلب المادة فتح المطار لهبوط ليلى متأخر. ومن المحتمل أن يعمل ذلك على انهيار العمليه بأكملها والتى تم التخطيط والكتابه لها بحرص شديد. إلا أنه كان هناك رجال لنا فى الكونجو. وهكذا فقد حدث عطل فى آخر لحظه فى إحدى الآلات مما أخر إقلاع الطائرة لمدة يوم.

لقد كان مقر قيادتى تحت الأرض فى مركز الرئاسة فى باريس. وهناك كان محاطا بالخرائط ومجموع المساعدين ـ رئيس الاركان، القيادة العامة للقوات الخاصة، وأخصائيينا فى أفريقا السوداء وامبراطوريه أفريقيا الوسطى. وفى الوقت الذى كانت فيه العملية تجرى مجراها، أرسل الكولونيل إم، والذى كان يقود قواتنا فى الحفل، اشارة لاسلكيه فى آخر دقيقه مستفسرا:

«سيدى المدير العام، تعتقد أن (بوكاسا) متواجد حاليا فى طرابلس، لكن فلنفترض وصوله عن طريق الصدفة عائداً إلى بانجوى خلال الليل؟ ولنفترض أنه يأتى مهاجما المدينة داخل سيارة جيب وبيده سيف؟»

ترددت لحظة ثم قلت «خذوه سجينا . وأعيدوه إلى الرئيس داكو فى الصباح».

ولنفترض أنه بدأ فى قتل البعض من رجالنا؟'»

«عندئذ اقتلوه.»

لقد كنت فى ذلك الحين قد أصدرت أوامر صريحة جدا وذلك قبل أن تبدأ قواتنا مهمتها. «لدينا وسائل اتصالات رائعة. ولكننى لن أطلبك على الاطلاق.

أبدا. لأنك مشغول أما أنا فلا.. اننى جالس على مؤخرتى فى غرفتى المحصنه تحت الارض فى باريس. وإذا كنت فى حاجه إلى المشورة فى أى وقت، اطلبنى. ليس لدى النية فى التدخل. إنك الوحيد المسؤل. وإذا كان لديك أيه أسئلة، إطرحها بأية وسيلة، ولكننا لن نتدخل فى طريقك، لقد عقدت العزم على ألا تكون تلك العملية مشابهة لعملية كارتر التى أجهضت لمحاولة انقاذ الرهائن الامريكيين فى ايران وذلك فى الوقت الذى كان يتلقى فيه الكولونيل تشارلز بيكوز المسكين الأوامر بين اثنى عشر شخصا من على بعد ألاف الأميال طوال العمليه.

هبطت أول طائرة دون أيه حوادث، وذلك استرشادا برحلتنا على الأرض. كان المطار مغلقا وكان العاملون فى ذلك الوقت قد غادروه إلى المدينة. وكان عملاؤنا بملابس المعركة كاملة كما كانت سياراتهم الجيب للانتقال خلال دقائق، كما كانت جماعة الهجوم تسرع تجاه المبنى حيث كانت كتيبة حرس المطار فى موقعها بالمدافع الرشاشه عند الأبواب والنوافذ. وفى الحال خاطبهم الضابط الذى يتحدث لهجتهم القبليه من خلال مكبر الصوت.

«لم نأت إلى هنا للاستيلاء على بلادكم، لكن ببساطة لمساعدتكم لتخليص أنفسكم من الطاغية، وإذا أمكن استعادة الحكومة الديموقراطية. والآن، فإننا نعرف أنكم لم تتسلموا رواتبكم لمدة شهر. أرجو أن تشكلوا صفا على طول الجدار وسوف تتسلمون رواتبكم فى الحال».

وعندما ظهر الحراس ومعهم منضدة وكرسى لصرف الرواتب، عرفنا أننا أحرار فى الوطن. واتخذ مقعده وأخرج رزمة من الأوراق النقديه من صندوق معدنى.

لقد كانت فرنكات (مجموعة التمويل الأفريقيه) كل خمسين تعادل فرنكا فرنسيا إلا أنها عملة صلدة تدعمها البنوك المركزية من الدول الأفريقية المتحدثه بالفرنسيه والقادرة على ابقاء جميع الديون.

وبدأت عملية الصرف فى الوقت الذى أعلن فيه الموظف المسئول والذى اختير لمهمتنا الخاصة إلى كتيبة الحرس قائلا، أيها الضباط، يمكنكم البقاء مسحلين، أننا نثق فيكم لتقدموا بنفس العمل الذى تقومون به». لقد كنا نريد وجود قوة عسكرية محلية مسلحة إلى جانبنا.

والتفت قائدنا إلى الجنود الذين شكلوا فرقة الحرس المحلى وقال من فضلكم ضعوا اسلحتكم بجوار المبنى.»

لم تطلق طلقه واحدة. وقد عرض ضباط الحرس باصطحاب رجالنا معهم إلى المدينه ويقومون على خدمتهم كمرشدين. فضلا عن هذا فقد قمنا باحتلال نقاط استراتيجيه قليلة، لكن فى قرية صغيرة وهى فى نفس الوقت عاصمة، ولم يكن من الصعب تحديد النقاط الاستراتيجيه ، وكنا نعرفها كلها من الاساس القصر الجمهورى، ومركز التليفون، ورئاسة التليفزيون، وبضع ثكنات عسكريه.

وفى ذلك الوقت، هبطت الطائرة الثانيه، حامله داكو وسيارة الرئاسة فى مطار بانجوى. وفى تلك اللحظه، أذاعت احدى وكالات الأنباء، التى أوجدناها بسرعة لهذه العمليه، والتى اختفت فى اليوم التالى، خبر القول فيها إن هنالك على ما يبدو وجود انقلاب فى الطريق فى امبراطوريه أفريقيا الوسطى.

هذا ولم يتم أخطار أحد ولاحتى كواى دارساى. ومن ثم قام وزير الخارجيه

الفرنسي بالاتصال تليفونيا بالسفير في بانجوى، الذى استيقظ، وأخذ يفحص باختصار وكتب تقريرا بأنه لم يمكنه أن يجد شيئا غير عادي.

وفى صباح اليوم التالى، ألقى الرئيس داكو، بعد تقلده منصبه فى قصر الرئاسة، بيانه الرسمى إلى الآن، بجانب ذلك جمعت قواتنا الخاصة أجهزتها ورحلت، كما كان مخططا لها، مع أول ضوء للنهار. وقد حلت محلهم، ورسميا تماماً وحدات نظاميه من الجيش الفرنسى.

والتى كانت متمركزه فى تشاد المجاورة.

وبالنسبه لبوكاسا نفسه، فانه اصبح فى تلك اللحظة بدون حكومة، وقد عرض عليه صديقه العقيد القذافى اللجوء السياسى فى ليبيا. ولقد اختار، بدلا من ذلك، منفى أكثر بعداً ومريحا فى ساحل العاج. وخلال أيام غادرت قوات القذافى الخاصة بانجوى، وهكذا أُحْبط الطموح الليبى كليه.

ولكن ليس هذا معناه أن يقال إن القذافى بأى شكل كان قد تخلى عن مخططاته لقيام امبراطوريه ليبية كبرى ـ فلقد كان طموحة الاقلميى واضحا وقويا لفترة طويلة، لقد أعد على الأقل هجومين كاملين دون تحفظ ضد تشاد من الشمال، حيث تحركت طوابير القوات المدرعة إلى واحة قايا لارجو فى أعماق الصحراء شمال العاصمة، تدجامينا. هذا وقد تم ارسال قوة من المظليين الفرنسيين خلال احدى المناورات لتقديم العون لقوات الحكومة التشادية المنضمة لمواجهة الليبيين. وفى ذلك الوقت، الحيت فى طلب القيام بهجوم جوى فرنسى لتدمير الطابور الليبى بأكمله ـ بمفهوم تدمير محدد والذى لابد وأن يكون فى ذلك الحين كضمان للأمن الشمالى ضد القذافى فى عالم الجنوب. وبدلا من هذا

فقد يسمح للقوات الليبيه فى النهاية بالانسحاب دون المساس بها إلى حدودها. وبدون شك، فإن العمل الفرنسى الحاسم لتدمير الطابور الغازى كان من المحتمل أن يثير فى نفس الوقت عملا فاصلا داخل الجيش الليبى وربما الأمة كلها والتى من المحتمل أن تؤدى الى ابعاد القذافي والذى يشكل تهديدا دائما للشمال.

وفى الواقع فإنه خلال السبعينيات، كان هناك العديد من المحاولات للاعتداء على القذافى ولكنها لم تحقق اهدافها اطلاقا ـ وكانت أى واحدة منها، وأسفاه، من المحتمل أن تكون قد أدت خدمة لارسال رسالة للدمار المحدد.

وفى يوم ١ مارس ١٩٧٨، أرسل إلى الرئيس أنور السادات، رئيس مصر رسالة تقدير بأنه مهتم بالاطاحه بالقذافى. ولكن لم يتضح لى اطلاقا إذا ما كان السادات، والتى كانت بلاده وبصفة متكررة تتعرض للخطر من جانب ليبيا بجانب أن قواتها المسلحة ترغب فى الحصول على مشورتنا أو مساعدتنا الفنية. والحقيقه هى، اننى لم أكن مسئولا عن فريق القتلة المأجورين ولذلك فقد كان ردى إلى السادات أننى لا أدير منظمة يمكنها تنفيذ ذلك النوع من العمل لكننى لم أشر أنه فى ذلك الوقت كان هنالك ٢٥٠,٠٠٠ مصرى ـ تقريبا ١٠٪ من السكان ـ يعيشون ويعملون فى ليبيا. وبالتأكيد فمن المحتمل أن يوجد القليل ليقف فى طريق فريق للتسلل من المواطنين المصريين والذين يمكنهم وبسهولة أن يقوموا بعمليات تمويه للقيام بأى عمل ليشعر أنه مناسب. إلا أن السادات مع هذا غير رأيه. وبعد فترة زمنية قصيره، مات الرئيس المصرى نفسه على أيدى القتلة من بلده والذين كانوا منتشين بتعصبهم الدينى.

هذا ولاتوجد أيه دلالة على أن القذافى أو مؤيديه وراء عمليه اغتيال السادات. إلا أن عدم استقرار ديموقراطية الشمال كان ولفتره زمنيه طويله تكتيكا سياسيا حاسما للقذافى مثل تلك المحاولات لتقسيم وغزو أفريقيا. وفى هذا الخصوص فقد كان له العديد من الحلفاء ـ قادة لما يمكن أن يطلق عليه اتحاد الارهاب الدولى.

ومع ذلك فان ابعاد قذافى أو خومينى ليس بالرد على مشكله الارهاب الدولى. ومن الواضح تماما فإن طريق الخومينى كان له تأثير ضئيل على نوايا الحكومة الايرانية لتقديم الدعم المالى للأنشطه الارهابيه أو أى تأثير حقيقى على فعاليتهم. وحتى فإن عودة الديموقراطيه إلى ليبيا من المحتمل أن يكون لها تأثير حقيقى ضئيل. وهنالك دائما ملجأ أخر يمكن أن يوجد لمثل هذا النوع من النشاط، نمط آخر مُعدٌ لتجهيز المساندة والمساعدة.

بجانب هذا يوجد العديد من الملتجآت الاحتماليه، بعضها أفضل من الآخرى، لأمثال أبو نضال، أو أبو داود أو الارهابى الدولى الشهير كارلوس والذين فى هذه الأيام يعتبرون ليبيا وطنهم الاساسى. هذا ولم يتردد أحد للهجوم على أى هدف يبدو وأنه مناسب فى لحظة محددة، وغالبا بدون أى ايحاء مباشر من أبيه الروحى.

ومن عام ١٩٧٠ إلى عام ١٩٨١، حدثت بعض الصفقات بين الحكومة الفرنسيه وجماعات ارهابية معينة، وعلى الاخص الخلايا التى يسيطر عليها أبو داود، فى محاولات ناجحه على نطاق واسع لاستثناء الأراضى والمواطنين الفرنسيين من الهجوم ـ وكان ذلك خلال فترة من التوتر الضخم بين باريس

وطرابلس. وطوال تلك السنوات، كان هنالك مفهوم ضمنى بأن الارهابيين العاملين خارج الأراضى الفرنسية، وحتى تحديد أهداف حلفائنا الأوروبيين. ولم أوافق أبدا على هذا القرار، إلا أن الترتيبات مع تلك كانت قرارا سياسياً محلياً لدرجة أن المخابرات الفرنسية كان تأثيرها ضعيفا. وقد أَنْتُهِكتَ الهدنه بالهجوم الدموى على المعهد اليهوى فى رى كوبرتيك بباريس، وفى النهاية تم تدميرها بوصول الحكومة الاشتراكيه للرئيس فرانسوا ميتران إلى السلطة عام ١٩٨١. وبعد ذلك، أصبحت الأراضى الفرنسيه أرض معارك للعديد من الجماعات الارهابيه ـ ومن نواح عدة، خط الجبهة لما قد تطور ليصبح الحرب العالمية الرابعه.

الفصل العاشر

حقول ألغام العقل

فى أحوال كثيرة كان الارهاب يوصف بأنه سلاح الفقراء. انه سلاح يؤثر فى نظام مؤسساتنا السياسية بأكمله ليس فقط فى الشمال، بل فى تلك المناطق من العالم الجنوبى وتماما كذلك الذى يعتمد علينا لبقائهم. إن أغلب المناوشات الدموية والتى يستخدم بها ليلقى بظلاله على حياتنا. كما أن الحرب العالميه الرابعة ذاتها، بالطبع، من الحروب لم يتضح فيها منتصر حتى الأن، وفى الواقع ليس بطلسم النصر. ومع هذا فإن الذى مازال حياً فى الذاكرة الآن، فى أحلافنا المروعة، هو الهزائم.

وإذا لم نغير استراتيجيتنا لمكافحة هذا الصراع العالمى ـ لفهم انها ليست بأى وسيلة تشبه أى واحدة أخرى شاركنا فيها ـ فسوف نستمر فى المعاناة من الهزائم. والقليل من هؤلاء الذين يقودون أمتنا، فى الوقاع القليلون الذين يقفون على خطوط الجبهة كل يوم. قد فهموا تماما أننا متورطون فى« سلسلة من المعارك والتى لسنا مستعدين لها كليه». اضافه إلى هذا فلدينا الكثير من الضعف لدرجه أن المنظمات الارهابيه، من خلال مرونتهم، مرة بعد مرة قادرين على استغلالها.

وإحدى نقاط الضعف الرئيسية هى استمرارنا فى التفكير فى الدفاع أساساً وفقاً للمفهوم الوطنى، فى حين يحدث الارهاب فى بيئة دوليه أو كروية شاملة، ويتحرك وفقاً لرغبته عبر الحدود، مختارا الاهداف بعناية حيث تبرز الفرصة ذاتها بدلا من أى هدف قومى على وجه التخصيص.

وارهاب الباسك من الموضوعات التى أثارت اهتمامنا على نحو خطير خلال الكثير من السبعينيات، إلى الثمانينات، ومازالت مستمرة حتى اليوم، وفيما مضى وقبل زمن يولويوس قيصر، والباسك، شعب فريد فى نوعه ووطنى سريع الغضب، وقد تشبث بقرار الواقعه على جانب الجبل والتى تنتشر فى غير نظام على جبال البرانس الغادرة فى أغلب الأحيان إلى الحدود لما أصبح الآن فرنسا وأسبانيا. فقد حاربوا جنبا إلى جنب مع الجيوش العربيه التى غزت أوروبا كما شاركوا فى معارك مع ثوار شارلمان خلال حروب الجهاز فى القرن الثامن. ولقد مات شاعر القرون الوسطى الفرنسى رولان فى أحد كمائن الباسك الأكثر شهره عند رونسفو. وفى العصور الحديثة، حيث تم تخطيط الحدود الاسبانيه والفرنسيه، فإنهم يتوقون للحصول على وطن للباسك والذى من المحتمل أن يوجدهم، وهم فى حقيقه الأمر متحدون وبعمق روحانيا، الا أن هذا الحلم قد فاتهم ولم يدركوا. والباسك، كغيرهم من الكثير من الشعوب على الأرض، منقسمون بين دولتين، وبالكاد يتواجد منهم ٢٥٠,٠٠٠نسمه فى فرنسا، وتقريبا ٢ مليون عبر الحدود فى اسبانيا. ولقد استمر الكفاح العنيف لتوحيدهم منذ الخمسينيات، عندما كونت جماعات من الطلبه، والذين يسعون لاضفاء الصفه الراديكاليه على حزب الباسك الوطنى التقليدى، المنظمة العسكرية الشاذة والتى اسموها إيتا وبالتدريج وخلال الستينيات، فقد تزايدت فى السبعينيات والثمانينات اندفع ارهابيو الباسك بعمق وعنف فى أكثر الأنشطه العنيفه وبدأوا فى البحث عن حلفاء أينما وجدوا. وبعد تدريبهم فى معسكرات الارهاب فى أماكن بعيدة كليبيا وكوبا، يعودون مسلحون بأحد الأسلحة الأوتوماتيكيه والمتفجرات البلاستيكيه.

ومن بياريتس إلى بيلايوا وطوال تلك الفترة أصبح العنف ـ غير متوقع وفى أكثر الاحيان مميتا هو اسلوب الحياة. وفى عام ١٩٧٩ وحدها، هاجم كوماندوز مظمة ايفا قطار السكة الحديد السريع بين باريس ومدريد بالمدافع الرشاشه، واغتالوا ضابط شرطه شاباً وصديقته كانا متجهين لقضاء امسية راقصة وللهو فى إحدى قرى الباسك النائية، وفيما يبدو أنه عنف عشوائى قتلوا ستة من سائقى السيارات الأجرة وحتى مفتش حافلة بالمدينة وبعد كل حادثة مميته، يذوب الارهابيون عبر أى حدود تقدم لهم المأوى ـ فعملية قتل فى فرنسا تعنى الهروب إلى اسبانيا، وتفجير قنبلة فى اسبانيا تعنى ملجأ فى فرنسا. ومع الافتقار الى التنسيق الأرضى بواسطة قوات الشرطه والمخابرات فى كلتا الدولتين، فقد كانت فترة عطلة رسمية مفتوحة على كلا الجانبين من الحدود.

ورغم هذا فان ارهاب الباسك على أيه حال فريد فى نوعه الاستغلال الأنشطه الوطنية الشاملة لتعزيز الغايات الوطنيه أو الايديولوجيات العنيفه. وفى اليابان، على سبيل المثال، كان يوجد دائما مجتمعات طبيعية سريه، إلا أن الجيش الأحمر اليابانى كان عنيفا، متكافئا مع منظمة فوضية منشقه لها طموحات دوليه، خرجت من التجزئ الذى حدث فى سبتمبر ١٩٦٩ لتحالف عصبة تروتسكيست. للشيوعيين الثوريين فى طوكيو، وقد رأى أعضاؤها من الطلبة فى أنفسهم أنهم جزء من الكفاح الثورى العالمى والذى من المحتمل أن يشغلوا عن طريق حرب العصابات الحضرى الشامل، وقد استهلموا أفكارهم من مظاهرات طلبة باريس فى مايو ١٩٦٨. وكان أول تأثير للجيش الأحمر اليابانى فى آسيا باختطاف احدى طائرات شركه الخطوط الجوية اليابانيه فى

ابريل ١٩٧٠ ـ وطوال السبعينيات، اتسع مجال عملهم. وفى أغسطس ١٩٧٥ قام الأعضاء المرتدون قلنسوات البرنس السوداء وحاملين مدافع رشاشة بالاغاة على المبنى الحديث فى كوالا لامبور والذى يستوعب مكاتب قنصليه الولايات المتحده الأمريكيه، وألقوا القبض على اثنين وخمسين رهينه، وفازوا باطلاق سراح خمسة من رفاقهم المحتجزين فى السجون اليابانيه. وبعد ذلك طار الارهابيون إلى ليبيا ـ وتلك كانت أول علاقه واضحه مع ارهاب القذافى الدولى.

وفى سبتمبر ١٩٧٤، أُخْتُطِفَ السفير الفرنسى فى لاهاى وأُخْتُجِزَ كرهينه لمدة خمسة أيام بواسطة مجموعة من كوماندوز الجيش الأحمر اليابانى. وقد شاركنا بصورة عميقه فى المجهودات الناجحه فى النهاية لانقاذ السفير الفرنسى، والذى ، طوال فتره أسره،أظهر شجاعه كبيرة. وبسرعة تحققنا من كدرنا فى أنه منذ بضعة اسابيع، قامت السلطات الفرنسية وعن غيرقصد بالافراج عن زعيم هذه المجموعة الارهابيه، والذى اعتبرناه من الأفراد الأكثر خطورة. لقد كان محتجزا فى سجن دى لاسانت فى باريس لمخالفة غير خطيرة نسبيا ، وبعد ذلك ونظر ا للتنسيق السئ والبيروقراطية الخرقاء، تم الافراج عن الارهابى فجأة دون أى تحذير للـ SDECE . وإذا ما كنا قد اطلقنا على نبأ الأفراج عنه، لكنا وبسرعة قد أبلغنا رءوساء الأمن فى كل من جيراننا ، ومن بينهم نظراؤنا فان هذا الارهابى اليابانى، استطاع أن يتخذ طريقه إلى الارهابى دون أى اعاقة، حيث شرع وبسرعة فى تدبير مؤامرة للقيام بعمل ثأرى مباشر لما اعتقد أنه معاملة مهنية وجهتها إليه فرنسا. وأكثر من هذا

وباختطاف السفير فقد كان الارهابى يأمل التأثير للافراج عن أحد رفاقه والذى كان باقيا فى أحد السجون فى فرنسا.

وحيث أن الارهابيين المحترفين يقومون بتغيير هويتهم وفقا لرغبتهم وعادة ما يحملون وثائق وجوازات سفر مزورة وخالية من الاخطاء، فإن الحدود والحواجز التى يعترضونها فانها إلى حد يعيد أدنى مفتاح لاكتشاف أو منع النشاط الارهابى عن ذلك النوع من العمل الاستخبارى الذى يتتابع، يوما فى الداخل، ويوما فى الخارج، على جميع الجوانب لتلك الحدود. وكانت أول جماعة ارهابية تحظى بالمساندة الليبية والتى كانت تتآمر لوضع قنبلة ذات تفجير مفاجىء وعال على طائرة بان أمريكان الرحلة ١٠٣ - من نفس النوع الذى دمر فى النهاية الطائرة عند مرورها فوق لوكيربى باسكتلندا، فى وقت متأخر من مساء يوم ٢١ ديسمبر ١٩٨٨- وقد تم تصنيع الجهاز فى أحد مصانع القنابل فى إحدى الشقق الصغيرة على أطراف ميونيخ. ومصنع القنابل هذا؟

وقد تم الكشف عنه مؤخرا أغار عليه البوليس الألمانى الغربى. وفى ذلك الوقت فقد اتخذت المعلومات الخطيرة خلال شبكة المخابرات الدولية وكانت مأسوية متأخرة جدا. وكانت شبكات المخابرات من حكومة لحكومة، وفى معظم النواحى مازالت، ببساطة غير ملائمة لعملهم.

هذا ولا يوجد عناصر أساسية كثيرة فى نجاح أى عملية، أو تعطيل أى نشاط ارهابى سوى المعلومات جمعها، وتحليلها، ونشرها، واستخدامها.

وعلى الجانب الآخر، فإن الارهابيين المحترفين يحللون كل عمل بالتدقيق فى التفاصيل، باحثين عن أضعف همزة وصل فى أى سلسلة. وما أن يختاروا أهدافهم. أو ضحاياهم، يقومون بعمل دراسة تفصيلية.

عن حياة وعادات الضحايا ، وينعمون النظر ، ويتعقبونهم ويلتقون صورا لهم عن كثب دون معرفتهم، ،ثم يحددون، جداولهم اليومية والاسبوعية والشهرية ومن الجائز تواجد طبيب لمراقبة الاهداف لاحدى الامسيات ليس بعيدا عن حفل كوكتيل أو مادبة غداء، فاحصا أظافرهم وبشرتهم، ويكتب التشخيص الذى يمكن أن تستفاد منه قيادة الارهاب. وهمزة الوصل ربما تكون مرضا جسمانياً مزمنا ، أو ربما تكون مكانا أو زمانا يكون فيه الضحايا تحت حماية أقل على غير العادة.

ولقد أثرت فى احدى تلك العمليات شخصيا بشدة. لقد كانت عملية اغتيال ادميرال البحر الايرل ماونتباتن من بورما عام ١٩٧٩ على يد الجيش الأحمر الايرلندى . لقد كانت لى معرفة بما ونتباتن منذ الحرب العالمية الثانية. وفى يونيو ١٩٦٤ ، توجهت إلى الصين فى مهمة نيابة عن الجنرال جوان لمقابلة تشيانج كاى شيك، القائد الصينى. وفى ذلك الوقت كان ما ونتباتن الفاسد الأعلى لقوات الحلفاء فى جنوب شرق آسيا .

وعندما كنت عائدا عن طريق الهند الصينية، اضطرت طائرتى للهبوط لاصابتها بعطل فى بورما. هبطنا فى الأدغال، وبقدر علمى فإن الطائرة مازالت هناك. وقد نجحنا فى أن تبقى على الحياة لأن رجال ماونتباتن سمعوا بكارثتنا وأرسل طائرة صغيرة، والتى نقلتنا الواحد تلو الآخر .

ولم أستطع توجيه الشكر اليه حقيقة حتى خمسة وثلاثين عاما فيما بعد وأنا فى باريس - فى حفل غداء تم ترتيبه فى خريف عام ١٩٧٨ فى منزل ابن عمى، الكاتب ورئيس تحرير، تيريز دى سانت تال ولقد عملت كرئيس لقوات

الخدمات السرية الفرنسية . «المخابرات» لفترة من الزمن. كما أن ماونتباتن، الوسيم وابن عم الملكة اليزابيث الثامن البارع، والاب الروحى للامير تشارلز، قد أصبح رمزا كبيرا للملكية البريطانية، وهو الصورة المصغرة لقوتها وعظمتها . وإذا ما تمكن الجيش الأحمر الايرلندى من القضاء عليه، ستكون بمثابة خدمة موجهة إلى قلب النظام الملكى ووجوده فى ايرلندا الشمالية، رغم أن قلعه ماونتباتن الفخمة تقع فى جمهورية توسيع ايرلندا فى كلاسبيون مقاطعه سليجو.

وبعد أن شكرته لانقاذى والآخرين من محنتنا فى الأدغال، التفت اليه بينما كنا على وشك الانتهاء من غدائنا.

قلت« لقد اكتشفت مخابراتنا أن هناك تهديدا خطيرا موجهاً اليك من جانب الجيش الأحمر الايرلندى ومن القذافى، الاذى يقوم بتمويل العديد من عملياتهم، وأننى أناشدك اتخاذ المزيد من الحيطة، فوق تلك التى تتخذها حالياً.

وقد شرحت له أنه يمكن الأمر خطيرا بالنسبة له إذا ما استمر تعاونه فى البقاء مع أولاده واحفاده طوال شهر كامل خلال الصيف في ايرلندا دون حماية.

ضحك الادميرال لورد ماونتباين بصوت عال وقال« ان الرجال حولى فى سيلجو مغرمون بى جدا وكذلك أنا ولقد سمعت ذلك من قبل وليس لدى ما أخشاه ، وبعد ذلك اقترح ان نستمر فى حديثنا للعودة لزيارة بيته الفخم، برودلاندز، فى هامبشير، انجلترا. وكان من مصادر ندمى الكبير إننى لم اكن قادراً على الاطلاق أن البى دعوته تلك.

وقبل أن أتمكن من قبولها فى أقل من عام بعد ذلك، كان قد مات.

وكما كنت أخشى، كان هناك صدع فى الصفائح المعدنية العراقية لسفينة ـ قارب صغير يستخدمه فى رحلته البحرية خلال الصيف لمنتجعه الايرلندى. لم يكن ذلك القارب تحت المراقبة الدائمة، كما كان يجب أن يكون . وخلال ليلة ٢٧- أغسطس ١٩٧٩، تمكن الارهابيون من زرع المتفجرات داخله بمنتهى السهولة. وقد فجرته القنبلة أشلاء أو معه أحد أحفاده وأصابت أفرادا آخرين من اسرته اصابات خطيرة، وخاصة ابنته، ليدى برايورن.

كان بامكان المخابرات بل يجب أن تعمل بشكل فعال لكلا الجانبين.

وبالتأكيد فان الارهابيين، وليس هناك ما يدعو للاشارة إلى هؤلاء القادة من الجنوب الذين يمولونهم ويتخذونه أهدافا، يفهمون كيف يمكن ان تعمل المخابرات من أجلهم. وليس هناك من سبب لماذا لا تتمكن الديموقواطيةالغربية من ذلك. غير أننا فى أغلب الاحيان متسمون بفقدان الحس بواسطة قوة عضلاتنا العسكرية لكى تدرك كم هو مهم أن نفهم أى موقف بعمق.

وبدلا من هذا، فاننا نستمر فى التعثر وبشكل متكرر داخل مستنقعات متوازية أو نلعب مباشرة فى أيدى هؤلاء الذين يكونون على استعداد لاستغلال ضعفنا أو الافراط الصبيانى المحض.

ولفترة قصيرة بعد الغزو الأمريكى لجزيرة جرنادا فى البحر الكاريبى، والتى كانت تطور علاقات وثيقة خطيرة مع كاسترو زعيم كوبا تقابلت مع بيل كيزى مدير المخابرات المركزية. وفى ذلك الوقت، كانت المعلومات ضئيلة من أن النصر بالكاد قد تم انتزاعه من فكى أكثر الهزائم الحقيرة.

وقد قلت دون تحفظ« بيل » لقد قمت بعمل جيد.

ونعم، ولكننا كنا نواجه مصاعب على نحو وثيق.

تساءلت. وما هو نوع تلك المصاعب.

اعترف، لقد اكتشفنا كتيبة من المهندسين الكوبيين المقاتلين عندما وصلنا إلى الجزيرة، ولم نكن حتى نعرف أنهم هناك، وبالتأكيد أنهم على استعداد للقتال. وبكل بساطة لم يكن لدينا المخابرات الملائمة في الجزيرة.

لقد اعتقد أن هذا أمر لا يصدق للقيام، بمخابرات ضئيلة، باعداد غزو جزيرة معروف أنها تطور علاقاتها الوثيقة بكاسترو زعيم كوبا وهي دولة نادرا ما أظهرت معارضتها لعرض عضلاتها العسكرية. لتكون في خدمة أي صديق أو حليف اخصائي . وكان جهاز مخابراتي والبعض من الوقت يعلم أن الكوبيين يقومون ببناء منشآت لعمليات الانزال في جرنادا.

نظر إلى كيزي باحتراس واهتمام، وكان من الواضح أنه قادر على قراءة أفكاري. وما الذي كنت ستفعله؟ »

وكنت سأضع رجلا على جزيرة، وأجعله متألفا مع المناظر هناك لمدة أسبوع، وهكذا. أو أجلب أحد الفتيان بقارب صغير محلي، وأرسله حول الجزيرة ، ويرسو هنا وهناك. وكما تعلم، في أماكن مثل بحر الكاريبي، فالقارب الصغير أشبه بالسفارة الأخيرة. أنه يتألف مع الخليفة. أنك لم تشاهد ذلك أبدا. انه ينقل، وبه جهاز لاسلكي، فماذا تحتاج أكثر من ذلك؟ »

أول مرة تقابلت فيها مع ويليام وليستر، بفترة زمنية طويلة قبل أن يعينه

الرئيس ريجان مديرا للمخابرات المركزية فى مارس ١٩٨٧، كان رئيسا لمكتب المباحث الفيدرالى F.B.I . أخبرته عن أخلاقى فى واشنطن كما تعلم، لقد ركبت ثلاث عشرة سيارة اجرة خلال الأيام العديدة السابقة. ومن بين سائقى السيارات الأجرة الثلاث عشرة، كان هنالك أمريكى واحد. أما كل الآخرين فكانوا أوكرانيين، باكستانيين، عربا، وحتى كان هناك واحد من ساحل العاج الفرنسى من كافة الأماكن. ألا تعتقد أن ذلك خطر كبير للسماح لهؤلاء الناس لقيادة سيارات الأجرة فى العاصمة دون رقابة أو التعرف عليهم عن كثب؟ » وفى باريس فإن أكثر من ثمانين بالمائة من كل سائقى سيارات الآجرة: فرنسيون.

وتساءل وهو يجفل لاحتمال أننى سأعرض للمناقشة مثل تلك التفاهات.

« لماذا يكون ذلك تهديدا أمنياً؟ »

« إن السيارة الآجرة بكل بساطة تماما ما هى إلا سيارة لها صندوق كبير يمكن أن ينقل الناس، والآوراق، والأفكار ، والمتفجرات، والاسلحة بالاضافة إلى أن بها جهاز راديو. وهذا مستكمل لكافة الشروط. وإذا كان عليّ أن أنشىء تنظيما إرهابيا فى واشنطن، فإننى سأقوم بتجنيد اثنين من سائقى سيارات الآجرة. انهم مروعون. وهم فى كل مكان . وغير مرتين كلية »

لم يفكر فى ذلك من قبل اطلاقا ، رغم أنه فى تلك الايام، فانه كان بإمكان سيارات الاجرة: الدخول إلى مجموعة المبانى فى لانجلى، مقر مساكن وكالة المخابرات المركزية، طالما أن الراكب لديه هوية صالحة.

وفى الواقع، فقد اتضح لى من زياراتى المبكرة للولايات المتحدة الأمريكية

أن هناك حادثة كبيرة من المحتمل أن تحدث ذات يوم إن لم نكن حريصين على أنه ليس لديها بطاقة هوية قومية، وبها حدود هائلة مع كل من الشمال والجنوب، وسواحل كثيرة إلى الشرق وإلى الغرب، وأجانب واقليات من كل الطوائف التى تؤمن بمعتقدات معينة وجنون العظمة، البعض منهم يعزز نمو كل مرارة يعرفها الانسان.

وفى أحد الأيام توجهت إلى البيت الأبيض لمقابلة الرئيس ريجان مرة أخرى. ودون توقع دخلت فى الحديث مباشرة مع الرئيس.

سيدى الرئيس لديكم فى بلدكم مشكلة أمنية كبرى. ولديكم فيما بين عشرة إلى خمسة عشر مليونا من البشر من لم يتم تسجيلهم أو ربما يتم تسجيلهم عندما يكون الوقت متأخرا جدا ».

وتساءل الرئيس « عزيزى الكونت، ألا تعتقد أن هذا الأمر مبالغ فيه إلى حد ما؟ »

« كلا يا سيدى الرئيس، وأعتقد أن تلك الاعداد محتفظ فيها. انكم لا تعلمون من أين جاء هؤلاء الأجانب غير المسجلين، وما الذى يفعلونه، ولماذا يفعلون ذلك سيدى الرئيس، هل يمكنكم حضور الطابور الخامس الذى يمكنكم تنظيمه من بين هؤلاء الناس، هل لديكم حتى بطاقات هوية. إن كل دولة لديها ذلك ».

وتجهم الرئيس وهو يقول« حسنا، إن هؤلاء الأشخاص سيئو جدا. فلنسأل القاضى كلارك». والتقط سماعة التليفون لاستدعائه.

وقد قيل له ان ويليام كلارك، وزير الداخلية، كان موجودا فى البيت الأبيض.« عندئذ أرسلوه إلى مكتبى».

ودخل القاضى، كما كان يشار اليه منذ أيامه التى قضاها فى منصب القضاء فى كاليفورنيا، وزوده الرئيس بتفاصيل محادثتنا إن هؤلاء المتواجدين فى أمريكا بصورة غير شرعية يتراوح عددهم فيما بين العشرة والخمسة ملايين نسمة هذا ما يقوله صديقنا الفرنسى ألا تعتقد أن هذه الأرقام مرتفعة قليلا».

وقال القاضى كلارك« سيدى الرئيس، انه على حق. لكن الرقم يقترب من الخمسة عشر مليونا بالمقارنة بالعشرة ملايين».

وفى دولة مثل الولايات المتحدة الأمريكية، حيث يستغرق الوقت فقط خمسة عشر عاما لكى تصبح مواطنا أمريكيا، فان معلوماتنا تشير إلى أن اعداداً ضخمة من الروس، بل أيضا من مهاجرى الشرق الأوسط وشمال أفريقيا. قد استفادوا من القانون. وبعضهم عملاء فى الانتظار . وعند تتبعهم، فإنهم يهاجمون متعقبيهم ويرهقونهم. ويلى ذلك القضايا القانونية. وحتى مكتب المباحث الفيدرالية ليس لديه الأجهزة للتعامل مع مثل هؤلاء الناس.

وطوال فترة عملى الوظيفية، وكمواطن غير متولٍ منصبا عاما فى السنوات الأخيرة، بذلت جهوداً للتشاور مع الحكومات الأجنبية بخصوص مظاهر أنظمتنا السياسية، والادارية والاستخبارية والتى تطرح تساؤلات حول الزلات الأمنية التى يمكن للارهابيين استغلالها. ومازال هناك حاجة إلى التقنية الرسمية. ولكن لابد وأن نستهل عملنا.

فضلا عن هذا فان طوال توليتى لمنصبى كرئيس للمخابرات الفرنسية، فى

كثير من الأحيان كان يتم استشارة الفرنسيين- حتى فى أوقات قبل الأمريكيين، وربما بسبب معرفتنا المباشرة والأكثر ودا مع العمليات الارهابيه- من أجل المشورة فى التعامل مع الأزمات وقت وقوعها فى أماكن مختلفة من العالم.

وفى احدى تلك المناسبات كان ذلك الهجوم الشعبى على الكعبة المقدسة فى مكة فى نوفمبر ١٩٧٩. إنها مبنى صغير مربع الشكل به حجرة واحدة تقع بالقرب من وسط الجامع الكبير فى مدينة مكة، والتى بدورها توجد فى وسط المملكة العربية السعودية. وفى الوقت الذى كان يفترض فيه أن يتوجه المسلمون تجاه مكة عندما يصلون، فإنهم فى الحقيقة يتوجهون تجاه الكعبة، وأكثر تحديدا اتجاه الحجر الأسود، وهو حجر مطوق بحلقه فضية، ويقع فى الركن الشرقى للكعبة نفسها. وتقول الأحاديث الدينية الاسلامية أن الحجر الاسود قدمه الملك جبريل إلى إبراهيم وأن إبراهيم وإسماعيل قاما ببناء الكعبة ليكون فى مكان أمن. وفى زمن محمد، قام الكفرة بالاغارة على الحرم المقدس، وأن النبى تخلص من الأوثان التى دنسته. وهكذا أصبح اقدس المقدسات للدين الإسلامى.

فضلا عن هذا فإن الحج، الاتجاه إلى مكة، يتم مرة واحدة على الاقل فى حياة المسلم. وقبل الطائرات، عندما كان المؤمنون يعبرون الصحراء والبحار بصعوبة بالغة، كان عملاً خطراً تماماً كما أن هؤلاء الذين كانوا يتمونه فقد كان مخولا لهم باضافة اللقب التشريعى «حاج» إلى اسمائهم بقية حياتهم.

وعندما يصلون إلى مكة، فان المؤمنين المشاركين فى الحج يمشون أو

يرورون حول الكعبة سبع مرات، مرتلين لأجزاء من القرآن، وينتهى الاحتفال بتقبيل كل حاج للحجر الاسود المقدس. والمؤمنون حقا، عندما يموتون، يوضعون على نقالات وتحمل سبع مرات حول الكعبة المقدسة بواسطة الاقارب وذلك قبل دفنهم.

والمسجد الكبير والأرض التى توجد عليها الكعبة تشبه قالب جين جراير مضافا إليها كهوفاً وممرات. ورغم أن المسجد محظور دخوله على الجميع إلا المسلمين، فقد عرفنا قدرا كبيرا عن الموقع والمنطق المحيط به. هذا فقد أصبحت المملكة العربية السعودية هامة بالنسبة لنا، وفى الواقع لمعظم الدول الغربية، وكذلك بالنسبة لايران. وكان كبير ضباط مخابرتنا فى المملكة العربية السعودية، الكولونيل سى. ضابط فيلق الجمال الكبير، مستعرب من الطراز الأول والذى قضى سنوات فى الصحراء وقد كبر ليعرف ويحب الكثير من القادة السعوديين والذين هم أنفسهم من البدو الرحل. وعلى هذا فإن الفهم العميق لأمراء الصحراء هؤلاء لا يكتسب على مقاعد المدارس أو الجامعة، بل على الراحلة- سرج الجمل العربى- ومن خلال أمسيات طويلة. تقضى فى رشف الشاى داخل خيمة حول نار المخيم التى يتم تزويدها بالوقود برذت الجمال. لقد كان هذا الجزء من العالم ولفترة طويلة حكما على الانجلو امريكان، بفضل شركة أرامكو، شركة أنابيب النفط والتى كانت شركة تضامن سعودية أمريكية. وفى الواقع، فان أول زيارتى للمملكة، كان لابد من نقل الرسائل التى تعد لوصولى إلى العاصمة، لمقابلة صاحب الجلالة وكبار المسئولين السعوديين الاخرين، إلى الحكومة السعودية بواسطة الموظفين الامريكيين فى شركة ارامكو. أنهم يتحكمون فى وسائل الاتصالات الوحيدة، وداخل وخارج

البلاد. وفى النهاية أقمنا قنواتنا واتصالاتنا الخاصة الوثيقة بالقيادة العليا للحكومة والمخابرات فى المملكة.

ولبعض الوقت، كنا نقوم بتقديم تقارير إلى الحكومة السعودية على أعلى المستويات بأن اسلحه من أصل روسى تدخل المملكة بطرق غير مشروعة من اليمن الجنوبية، الولاية التى يسيطر عليها الشيوعيون فى الجنوب. وكانت جريرة سومطرة، البعيدة عن تواطىء اليمن الجنوبية .التى يسيطر عليها الشيوعيون. أكبر قاعدة سوفيتية خارج حدود الامبراطورية!! لقد كان للسوفييت كل مصلحة فى اشاعة عدم الاستقرار فى المملكة العربية السعودية بسبب ثروتها النفطية الضخمة، واعتماد الغرب على امدادات البترول السعودى، والوجود الأمريكى الضخم فى المملكة. بجانب هذا فان دولا أخرى فى الشرق الأوسط قد أصبحت محررة من الوهم السعودى لسيطرتهم وتحكمهم فى سوق النفط العالمى وقدرتهم على وضع الاسعار بالتحكم فى الامدادات والغيره والحسد من الدوافع القوية فى المنطقة السريعة الاستثارة كالشرق الأوسط، ورغم كونهم مضيفين للمناطق المقدسه فى الاسلام، فان السعوديين ولفترة طويلة كانوا إلى حد ما محصنين أمام ظهور أكثر العداوات وضوحا.

وكان أول تحذير بالمتاعب فى الكعبة فى شهر نوفمبر عام ١٩٧٩ يجىء من جانب أحد الحجاج المغاربه والذى كان يؤدى مناسكه عندما سمع طلقات نارية. وكان هنالك العديد من الارهابيين- وكلهم من المتطرفين المتعصبين، والذين يشجعهم الجهاد الاسلامى الايرانى، والمتلهفين لاشاعة عدم الاستقرار وحتى الاطاحة، بما يعتبرونها القيادة السعودية الفاسدة والعلمانية- ينفذون عملية

معدة باحكام ومسلحة تسليحاً ثقيلاً من أجل الاستيلاء عليها والاحتفاظ بالكعبة المقدسة ذاتها. وأندفع بسرعة مفاجئة من الأماكن المقدسة إلى أول تليفون ، طلب الحاج المغربي السفارة المغربية، حيث كان، وبالمصادفة البحتة، الموظف الذى فى الخدمة أحد أفراد فرقة المخابرات المغربية. وفى الحال تعرف هذا النقيب على خطورة الموقف وطلب الرباط تليفونيا. وخلال دقائق، تلقى الملك الحسن الثانى، وهو نفسه من أكثر المسلمين ورعاً وتقوى كما أنه يحمل لقب أمير المؤمنين، الرسالة الشفرية بسرعة والتى تعلن عن انتهاك الأماكن المقدسة. وبالمصادفة، كان فى حضرته الأمير عبد الله بن عبد العزيز آل سعود، رئيس الحرس الأبيض السعودى الخرافى، بصرف النظر عن الجيش والشرطة والذى يشكل درع المملكة السعودية. وقد ثبت فى النهاية أن عقيدا من الوحدة المنشقة هو المنظم الرئيسى لهذه المؤامرة. وباستخدام عدد من الارهابيين المدربين، جميع المؤن للمتمردين المختبئين على عمق فى الأدوار التحتانية ذات المتاهات فى الجامع الكبير بمكه. وكانت الأسلحة الاوتوماتيكية مخبأة فوق النقالات والتى تحمل على نحو عادى الميت أو الحجاج الموتى، ولكنها لم يحملها هذه المرة أفراد العائلة المحيطون بالكعبة المقدسة، بل حملتها قوات الارهاب.

لقد كانت واحدة من أكبر العمليات الارهابية التى تعاظمت فى الشرق الأوسط، ومن المؤكد أنها أكبر واحدة قام بها المسلمون ضد المسلمين. واتجه السعوديون، بمبادرتهم الخاصة، إلينا. لقد كانوا يعلمون أننا كنا نراقب وبحرص مشكلاتهم الأمنية وأننا كنا نقدم لهم وحتى ولو كانت فى كثير من الأحيان يتم إهمالها، معلومات استخبارية قيمة عن المصادر التى يمكن عن طريقها تسلل الأسلحة والمؤثرات الارهابية إلى داخل المملكة.

وأكثر من هذا ، فان السعوديين يدركون وبذكاء أن العمل الدقيق وعلى الأخص الكتوم كان ضروريات وليس التدخل العسكرى الضخم بمقياس عاصفة الصحراء. وفى الحقيقة ، كانت أول نصيحة لنا أنه لن يكون هناك تدخل عسكرى فرنسى رسمى مباشرا فى العملية لاستئصال الارهابيين . وعلى هذا فلابد وأن تتدخل قوة اسلامية على نحو صرف فى ضاحية مقدسة مثل الجامع الكبير والكعبة . ورغم أن دورنا كان ولابد وأن يكون فى الخفاء ، فقد كان فى مقدورنا أن نوفر التخطيط المفصل والذى يمكن السعودية من تنفيذ هذه العملية بنجاح . وعلى هذا قامت قوات الأمن الفرنسية بتوريد القنابل اليدوية الارتجاجية وغيرها من الأجهزة التخصصية . وقد استغرقت العملية أياما لاخلاء المتاهات من القوات الارهابية . ورغم هذا وفى النهاية ، تم استعادة الاستقرار . ومع ذلك فان السعوديين يتذكرون الدروس التى تعلموها فى ذلك الحين . فكلما كان بالامكان ، حاولوا الاحتفاظ بالعلاقات الودية مع جيرانهم ، فانهم لايثقون مرة أخرى أبدا أن يكون أمنهم فى أيدى أى قوة خارجية ، كما أن علاقاتهم بالغرب تزداد وببساطة لشراء الأسلحة الأكثر حداثة من أجل حمايتهم الخاصة . حتى عملية عاصفة الصحراء لم تكذب هذا الاهتمام .لقد تم إخراج القوات الأمريكية ، ونفوذهم الاجتماعى الفاسد وغير المستقر ، بمجرد ماتم التعامل مع التهديد العسكرى المباشر لصدام حسين ، رئيس العراق .

فضلاً عن هذا فإن بعض السعوديين الذين يرهبون الاجانب ويكرهونهم يعززون تفسير رد الفعل لاقتراح عرضته فى مقابلة رسمية مع الملك فهد بعد فترة قصيرة من عملية الكعبة. وفى ذلك الوقت، تحقق أنه من الاسرة السعودية فى ضربة واحدة بتدنيس الاماكن المقدسة عن اغتيالهم الواحد وراء الآخر، بنفس

الطريقة التى قتل بها الملك فيصل منذ أربع سنوات فى وقت مبكر فى شهر مارس ١٩٧٥. وكانت كل الاجتماعات التى عقدتها مع الملك فيصل وولى العهد الامير فهد، وريث العرش ، كانت تسير بمنتهى السرية وقد بدأ الملك فيصل وأنا حديثنا فى مكاتبه الخاصة بالقصر الملكى بالرياض .كان يرتدى رداء أبيض بسيطا ، وكان يبدو بسيطا ، متواضعا جدا ، فى الوقت الذى كان يحرك فيه مسبحة صلاة المسلمين بين أصابعه. وفوق ذلك فقد كان رحالة عالمياً واسع الاطلاع بشكل غير عادى. وعندما بدأنا حديثنا ، طرح على سؤالا كان يسبب له قلقاً لبعض الوقت:« ما هى رؤيتك لبلادى فى المستقبل؟ »

« اسمح لى جلالتكم، لقد وضعت بعض الافكار فى هذا الشأن. وإن إحساسى هو أنكم ستواجهون مشكلة كبرى بالانتقال فى حبل واحد من الفترة التى كنتم فيها بدواً، رجال الصحراء إلى ما بعد الحضارة الصناعية حيث وجدتم أنفسكم الآن. وأكبر خطر لكم هو أنكم ستخسرون فضائل الصحراء دون استيعاب ما بعد العالم الصناعى. وستكون هذه الفجوة خطيرة بالنسبة لكم وعدم الاستقرار ، وعلى وجه الخصوص مع جيرانكم المحيطين بكم بخطوات مختلفة وجداول مختلفة كلية . أنه الوقت الذى ستفقدون فيه روحكم، والكثير».

نظر إلى جلالته بتركيز وقال.« لقد فهمت . إن أخطر شيء يمكن أن يحدث لأمة ماهو ان تفقد روحها . انها اكثر مشاكلى الهامة . وبعد بضع سنوات كان لى حديث آخر مع ولى العهد الأمير فهد الحاكم المستقبلى للمملكة العربية السعودية.

تنهد وهو يقول « كما لكم، لدينا كل المال الذى فى العالم. لدينا النفط وسعر برميل النفط ثمانية وثلاثين دولارا بوفرة مالية أكثر ما يمكنا أن نحتاجه . وفوق هذا وعلى أى حال فلدينا عدد كاف من الرجال أو الجنود للدفاع عن أراضينا الشاسعة. »

وبعد بضعه شهور، كررت مع ولى العهد الأمير فهد نفس المشكلة بعد أن قال أن لديهم المال وبعض الأفكار لكن ليس لديهم الطاقة البشرية.

وقد اقترحت « حسنا، ياصاحب السمو، لقد طرحنا فكرة جديرة بالاعتبار لهذه المشكلة أيضا. وعلى هذا فهنالك حل واحد ممكن بالنسبة لمشكلتكم.

إن البريطانيين فى الوقت الحالى يقومون بعملية تسريح العديد من كتائب الجورخاس وهؤلاء الجورخاس من أكثر الرجال المحاربين الممتازين فى العالم. أنهم أقوياء جسمانيا أنهم من رجال الجبال من منحدرات الهمالايا. وادراكا لتلك القوة تم توحيدهم بالتدريب البريطانى والغضب والتهذيب إنهم خرافيون. لقد شاهدتهم يعملون فى أفريقيا وفى معركة كاسينو خلال هجوم الحلفاء على ايطاليا أثناء الحرب العالمية الثانية. أنهم متخصصون فى مكافحة الارهاب إلا أنهم ممتازون، مقاتلون ممتازون. ولو كنت مكانكم، يا صاحب السمو، لكنت استأجرت فرقة من هؤلاء المرتزفة الرخاص جدا ـ ولا مشكلات دينية - دعهم يتحركون وسط البحر الاحمر، ولنقل فى البحر ، ومعهم بضع طائرات هليوكوبتر وقوارب سريعة. أننى لا أقول أن هذا وحده سيمنع الجيش السوفيتى بأكمله فى السير من خلال الشرق الأوسط إذا ما فكروا فى عمل ذلك . لكن التعامل مع اى تهديد آخر- فأننى سأضمن لك السلام لمدة عشر سنوات».

ابتسم الأمير فهد ببطء. » إننى أميل إلى ذلك. انها فكرة عظيمة «.

ثم صمت برهة وقطب حاجبيه. » لكن، يا عزيزى الكونت، هذا مستحيل. وكما تعلم، فانها مسألة الشرف العربى- انهم ليسوا منا «.

إن الفشل من جانب تلك الدول التى تعارض استخدام الارهاب لكى تتفاعل ببرود وبدون عاطفة بأى أسلحة أو قوات ستقوم بالعمل بأكثر كفاءة وعلى وجه الضبط هو السبب فى أن الارهابيين دائما ناجحون.

إن الحقيقة الملحة والرئيسية فى العمليات المضادة للارهاب هى السرعة والتعاون بجانب هذا فأن فعالية عملية الكعبة هى حجة قوية لقيام والاحتفاظ بشكل من أشكال قوة الشرطة الدولية والتى يمكنها التفاعل وبسرعة وجراحيا. وسواء أكانت تلك قدرة استشارية أو على شكل المشاركة النشطة، بغض النظر عمن يكون عرضة للهجوم، فإن مثل تلك القوة لاغنى عنها فى سمعة أعمال الارهابيين المعاصرين هذه الأيام وكذلك من يتحكم فيهم. وقد حاولت جماعة المخابرات الغربية لتوحية هذه الحاجة إلى استجابة قوية، وسريعة ومؤثرة فى العمليات الارهابية طوال السبعينيات والثمانينيات، كما أننا نوجهها وباستمرار هذه الايام ولكن هنالك قوى عديدة تعمل ضدنا.

إن العامل الاساسى الذى يعوق جهودنا لتطوير استجابة دائمة ومؤثرة بالنسبة للارهاب هو غياب العمليات التعاونية بواسطة أى دولتين غربيتين، إذا ما تجاوزنا الاجراءات المتعددة الجنسيات من أى اهتمام وفى الواقع. فإن المحاولة الوحيدة وعلى نطاق كبير والتى كان لابد من التعهد بها خلال السنوات السابقة على عمليه عاصفة الصحراء، والتى كانت إلى حد بعيد خطورة

عسكرية تقليدية عن كونها هجوماً مضادا للارهاب، كانت العملية الفرنسية- البلجيكية- الغربية المشتركة فى زائير فى أواخر السبعينيات.

إن دولة زائير الافريقية الكبيرة، وهى الكونجو البلجيكى سابقاً حجمها يوازى أربع مرات حجم فرنسا. إنها الدولة الوحيدة الغنية فى أفريقيا السوداء وذلك بمصطلح المصادر الطبيعية. ونهر الكونجو يمثل مصدرا للطاقة والصيد وكهربية أبعد من أى مقارنة بانهار أوروبا. إلا أن الدولة ممزقة بسبب التنافس القبلى. والقيادة الوحيدة القوة هو الجنرال موبوتو سيسى سيكو الذى استطاع أن يحافظ على تماسكها عن طريق القوات الشرشة، بجانب هذا فإن انجليم شابا، والذى كانا معروفا باسم كاتانجا، وبكشافته من النحاس، والماس، والكوبلت، والمنجنيز والكادميوم، والرصاص، والقصدير، والنفط، هو المصدر الرئيسى بالامداد بأربعه من الثمانية معادن الاستراتيجية الحساسة لجهود الدفاع الغربية أنه أغنى الاقاليم فى تلك الأمة الثرية ولعدة سنوات حاولت قوى عدة أن تفصل شابا عن زائير- وهى كارثة من وجهة نظرنا حيث أن من المحتمل أن نترك اقليم شابا الغنى بصورة لا تصدق وصراعات، رغم موقع زائير الاستراتيجى. ومثل زائير تلك فانها من المحتمل أن تكون عرضة لهجوم عميق من قبل قوات تتراوح بين الاتحاد السوفيتى وليبيا القذاقى.

وفى شهر مايو ١٩٧٨، عاد ٤٠٠٠ من قوة درك كتانجا السابقين من انجولا، حيث كانوا يعملون كمرتزقة لمساعدة حكومة انجولا التى تساندها الشيوعية. وكانت قد صدرت لهم الأوامر من صرافى الروابت الانجوليين بفرض حصار على المناجم الخرافية لكولويزى فى مجهود آخر لتقرير انتفاضة

تؤدى إلى انفصال اقليم شابا وربما أيضا الاطاحة بالرئيس موبوتو سيسى سيكو وقد ذبح ما يقرب من ١٢٠ اوربياً، مع مئات من المواطنين المحليين الآخرين.

وعن طريق مصادر المخابرات علمنا بهذه العملية حتى قبل القيام بها وكان واضحا من مجالها أن هناك بعض الحكومات الخارجية المساندة متورطة فى هذه العملية- ومن المؤكد حكومة انجولا الشيوعية، ومؤيدوها الكوبيون، وأيضا بتوسيع مدى الخدمات للاتحاد السوفيتى. وأكثر من هذا فان محاولة الغزو كانت تلقى على أقل تقدير تشجيعا معنويا ليبيا القذافى، التى كانت ملتهفة لتعزيز عدم الاستقرار فى جزء من العالم حيث أن مثل تلك القلاقل ستبرهن على أنها أكبر فرصة لتوسيع النفوذ الليبى. وبكل تلك القوى المصطفة على جانب الغزاة، أصبح وبسرعة واضحا أن هنالك عنصرين يحتمل أن يكونا أساسيين لتحييد العملية بالقيام بعمل لم يكن مألوفا مع قوات الدرك، واستعادة القانون والنظام. ولتحقيق ذلك، لابد من تجميع قوة متعددة الجنسيات تتضمن أوروبيين وأفريقيين، وبعد ذلك ستكون هناك حاجة للقيام بعملية عسكرية مظلية - وتكون معدة مجهزة مقدما بعمل استخبارى مفصل. ولتجميع القوة البشرية، بدأنا أولا فى اغراء البلجيكيين. فرغم كل شىء فإن زائير كانت فيما مضى الكونجو البلجيكية حجر الزاويه للامبراطورية البلجيكية فيما وراء البحار. ومع ذلك كان علينا أن نتوسل اليهم للمشاركة. كان من الواضح وجود استياء من قيام فرنسا بمثل هذا الدور الرئيسى. وفوق هذا، فان القرار البلجيكى للمشاركة فى التدخل جاء متأخرا جدا ولولا القوات الفرنسية والمغربية لكانت ضاعت أرواح أعداد كبيرة من المدنيين.

وحتى قبل القوة المتعددة الجنسيات فقد أرسلنا عملاء وكانوا أول من وصل إلى اقليم شابا. وكان بعضهم متنكرا كطباخين وحلاقين. وبعضهم ارتدى الزى العسكرى الرسمى الفيلق الفرنسى المخيف، الباريهات الارجوانية. وقد هبطوا بالليل، كما تفعل كل عملياتنا الميدانية ، وقد انتشروا على شكل المروحه خلال كولويزى. وبسرعة اكتشفنا أن المستشارين الكوبيين الثلاثين المصاحبين لمرتزقة كاتانجا قد تراجعوا على الفور إلى الجانب الاخر لحدود مد كاتانجا التى تتقاسمها مع اقليم شابا.

وفى الوقت الذى كان فيه رجالنا السريون باعداد قاعدة الغزو الشامل الذى ستقوم به فرق مظلاتنا، توجهت إلى المغرب لكى أقنع الملك الحسن لتزويدنا بقوات مشاه مغربية، ويكونون بارعين مثل الجورخاس، للعملية لقد كان ذلك ضروريا. ولقد اعتقدت، بأنه يمكن فهم ذلك على أنه عملية أفريقية فى أفريقيا وأنها عملية متعددة الجنسيات بين حلفائنا الغربيين.

لقد كانت علاقتى بالملك حسن الثانى علاقة لا تستلزم أن أطلب موعدا. لقد كان الأمر يتطلب وصولى فقط. كان بصحبتى مساعدى وأحدجنرالاتى، وسافرنا إلى القائدة Naida خيمة الحسن الكبيرة والتى كثيرا ما تستخدم فى مزرعته خارج فاس. وكانت الرسالة الشفرية الوحيدة التى تسلمها الملك منى كانت لاخباره بوصولى.

وعندما اقتربنا على مشارف القائدة بمسافة خمسين ياردة، ظهر الملك ولف ربع دورة واكتشف ثلاثتنا. وبعدئذ حدث شيء غير عادي تماما، والذى ظل حتى يومنا هذا متعذرا تعليله. رفع يده اليمنى، وحركها، وقال « كلا لن

أذهب». لقد كان يعلم فى ذلك الوقت بالغرض من زيارتنا. ولم يكن لدى فكرة عن الكيفية التى عرف بها. لم أخبر أحدا بخطتى والسبب وراء رغبتى فى مقابلته. ودون أي تساؤلات فان مخابراته تعادل مخابراتنا فى كافة الأوجه. ولم يكن هناك أي تساؤل فى أن لديه حاسة سادسة، وعينا ثالثه، ونوعا من نفاذ البصر لفهم الأحداث والناس وذلك كان أمر غير عادي تماما- حساسية والتى يمكن أن توضح قوته الكبيرة. وفى تلك اللحظة، كنت فى حاجة إليه، لأنه من هو الشخص الآخر الذى يمكنه تجميع وإرسال قوات لعملية قبل تلك العملية خلال ساعات قليلة؟ ولذا مشيت خمسين ياردة إلى الخيمة.

وبدأت في القول« يا صاحب الجلالة، أننا فى حاجة اليكم». ولمدة الخمس والعشرين دقيقة التالية، شرحت له استراتيجية الموقف- ضرورة الحفاظ على اقليم شابا وزائير للغرب، وأن مستقبل القارة الأفريقية معرض للحظر فى وسطها إذا ما حدث انهيار فى اعقاب التراخى.

وقد أدرك الملك على الفور أن لديه مسئولية استراتيجية طبيعية فوق العادة، ولم يتردد. وهز يده. وغادر الخيمة الاشخاص الآخرون.

وقال آمرا. « أعطنى الهاتف، اننى موافق».

وتحركت للنهوض والمغادرة لكى يتمكن من التحدث فى سرية لكنه قال آمرا، كلا عمليتك. أنت المسئول. فلتبق.

وخلال دقائق كان أمامه تعهدات من أربعة من رؤساء الدول الأفريقية- من الجابون، والسنغال، وساحل العاج وتوجو. وكل منهم تعهد بإرسال قوة صغيرة بقيادة المغاربة ومساندة الفرنسيين ثم البلجيكيون وفى النهاية التفت إلى

الجنرال وليمى، مساعده الاول تساءل« كم من الوقت يلزم لارسال رجالنا ؟ ».
وجاءه الرد أنها مسألة ساعات. فلا روتينيات، ولا رئاسات ميدان، ولابيروقراطيه.

لقد كان ذلك عملا لقائد ملتزم ضد عملية ارهابية على مجال واسع ومؤثرة والتى من المحتمل أن يكون من الصعب تفكيكها مع كل لحظة تمر.

لقد استدعينا لتوفير النقل الجوى والذى أوصل أحد عشر الفاً من القوات على أرض شابا فى غضون ساعات لقد استخدمنا طائرات التراسال، وهى آخر نوع من الطائرات نحتاجها لمثل هذه العملية، لأنه كان معترفاً بها فى تلك اللحظة بأنها السلاح الجوى التابع للـ SDECE وأكثر من هذا، لأنها كانت طائرات مروحية، ولقد كانت معجزة أن أول دفعة من المظليين لم يقطعوا إربا من طائرات التراتسال التى تلت ذلك. ورغم هذا فقد كانت الطائرات الوحيدة الميسر الحصول عليها خلال لحظات قصيرة. ومع هذا فقد سلكت العملية الطريق المتوقع دون أى مقاطعة، رغم أن رجال مظلات الفرقة الأجنبية الفرنسية كان لديهم باراشوتات جديدة لم يستخدموها من قبل على الاطلاق.

ومن البداية إلى النهاية، كانت العملية نجاحا كبيرا. وانسحب مرتزقو كاتانجا عائدين إلى انجولا . وهكذا تم انقاذ مناجم كولويزى وكذلك بقى المئات من الغربيين والزائرين على قيد الحياة.

فضلا عن هذا فقد سهل نجاح عملية زائير المبكرة الطريق أمام مهام الانقاذ المستقبلية، مؤكدة السلام فى هذا الركن الحيوى من أفريقيا وستسمح تلك المهام لنا بضمان أمتنا وأمن المواطنين الغربيين الآخرين- وأكثرها منذ عهد

قريب فى سبتمبر ١٩٩١، وذلك عندما ثارت القوات الزائرية التى لم تسلم رواتبها لشهور، وقامت بسلب ونهب العاصمة كاتشاسا وغيرها من المدن الاقليمة. ومن ثم قامت عملية مظلية مشتركة فرنسية بلجيكية بتأمين عملية اجلاء المواطنين الأجانب ومن بينهم عدة آلاف من الامريكيين. وقد ارسلت هذه المهام انذارا إلى القوى الخارجية التى من الجائز أن يكون لديها شهية لامتلاك ثروة تلك الأمة وذلك بأن أى تدخل فى شئون زائير الداخلية سوف يتم التعامل مع سرعة ويجزم.

ومع ذلك فان مثل تلك العمليات المشتركة تعتمد على المشاركه الاستخبارية؟ وتنفيذها كان ومازال نادرا فى الواقع، ورغم نمو الادراك بأن الجهود المتحالفة ضرورية. إننا لسنا ولم نكن أبدا منظمين لمحاربة الأنشطة الارهابية أينما حدثت. لابد من التغيير.

الفصل الحادى عشر

التنظيم ضد الكشف

فى الأيام القليلة قبل الحرب العالمية الرابعة، استغلت الكتلة السوفيتية عدم قدرتنا على تنظيم نشاطاتنا الاستخبارية بشكل فعال وكذا ردود فعلها أقصى استغلال. فاليوم يستمر الارهابيون ومناصروهم فى استغلال نقط الضعف هذه ومهمة جهاز المخابرات الكبير ليست فقط المعرفة الجيدة للطرق التى يعمل بها الأخرون فى بلد الشخص وأى مكان آخر، ولكن الادراك العام والحساسية لما يحدث فى العالم على النظام الواسع. وإحدى نقاط الضعف الأساسية فى الأمم الغربية- فى طرق التنظيم والتحليل- هى أنها غير قادرة على التعامل مع العداوة الدولية بنظرة عالمية يقع مسرح عملياتها فى الكوكب كله.

وغالبا ما نكون سعداء بالنظرة التكتيكية المحلية أو الاقليمية مثل النظرة الفرنسية أو الأمريكية التى تمثل الأمنيات غير الحقيقية . فنحن نتمنى بشدة أن يكون هناك زاوية صغيرة لعالمنا تمثل العالم بأسره. فبدلا من ذلك، ينبغى علينا أن نزرع نظرة عالميه استراتيجية. وحيث لا نمتلك الموارد أو الفهم السليم، ينبغى علينا أن نجهز لوضع أمتنا فى أيدى حلفائنا الذين يمتلكون المقدرة التى نفتقدها.

وكانت هناك حالات متكررة للكوارث وشبه الكوارث تسبب فيها الشك والجهود وعدم التصديق أو ببساطة فشل عمليات الاتصال بين أجهزة المخابرات التى ينبغى- بالايديولوجية والتعاطف- أن تكون متعاونة بشدة.

فعلى سبيل المثال فى مايو ١٩٨١، كان من الممكن أن ينجو البابا چون بول الثانى من رصاصات على أجسا تماما، لو أن سلطات المخابرات الفاتيكانية والايطالية كانت قد تعاملت مع المعلومات التى أعطتها المخابرات الفرنسية.

وقبل أن تصلنا المعلومات الدقيقة عن محاولة الاغتيال الحقيقية بفترة طويلة، كنا قد تكهنا بقيمة بابا بولندى بالنسبة للسوفييت وحلفائهم. وبدراسة سيناريوهات مختلفة، وباستخدام أفضل خططنا، وقيامنا بوضع أنفسنا مكان زعماء أوربا الشرقية، استنتجنا أنه كانت هناك أربعة أسباب هامة للرغبة فى قتل هذا البابا.

أولا: لأن البابا كان من الشرق، وكان كبير الأسقف لديه فهم عميق للكيفية التى تعمل بها العقول الشيوعية. ولم يكن هناك شىء يكرهه الشيوعيون أكثر من الشخص الذى يفهم عقولهم وعملياتهم فالملاك لا يمكن أن يتخيل حال الجحيم، إلا أن الشياطين التى كانت هناك تستطيع ذلك.

وقد أدرك هذا البابا ما لم يفهمه أبدا سابقوه القادمون من الغرب.

ألا وهو الاختلافات والتشابهات التى كانت تتواجد معا فى أديان الكاثوليكية والشيوعية.

والسبب الثانى لمحاولة قتل البابا جون بول الثانى هو المهمة التى أعلنها هذا البابا على الملأ منذ الدقائق الأولى لتوليه المنصب: وهى إرجاع كل عناصر الكنيسة الكاثوليكية. وكان هذا يتضمن كل المطارنة. والقساوسة الكاثوليك فى الشرق الذين اختارتهم الأنظمة الشيوعية والذين كانوا يعملون كأدوات للسيطرة على رعاياهم.

والسبب الثالث الذي حددناه هو احتمال أنه إذا تم قتل هذا البابا ، فإن من سيتولى بعده سيكون ايطاليا ، مطرانا أقل اهتماما بتطور السياسة فى الشرق، وأكثر اهتماما بعمليات الفاتيكان نفسه، وأقل مبالاة بتنمية الحضور الكاثوليكى فى أجزاء العالم حيث كان السوفييت يسعون لغرس دينهم العلمانى المؤسس على العقيدة الشيوعية.

والسبب الأخير هو أكثر أهمية. فقد كان البابا هو الرمز المطلق للمقاومة البولندية للشيوعية السوفيتية- وهو العلم والأب والروح الحقيقية للقومية البولندية. في بولندا- وهى الأمة ذات الأهمية الاستراتيجية القصوى للاتحاد السوفيتى والتى تقع على طول الاتصالات والخطوط الحديدية بين روسيا وألمانيا- نجد هناك ثلاثة أرباع من الجمهور المؤمن الذى يحضر بانتظام إلى الكنيسة بسبب العقيدة الدينية، يحضر الى الكنيسة لأنها ترمز إلى المقاومة لقوات الاحتلال المقيتة وهم الشيوعيون السوفييت- فحتى زعماء الحزب الشيوعى البولندى يسافرون سرا إلى القرى التى تقع على بعد مئات الأميال من منازلهم لتعميد أولادهم وبذلك ينتهكون كل قوانين الشيوعية. ووجود بابا مكرس نفسه لزعزعة النظام الشيوعى سيكون بمثابة السم لحكام الكرملين فى هذه الحقبة.

ولذلك كنا مستعدين لوصول استخبارات دقيقة في يناير ١٩٩٠ عن أن القيادة السوفيتية قد قررت قتل البابا. وجاء الانذار من معلومات سرية تلقيناها من أوربا الشرقية. وعلاوة على ذلك فى الوقت الذى أكدت فيه المعلومات السرية تحليلاتنا المتقدمة، كانت هذه المعلومات تبدو أنها حقيقية.

وقد أرسلت إلى الفاتيكان اثنين من مساعدى اللذين اثق فيهما أكثر من أى شخص آخر- وكان بينهما الجنرال موريس بيكو الذى كان طبيبى ومستشارى الخاص، وعضوا مدنيا للقيادة العليا لمكافحة التجسس الفرنسية- وقد قام مطران فرنسى كبير بترتيب المقابلة بينهما وبين مسئولى الفاتيكان، وهذا المطران رجل مخضرم من رجال المقاومة فى الحرب العالمية الثانية. وعلى الرغم من أن الاتيكيت الدبلوماسى ينص على أن البابا وهو رئيس الدولة، ينبغى أن أخبره عن الخطر اللائح، إلا أننى إذا كنت قد ذهبت شخصيا ، كان الإرهابيون الذين يقومون بالعملية قد نالوا بعضاً من التحذير، وأصبحوا حذرين فى خططتهم .

وقد سافر اثنان من العملاء التابعين لى إلى الفاتيكان واعطا معلوماتهما إلى مساعدى الباب موضع الثقة. وقد قاما بدورهما بتقديم المعلومات إلى الاب المقدس الذى - كما تم اخبارهما- اعترض على اعتقادهما بأن الأمر فى أيديهما . فحياته- كما قال. فى أيدى الله. وقد احترمت كثيرا هذا الاعتقاد على الرغم من أننى اعتقد أنه هناك بعض الأحيان التى لا يجوز فيها أن نعطى الله بعض المساعدة البشرية وعلى هذا فإننا لم نثر الأمر مرة أخرى.

ومن المؤكد أنه مع وجود العلاقة الحميمة بين الأب المقدس والدولة الايطالية، قام مسئولو الأمن فى الفاتيكان بمناقشة تحذيراتنا مع السلطات فى روما. ولم أتوقف أبدا عن السؤال عما إذا كانت السلطات الإيطالية قد اتخذت إجراءات كافية لحماية الأب المقدس.

وكانت هناك زيارات متكررة لى خلال عدة سنوات قام بها المحققون الذين يبحثون فى مسألة محاولة اغتيال الباب جون بول الثانى برمتها .

ومؤخرا، جاء مسئول كبير فى الشرطة الفرنسية الخاصة بالجرائم لمقابلتى، مما يشير إلى أن التحقيق مازال مستمرا إلى الآن. إلا أن الزيارة الأولى قام بها القاضى المحقق ألاريو مارتلا الذى كان يرأس التحقيق الإيطالى فى محاولة الاغتيال بفترة ليست بالكبيرة بعدما حدث هذا الأمر فى ١٣ مايو ١٩٨١. وقد وصل ومعه قائمة بثلاثين سؤالا لم اتمكن من الإجابة عنها نظرا لقيامى بحلف اليمين الخاص بالسرية فى العمل للدولة الفرنسية. غير اننا قد قمنا بمناقشة عدد من القضايا تتضمن إيمانى بأن اجسا لم يكن متعصبا ولا صلة له بأحد، أو حتى شخصا تسانده شبكة متخصصة.لمجرمى وموزعى المخدرات البلغاريين. وبعد عشر سنوات من محاولة اغتيال البابا، جاء مارتلا لمقابلتى فى باريس فى اكتوبر ١٩٩١.

وكان الدليل الذى قدمته إلى مارتلا يوضح أن البلغاريين كان يتم استغلالهم دائما لأسوأ الاعمال -أى الاغتيال ـ . وحيث ان الأمة كانت أكثر ولاء لجيرانهم الروس وأكثر الأمم ترابطا من الناحية العرقية والثقافية معهم، فقد كانت قيادة جهاز المخابرات الروس (الكى جى بى) ترى البلغاريين على أنهم أنسب الأشخاص للعديد من المهام الحساسة وعالية الذكاء. وكان هذا سببا رئيسيا لبحثهم المستمر عن البلغاريين فى باريس وفى أماكن أخرى.

وكانت بلغاريا أيضا منطقة تستخدم كمحطة هامة جدا لنقل السلاح بين الكتلة السوفيتية والمنظمات الإرهابية الرئيسية. ولأنها تقع على طول طرق النقل الرئيسية بين أوربا والشرق الأوسط التى تمر عبر تركيا وعبر البوسفور، فإن عملاء الارهابيين كانوا غالبا يتوقفون فى فرنا ببلغاريا لتحميل الأسلحة

والذخيرة، وذلك وهم فى طريقهم إلى ما اتضح أنه المركز الأوربى الرئيسى لهم خلال مدة كبيرة فى السبعينات وإلى الثمانينيات وكان هذا المركز هو باريس.

ولذا خلال السبعينات والثمانينيات ، كنا نراقب عن كثب الحلفاء بأوروبا الشرقية الذين غالبا ما كان يتم الضغط عليهم لعمل خدمات من نوع العمليات الإرهابية والاستخبارية التى لم يرد الكى چى بى القيام بها. وعلاوة على ذلك، كان التعاون بين أجهزة المخابرات السوفيتية وأجهزة المخابرات فى أوروبا الشرقية- والذى كانت تسيطر عليه المراكز الرئيسية لكى چى بى مباشرة من ميدان د زيرزينكى بموسكو- تعاونا كاملا من البداية للنهاية ويتضمن مجموعة من الاستخبارات والتحليلات وبالطبع العمليات العنيفة، وكان تعاونهم يتناقض تماما مع تعاوننا فى الغرب، الذى كان غالبا منقسما على نفسه وغير متكامل كما وصل إلى حد التنافس المفتوح بين الأجهزة وبعضها. وكان تعاوننا شيئا يحدث فى المناسبات على أحسن الأحوال- وكان يعتمد على الصداقات والصلات الشخصية وعلى أساس قضية بقضية فقط.

واعتمد اعداؤنا على توجيهات مقننة وعلى تقسيمات للعمالة على أسس صارمة وثابتة. وكان يتم استغلال فى أعمال الاستخبارات فى الدول المنتجة للبترول ، وبسبب وجود احتياطى من البترول فى بلادهم فى بولستى، فقد قام بتنمية خبرات فى صناعة البترول مما أدى إلى مساعدتهم فى التسلل إلى هذه الصناعة فى الدول الأخرى. وكانوا أيضا مقيدين فى بعض الدول المتحدثة باللغات الرومانسية لأن اللغة الرومانية هى اللهجة الوحيدة فى شرق أوربا ذات الجذور اللاتينية. وقد شوهد أيضا ضباط التجسس الرومانيون فى المناطق

المتحدثة بالفرنسية فى افريقيا. وغالبا ما كان يوجد العملاء البولنديون فى شمال فرنسا لأن العديد من مئات الآلاف من عمال استخراج الفحم البولنديين أو أحفاد عمال استخراج الفحم البولنديين توجهوا إلى حقول الفحم الفرنسيين عبر السنين. وبسبب التقارب طول الأمد بين البولنديين والكاثوليكية، أصبح رجال التجسس البولنديون ماهرين فى التسلل إلى الكنيسة فى فرنسا. وكان يتم توجيه هؤلاء العملاء لجمع المعلومات بدءاً من التقارير مفصلة عن حالة احتياطى الفحم وإنتهاء بالأهداف الاستراتيجية لما خلف خطوط الهجوم فى حالة حدوث الحرب. وقد أعطيت معلومات لهم بأن يقوم بتتبع المنفيين المتمردين الذين قد يكونون على اتصال ببعض المعارف فى وطنهم، والأكثر أهمية من ذلك المنفيين الذين يعملون كمصادر خارجية ممكنة لتمويل النشاطات الانشقاقية والتدميرية فى داخل الكتلة السوفيتية.

وكان الألمان الشرقيون يتم استغلالهم بشكل موسع على أعلى المستويات فى ألمانيا الغربية لأن من الصعب جدا أن تميز ألمانيا من آخر. وقد كان مستشار ألمانيا ويلى برانت على علاقة شخصية وثيقة مع الكابتن جنذر جويلوم الذى اتضح أنه ضابط فى جهاز المخابرات لألمانيا الشرقية، والذى كان لديه مدخل لكل أسرار جمهورية ألمانيا الفيدرالية. وقد أمضى سنوات يخترق ببطء وبصبر بيروقراطية ألمانيا الغربية، ويزرع الولاء والصداقة مع برانت وهو الرجل الذى كان فى البداية عمدة برلين وفى النهاية مستشار ألمانيا وبعد هروب جويلوم عائدا عبر من كان يسمى فى ذلك الوقت بالحدود بين ألمانيا الشرقية والغربية، تم ترقيته إلى رتبة رائد اعترافا بخدماته المخلصة التى أسداها إلى ألمانيا الشرقية والكرملين.

ولم نكن بالطبع جهاز المخابرات الوحيد الذى يراقب نشاطات رجال المخابرات فى أوربا الشرقية أو الإرهابيين القادمين من وسط أوربا ويعملون فى الغرب فكان من المهم لوكالات المخابرات الغربية أن تتعاون بشدة مع الموساد وهو وكالة المخابرات الإسرائيلية، وذلك بسبب خبرته غير العادية فى الشرق الأوسط والعناصر الشرق أو سطية التى تعمل فى الخارج.

ولعدة أسباب، نجد أن جهاز التجسس الاسرائيلى على درجة عالية من الكفاءة. أولا، مع وجود أعضاء فى الدولة اليهودية قادمين من جميع أنحاء العالم، كان لدى الموساد قدرة واحتياطى لغوى ضخم، بالإضافة إلى معرفة عميقة بالأمم فى كل قارة وعن كل ايديولوجية. ثانيا، كانوا دائما فى حالة حرب لمدة نصف قرن ولذلك كان ينبغى أن يظلوا بشكل مستمر يقظين. وبعد الشعب الإسرائيلى والامة الإسرائيلية من بين أكثر الأهداف أهمية بالنسبة للعديد من المنظمات الإرهابية. وهذا الشعور بأنهم دائما محاصرون قد منع أى تعاون سياسى أو عسكرى مع أجهزة المخابرات أو الأجهزة العسكرية الأجنبية.

غير أن هذا الحصار قد أدى إلى ظهور الشعور بالاحترام نحو الأمم التى أدرك الإسرائيليون أنها تقع أيضا تحت الهجوم الإرهابى. وهذا النوع من التفكير قد اتضح أنه حكيم فى عديد من الحالات فقد كان جهاز التجسس الإسرائيلى من بين أوائل الوكالات التى أدركت أن باريس قد اختارها عدد من الجماعات الإرهابية الكبرى كمركزهم الرئيسى الأوربى. فبدءا من چورج حبش- الذى سافر بالطائرة على طريق طرابلس- باريس مثلما يسافر رجل أعمال فى رحالات منتظمة بين واشنطن. ونيويورك، وحتى جيش التحرير الشعبى

التركى والجبهة الوطنية الإيرانية والجيش الاحمر اليابانى- كل هؤلاء كان لديهم ممثلون فى باريس وما يحوطها.

وحتى قبل ظهور آية الله خومينى فى نوفل- لو- شاتو، كان الارهابيون الاتراك (الذئاب الرمادية المهابة) والايرانيون يقومون بعملياتهم فى باريس جنبا إلى جنب مع الإرهابى ذى السمعة السيئة كارلوس (إليش راميرز سانشيز).

كما كانت جماعة الجيش الأحمر الألمانية والفرقة الحمراء الايطالية مع الجيش الثورى الايرلندى، وبالطبع الباسكيين الاسبان يقومون بالدخول والخروج من العاصمة الفرنسية على أساس منظمة. وكان عملاء التجسس التابعون لنا فى الداخل يقومون بمراقبة هؤلاء الأشخاص. وكذلك كان يفعل الموساد.

وعلاوة على ذلك، فقد أدرك الموساد تماما كيف أنه من المهم مواجهة الإرهاب فى أراضيه عندما يكون الامر ضروريا وكان عملاؤهم منتشرين فى كل مكان . وكان العملاء الإسرائيليون الكبار الذين يظهرون على أنهم صحفيون يعملون فى باريس، يقومون بالتعامل مع زملائهم فى صحف النيويورك تايمز، والسى بى أى، وواشنطن بوست، ناهيك عن الاكسبريس ولو فيجارو، و«بارى ماتش» .

وكانت المعلومات التى يشاركونها مع زملائهم الغربيين مضبوطة عامة- وكنت تعمل كثقل يقابل العنف الذى استخدمه الزعماء الإرهابيون لتحريك الرأى العالمى. ومن المهم وسيظل من المهم أن يعرف الزعماء الإرهابيون على حالتهم هكذا وليسوا على أنهم محاربون شجعان عن الحرية فيعرفون ببساطة- على الرغم من خطورة ذلك- على أنهم أدوات ووسائل يستخدمها الديكتاتوريون الماكرون.

وعلى الرغم من أن علاقتنا مع الموساد كانت حميمة، فقد حافظنا على علاقة الاستخبارات مع جهاز المغابرات الخارجية البريطانية صميمة ومستمرة وكذلك مع الأم أى ٦ ومع جهاز المراقبة الالكترونية البريطانية فى شلتنهام. وكانت علاقتنا وثيقة خاصة مع العالم الجنوبى حيث كنا ذات مرة نحتفظ بالمستعمرات مع وجود مصالح متداخلة لكن منسجمة، ولذلك استمرينا فى التعاون لفترة طويلة بعد أن انحلت امبراطوريتنا.

وفى فترة ما، فى أثناء غدائنا الدورى، قال لى رئيس المخابرات البريطانية سير موريس أولدفيلد: « انظر، أريد رجلا فى أحد الموانى فى افريقيا وذكر دولة فى غرب افريقيا كانت مستعمرة فرنسية سابقة. » لديكم الرجال هناك، اليس كذلك؟ »

وجاوبت عليه « بالطبع، فنحن لدينا رجال هناك منذ أيام ما كانت تلك الدولة مستعمرة فرنسية. والآن، هى مكان حيث يوجد العديد من نشاطات الاستجمام والراحة للسوفييت فكانوا غالبا ما يحضرون صيادين الأسماك التابعين لهم. وكان صيادوهم يحبون أن ينظروا نظرات غرامية للسائحين الفرنسيين الذين يرتدون المايوهات البكينى.

وضحك كلانا لأننا كنا نعلم أن زوارق الصيد تلك كانت فى الواقع مجهزة من قبل الأسطول البحرى السوفيتى وأن «الصيادين» كانوا ضباط البحرية السوفييت.

وسألنى سيرموريس» ماذا إذا وضعنا أحد رجالى هناك مع رجالكم؟ »

واجبته ولم لا تفعل ذلك. خاصة إذا كان لديك عميل فى مكافحة التجسس

يتحدث الروسية بطلاقة ويستطيع العمل بشكل جديد فى أفريقيا. لأننى لا أملك مثل هذا الرجل. »

وبعد الغداء، قمنا بفحص الدفاتر الخاصة بثلاثة ضباط بريطانيين قام موريس باحضارها معه. وقمنا باختيار العميل معاً. وكان هذا شيئا لم يسمع عنه إطلاقا فى الغرب، وحتى اليوم غير أن تلك كانت هى الطريقة التى كنا نعمل بها دائماً وهذا النوع من العلاقات الشخصية كان مهما للغاية. فكل ستة أشهر، جعلت شاغلى المخابرات الرئيسية الثلاثة فى أوربا - جهاز المخابرات البريطانى أم أى ٦ والألمانى الغربى(بوند سنخر شتندابنست) بى أن دى والفرنسى أس دى إلى سى إى (وهو الآن يعرف بالدى أس جى إى). ولم يظل اتحادنا سرا بالنسبة للأمريكيين . وكان الأمريكيون ببساطة خارج الموضوع.

وكان كل جهاز مخابرات أوربى متخصصا فى منطقة أو أخرى. وفى أى مكان كنا فيه، كنا نتقاسم الاستخبارات سواء كان يعتقد فى صحتها أو يتم العمل فيها أولا . وكان تخصصنا هو افريقيا المتحدثة بالفرنسية وشمال أفريقيا والشرق الأوسط وبعض المناطق فى جنوب شرق آسيا حيث كان لنا ذات مرة مصالح استعمارية . وقد تخصص البريطانيون فى مناطقهم فى أفريقيا والشرق الأوسط وكانت مخابراتهم الألكترونية فى أوربا الشرقية حقيقة لا يضارعها شىء . وكان الألمان الغربيون نشطين خاصة فى ألمانيا الشرقية فى العديد من بقية دول العالم . وظللنا جميعاً نراقب بشدة بأقصى ما يمكنا ما كان أكثر اعدائنا خطورة لكل منا - وهو الامبراطورية السوفيتية .

وكان للدول الأوربية الأصغر مناطق لخبراتهم الخاصة وثبت أنها مفيدة تماما في حالات معينة. وكان البلجيكيون ، بجهاز صغير يرأسه قاض ، متخصصين في المستعمرات البلجيكية السابقة ومن ضمنها الكنغو البلجيكى وهو الآن زائير. ومن بين الاسكندنافيين ، كان النرويجيون بالاحتياطى الهائل فى بحر الشمال متخصصين فى البترول والأوبك. وكانت لهم أيضا وظائف الاستماع عن قرب لقاعدة الأسطول الشمالى السوفيتى فى مورمانسك ، واشتركوا فى عمليات التبادل المنتظمة لعمليات الاعتراض مع البريطانيين فى شيلتنهام. وفى لوكسمبرج ، كانت عمليات الاستخبارات صغيرة غير أنها كانت عالية الكفاءة وكان يديرها ضابط مدرب عن طريق الفرنسيين. وكانت الإمارة الكبيرة مليئة بالاجانب وبالنسبة لأمة فى مثل حجمها كان عدد الدبلوماسيين من أوروبا الشرقية كبيرا. وكان عملاء الكى جى بى الذين يتمركزون فى باريس التى تبعد عنها بالكاد بمقدار ساعة بالسيارة، وغالبا ما وجدوا طريقهم إلى لوكسمبرج لافتتاح مركزهم الكبير الموجود بالفعل هناك. فقد كان هذا هو المكان حيث كان الأشخاص يتقابلون ويتم وضع الخطط .

وكان للايطاليين علاقة وثيقة مع ليبيا ، إلا أنهم لم يحظوا بالثقة الكاملة. وبسبب استثمارات القذافى المالية الكبيرة فى ايطاليا (كان مستثمرا كبيراً فى فيات وفى مشروعات أخرى) ، كانت الأموال تتدفق من ليبيا طوال الوقت. وقد حاول القذافى أيضا أن يشترى كل جزيرة فى البحر المتوسط بين شمال أفريقيا وإيطاليا. وعلى جزيرة بانتليريا التى قام موسولينى بتحصينها بشدة خلال الحرب العالمية الثانية، قام القذافى بشراء كل شيء يستطيع أن يشتريه، ومن ضمن ذلك الماعز.

وعلى جزيرة مالطا، وهى الجزيرة التى ظلت لعدة سنوات جزيرة ذات أهمية استراتيجية فى البحر المتوسط بين ايطاليا وليبيا ، قام القذافى بشراء كل قطعة من الممتلكات المتاحة، فيما عدا القاعدة البريطانية العسكرية. ولذلك أصبحت مالطا منطقة إرهابية كبرى. وفى نوفمبر عام ١٩٨٥، تم إجبار طائرة مصر للطيران بوينج ٧٣٧ التى تم اختطافها أثناء رحلة من أثينا إلى القاهرة على الهبوط هناك، وطلب المختطفون مأوى. وكانت المحاولة ببساطة شديدة وقحة للغاية ، ومع ذلك، لم تملك السلطات بمالطا خياراً غير السماح لقوات الأمن المصرية باقتحام الطائرة. وقد قام الرئيس المصرى حسنى مبارك شخصيا بلوم القذافى لتدبير الهجوم. ولم تكن الحادثة سوى واحدة من الصراعات العديدة بين هاتين الدولتين.

وكان للقذافى نفسه عدد كبير من عملائه الخاصين به فى ايطاليا، وكنا نعرف أن هؤلاء العملاء كانوا يتبادلون المعلومات مع المخابرات الإيطالية. وكانت إيطاليا هى الدولة الأوروبية الوحيدة التى وجد فيها مثل هذه العلاقة، وكانت هذه العلاقة هى التواصل الوحيد الحقيقى بين جهاز مخابرات من الجنوب والشمال.

وكانت المخابرات الأسبانية نشطة خاصة فى الشرق الأوسط، وكانت مهتمة خاصة بمراقبة التنمية الاقتصادية فى العالم الجنوبى. وكقوة كبرى فى منطقة البحر المتوسط، بالاضافة إلى كونها الدولة الوحيدة فى أوروبا الغربية التى احتلها قوات الجهاد العربية لمدة تزيد على سبعمائة سنة، قامت اسبانيا دائما بتوجيه انتباهها بشدة لشمال أفريقيا والشرق الأوسط. ومازال هناك بربر فى

أسبانيا يستطيعون أن يتتبعوا أسلافهم إلى البربر القدماء الذين تم استخدامهم منذ ثلاثة عشر قرناً مضت من قبل القواد العرب فى الجزائر وخاصة المغرب.

وكان الهولنديون ـ وهم قوم جادون ـ هامين جداً فى التعامل مع امبراطوريتهم السابقة فى جنوب شرق أسيا ـ وهى الآن أندونسيا . والآن أندونيسيا عضو فى الأوبك وإحدى دول العالم الأكثر سكاناً والأكثر عدداً من المسلمين . ويعرف الهولنديون ـ أكثر من أى جهاز مخابرات أخرى ـ أيضا عن عمليات شركة شل الهولندية الملكية وهى إحدى الشركات المتعددة الجنسية حقاً . ولم يكن الهولنديون مهتمين بشكل خاص بشركة شل الهولندية الملكية كمؤسسة غير أنه عندما كانت هناك ثورة ستقع فى إحدى المناطق التى كانت تحتفظ فيها شل بممتلكات هامة ـ مثلما حدث خلال محاولة الانقلاب الشيوعية فى أندونيسيا فى ١٩٦٥ ، قامت هذه الشركة ـ وعن طريق فرع للمخابرات الهولندية ـ بمراقبة التطورات عن كثب. وكانت سورينام دولة أخرى حيث كان لهولندا وفرنسا مصالح لمدة عدة سنوات . ويتم إطلاق الصواريخ الفرنسية أريان من كورو فى الجزيرة المجاورة جوانا. وفى أثناء فترة تخلص سورينام من الاحتلال وهى من ١٩٧٣ وحتى حصولها أخيراً على الاستقلال فى نوفمبر ١٩٧٥ ، كنا مهتمين بأن يكون هذا الانتقال إلى الحكم الذاتى سليماً ومستقراً خاصة بدون تدخل الشيوعية الكوبية تحت قيادة فيدال كاسترو. وقد جاء نظيرى البريطانى ـ الذى كانت بلاده أيضا مهتمة بالكاريبى ـ إلى باريس من لندن وقام بإثارة قضية احتمال عدم استقرار هذا الجانب من العالم.

وقد سألته خلال الاجتماع «هل تكلمت مباشرة مع الهولنديين بخصوص هذا الشأن». وقال انه قد فعل.

ومعاً، قمنا نحن الفرنسيون فى جوانا المجاورة، والهولنديون فى سورينام نفسها، والبريطانيون فى ركنهم الواقع فى الكاريبى- قمنا- بالتعاون بشدة فى عملية مراقبة الانتقال الكامل للسلطة إلى الحكم الذاتى فى سورينام. وقد تم تنظيم دوريات مشتركة على طول أحد الحدود لمنع التسلل إلى الأعداء المحتمل أن يعرقلوا عملية الاستقلال وخاصة لمنع تسلل العملاء الذين تساندهم كوبا. وكنتيجة لذلك، أصبحت سورينام دولة مستقلة بطريقة منظمة وهادئة.

ومن الناحية الفعلية، قامت كل وكالات المخابرات الأوروبية الكبرى بالاحتفاظ بتمثيل دائم فى عواصم تك الدول وبعضها. وكانت المخابرات المراقبة البريطانية نشطة خاصة فى الاتصال بآلات كاتبة عن بعد وسرية ـ أية استخبارات سرية أو استخبارات الكترونية التى تمكنوا من أن يقوموا بأخذها من شبكات المحطات التى قاموا بتشغيلها من تركيا إلى رأس الشمال. وفى ديسمبر ١٩٨١ ، عندما استخدمت الحكومة الشيوعية البولندية القوة لكسر الإضراب الكبير فى ميناء جدانسك حيث نشأت «جماعة التضامن» ، اقترح البريطانيون أننى قد أريد أن أسافر تلك الليلة إلى إحدى محطات المراقبة التابعة لهم فى مكان ما فى أوروبا. وقد وافقت واتجهت إلى هناك فوراً. وعندما وصلت، قام رئيس هذه المنطقة بوضعى فى محطة استقبال . وكان على يسارى مترجم فورى بولندى، وعلى يمينى قائد المحطة. ولعدة ساعات، استمعت وأنا مأسور إلى المحادثات التى تتم بين قائدى الدبابات البولندية الذين كانوا على الطريق فى تلك الليلة.

ويقول أحدهم محذراً «احترس، فهناك تسرب بترولى بعد الشجرة الثانية على اليمين، فالطريق منزلق، استخدم الحذر.»

وعلى الخريطة واسعة النطاق الموجودة أمامنا، كنا نتتبع تقدم صف الدبابات نحو الميناء كما لو أننا كنا هناك. وكان التصنت بهذه الطريقة على الجيش الأحمر وسيلة أيضا لتقدير الروح المعنوية للقوات. وفى وقت متأخر فى مساء عملية التضامن، عندما تركنا ضباطهم وحدنا، بدأ ضباط الصف فى تبادل أطراف الحديث فيما بينهم حول اتصالات الراديو، متأففين بسبب الطقس وسوء المعيشة وظروف العمل ونقص الغذاء والمشاكل العائلية. وكانت تلك هى القوات المصطفاة الذين كانوا من ضمن الوحدات القيادية فى هجوم أمامى على أوروبا الغربية.

ومنذ سنوات قريبة، تم إعطائى فكرة كبيرة عن كيفية أن مثل هذه القدرات الراقبية يمكن أستخدامها فى مواقف جديدة فى الحرب العالمية الرابعة ضد هذه الأسلحة مثل الإرهاب والمخدرات. وهناك بالتأكيد بعض الخلافات الحقيقية بين الحربين العالميتين الثالثة والرابعة، خاصة فى طرق قيادتهما والسيطرة عليهما وكذا الاتصالات ـ أى العقيدة الاستراتيجية التقليدية لثلاثة من حرف السى. فالارهابيون فى اغلب الاحيان ـ لا يستخدمون نفس نوع الاتصالات المفصل والذى يصل الى مستوى ميادين المعارك لكى يقوموا بتخطى هذه الهجمات. الا اننا قد اكتشفنا أن مراقبة الاتصالات من السفارات فى الامم الجنوبية التى تساند النشاطات الارهابية ـ خاصة اللبنانيين والسوريين والايرانيين ـ قد أدت الى بعض الاختراقات الرائعة لأجهزتهم. فقد تم مناقشة

نقل العتاد عن طريق الراديو من اجل القيام بتفجير صالة الديسكو فى برلين وفى ليلة ٥ ابريل ١٩٨٦ ، حيث قتلت إمرأة تركية وامريكى يعمل فى الحكومة واصيب اكثر من مئتى شخص اخرين من بينهم عدد من الجنود الامريكيين. وقد اظهرت المراقبة الالكترونية لإشارات الراديو بين طرابلس والمكتب الشعبى الليبى أو السفارة فى شرق برلين اشتراك ليبيا فى المؤامرة. كما أدت المراقبة إلى تحديد مصادر التفجير، ولكن للأسف، لم تتم ترجمة المعلومات بسرعة كافية لأن تمنع الكارثة. ومثل هذه الكمية اللامعقولة من «الإشارات» الالكترونية التى تتولد عن المراقبة كبيرة لدرجة أن المعلومات الهامة غالبا ما تظل على شرائط تسجيل المراقبة إلى أن تتسبب بعض الأحداث فى ان تجعل المحلل يشغلهم مرة أخرى . وغالبا ما ترجع بعض مرات النجاح القليلة إلى المصادفات وإلى الخبراء الذين يعملون بكد شديد مثل ناسخى الأسقف فى العصور الوسطى، هذا على الرغم من انه يمكن الآن لأجهزة المراقبة المعقدة التى تنسق الكلمات والعبارات المختارة على أسس معينة أن تحسن احتمالات التقاط المحادثات إلا أن وراء عمليات الاستخبارات، نقوم نحن زعماء أجهزة المخابرات فى أوربا الغربية بمناقشة عدد من الخطط المحتملة ـ أثناء مقابلاتنا الدورية على مستوى القيام بالعمليات قبل أن يصلوا إلى المستوى السياسى لرؤساء دولنا وحكوماتنا.

وقد اقترحت فى احد هذه الاجتماعات على الغداء قائلا: «إننا نستطيع أن ندمر القوات المسلحة الليبية وربما حتى نثير انقلابا عسكريا ضد القذافى . ولكننا نحتاج إلى تعاون القوات الجوية المصرية والإسرائيلية. فيقوم المصريون بإجراء علميات مناوشات على الحدود المشتركة مع ليبيا ، فتقوم ليبيا بالرد

بتحريك جزء كبير من قواتها الجوية وسلاح المدرعات لمناطق الحدود.

وعندئذ تقوم القوات الجوية الإسرائيلية - حيث ستكون المقاتلات الإسرائيلية معلمة بالعلامات المصرية - بالوصول عند ظهور الفجر .. ويوم .. ! وإذا كنتم قلقين بشأن الرأى العام، فيمكنكم أن تأخذوا بعض الدبابات الليبية المدمرة وتنقلوها إلى المناطق المصرية، وبعد ذلك تأخذوا مائة من القوات الليبية وتضعوهم على الأراضى المصرية.»

ولم تحدث العملية قط، بالطبع، هذا على الرغم من أنه كان هناك توتر من آن إلى آخر على طول الحدود المصرية - الليبية التى كانت قد تعطى غطاء مناسبا لها . إلا أن زملائى الأوروبيين أعجبوا بخيال التخطيط وشكله .

وحيث أن أوربا تتحرك نحو التحول إلى قارة بدون حواجز فى ١٩٩٣، فإنه من الواضح انه سيكون هناك حاجة إلى أكثر من الخيال وبعض المشهيات المشتركة لتأسيس نوعى من التعاون الذى سيقوم بحق بإعاقة الإرهابيين وتجار المخدرات والمجرمين الآخرين عن الحصول على الامتيازات الكبرى لهذه القارة الأوربية الجديدة.

وقد كان الزعماء فى الشرق والغرب الذين وضعوا فى نوفمبر ١٩٩٠ توقيعاتهم على الوثيقة ذات الحدود الجلدية الحمراء التى أسموها ميثاق باريس لأوروبا الجديدة - كانوا بدون شك جادين فى إعلانهم بأن «أوربا تقوم بتحرير نفسها من تركة الماضى» . وقد قاموا بالإشارة بشكل صحيح تماما إلى الروابط بين هذه الوثيقة والمعاهدة الخاصة بالقوات المصلحة التقليدية فى أوروبا التى قللت بشكل كبير من القوات العسكرية المواجهة لبعضها على حدود ما كان

يسمى فى الماضى بالتقسيم الكبير بين الشرق الشيوعى والغرب الديمقراطى. إلا أن عدم قيام الدول الأربع والثلاثين - المبتدئة بسان مارينو وليشتنستين وحتى الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى بالإشارة إلى نوع الخطوط الأمامية للتعاون فى الأمور الاستخبارية التى من الممكن أن تجعل أوروبا أرض معركة مستحيلة بالنسبة للإرهابيين وتجار المخدرات الذين يحاربون حروبهم الصغيرة القذرة ولكنها فى نفس الوقت عنيفة على أرضنا، مستغلين ضعفنا يوميا بعد يوم، ومزعزعين استقرار مجتمعنا ومثيرين الفوضى بين مواطنينا.

وبالطبع، منذ اللحظة التى خطرت فيها فكرة أوروبا الموحدة لأول مرة على بال السياسيين ورجال الاعمال، أصبحت الفكرة مثل الكابوس لعملاء المخابرات . وقد عبر رئيس الانتربول الذى كان وقتئذ ضابط شرطة متميزا وهو ريموند إى كنديل - عبّر - عن قلقة الشديد من أن نهاية الحدود وجواز السفر الشائع والحركة المفتوحة عبر الحدود قد يسهل فقط عمل الإرهابيين وتجار المخدرات وكل أنواع المجرمين.

غير أنه فى الواقع لا تعتبر الحدود هى المكان الذى يلقى فيه القبض على الإرهابيين فيتم القبض على الهواة غير الحذرين عند وقوع تفتيش عشوائى لسيارة يُكتشف أنها تحمل حمولة من الأسلحة الاتوماتيكية والمتفجرات البلاستيكية ويتم القبض على الإرهابيين عن طريق عمل الشرطى المنظم والمفجر والطويل وعن طريق نوع من الاختراق للخلايا الصغيرة الذى قد يستغرق سنوات أو عن طريق المعلومات التى يقولها بالمصادفة محبان مستاءان . إلا أن أوروبا ووكالات مخابراتها ينبغى أن تكون منظمة بشكل كاف لكى تستغل كل هذه الفرص.

وفى إحدى الزيارات لكينشاسا عاصمة زائير، قمت بتناول العشاء فى قصر الرئاسة مع الرئيس موبوتو، وكنا نجلس فى التراس الخاص به تحت بدر كامل رائع المنظر. وبعد فترة طويلة من الصمت، انفجر موبوتو ضاحكا ضحكة كبيرة وقال «أتعلم يا عزيزى الكنت أنكم أنتم أيها الأوربيون يمكن أن تكونوا عظماء جداً إذا أنتم نسيتم نظامكم القبائلى.»

وهذا تجد أوربا نفسها فيه الآن- فهى مازالت غارقة فى وحل نظامها القبائلى، وتكافح بشدة لتخرج منه. ولقد بدأنا العمل بحماس فيما يمكن أن نسميه المرحلة الأولى من« التحول إلى الأوربية» الحقيقى. وقمنا بالاعتراف بأعضاء جدد فى الدائرة الداخلية فقط بعدما قمنا بعملية البحث الروحى العميق.

وكان العديد من الفرنسيين يخشون من أن دولا مثل اليونان والبرتغال بخلفيتهم الاقتصادية يمكن أن تسوق الأعضاء الآخرين فى المجموعة الآوربية إلى القاع. لماذا إذا قامت حشود من عمالهم المخضرمين بأغمار مصانعنا مليون من مواطنينا فى الشوارع؟ ولم يحدث أي من تلك الأشياء بالطبع. فالحشود التى غمرت شمال ووسط أوربا قدمت ليس من الأمم المعترف بها حديثا فى جنوب أوربا ولكن بالأصح من المستعمرات السابقة فى أفريقيا والشرق الأوسط.

أن حالة أوروبا الآن ترجع إلى حد كبير إلى رجل واحد ـ وهو الجنرال جورج مارشل ـ وإلى كرم ورؤية الأمريكيين. وقد ساعدت خطة مارشال التى تطورت بعد الحرب العالمية الثانية على التقاط أوروبا التى مزقتها الحرب ونفض الغبار

عنها ، إلا أنها كانت تتعهد بكل دولة على حدة . وعندما طلبت منى الحكومة الفرنسية أن أوافق الجنرال ايزنهاور كمساعد فى الرحلة التى قام بها لفرنسا فى بداية حقبة خطة مارشال، استطاع إيك أن يرى ان الخطة قد تنجح من وجهة النظر الفرنسية . وكانت نظرة ايزنهاور لكل من الدول الاخرى التى زارها ـ وهى بريطانيا ، وبلجيكا ، المانيا وايطاليا ـ مشوهة بشكل متساو بسبب النظرة العرقية لكل من هذه الامم. فقد كان يلاحظ النتائج الخاصة بالحروب التقليدية الاخيرة التى يمكن ان نكون قد حاربناها. فالحروب التى نقوم بها الآن هى حروب ثورية وهى حروب مختلفة جداً بالطبع..

وكل التنظيم القديم لاوروبا تحت النيتو (حلف شمال الاطلنطى) والتنظيم الجديد لاوروبا تحت المجموعة الاوروبية يتقاسما نفس الخصال التى يمكن ان يطلق عليها المرحلة الاولى من اوربا الجديدة وكيفية معالجة المرحلة الثانية هو الاكثر خطورة وحساسية ـ واننى اخشى مع اننى لا اريد ان اظهر على انى كاشف للغيب ان هذه المرحلة ستحدد نجاح الحضارة الاوروبية او فشلها كما نعلمها. لأننا إذا فشلنا فى المرحلة الثانية، فإن تلك الحضارات الموجودة على الاطراف الجغرافية لحضارتنا مستعدة بالفعل لتدخل عندنا. والارهابيون الذين يستخدمهم اليوم زعماء العالم الجنوبى الاكثر سوءاً كخلفاء لهم يعتبرون مجرد رواد.

ويجب ان تشمل المرحلة الثانية لتطور اوروبا توحيد التكتلات الرئيسية الموجودة والتى كانت موجودة منذ الحرب العالمية الثانية فى شرق وغرب اوروبا وهى الولايات المتحدة فى الغرب عبر الاطلنطى وامم الكتلة السوفيتية فى

الشرق والى حدما ، هذه المرحلة الثانية من التكامل بين الشرق ـ والغرب فى اوروبا قد بدأت بالفعل. فلقد قامت الالمانيتان وقد توحدتا بالفعل لاول مرة منذ خمسة واربعين سنة . وهذا الانقلاب للفرقة التاريخية لشقى اوربا قد بدأ بسبب واحد هام. فقد قام جورباتشوف ـ الذى كان يحاول جاهداً أن ينقذ اقتصاده المريض فى بلاده ـ قد حل وثاق أمم اوروبا الشرقية التى كانت تحت السيطرة الشيوعية من قبل والتى اصبحت بعد ذلك دول الامبراطورية السوفيتية. . ويعتبر هذا تحديا ضخماً. وعلى هذا ، فإن لكل دولة سمات مختلفة جداً واحتياجات مختلفة. وكل يمثل تحدياً مختلفاً ، بالطبع من منظور سياسى واقتصادى، ولكن ايضا من منظور الاستخبارات ايضا.

وتحتاج المانيا الشرقية او ما كانت تسمى جمهورية المانيا الديمقراطية الى مساعدة كل دول الغرب وخاصة مساعدة المانيا الغربية سابقا ـ لأن المانيا جمهورية واحدة لها لغة واحدة وثقافة واحدة ـ مشكلين نحو ثمانية ملايين المانى ـ وتلك كتلة ضخمة فى وسط اوربا . وفى الواقع، بالرغم من أن مستوى معيشتهم واقتصادهم منخفض فى الوقت الحالى ـ فإن من بين الألمان الشرقيين الساكسونيون والبروسيون ـ المشهورون بكدهم فى العمل وقدراتهم العسكرية. واما عن الألمان الغربيين فإنهم مسرورون من قلوبهم لعودة الالمان الشرقيين إليهم. ولا يوجد لدى اى دولة اوربية اخرى الموارد او الدوافع لتمريض ما كانت تسمى المانيا الشرقية الى ان تسترد صحتها.

ولا يتم مقاسمة القوة السياسية والاجتماعية والاقتصادية المؤثرة بأية وسيلة مع الدول الاخرى لاوروبا الشرقية. فسيكون هناك مزيد من الصعوبات.

وليست المجر وتشيكوسلوفاكيا بأقل استعداد من المانيا الشرقية لاستغراق فى النظام الاقتصادى والاجتماعى لاوروبا الغربية. وكلتاهما دولتان صغرتان متطورتان بشكل حسن تقريبا مع تقدم المجر الى حد ما عن تشيكوسلوفاكيا غير ان عملية الخصخصة تبشر بتضخم متزايد، وفى المجر ادت حركة مشابهة الى نسبة تضخم وصلت الى ٣٠٪ وادت الى مستوى معيشة كان ينخفض، حتى ان واجهات العرض الخاصة بالمتاجر كانت تقتظ بالبضائع التى لا يستطيع احد ان يشتريها. واضحت المجر مع النمسا وهى واحدة من اكثر الدول تقدما فى الناحية الاقتصادية فى اوربا الغربية جزءا من الامبراطورية المجرية النمساوية القوية التى انحلت بعد الحرب العالمية الاولى، ولذلك ينبغى ان يكون المجريون مستعدين على الاقل من الناحية النفسية الى ان يصبحوا اعضاء منغمسين تماما فى النظام الاوروبى مرة اخرى. وجب ان نتقبل ذلك ونساعد فى ان يصبح ذلك حقيقة اقتصادية وسياسية واجتماعية.

وبالطبع تعتبر بولندا موقفا مختلفا تماما فهى حالة سلة اقتصادية ، يبدو انها راغبة تماما فى الانغماس فى تجربة سياسية ديمقراطية نأمل انها تنجح ـ وتجعل العقلية البولندية هذا الامر صعبا . فالبولنديون اناس يتميزون بالعناد وقوة الارادة. فدستة من البولنديين سيقدمون العديد من الافكار المختلفة لكيفية حكم بلادهم. ولذلك فى امة كاملة تجد لديك قدرة ضخمة على خلق الفوضى. ووصلت البطالة فى اول مرة الى ٥و٥٪ ، او اكثر من مليون بولندى بدون عمل. ونستطيع فقط ان نأمل أن يميز الهدوء والعقل سياسات من سيأتون بعدهم، لكن بالنسبة للوقت الحالى على الاقل لا يوجد شىء نستطيع نحن فى اوروبا الغربية ان نفعله للإسراع بعملية النمو الاقتصادى.

وكان ينبغي ان تكون رومانيا حالة اسهل. لكن في الواقع نجد انها امة اكثر اضطراباً فتحت حكم شاوشيسكو، اصبحت رومانيا غير صالحة اقتصادياً بالرغم من احتياطيها في البترول والاشخاص الذين يتسمون بالدهاء والمهارة والذين يسمون انفسهم بكل فخر جزيرة لاتينية في بحر الاسلاف. غير ان امتهم مزقتها وشقتها سنوات الديكتاتورية والثورة المريرة التي اطاحت بشاوشيسكو. وقد ارتفعت اسعار العديد من السلع بنحو ٣٠٠٪ في السنة الاولى تحت حكم النظام الجديد. وفي بوخارست، انتظر الناس في صفوف لساعات ليشتروا اللحوم والجاز والسلع الاساسية الاخرى. وكانت المياه تقطع بشكل دوري. وسيمر وقت طويل بالطبع قبل ان تستطيع رومانيا ان تعود الى حالة التوازن التي تسمح بالتكامل مع اوربا.

ونفس الشيء ينطبق للاسف على يوغسلافيا التي منذ وفاة تيتو الزعيم والصمغ الذي كان يجمع هذه الامة المتباينة الاصطناعية التي خلقت من بقايا الامبراطورية النمساوية المجرية فقد اصبحت متفككة بشكل عنيف. واليوم تجد يوغوسلافيا نفسها في موقف مختلف عن موقف رومانيا، فقد تمزقت بالصراعات العرقية العنيفة المريرة التي اثيرت بسبب التناقض بين الثروة النسبية لسلوفانيا وكرواتيا في الشمال الغربي، والفقر المدقع للصرب ومسدونيا والبوسنة. ويبدو ان الاتحاد الضعيف ينحل تماما.

والتحدي الذي يواجه الوحدة الاوربية والذي تشكله التفككات في يوغوسلافيا تضعف اهميته بالمقارنة مع التحدي الذي تمثله تفككات بقية اوربا الشرقية والامبراطورية السوفيتية نفسها. وقد توجهت عملية انحلال الاتحاد

السوفيتى الذى تم تجميعه بالدم وتوحيده بالارهاب لمدة ثلاثة ارباع قرن من الزمان والذى تأثر بالضغوط الاقتصادية التى لا ترمم من قبل الغرب المستعد لأن يجهد الكرملين فى كل عملية تحول توجهت بارض ماركس ولينين التى كانت من ذى قبل متألفة لاى اتجاهات يبدو ان جورباتشوف لم يتخيلها ابدا عندما بدأ فى اول الامر فى فك اسر الدول التابعة له فقد كان ذلك بمثابة وصيته لمرض النظام السوفيتى واقتصاد بما جعل الكرملين يسمح للامم التى كان يسير عليها ذات مرة خاصة المانيا الشرقية التى كان ايضا يخشاها سمح لها بأن تترك الكتلة السوفيتية . كما ان ذلك سمح بسهولة للكتلة واخيرا لاتحادها ان يتحلل. وكانت هناك ـ بشكل واضح ـ قوى محركة متعددة فى العمل هنا ومنها العداوات الهائلة بين الشعوب الواقعة تحت الاسر لثلاثة او اربعة اجيال ، الفشل النهائى للماكينة العسكرية السوفيتية فى مماثلة (النيتو) حلف شمال الاطلنطى فى العناصر العسكرية والتكنولوجية التى من بينها برنامج الدفاع الفضائى «حرب النجوم» المهلك. ولقد تجمعت كل هذه القوى لتفتت اتحادا كان يبدو ذات مرة منسجماً ومتلاحماً بشدة الى قطع صغيرة تتزايد بشكل متزايد، ولقد تتبعت كل من الدول فى اوربا الشرقية عن كثب خلال سنوات عملى كرئيس للمخابرات الفرنسية وفى فترة الاضطرابات التى تلت ذلك. فى الوقت الذى تبدأ فيه المرحلة الثانية للتكامل الاوربى، تمثل كل من هذه الدول تحديا ضخما من منظور المخابرات بمثال ذلك التحدى من اى وجهة النظر اجتماعية او اقتصادية او سياسية.

وهناك العديد من الفوائد التى تحل بشكل عام بوصول نظام ديمقراطى فى اوربا الشرقية فلن يصبح لدى الارهابيين هذا الباب الخلفى لأوربا من خلال بيئة

مرحبة لأى عدو للغرب، وجعل مجتمعاتها من الصعب مراقبة النشاطات المعادية ذلك فى اكثر الحالات تفاؤلا . ولن يتمكن الارهابيون من الاعتماد على المداخل الروتينية للاسلحة والذخيرة من الطبقة الاولى التى تنتجها بعض دول الكتلة الشرقية السابقة . ولن يتدرب الارهابيون على ايدى عملاء رسميين لشرطة هذه الدول ولن يكون لهم مدخل لأحدث تقنيات العنف والتشويه المستديم.

ولقد قامت سفارات ليبيا وسوريا وايران فى بعض العواصم مثل برلين الشرقية بإمداد الارهابيين بالمساندة بالعتاد وبوصلات اتصال كاملة ورا ء حماية الحكومة الشيوعية بالمانيا الشرقية وشرطتها السرية القوية والمهابة وهى الستاس. وكانت الصلات الوثيقة التى كانت موجودة بين المانيتين مفيدة بالنسبة للارهابيين. وقد سمحت اللغة والثقافة المشتركة أكثر انواع التحركات الممكنة تحررا بين الشرق الشيوعى والغرب الديمقراطى وذلك فى الوقت الذى منحت السيطرة على الجانب الشيوعى والغرب الديمقراطى لحائط برلين ما كان يعتبر مرآة فعالة من جانب واحد سمحت لمؤلفى الدمار بالملجأ الذى يرغبونه . وبالتحرك من خلال الحائط، وجد المسافرون ان اوراقهم كانت تفحص بدقة فقط على الجانب الشرقى وهؤلاء الافراد الذين يصطحبون المرافقين أو الاوراق المناسبة يمكن ان يمروا بحرية وبمجرد الوصول الى برلين الغربية ، كانت هناك رحلة بسيطة بالطائرة او القطار تنتظرهم للذهاب لاى مكان فى اوربا.

وكنتيجة لذلك استخدمت المجموعات الارهابية القادمة من الشرق الاوسط ومع هذا ايضا الارهابيون الذين تربوا فى المانيا الشرقية مثل عصابة

« بادرمينهوف » ـ استخدمت االمانيا الشرقية مثل حفرة الارنب فى اليس فى بلاد العجائب للذهاب للعالم الاخر. فعندما تم القبض على ارهابيين من المانيا الغربية فى باريس فى ١٩٨٠ كشفت المذكرات التى كانوا يحملونها ان لديهم مدخلا لمخزن كبير من المسدسات والمدافع الرشاشة والقنابل اليدوية والمتفجرات فى المانيا الشرقية.

وقد تمتعت الشرطة السرية فى المانيا الشرقية بالعديد من نفس تلك المزايا التى يتمتع بها ضيوفهم الارهابيون فى جزء كبير من الحقبة التالية للحرب العالمية الثانية وبمشاركة نفس اللغة والثقافة مع الاخوة الالمان الغربيين عبر الحدود ، تمكن الستاس المهاب من التسلل باطمئنان الى المستويات العليا للحكومة والصناعة الالمانية . وقد عمل جهازهم الاستخبارى الضخم بفاعلية متساوية بشدة على كلا جانبى حائط برلين.

وقد انتهت هذه النشاطات عندما انهار الحائط واصبحت برلين عاصمة لالمانيا واحدة .وقد تم اغلاق سفارات الشرق الاوسط التى كانت فى الماضى تقوم بتمويل النشاطات الارهابية الناشئة فى بلادهم. وتم تكليف وزارة الداخلية بألمانيا الغربية بمهمة سريعة وهى ليس فقط حل جهاز المخابرات والشرطة السرية بألمانيا الشرقية، ولكن أيضا تقفى أثر ضباط الستاسى وجنودهم و وأيضا كشف النقاب عن أكثر جرائمهم فظاعة. وعلى هذا مازال هناك العديد من الضباط والمتخصصين فى الإرهاب. ـ خاصة هؤلاء الذين يسافرون لدول الشرق الأوسط مثل ليبيا ـ الذين قاموا بإزالة شاراتهم وتحولوا إلى « مستشارين فى الصحافة الحرة ». وقد ظل هؤلاء فى إماكنهم اليوم يبادلون خبراتهم فى مقابل

كميات من العملة الصعبة. ومازال أسيادهم الذين يدفعون كما هم - فيتم الدفع لهم من عوائد البترول من ليبيا أو سوريا أو إيران. فتقوم تلك الحكومات بايداع الشيكات مباشرة ببساطة فى حسابات البنوك السوسرية بدلاً من السفر من خلال البيروقراطية فى برلين الشرقية.

وكانت هناك حركات مماثلة لحل ألات المخابرات عبر بقية دول أوروبا الشرقية التى أخذت بالديمقراطية حديثا. ففى تشيكوسولوفاكيا، أدى انتخاب الرئيس فاكلاف هافيل - الذى كان كاتبا مسرحيا وشاعراً منفيا - إلى الحل الفورى لجهاز الشرطة السرى - وخاصة الذراع التى كانت تتعامل مع الجماعات الإرهابية القادمة من الشرق الأوسط أو أوروبا الغربية.

وصارت العلاقات مع الحكومات التى كانت تساندهم علاقات متوتره على السواء، هذا بالرغم من قيام العديد من تلك الدول الجنوبية بكبح غضبهم اهتماماً بالابقاء على المدخل إلى الأسلحة والذخيرة ذات الجودة العالية التى استمرت فى التوجه من مصانع السلاح التشيكية.

وعرفت منطقة كارلوفى فارى الهادئة المنعزلة فى الماضى باسم كارلسباد عندما كانت تستخدم كمحطة شرب لأجهزه العالم النفاثة. ففى التلال التى كانت تهبط بهذا المكان الراقى، قام بارونات السكر والتجار التشيك وكذا رجال الصناعة فى الامبراطورية النمساوية - المجرية - قاموا ببناء قصورهم الفخمة. وبعد أستيلاء الشيوعيين على السلطة فى عام ١٩٤٨، تحولت كل هذه الضيعات إلى ملكية الدولة. وقد أستخدم بعضها كمعتزل لصفوة الحزب، والبعض الأخر صار اماكن تديب للإرهابيين بدءا من الفرق الحمراء الايطالية

وانتهاء بالمقاتلين الفلسطينيين. وخلف الأبواب التى كان يحرسها بحذر أعضاء الشرطة السرية بتشيكو سلوفاكيا كان هؤلاء الإرهابيون يتلقون تدريبات متقدمة فى وسائل الغرب وفى استخدام الأسلحة والمتفجرات المعقدة التشيكية الصنع التى يستخدمونها فى النهاية فى علمياتهم.

وحتى يوغوسلافيا، أقل دول أوروبا الشرقية الشيوعية شيوعية فى الأيام السابقة لسياسة «الجلاسنوست»، لم تكن محصنة ضد الاشتراك فى النشاطات الإرهابية أو من إعطاء الإرهابيين المأوى. ولقد تخيلت يوغوسلافيا نفسها دولة «من دول «عدم الانحياز» ولذلك كانت تحاول بشكل دائم أن تبحر بين كلتا الكتلتين. وعندئذ توجه العديد من الدول التى كانت يوغوسلافيا تقوم بتدعيم روابطها معها بكد إلى معسكر أعداء يوغوسلافيا من الجيران فى أوروبا الغربية. وكانت حالة يوغوسلافيا الأكيدة من تأييد حركة عدم الانحياز غالبا تعنى إعطاء المساعدات والمساندة لبعض العناصر الأقل شراسة. فإذا كانت هناك أي بلد فى أوروبا الشرقيه قام فيها انحلال ماكينة الشيوعية القديمة فى السنوات الاخيرة بعمل اختلاف أقل فى شروط تسامحها مع مثل هذه النشاطات، فإن يوغوسلافيا ستظهر فى مثل هذا المكان. أولا، تنشغل يوغوسلافيا قل أى شئ بمشاكلها الداخلية التى تقترب من شفا الحرب الأهلية. ثانيا، تمسكها الشديد بمبادئ عدم الانحياز لاتزال ثابتة. وتلك الحركة نفسها لاتزال يفترسها الإرهابيون المتلهفون على التصاريح والمساندات الرسمية.

وفى خلال العقدين الأخيرين، أبقت منظمة التحرير الفلسطينية على بعض من الممثلين فى بلجراد (كما كان لديها فى بقية أنحاء أوروبا الشرقية وباريس

أيضا). لذلك كان لاينبغى أن يكون الأمر مفاجأة عندما قام أبو العباس بالتوجه إلى يوغوسلافيا، بعد ما قام بتدبير عملية الاختطاف القذرة للسفينة الإيطالية أكيل لورو. وكانت تلك حالة تقليدية بالنسبة لكل دولة. وكانت محطة التوقف الأولى بالنسبة للإرهابيين هى إيطاليا حيث قام سفير الولايات المتحدة ماكسويل راب بتقديم طلبات محمومة للحكومة الإيطالية لاحتجاز أبو عباس لتسليمه إلى الولايات المتحدة. وبدلاً من الاصغاء إليه، تجاهلت السلطات الإيطالية الرجاء الأمريكى وقامت فوراً بنقل الزعيم الإرهابى إلى طائرة متجهة إلى يوغوسلافيا حيث أستقبل بالاحضان. وفى خلال ساعات، كان يستريح فى منزل آمن تابع لمنظمة التحرير الفلسطينية فى بلجراد حيث قام بالاشتراك بمرح فى محادثات تليفونية مع المراسلين الغربيين فى باريس وتونس حيث تحتفظ المنظمة بمراكز رئيسية. وفى النهاية، عندما صارت الحرارة الدبلوماسية شديدة ولاتحتمل حتى بالنسبة لليوغسلافيين، أختفى أبو عباس مرة أخرى، على طائرة مقاتلة جه ايه تى (يوغوسلافيه) توجهت إلى دمشق، وبذلك اختلطت مرة أخرى فى سماء الإرهاب حيث يعتبر الآن نجماً فيها.

ولمدة أربعين عاما، كرسنا كل طاقتنا لمراقبة نشاطات العملاء من كل دولة من الدول الأوروبية الشرقيه، ولقد أدركنا كيفية عملهم وحددناهم كأفراد، وتتبعناهم وهم ينتقلون من محطة إلى أخرى. وراقبنا اتصالاتهم، وعندما صارت نشاطاتهم على وجه الخصوص شنيعة أو شبكاتهم خطيرة، كنا نقوم بتجميعهم عندما أمكننا ذلك ـ ونقوم بطردهم من بلادنا، وملقين القبض على مواطنينا الذين تورطوا بشدة معهم. ومن ثم كيف يمكن لنا فجأة أنه نغير

أجهزة تفكيرنا من اعتبار حكومات أوروبا الشرقيه هذه أعداء إلى اعتبارهم كأصدقاء، وننقل تركيزنا على الإرهابيين ومهربى المخدرات الذين سيصيرون أعداءنا في الأربعين سنة القادمة؛ نستطيع فقط بمساعدة أصدقائنا وحلفائنا.

الفصل الثانى عشر

من العدو إلى الصديق، ومن الصديق إلى الحليف

سيكون التحدى الوحيد بالنسبة لأوروبا فى الجيل القادم وما بعده هو تحويل عدونا الرئيسى منذ الحرب العالمية الثانية إلى صديق، وتحويل صديقنا الرئيسى إلى حليف حقيقى فى أثناء القتال من أجل تحقيق الانتصار ـ بالطبع من أجل البقاء المشترك فى الحرب العالمية الرابعة.

وفى قلب هذا التحدى هو ما إذا كنا نستطيع أن ندرك الطبيعة الجوهرية لهذين المجتمعين ـ المجتمع المتحول والمنقسم الذى كان يعرف باسم السوفييت والأمريكان ـ وكيف يفكرون ويعملون، وكيف تعمل عملياتهم التنموية وأيضا ما هى القوى التى سببت ثوراتهم. وتنوع هذا التحدى فى تعقيداته بسبب التقسيمات التى حدثت للاتحاد السوفيتى الذى لم يعد له وجود الآن. ويشكل ظهور دستة أو أكثر من الأمم السوفيتية،، بعضها يمثل قوى صغرى، وكل منها لها لغتها وثقافتها وتاريخها وهويتها وخاصة الرؤية العالمية المتفردة جداً ـ يشكل تحديا ذا ابعاد مؤقته بالنسبة لأجهزة المخابرات والأمن فى الغرب ولدبلوماسيينا وساستنا أيضا.

وفى العقود منذ الحرب العالمية الثانية، قمنا باستثمار وقت وطاعة وقوى بشرية ضخمة فى فهم القوى التى قادت القوتين العظميين والتعامل معهما. غير أننى فى خلال تلك الفترة، كنا نفشل بشدة فى جانبين رئيسيين ـ أولاً فشلنا فى فهم القوى الداخلية العتية التى تسوق اليوم القوى الناشئة من الاتحاد السوفيتى، ثانيا، فشلنا فى التعامل مع الاتحاد السوفيتى سابقاً

والولايات المتحدة كقوتين عظميين. ولقد فشلنا بسبب واحد رئيسى ـ لأننا فى معظم الوقت الذى كنا فيه فى حرب مع الامبراطورية السوفيتيه، كنا نعتمد كثيراً على حماية الولايات المتحدة. ولم يقدم كلاهما علاقة صحيحة جوهرية للأوروبيين. ولم نستطع أن نقترب من أى من القوتين سواء صديقنا أو عدونا أو نكون واقفين على أقدامنا. ومع كل من منهما كانت أوروبا أساسا جزءا فى طلاق مؤلم ـ فينبغى علينا أن نتعلم كيف نكون بشخصيتنا نحن قبل ما نستطيع أن تكون لنا علاقة صحيحة مع شخص جديد. ومن المهم بالنسبة للأوروبيين أن يفهموا القوتين العظميين أو القوى التى تنشأ من بقايا الامبراطورية السوفيتيه، وأن يفتشوا عن تسوية عميقة معهما. وخاصة يجب أن نبدأ فى إعادة توجيه نظم مخابراتنا المعقدة التى تدربنا عليها لفترة طويلة لمواجهة القوى العظمى نحو العدو الجديد الذى يحوطنا من كل الجوانب ـ والذى بالطبع يتواجد بيننا الآن.

وقد ولدت الشيوعية مع القرن، وتموت معه. ولكن هذا لايعنى أن الشيوعيين سيكونون ديمقراطيين تماما عند حلول ١٩٩٩. فالعادات التى تراكمت على الأجيال من الصعب كسرها. فما هى القيمة الفورية للصناعة الخاصة عندما ينبغى أن يتم تعليم مفهوم دافع الربح مثلما نعلم قواعد اللغة لطالب فى الصف الثانى؟< فهؤلاء الذين يتم تعليمهم فى المدارس على مبدأ النظرية الشيوعية وممارساتها، ينبغى أن يتم تعليمهم طبقاً للمفاهيم الأساسيه لاقتصاديات السوق والديمقراطية كما نحن نتمتع بها، وكما هم لايفهمونها بداهة. وعلى هذا فإن شعباً ما كان يعرف باسم الاتحاد السوفيتى ينبغى أيضا أن يعودوا إلى بعض القيم الإسلامية التى كانت غائرة فى الروح الروسية

وليست السوفيتية. أو إلى الروح اللاتيفية أو الليتونيه أو الاستونية أو المولد فيه، أو الاوكرانية.

وتتضمن القيم التى تحل محل الشيوعيه فى الوقت الذى تتمسك فيه روسيا الديمقراطية تلك القيم الخاصة بالكنيسة. فنحن نشهد فى روسيا ظاهرة العودة إلى الكنيسة الأرثوذكسية التقليدية،. ففى منظمه هذا القرن، عندما كانت الكنيسة الارثوذكسيته الروسية تحت سيطرة الشيوعية السوفيتيه، قامت الكنيسة بحراسة اسرارها الخاصة وهى ما يمكن أن يسمى غموض الكنيسة وهو ما كان يلجأ إليه الرجال والنساء الروس على أنها طريق سلامة النفس التى ينشرها الرهبان عبر السنين إلى المؤمنين الحقيقيين.

وقد أدرك الشيوعيون مثل هذه الحاجة إلى الغموض. وقد اعتقدتُ دائما أن خطأهم الرئيسى هو أنهم وعدوا أن المكافأة النهائية للمؤمنين بهم ستكون على الأرض وقد أزال ذلك الغموض فى وقت قصير، وحكم على الشيوعية بالهلاك. فقد فشلت فى الوفاء بوعودها بالرخاء الدنيوى والرفاهية، كما تمكن العالم من أن يراقب هذا الفشل ويسخر منه. وأدرك الرهبان والبطاركة الارثوذكس أنك لاتستطيع أبداً أن تذيل الغموض من الكنيسة وإلا لن يكون لديك شيئ. وبالرغم من أن الكنيسة لم تكن أبدا المعارضة للحكم الشيوعى بسبب عناصرها الروحية العميقة ووعودها بأن الخلاص ـ سيحل فيما يلى ـ من المشاكل والمشقة التى يعانون منها اليوم، فإن الشعب الروسى يعود إلى دينه فى حشود. وبالنسبة المئوية نجد أن هناك عددا من المسيحيين الذين يقومون بالعبادات فعلا وبانتظام أكبر فى الاتحاد السوفيتى منهم فى فرنسا.

وينبغي أن نفهم ميزة أخرى رئيسية واحدة للاتحاد السوفيتي سابقا ستساعدنا للتقدم نحو تعايش ناجح وسلمي. فالروس في الامبراطورية السوفيتية يشكلون ١٣٧ مليونا من مجموع ٢٨٨ مليون شخص. فإذا قمت بإضافة الأسلاف الأوروبيين الأخرين مثل الروس البيلو والأوكرانيين ـ الذين اصبحوا الآن دولاً مستقلة ولهم اهتمامات قد تختلف من اهتمامات الروس أنفسهم ـ نجد أن عددهم يزيد قليلا على ٢٠٠ مليون. فبالنسبة للامبراطورية السوفيتية ـ نجد أن كثيرا من هؤلاء السكان الآن يتمركزون في غرب الأورال ـ اي في روسيا الأوربية. غير أن جزءا كبيرا من الأراضي يتواجد خارج أوروبا تماما حيث يوجد هناك أسرع التوسعات السكانية. ولقد اكتشف السوفييت لأسفهم الشديد خلال غزوهم لافغانستان أن لديهم في داخل حدودهم في تلك المنطقة في وسط أسيا شكلاً جديداً من الصراعات بين أمة أوروبية الا وهي روسيا ومحاربو الحرية الأبطال في افغانستان الذين يقومون بالدفاع عن أرضهم المقدسة.

ولقد قمنا بمراقبة كل هذه الضغوط والتوجهات بأقصى ما يمكننا. ولم يعمل الروس العرقيون أبدا بشكل حسن في الظروف الصعبة للأراضي العذراء ـ وهي السهوب الروسية الأسيوية الخالية الواسعة ـ وذلك من وقت أن حاولت نيكتيا خورشوف أن تنميهم. غير أنك إذا قمت بإعطاء تلك الأراضي ـ فلنقل مثلا ـ إلى النساء الأوزبكستانيات، وسيقمن بالعمل على أكمل وجه. فهن ينتعشن على ما يعد بالنسبة للقادمين من الخارج أراضي بعيدة وممنوعة. وتتزايد أعداد هؤلاء الأشخاص غير الأوروبيين بخطوات مخيفة. وليس لدى السكان الأكثر سرعة في الزيادة على الجانب الآخر من الأورال مكان حقيقي

ليذهبوا إليه. فهم لايستطيعون التوجه إلى الشرق بسبب المحيط الهادى واليابان ولا إلى الجنوب بسبب وجود الامبراطورتين الصينيه والهندية وكذا الأراضى الإسلامية. ونحو الغرب نجد بالفعل سكانا كثيرين من الروس الأوربيين. ومشكلتنا الأساسية فى المستقبل من المحتمل أن تكون هى ادارة هذه القوى السكانية العاتية.

ومنذ عشرين عاما مضت، قلب لبوتر أبراسيموف الذى كان حينئذ سفير الاتحاد السوفيتى لفرنسا وعضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعى:

« انتم اصبحت الغول ـ المحارب العظيم ذا السيف الضخم والحلة الحديدية الذى يحمى العالم الأوروبى من حشود المغول. »

فى المناطق الأسيوية الواسعة ـ وهى جزء مهما كان يسمى بالأمبراطورية الروسية وبعد ١٩١٧ أصبحت تسمى الامبراطورية السوفيتية ـ يعيش أنواع مختلفة من الناس الذين لاينتمون بالطبع إلى أوروبا الغربية. ومن بين هؤلاء، فى جنوب تلك الأراضى الهائلة، يتواجد ستة ملايين مسلم محررون الآن من الشيوعية ويعودون بسرعة إلى دينهم وثقافتهم القديمة.

وقد حاربت الولايات المتحدة ما قد يكون قد ظهر على أنه صراع بين الشمال والجنوب وخسرت هناك. إلا أنه لم يكن صراعا. فشمال فيتنام، وهو مقاطعة فى مستعمرة فرنسية سابقة، قد سقط فريسة لديكتاتور شيوعى متطرف يسانده السوفييت وتقريبا الشيوعيون الصينيون وكنتيجة لذلك، كانت حكومة حرب باردة. الحرب العالمية الثالثة وكانت عقلية وأيديولوجية يجب عمل توازن ضدها. فكان كهنوتها هو الشيوعية والقوة لا الله والمسيح . وكانت

تلك حرب ذات حدود جغرافية واضحة، تحارب بتكتيكات مرعبة وتكتيكات رجال حرب العصابات فى الغابات التى أجبرنا على أن نتعلمها تقريبا بنجاح، وأيضا حرب بأسلحة كانت مألوفة بالنسبة للغرب حتى ولو أننا لم نعرف أبدا كيف نهزمهم. إلا أن حرب فيتنام كانت لها قيمة واحدة بالنسبة للولايات المتحدة. وقد جعلت الشعب الأمريكى يتعود على الحاجة إلى الذهاب ليحارب ضد ما يبدو وكأنه قوة أقل منهم، أو حتى يخاطروا بالهزيمة على أيدى هؤلاء. وبينما وجد الأمريكيون الحرب إلى حد ما أقل إرضاء من الناحية النفسية، فإن مكانتهم ظلت إلى حد كبير سليمة. ومن ثم أصبح أسهل بكثير بالنسبة لهم أن ينقذوا مناوشات أخرى ـ تعتبر حتى أكثر خطورة ـ مؤشراً جداً فى الخليج الفارسى ضد العراق.

وقد علمت الحرب فى افغانستان السوفييت بعض من نفس الاغراض النفسية التى علمتها فيتنام للأمريكان، فقد كانت تلك هى أول حرب يخسرها السوفييت. ولكن كان لها معنى أكبر، كانت بداية عملية التخلص من المستعمرات الخاصة بالامبراطورية السوفيتية التى أدت فى النهاية إلى حل الكثير من نظام أوروبا الشرقية المبنى منذ الحرب العالمية الثانية. ومن هذه الناحية، كانت نهاية امبراطورية أوروبا الشرقية التابعة للسوفييت ـ وهى بالفعل الاتحاد السوفيتى نفسه ـ هى النفس الأخير فى الحرب العالمية الثالثة ونهاية للقدرة السوفيتية على أسلوب المواجهة بين الشرق والغرب بإسلوب الحرب الباردة القديم.

وفى افغانستان. أدى عاملان خطيران إلى الإعلان السوفيتى العام

بالانسحاب ـ الأول هو ارتفاع مد الرأى العام فى الوطن، وهذا الرأى تمكن بين أن يحترق فى قلب أمه لم يعرف عنها أبدا السماح للرأى العام أن يؤثر على أى قرار استراتيجى. فالعديد من الشباب وهم زهرة الرجال السوفييت كانوا يعودون إلى الوطن فى صناديق الموتى. والعامل الثانى كان اقتصاديا بحتا. فكانت الحرب تتحول إلى مصرف كبير جداً للاقتصاد السوفيتى الذى كان يتدهور بالفعل. وكان جورباتشوف مستعداً أن يحل وثاق حلفائه المقربين وأن يتخلى عن النطاق الذى يحيط به، ألا وهو دول أوروبا الشرقيه التى قام اسلافه بدعمها بتكاليف مالية وبشرية لاتُعد منذ الحرب العالمية الثانية. لذا كيف يمكن له أن يبرر لنفسه أو لمسانديه تكلفه حرب للسيطرة على دولة إسلامية بعيدة غير موجودة فى المعسكر الشيوعى التقليدى هذا على الرغم من أن جورباتشوف لايزال يساند نظام كابول ماديا. وقد انتهى ذلك فى يناير ١٩٩٢.

وفى بداية عقد التسعينيات، صارت الأموال هى المحك للسياسة السوفيتيه فى الداخل والخارج،. وأصبحت فاعلية التكلفة هى اختبار عباد الشمس بالنسبة للسوفييت، أى معيار جديد. وعلينا أن نفهم كيف يمكن أن يجهز الكى جى بى للعمل فى ميادين الحرب العالمية الرابعة، مثلما يجب أن ندرك نقاط القوى والضعف فى حلفائنا الامريكيين.

ولايوجد دليل واضح ـ على سبيل المثال ـ على أن جهاز المخابرات أو الجهاز العسكرى السوفيتى قد تم حله عاما وفجأة. لكن أعيد بناؤه.. نعم ويبدو أن كلا من الجمهوريات المنفصلة قد اعطيت السيطرة على جهازها الأمنى الذى أرجأ الكى جى بى التفكير فيه والذى يظل تحت سيطرتها التامة. ولكنه قد

يظهر أيضا أن فى إدارات الكى جى بى والجى آريو المركزية عملاً كبيراً كالعادة يختص بالمخابرات والعمليات الاجنبية. وعلينا أن نظل حذرين تماما من ظهور عملاء المخابرات فى كل من الاثنتى عشرة مفوضية أو أكثر التى سيتواجد فى العواصم الغربيه والتى تنتج عن الأمم المكونة حديثاً مما كان يسمى بالاتحاد السوفيتي وفى الوقت نفسه، فى شكل ما أو آخر يظل الكى جى بى والجى أر يو فى كل مكان، ولايمكن المبالغة بخصوص ما يمكن أن يتوصلوا إليه وبخصوص تأثيرهم فى الداخل والخارج. وعلى الرغم من أن الستائر قد عادت على الواجهة الزجاجيه للبعثة السوفيتية للأمم المتحدة فى شرق شارع ٦٨ بنيويورك، إلا أن فى بعض المناطق الحيوية فى العالم يظل العملاء فى أماكنهم، وهؤلاء العملاء اختبأوا منذ سنوات مضت فى كل دولة من الدول المضيفة ولايزالون ينتظرون اللحظة التى قد يتم استدعاؤهم فيها. ويظل هؤلاء العملاء فى أماكن ووظائف هامة فى العالم النامى الجنوبى وفى الدول الديمقراطية الغربية الشمالية.

وكانت العمليات التى يقوم بها [الكى جى بى وجهاز المخابرات الحربى الجى أر يو] تسير بسرعة أقل تحت القيادة الجديدة وخاصة فى الولايات المتحدة وذلك بعد عامين من طرد الزعماء الشيوعيين فى بولندا والمجر وتشيكوسلوفاكيا وألمانيا الغربية وحتى بعد تفكك الاتحاد السوفيتي نفسه. وبالطبع هناك دليل على أنه تحت رعاية الكى جى بى، استمر الستاسى المهاب، وهو الشرطة السرية فى ألمانيا الشرقية، فى العمل فى شكل خفى جدا فيما كان يسمى بألمانيا الشرقية قبل الاتحاد. وقام مئات من الأعضاء من أبناء البلد فى جهاز الأمن الذين كانوا يأخذون أوامرهم من شكل مباشر أو غير مباشر من

الكى جى بى قاموا باخفاء انفسهم فى المخابئ فى كل دول أوربا الشرقية مرسلين تقارير فقط إلى عملاء السيطرة فى الكى جى بى. وقام الآخرون بالهرب إلى بلادهم الأصلية يستمرون فى نشاطاتهم فى وظائف الكرملين. ويتركز اهتمام الكى جى بى ـ وهو صنعة مشتركة مع نظائرهم فى المخابرات فى كل مكان ـ على مساعدة بعض الأشخاص التابعين لهم والموالين لهم على البقاء فى السلطة فى كل من أجهزه الأمن وفى الحكومات نفسها. ونسمى مثل هؤلاء الأشخاص متعاونين أو متعاطفين أو مرافقى سفر، لكن هناك بعض العملاء الذين يعملون طوال الوقت وهؤلاء يتلقون أجرا طيبا وتدريبا عاليا وماهرين جداً. وفى عدة جوانب، يستمر هؤلاء الافراد فى أن يكون الوسيلة التى ينشر بها السوفييت قوتهم فى الخارج ـ فى الدول الديمقراطية المغربية التى كانت عدوتهم خلال الحرب الباردة.

وهذا النوع من الألعاب كان يلعب طالما هناك تجسس. وأنظر ـ على الرغم من أى شئ ـ إلى ماحدث للنازيين بعد الحرب العالمية الثانية. فقد بقى المئات منهم متنكرين وأصبحوا أعضاء فى الستاسى. وكانت تلك الطريقة المثلى للاستمرار فى نشر القوة النازية. لكن للأسف، ومن أجل خاطرهم، فتحت الحرب العالمية الثانية الطريق بسرعة للثالثة. فبدلاً من عودة رايخ هتلر، وجدوا أنفسهم محصورين فى العمل من أجل كل عدو كان يمقتونه بشدة. وقد استغل النظام الشيوعى بشكل فعال العديد من النازيين الذين قاموا بتغيير الشارة الموجودة على ذراعهم من اللون الأسود إلى الأحمر، وقاموا بالتأقلم بسهولة وبسرعة مع الحقائق الجديدة. واستفاد الغرب من خبراتهم بقدر أقل. وبينما نحن ننتقل من الحرب العالمية الثالثه إلى الرابعه؟ سيكون هناك حتما نقلات

مشابهة فى الولاء. سمى ذلك انتهازية أو بقاء، لكننا ينبغى أن نتأكد أن منظماتنا الاستخبارية الغربية أو الشمالية هى المستفيدة الرئيسية.

ولابد أن يتم الاقتراب من جهاز المخابرات السوفيتى بحذر شديد، كما قد يقترب المرء من دب مجروح ولكنه لايزال قويا. وعلى المخابرات الغربية أن تستمر فى مراقبة انشطة المخابرات السوفيتية. ولاتزال معرفة مكان عمل السوفييت وهوية اصدقائهم والإجراءات التى يتخذونها على درجة من الأهمية القصوى.

وانهيار الاقتصادى السوفيتى اليوم يعتبر فى ذاته حكاية تحذيرية من عدم جدوى ضخ مبالغ كبيرة من الأموال السائلة فى اقتصاد غير فعال تماما ولاتسيطر عليه قوى السوق بل بيروقراطيو الحكومات ضيقو أفق فى التفكير وغير أكفاء.

وكان القرار بعدم التشويش على إرسال الاذاعات الغربية خطوة هامة قامت بها الحكومة السوفيتية على طريق فتح المجتمع الروسى على المفاهيم السياسية والاقتصادية الغربية ـ وهو حادث مصادفة سمح للمواطنين السوفييت وقوادهم بأن يعرفوا كيف كان انقلاب أغسطس ١٩٩١ الذى كاد أن ينهى البروسترويكا واهيا. وأكثر من خمسة عشر عاما مضت، قمت بحث رئيس فرنسا على بدء بث إرسال راديو فرنسا الدولى إلى الجمهوريات الآسيوية فى الاتحاد السوفيتى على أمل أن يرى ذلك على أنه أقل تحديدا إلى حد ما من اذاعة راديو الحرية الذى تدعمه وكالة المخابرات المركزيه، ومن ثم تكون لدينا فرصة أكبر فى الوصول إلى مستمعينا المقصودين. وكنا قد قمنا بمراقبة التطورات فى هذه

المناطق لعدة سنوات، وذلك بفترة طويلة قبل غزو أفغانستان ووعينا إلى القوى الثورية التى تبتنى فى هذه المناطق التى تبتعد كثيرا عن الكرملين. والآن يُعد الإرسال الإذاعى الفرنسى إلى جوار الطائرة الأمريكيه والبريطانيه والألمانيه الذين يتم استقبالهم بصوت عال ووضوح ـ نافذة مفتوحة على الغرب بالنسبة لأقصى القرى السوفيتية الآسيوية بعدا. وهذه الخطوة أولى فقط فى العملية الطويلة و المضجرة لإعادة تعريف حضاره كاملة بطريقة حياه جديدة وغريبة.

وكان دائما من الصعب العمل فى داخل الامبراطورية السوفيتية نفسها. بالنسبة للاستخبارات أو الأغراض الأخرى ـ وكذا أكثر صعوبة فى المناطق الأسيوية. وفى الوقت الذى كان نقيم فيه سفارة وطاقم كبيرين فى موسكو وطاقم قنصلية أصغر فى لينينجرد، كان من الصعب أن نسافر مع الشعب السوفيتى أو نبنى أو نحتفظ بصداقات أو أى اتصالات معهم، ناهيك عن حكامهم. فالموقف كان غير متناسق تماما. ففى الغرب، تمكن السوفييت من تسليل عشرات من العملاء الى متاطق فى فرنسا حيث لم يحتفظوا بأى تمثيل دبلوماسى، كما تمكنوا من العمل فى أجزاء من باريس حيث كان من الصعب ـ إن لم يكن مستحيلا ـ السيطرة عليهم.

وكانت المراكز الرئيسية لليونسكو حالة مشهورة فاليونسكو وظيفة استماع غير عادية. فهناك يحتك الدبلوماسيون والجواسيس مع المتخصصين فى العديد من الأنظمة الثقافيه والتعليمية والاجتماعية فى كل قارة. فهى نافذة على كل دولة من دول الأعضاء فى الأمم المتحدة. وكان لدى كل سكرتارية كبرى نصيبها من العملاء السوفييت عبر السنين ـ العملاء الذين يسافرون

بجوازات سفر دبلوماسية خاصة بالأمم المتحدة ويعملون بحصانة فى فرنسا وأى مكان يتم تعيينهم فيه. ولمدة عشر سنوات، كان مدير المستخدمين بالأمم المتحدة فى جنيف روسيا ـ برتبة كولونيل فى الكى جى بى ـ وصاحب مدخل كامل لكل الملفات الشخصية لكل موظفى الأمم المتحدة. وأنت لاتحتاج إلى العديد من العملاء مثله.

وفى اليونسكو بباريس، كان أحد الأعضاء الكبار فى قسم الصحافة روسيا أيضا وعميلاً لكى جى بى. وفى أثناء الثمانينيات، خدم كأحد المراقبين الكبار. للصحفيين الغربيين وأطقم التليفزيون الذين قاموا بزيارة المراكز الرئيسية لليونسكو ـ مراقباً كل زاوية للكاميرات ومستمعاً لكل سؤال. ولم يكن للسلطات الفرنسية سيطرة على نشاطات مثل هؤلاء الأفراد. كل ماكنا نستطيع فى النهاية أن نقوله هو «إننا لانريد هذا الشخص فى بلادنا أكثر من ذلك، «إلا أن هذه الكلمات لم تكن تنطق أبدا. لأن كل فرد من هؤلاء نقوم بتحريكه، كان يقابله تحريك أحد رجالنا. بالاضافة إلى أننا كنا نواجه آنذاك بالمهمة الفظيعة ألا وهى اكتشاف أى من السوفييت قد تولى وظائف المرء الذى طردناه.

ورجوعا إل عصر بيتر العظيم، أثناء حكم الرومانيين، قبل وصول الشيوعيين للسلطة بفترة طويلة، كان الروس يكرسون طاقات ضخمه لفهم الغرب. ولقد حاولنا نحن الأوروبيون أن نفعل نفس الشئ مع الشرق. وقد نجحنا على عديد من المستويات فى تعميق فهمنا ـ فنحن، بالرغم من كل شئ، ننتمى إلى قارة واحدة، ونتقاسم العديد من الأعراق الواحدة هذا إذا لم نتقاسم الخلفيات السياسية أو الثقافية.

وعبر السنين، عندما كان ليوند برزهنف يسيطر على الساحة السياسية السوفيتية وفى أثناء ذلك كانت صحته تتدهور ـ كان جزءاً متزايد بين اهتمامنا وطاقتنا قد تم توجيهه لفهم مقدار مرضه. وفى يوم ما، قام برزهنف بزيارة للدنمارك وقمنا بترتيب عملية تعاون مثيرة مع المخابرات المحلية. ووجدنا أننا بمساعدتهم استطعنا أن نكون فى الشقة التى تتواجد أسفل تلك التى كان يسكن فيها برزهنف مباشرة. ويعمل وصلات على المواسير التى تؤدى إلى حمامه الخاص، تمكنا من أن نجمع كل شئ يخرج من جسمه لكى يتم تحليله. واكتشفنا، ولم يدهش ذلك أحداً ـ أنه مدمنا للخمر ـ إلا أنه كان مدمنا شديدا للخمر.

بوضع ذلك فى اعتبارنا، قام المكتب الفرنسى للبرتوكول عند قيامه بزيارة رسمية إلى باريس ـ بالتأكد من أن البارات فى جناحه فى قصر ترنينون فى فرساى حيث سيقيم وفى قصر الاليزيه حيث ستعقد اجتماعاته الرسمية مليئة تماما. وفى الزيارة التى ظهر بعد ذلك أنها آخر زيارة رسمية له لفرنسا، عُقد أول اجتماع فى الساعة الرابعة تماما بعد الظهر، وعندها تأكد قصر الاليزيه من أن كل نوع من أنواع المشروبات فى العالم فى متناول يده. فكان هناك ثلاثون نوعاً مختلفاً من الويسكى ـ وكذا الاسكتش من كل نوع ـ الروم والكندى والايرلندى ولو حتى قال: «الساكى» كنا سألناه أى ماركه. وقد طلب برزهنوف الشراب الوحيد الذى لم يكن متوافرا ـ القهوة! فقد أراد فنجان من القهوة واللبن. غير أن المطبخ فى الاليزيه قد اتضح أنه كان مغلقاً، فالطهاه الذين أعدوا الغداء قد ذهبوا للتمشية ولم يعودوا بعد ليبدأوا العمل فى العشاء. وقمنا فى النهاية بعملها ارتجاليا.

وفى أثناء زيارة بزرهنف، قامت المخابرات الفرنسية بمراقبة كل حركة من حركاته ـ ماذا أكل، كيف كان يتصرف، كيف كانت حالته وهو يتناول الغداء وإذا كان وجهه يحمر. وكان لدينا متخصصون قاموا بالنظر إليه بدقة وكذا الكاميرات، وفى يوم الزيارة الأول بعد الظهر، كنا بالفعل نقوم بمراقبته. وكان برزهنف رجلاً بدينا للغاية، يعرج فى مشيته، وكان يقف مستقيماً بمساعدة اثنين من مساعديه. وبعد الجلسة عاد إلى يبتون وخرج من سيارته وسار بهدوء نحو المدخل. إلا أنه فى اللحظة التى أغلق فيها باب شقته، أسرع فى خطوته وكان يجرى تقريبا نحو البار. وقام بسكب كميه قاتلة من الفودكا أو بواقى لنفسه وهى فودكا بالفلفل. وقد تنقلب معدة أى شخص عدا الروسى بسبب هذا النوع.

وقمنا بمجهودات كبيرة لجمع هذا النوع من المعلومات ـ فهم العدو ـ وهذا يُعد مهارة أساسية لمعارك المخابرات. ولذلك لم يكن الأمر مفاجأة عندما أصابنا إحباط شديد حين لم تهتم القيادة السياسية لهذا النوع من المعلومات التى تمكنا من أن نمدهم بها ـ أى عندما يذهب الرئيس جيسكار ديستان لعقد قمة فى وارسو مع الرئيس برزهنف دون حتى أن يعرف المعلومات الاساسية من وكالة مخابراته. ومثل هذه المواقف لم تكن محبطة فقط ولكنها كانت خطيرة أيضا. ولقد تقاسمنا على الأقل بعض هذه المميزات مع نظرائنا الأمريكيين ـ فلم يمر زملاؤنا الروس بتجربة الاحباط ابدا ـ حيث وجدوا أن استخباراتهم كانت دائما تؤخذ بجدية مطلقة، وكان يُسعى فى كل فرصة وعلى أعلى المستويات. وعلى هذا، فإنه عندما كان يتم طلب نصيحتنا، كان يتم قهرها ووضعها فى الاعتبار بكل اهتمام.

ولايحدث هذا كثيرا بين حلفائنا الأمريكيين الذين تقوم قيادتهم السياسية وحتى قيادة مخابراتهم فى العديد من المناسبات بالتنازل عن مسئوليتها لدى شخص ناهيك عن حلفائها. وعلى الولايات المتحدة أن تدرك أخطاء طرقهم القديمة. وإذا كانت الولايات المتحدة تريد أن تثبت كفاءتها فى الوقت الذى ينتقل مركز اهتمامنا إلى القضايا الأكثر تعقيداً ودهاء فى الحرب بين الجنوب ـ والشمال التى بدأت بالفعل، وعلى القيادة السياسية الأمريكية أن تقوم بنفسها أيضا بالذهاب إلى مدرسة فن الدهاء كما يمارسه إعداؤنا الجدد.

ومنذ الأيام الأولى لى فى التعامل مع مؤسسة المخابرات الأمريكية، كان من الواضح للأسف أن هناك خطأ خطيراً ونظامياً فى تنظيم جمع الاستخبارات وتحليلها والتصرف طبقاً لها . وقد أثر ذلك العيب على قدرة الأمريكان على العمل ضد الإمبراطورية السوفيتية وحلفائها الشرقيين فى الحرب العالمية الثالثة.

كما أنها تمنع المخابرات الأمريكية من العمل بكفاءة فى العالم الجنوبى، وفى قلب ذلك الفشل نجد عدم قدرة القيادة العليا لحكومة الولايات المتحدة على فهم ما يقوم مجتمع المخابرات بعمل التقارير عنه ـ ما يعنيه كل هذا الأمر. فينبغى أن يسبق إدراك للهدف أى تصرف يتم عمله على أمل نجاح نتائجه والأخطر من ذلك هو المحاولات المتكررة لاستغلال المخابرات للأهداف السياسية للميل بجدول الأعمال الدبلوماسى أو السياسى نحو آراء خاصة وذلك نتيجة لأسباب الموالاة والمناصرة. ولايمكن تقديم تقديرات موضوعية وحيادية تماما عن المواقف الدولية وزعماء العالم فى مثل هذا الجو.

وفى احد الأوقات أثنا ء لقائئ الأول مع الرئيس ريجان فى كاليفورنيا، سألنى الرئيس المنتخب « كيف يعمل هؤلاء الرجال مثل آيات الله كيف يفكرون »

فقلت لنفسى بسرعة أنه من الأفضل عدم الخوض بعمق فى تاريخ أولاد الله وكيف أن بشيعتهم صاروا شيعة والبعض الآخر سنيين.

وبدأت أقول «الشئ الوحيد الذى أحب أن أركز عليه ياسيد ريجان هو أن هؤلاء ليسوا بنوع الأشخاص الذين تريدون أن تقيموا معهم عملاً دبلوماسياً طبيعياً مفتوحاً فهم لايرون كما تفعل نحن، فنظامهم الداخلى ومحيطهم ليسا كنظامنا ومحيطنا. هل لى أن أصف كيف أراهم بإخبارى إياك لقصة غريبة حدثت فى فرنسا فى القرن الثالث عشر؟ »

وأومأ السيد ريجان. ولذا أخبرته عن حصار بزيار. فقلت له «قبل أن تبدأ المعركة قال ممثلو البابا الصلاة من أجل القوات وقدموا لهم البركات، وانتهوا بهذه العبارة: «ياجنود اقتلوهم جميعا، فإن الله سيعرف جنوده»».

وتلك جملة يعلمها كل تمليذ فرنسى. ولذا قاموا بذبح كل سكان مدينة بزيار بأيديهم. وقاموا بسقوط الحوامل حتى لايبقى أحد من المنشقين عن العقيدة. وكان هذا مثل قتل عشرين ألفا من الغنم..

وأدرك الرئيس ريجان مغزى القصة ـ إن الحياه الإنسانية ببساطة معنى أخر عن معناها عندنا بالنسبة للعديد من إعدائنا الجدد الذين يعتبرون متدينين متعصبين يعملون كجنود الله تماما مثلما كانت تنفذ قوات البزيار رغبه الباب. ولكنى لم أقتنع أبدا أنه هو أو أى من المديرين الستة للمخابرات المركزية الذين

تعاملت معهم خلال فترة عملى كرئيس للأمن الفرنسى قد فهموا تماما كيف تفكر الدول الإسلامية - أو كيف يفكر السوفييت. فليس من السهل الوصول الى ذلك الإدراك فى العامين أو الثلاثه التى يتولى فيها معظم مديرى المخابرات المركزيه المنصب.

وقد تضاعفت الأخطاء العميقة فى الفهم التى ميزت قيادة مجتمع المخابرات المحترفين بشدة أكثر من وجود القيادة المدنية للولايات المتحدة.

وفى احدى زيارتى لواشنطن، قمت بزيارة رئيس لجنة المخابرات المشتركة بالكونجرس، عازما على تعريف رجال الكونجرس وبعض أعضاء لجنة الكبار على التطورات الأخيرة التى كنا نتتبعها خاصة فى الشرق الأوسط. وطلبت منه خريطة للشرق الأوسط كى استطيع أن اشرح بتوضيح أكبر بعض النقاط التى أبينها. فبجوار مكتبى تماما فى باريس يوجد رسام خرائط لايهتم بعمل شئ سوى الخرائط. وعلى هذا، فإن الأمر قد استغرق عشرين دقيقة فى واشنطن كى يقوم رئيس هذه اللجنة التى كانت مهمتها البحث فى مؤسسة المخابرات الامريكية كلها لإيجاد خريطة الشرق الأوسط - وقام مساعد وهو أحد أعضاء اللجنة ١٠٨ أخيرا بالعودة بخريطة رئيسية بحجم صفحة كتاب صغير. فكيف يمكن أن نفهم العالم إذا لم تكن تعلم شكله؟

ومن سنوات اتصالى بالنظراء المدنيين والعسكريين فى الولايات المتحدة، من الصعب أن اختار الدليل القاطع على الهوة الساحقة فى الفهم التى تفرق بين الأوروبيين والأمريكيين فى التعامل مع التحليلات العسكرية والاستراتيجية والاستخبارية خاصة من العالم الثالث.

غير أنه لايوجد مقابلة واحدة يمكن تذكرها في باريس على مستوى حرب فيتنام فى ١٩٦٨ التى كنت فيها مع الجنرال وليم وستمورلاند. فقد كنا فى حجرة المعيشه فى شقة بيارداملون الذى كان موظفاً مدنيا فرنسيا كبيرا جداً وصديقاً حميماً. وكان الجنرال فى طريق عودته إلى سيجون ليستأنف مهام منصبه كقائد أعلى للقوات الأمريكية فى فيتنام. وقمنا بعمل محادثه فى ذلك المساء.

وبدأ قائلا: «حسنا، تسير الأمور؟»

فأجاب بخفة: «آه، بشكل حسن جداً

وابتسمت «عظيم جداً ـ لأننى بالنسبة لى شخصياً، لا أرى أن لدى نفس الانطباع من الخارج».

فرد قائلاً : «سأريك لماذا. وسحب من جيبه بطاقه ٣ x ٥ بوصه بها بعض الأرقام مطبوعة بالآلة الكاتبة.«اخرجنا خمسمائة ألف فيتنامى من الحرب أما للوفاة أوللأسر والآن مارأيك فى ذلك.»

فأجبت «معذرة ياسيدى الجنرال، ولكننى لم أتأثر»، فمرت سحابة على وجه الجنرال، وقلت «سأشرح لك. أنت القائد الأعلى، وقد فقدت خمسمائة الف بندقيه. فماذا ستفعل؟»

«سأرسل رسالة طلب امداد إلى واشنطن: «أرسلوا خمسمائة ألف بندقية.»

فقلت «أهذا كل ما فى الأمر.» ولكننى لم أكن متأكدا من أنه قد فهم ما أعنى. فالجنرال وستمورلاند ـ مثل زملائه ـ لايبذل أى مجهود أبدا لفهم عقليه

عدوه. فبالنسبة للفيتناميين الشماليين، لايعنى خمسمائة ألف رجل سوى خمسمائة ألف سلاح بديل. فالكثير من السلاح يتم مصادرته، وبعد ذلك المزيد والمزيد مرة أخرى. ومع هذا أنا متأكد أن الجنرال كان يفكر، «هذا المتحذلق يجلس على حماره الصغير فى باريس وأنا أحارب فى تلك الحرب.»

وسألنى أخيرا : «حسنا، ماذا كنت ستفعل؟»

وبدأت أقول: «ينبغى عليك أن تلعب بقوتك وليس بقوه عدوك وأحد مجالات قوتك ـ بسبب قواتك الجويه والبحريه ـ هى مكتب الأهوال الجويه. أجل، الأرصاد الجوية.»

وسألنى مستفهماً: «وماذا عن مكتب الأحوال الجوية؟»

«أنا شخصيا سأنتظر اليوم الذى تكون فيه الرياح الموسمية على أشدها فى هذا العام. وانتم تملكون الوسائل التكنولوجيه لمعرفة ذلك. وفى هذا اليوم أقوم بقصف كل الحواجز فى كل نهر فى فيتنام الشمالية.»

فقال: «لكن هذا قد يقتل اثنين أو ثلاثة ملايين شخص.»

فسألت: «ماهو هدف الحرب ياجنرال؟ ـ فلم يكن انقاذ المدنيين هو ما تفكرون فيه فى هيروشيما ونجازاكى، لكنكم نسيتم هذا الدرس؟»

فأدار وستمورلاند ظهره لى ومشى متفاخرا. وقد فشل أحد قواد أمريكا العسكريين الكبار أن يتعلم أثنين من أهم الدروس فى الحرب العالمية الثالثة، وذلك أخذ الدروس القليلة الذى يمكن تطبيقها مباشرة على الحرب الرابعة. لقد فشل أولا وقبل أى شئ لأن يدخل فى عقول أعدائه. ولم يفهم ما الشئ الذى

لايمكن الاستغناء عنه والذى يمكن الاستغناء عنه بالنسبة لهؤلاء الذين يحارب معهم. فالقوة البشرية يمكن الاستغناء عنها كلها طالما يمكن الإحلال بشئ محلها. لكن الأرض والبنية الأساسية التى تحمى تلك الأرض كانت الشئ الذى لايمكن الاستغناء عنه ولايمكن الاحتلال بشئ محله.

ويتشابه وستمورلاند فى أشياء عديدة موجودة فى الكثير من جيله من القواد العسكريين فى الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى، فهو لايزال يحارب الحرب العالمية الثالثة ـ التى يأتى فيها العدو بتصرفات من تفكيره هو ـ بالقيم التى هى جزء من شخصيتهم، والأمر الذى يعد على نفس مستوى الخطورة هو أنهم يحاربون بالعديد من التكتيكات فى الدفاع والاستخبارات التى لاحظت أنهم كانوا يستخدمونها نفسها فى الحرب العالمية الثانية. وكان من الواضح أن فيتنام كان من الممكن أن تكون المكان المثالي لتجريب تكتيكات جديده ومفاهيم جديدة كان من الممكن أن تكون قيمة بالنسبة لمواجهه عدو لم يفهمه أحد منا بحق. وعلى هذا، فقد كانت العقليات العسكريه والاستخباريه الأندر وجودا فقط هى التى حاولت أن تعرف العدو بشكل أكثر عمقا مما قد تعرفه عنه.

وعلى هذا، كان هناك بعض الأمريكان الفرادى عبر تلك السنين الذين حاولوا أن يفهموا الحاجة للدخول فى عقول العدو. وفى أواخر ١٩٥٣، وبعد فترة قصيرة من تولى الأدميرال أثر رادفورد منصب رئيس الرئيس الأعلى للقواد العسكريين، تحدثنا فى واشنطن عن اندونيسيا حيث كنا نحن الفرنسيون نقوم بعملية ارتكاب العديد من نفس الأخطاء التى كان الأمريكيون

سيرتكبونها فيما بعد. فسألنى ماذا ينبغى عليه أن يعرف من معلومات إذا حدث وتورطت قواته العسكرية فى فيتنام.

فأجبت: «لكل أمة مشكلتها، من الناحية التاريخية، نجد أن أمريكا دائما قلقة بخصوص قوتها البشرية. ولهذا قمتم باختراع الحصاده الدراسة الميكانيكيةلحصد محصولكم، لكن نحن الفرنسيين نستطيع أن نحسر مائتى رجل، فالأمر ليس مهما جدا، لكنكم أيها الأمريكيون لا تستطيعون. فإذا قتل جندى أمريكى واحد، فسيكون ذلك مأساة وطنية. ولقد تسلمت شيئاً واحداً هو الا تذهب إلى القارة الأسيوية بجيش، فالعدو يستطيع أن يتحمل أى عدد من القتلى، لكننا لانستطيع فإبق دائما فى عرض البحر وفى الجو حيث نكون أقوياء. وعندما يقومون ببناء كوبرى، دمروه. وعند بناء آخر، دمروه. وإذا بنوا كوبرى خامس دمروه أيضا. وهذا درس جوهرى حارب دائما حربك أنت، وليس حرب العدو.»

والواقع أن كلتا القوتين العظميين لم تنظم بحق لتحارب الحرب العالمية الرابعة كما نعلمها نحن ـ غير أن الأمريكيين، فى رأيى، هم أقل القوى المستعدة لذلك. فقليل من رؤساء المخابرات الامريكية الذين اتصلت بهم اتصالا وثيقا خلال سنوات تولى منصبى أدرك بشكل كلى بعض هذه الحكم الأساسية للحرب أو التجسس أو الجغرافية السياسية فى عصر الصراع بين الجنوب والشمال.

ربما كان الشخص الذى اقترب من ذلك هو جورج بوش الذى كانت مهمته فى الاثنى عشرا شهرا التى تولى فيها منصب مدير المخابرات المركزية فى سنه

١٩٧٦ ، ١٩٧٧ هى إعادة تنظيم مجتمع المخابرات الأمريكية وإعادة بعض الاحترام الذى فقدته نتيجة لسلسلة من الفشل الذريع، وكذلك احياء بعض فعالية المخابرات كلاعب فيما كان حينئذ بالحرب الباردة.

فأى نجاح بالطبع سيكون له معان ضخمة طويلة الأجل بالنسبة لقدرة الأمريكيين على العمل فى بيئة المخابرات.

وقد قدم السفير الفرنسى للولايات المتحدة السيد بوش لى مذكرة مكتوبه بخط اليد. «هو رجل مهذب حقا، ولد فى عائلة عريقة فى نيوانجلند ويحترم منذ ميلاده انواع القيم الاخلاقية الأساسية التى نشترك بالايمان بها.

وبعد وقت قصير عن وصول المذكرة، ظهر بوش فى باريس. وكان ذلك فى مارس ١٩٧٦. ومن اللحظة الأولى حدث توافق بيننا. وقد كان اجتماعنا الأول فى مكتبى فى المركزالرئيسى، وكان هناك غداء رائع أعد رئيس طهاة البحرية الفرنسية. ولازلت اتذكر «السوفليه». واصطحب بوش معه مساعده الرئيس الجنرال فيرنون والترز الذى كان ولايزال واحداً من أغرب الدبلوماسيين ومحللى الاستخبارات فى الغرب. وللأسف كانت أيديهم معقودة بسبب العمليات الفاشلة المنتظمة لنظام المخابرات الأمريكية وكانت مناقشتنا فى الاجتماع الأول حول النظرة العامة للموقف العالمى وخاصة فى اعقاب الهزيمة الأمريكية فى فيتنام وتولى الشيوعيون السلطة، الأمر الذي حدث منذ عام مضى. وكنت مهتما على وجه الخصوص بتأسيس نظام مشترك للتعاون مع الأمريكان يتشابه لترتيبات العمل التى نقوم بها مع حلفائنا الأوروبيين. غير أن بوش كان حذرا، فلقد تولى مهامه الجديدة فى وقت قريب، وكان مدركا لحقائق السلطة فى واشنطن.

فقلت له: «لايستطيع أحد أن يكون قويا بمفرده»، محاولاً اقناع رجل أكن له بالفعل احتراما ضخماً. «إذا استمرينا فى العمل فرادى ـ مفككين ـ لن نكون ابدا أقويا ء بالدرجة الكافية. لكننا معاً، سيكون الأمر مختلفا . ونحن أقويا ء جدا . »

ومع هذا ، احتفظ بوش بالحكم. وبعد يومين من لقائنا ، اتجه بوش الى بقيه أول رحلة أوروبية له ـ إلى ميونخ وبروكسل ولندن. وعند عودته إلى واشنطن، تلقيت بسرعة رسالة جميلة مكتوبه بخط اليد.

صديقى العزيز:

ربما هذا شئ رسمى جدا ، لكن هذا ما أشعربه. أشكرك على كرمك البالغ ـ لقد عدت إلى الوطن شاعرا بأهمية علاقتنا وهدفنا المشترك. وكان اللنشون رائعا ، لكن المحادثة معروفه آراؤك المؤثرة عن العالم المضطرب فاقت حتى السوفليه اللذيذ. وأضف إلى هذا شعور باربرا بالترحيب من زوجتك الساحرة. أرجو أن تأتى لزيارتنا فى وقت قريب حتى نستطيع أن نستمر ما آمل أن يكون علاقة رائعة. وأرسل لك والى قومك جزيل شكرى.

المخلص

جورج. بش

للأسف كانت هناك فجوة عميقة بين الشعور الصادق بالهدف المشترك وتنفيذ العمليات المشتركة. وبالطبع لم يرد بوش على اقتراحاتى حتى يوليو عندما تلقيت خطابا ثانيا مكتوبا بخط اليد:

لقد وجدت الاقتراح الذى نقلته إلىّ مثيرا للغاية، وأقدر جدا الروح التى أثارت لكى تعرضه. وكما نعمل فإن الاقتراح يثير عذراً من المشاكل السياسية التى يجب أن تُوضع فى الاعتبار. وعلى هذا أرجو أن تتأكد أن أراءك حول التعاون المستقبلى بيننا يتم دارستها بدقه شديدة.

وكان من الواضح أن جورج بوش قد اكتشف انه لايستطيع أن يتناول كل مشكلة فى الحال. أولا، كان عليه أن يحل المشكلات الموجودة فى وكالة المخابرات المركزيه قبل أن يستطيع حتى أن يفكر فى فتح مناقشات حول الأعمال المنسقة مع حلفاء أمريكا. ومع توليه السلطة لمدة عام بالكاد، تمكن فقط من أن يأخذ الخطوات الأولى نحو حل المشكلات التى تبتلى قدرات أمريكا فى الاستخبارات.

ويرجع العديد من المشكلات إلى الطريقة التى يتم بها تنظيم المخابرات الأمريكية والاشراف عليها. المشكلة السرية تجد اهتمامات قصوى. فتعيش عمليات المخابرات وتموت بالسرية. ولم يكن الاهتمام العام مؤديا ابداً إلى عمل تصرفات تتطلب المفاجأة والدهاء أو الاختراعات التآمرية. علاوة على ذلك، عندما تكون هناك أكثر من دولة مشتركة، فإنه غالبا من الضرورى أن يتم ضمان أكثر من المستويات التقليدية للسرية لمنع النتائج الدولية والمحلية المحرجة التى تظهر بسبب الكشف عن الإجراءات. وتبدأ المشكلة مع وكالة المخابرات المركزية مع عملية تخطيط العملية نفسها.

فعدد اللجان الداخلية والخارجية التى تشترك فى عملية صنع القرار بالنسبة لكل عملية مربك جدا. فيشترك على الأقل مائة شخص فى مثل هذه اللجان

المخصصة لكل مشروع، مما يعنى أن الصحافة والجمهور من المحتمل أن يدركوا تصرفاً ما حتى قبل أن ينتهى التخطيط. وتعتبر عملية المراقبة أيضا شيئاً صعباً مستمراً ومفتوحاً. وحيث أن لجنة المراقبة الاستخبارية الخاصة بالكونجرس تتضمن أعضاء ورجال كل من الحزبين الديمقراطى والجمهورى، فإننامن المحتمل أن نجد جانبا أو الأخر غير موافق على أى عملية مقترحة وأن يستخدم الاعلام لنسفها قبل أن تقلع من على الأرض. وهذا يفترض أن مدير وكالة المخابرات الأمريكية لم يقتلها بنفسه من البداية.

وكان للادميرال ستيا سفيلد تونر مدير المخابرات المركزية تحت رئاسة الرئيس جيمى كارتر أكثر التأثيرات تدميراً على الوكالة فى هذا الموضوع. فهو لم يتوقف أبدا من إذهالى: وفى قمة الحرب الباردة، ومع قيام السوفييت بغزو افغانستان واستهداف البابا لاغتياله ودعم العديد من العمليات الارهابية الأكثر خطورة، قام أدميرال ترنر بعمل زيارته الأولى لى فى باريس:

وبدأ المحادثة بقوله «نادنى باسم ستان». فانكمشت. واستطرد «فى عالم اليوم، هل تعتقد أن الشيوعية لاتزال شيئاً يخشى منه؟» وكان من الممكن أن يسأل أيضا عن الخطورة الحقيقية لجماعة أبوعباس الإرهابيه وهل آيات الله فى إيران متعصبون ذوى أهداف.

ولذا قهقهت. ولكنه كان جادا، جاداً جداً ـ وأما من ناحيتى، فقد بدأت محادثتنا وانتهت هناك. وفكرت «ياإلهى إن هذا الرجل هو هو الذى يعمل فى مجلس الأمن القومى والذى يساعد على تكوين الرأى فى الشئون العالمية لرئيس الولايات المتحدة، وعلى هذا فإنه يسأل رئيس وكالة مخابرات من الحلفاء

عما اذا كانت الشيوعية تحت حكم برزهنوف أو شرنينكو أو أندروبوف تشكل تهديداً للغرب؟ وإذا بدأ رئيس وكالة المخابرات المركزية بالسؤال عن قوة، وتماسك عدو بلاده الرئيسى فى الخمسة والثلاثين سنه الماضية فى مقابل تراجع جدول الأعمال العام فى امريكا فى السبعينيات الخاص بعدم الثقة العام فى مجتمع الاستخبارات، فيكون هنا أمل بسيط فى تماسك الوكالة وعملياتها وتحليلاتها. وعندما سئلت عن الادميرال ستاسفيلد ترنر رئيس وكالة المخابرات المركزية الجديد، اجبت قائلاً «حسنا، اعتقد أنه بحار جيد.»

وليس من المدهش أن ادارة كارتر لم تنجح إلا فى تدمير قدرة أمريكا الاستخباريه البشريه. فمن ناحية، كان هذا رد فعل لتورط العديد من مصادر وكالة المخابرات المركزية فى عمليةووترجيت ـ هذه المحاولة التعسة اثناء ادارة نيسكون لاصلاح النظام السياسى الأمريكى عن طريق الحيل. وبعد الكشف عن ووترجيت ووصول جيمى كارتر إلى الحكم، إزداد عمق وقدر ازمة المخابرات الأمريكية. ومما لاشك فيه أن قطاعات عريضة من الجمهور الأمريكى بدأ يسأل عما إذا كانت وكالات المخابرات الأمريكية من الممكن أن تعمل فى الخارج وألا تتدخل فى الشئون السياسية الداخلية.

ولقد اعتقدت لفترة طويلة، فى الواقع. أن استغلال مصادر المخابرات الأجنبية لأهداف سياسية داخلية يمكن فقط أن يلغى الثقة فى النظام الأمنى القومى ويدمره تماما. ولقد خدمت الأحداث فى الولايات المتحدة من وسط إلى أواخر السبعينيات فى تأكيد اعتقادى.

وتضم المخابرات فرعين أساسيين ـ «الهيونت» أو المخابرات البشرية«إينت»

وسيجينت » أو المخابرات الألكترونية والاشارية. وكل من هذه المخابرات هام للغاية. فبدون الأخير، تصبح اكفاء وصماً وبدون الأول نصير بكماً. وقد قامت إدارة كارتر بتشتيت جهاز المخابرات الأمريكى ولكنها تركت التكنولوجيا سليمة. وفى هذا المجال ـ تجسس الأقمار الصناعية والمراقبة الالكترونية من خلال وكالة الأمن القومى ـ كان لدى الامريكيين قدرة لاتقارن. وعلى هذا فإننى بانتزاع المصادر البشرية صارت الولايات المتحدة غير قادرة على التفسير الصحيح لما تلتقطه المراقبه وفى ذات الوقت القدرة على العمل على اساسه. وقد شعر كارتر دائما ـ وهو الحاكم الفنى البارع-أنه مرتع أكثر من الأجهزة أكثر من البشر.

وقد يكون هذا التركيز على جمع المعلومات الالكترونى ذا قيمة فى الحقائق العسكرية والاستخبارية فى الحرب العالمية الثالثه إلا وهى الصراع بين الشرق والغرب. غير أنه فى الحرب بين الجنوب والشمال، تلعب المخابرات البشرية دوراً اكثر أهمية. فأعداؤنا الجدد أمم متأخره، واتصالاتهم غالبا بدائية. وعمليات التفكير معقدة وتتضمن قوى محركه شخصية مهمه للفهم والاختراق. ويتم نقل القرارات ونداءات العمل فى غاية الكتمان. فلا دور هناك بالنسبة للمخابرات الالكترونية حتى يقع القتيل - حتى تبدأ القوات فى التحرك أو بالفعل فى طريقها للهدف، وحتى يتم إطلاق الإرهابى بلا عودة، وحتى يكون الرسول قد أرسل متفجراته البلستيكية في الهدف غير المشكوك فيه. فالمخابرات الالكترونية يمكن لها فقط أن تلحظ جرس تنبيه ـ وغالبا فى وقت متأخر جدا.

وقد فشل كارتر فى أن يدرك أن المخابرات الدولية ليست هى فقط الوسائل

التكنولوجية لجمع المعلومات، كما فشل ايضا فى أن يفهم أننى فى نهاية الطرف الآخر ـ على عكس الرأى الشائع ـ لاتعتبر المخابرات مجرد عملية الكذب طوال الوقت وعمليه احتيال وحيل قذرة. فهى ببساطة مسألة الصلة بين الناس ـ سواء حصلت على ثقتهم أم لا، على الرغم من هذه العلاقات تسهل بالثقة أكثر من الشك وتكافؤ الأضداد.

وينبع أملى بالنسبة لتنوير الأمريكيين فى المستقبل من مصدرين: أولا، تأكدى من أن الارهاب الدولى سيجد فى النهاية طريقه إلى شواطئهم وهذا شئ لا اتمناه إلى أكثر أعدائى خطرا، وناهيك عن صديقى. إلا أنه إذا كان للتهديد الإرهابى أثر ايقاظ الشعب الأمريكى وخاصة قيادتهم، عندئذ فإنه من المحتمل أن يكون لهذا قيمة ما. ولقد عاش الامريكيون حتى الآن وجوداً محمياً وساحراً إلى حدما. وكل الحوادث الإرهابية التى تورط فيها الامريكيون أو الممتلكات الأمريكية كلها حدثت بعيداً عن أراضى الولايات المتحدة. والتفسير الوحيد هو الحذر الغريب لمكتب التحقيقات الفيدرالى، فضلا عن الخوف من ضرباته الاسطورية لقلب الإرهابيين فى كل مكان. وتفسير أخر هو الصعوبة المادية للعمل والولايات المتحدة، حيث انها بعيدة جداً عن قواعد بلاد الارهابيين فى الشرق الأوسط وكذا السهولة النسبية للعمل فى أوربا حيث يمكن تحقيق أهداف على نفس الدرجة من العنف وجذب الانتباه بتكلفة ومخاطرة أقل.

والعديد من تلك الظروف يمكن أن تتغير على الرغم من هذا. فمع مرور عقدين الآن على الإرهاب الدولى، فإن قوادة أصبح مهيئين وفخورين بالعمل فى أى نوع من أنواع البيئات.، وبدأ مكتب التحقيقات الفيدرالى الا يبدو

أكثر تهديداً من الذى اس تى بفرنسا أو الإم آى في بريطانيا العظمى. وقد تبدو الولايات المتحدة لاحقا على أنها علامة سهلة ومثيرة. ولن يتكلف الأمر أكثر من عملية إرهابية ناجحة هناك لاقناع الإرهاب الدولى أن الولايات المتحدة هدف واعد جديد وغير محكم تماما أمام عنفهم.

المصدر الثانى لتفاؤلى فى أن الامريكيين قد يصبحوا حلفاء مخابرات حقيقيين هو التوسع والتنويل المستمر لتجارة المخدرات. فالمخدرات ـ التى تعتبر جزءاً كبيراً من انتاجها موجوداً فى العالم الثالث الذى يجد اسواقه فى الشمال ـ تعد مجرد شكل أخر من أشكال الإرهاب، وسلاحاً أخر فى الحرب العالمية الرابعة. وقد تكون تجارة المخدرات بالطبع أكثر تدميراً وأدى فى النهاية إلى بقاء مجتمعنا الغربى من أى نشاطات إرهابية. وفى الوقت الذى قد يقوم الإرهابيون فيه بتشويه المئات وقتلهم فى حادثة واحدة، يمكن للمخدرات أن تخترق روح الملايين وتجعل من فرد شخصا آخر مجرداً من مؤهلاته أو مؤهلاتها وكذا القدرة على العمل.

ولقد استهدفت جماعات المخدرات الولايات المتحدة منذ فترة طويله على أنها أرض المعركة الرئيسية. وفى نفس الوقت الذى تُعد فيه أوروبا من نواحى عديدة الأرض المربية الغربية الممتازه للإرهابيين، فإن فى أمريكا البيئة الممتازة لنمو تجارة المخدرات والعمل فيها. فلدى الولايات المتحدة الثروة لتمويل انتاج المخدرات وتوزيعها، وكذا لديها طبقة سفلى مضطربة بشدة وعنيفة وليس لديها شيئ لتخسر، ودائما تحتاج إلى مهرب من التعاسة اليومية. ومنذ أمد، أدرك زعماء جماعات المخدرات أن طريقهم الى الاغنياء هو عملية بسيطة وهى الوقف على ركن كل شارع أمريكى والهروب الفورى.

وأدرك الأمريكيون أن المخدرات يمكن أن تصل على شواطئهم من كل مكان تقريبا ـ- كما أنها تشكل تحديا ـ للمخابرات ـ واقعيا ، وهو بالفعل تحد أكثر واقعية ـ على اساس يومى ـ- من الارهاب الدولى. والتعاون الحقيقى المتعدد فى المخابرات ـ بمعنى جمع المعلومات وتحليلها وفوق كل شئ التصرف طبقا لها ـ هو الطريقة الوحيدة القابلة للتطبيق لاستهداف جماعات المخدرات الدولية الكبرى.

وقيادة تلك الجماعات مهيأة تماما مثل أكثر الإرهابيين صلابة فى المعارك وفى مجالات فنون النصب وتهريب الشحنات غير القانونية ونقل طرق المواصلات وأيضا فى استخدام العنف.. وسيشهد أى عميل فى مجال المخدرات - مثلما سيشهد نظيره عميل مكافحة الارهاب والمخابرات أن معظم عمليات القبض والمصادرة الكبرى لاتحدث نتيجة لعمليات تفتيش عشوائية على الحدود أو المطارات ولكن تدبير تلك العمليات، يتطلب الأمر جمع الاستخبارات واختراقات سرية وصبراً ومهارة واتصالات.

والآن يتجه الأمريكيون إلى ادراك أنهم قد ارتكبوا العديد من الأخطاء فى استهداف مهربى المخدرات والإرهابيين طول هذه السنين. وهذا يرجع من ناحية إلى نفاد صبرهم ـ وهى مشكلة ظلت موجودة منذ مدة طويلة فى عملياتهم الاستخبارية ـ وكما يرجع اختيارهم غير الموفق للأصدقاء والحلفاء. وقد أدت المحاولات المتكررة المضللة لإيجاد طريق مختصرة ثابتة لاختراق اسرار العالم الثالث إلى جعل واشنطن تقوم باختيار حلفاء غير مناسبين تماما مثل مانويل نوريجا.

ولقد ثبت أن نوريجا كان فى قوائم موظفى الولايات المتحدة، وبعد ذلك أصبح ذلك خطأ مخجلاً. وعلى أيه حال، من أفضل فى مراقبة نشاطات جماعات المخدرات الدولية من زميل مرافق فى السفر؟ وفى الواقع يشبه الأمر القيام بسؤال الثعلب أن يراقب الدجاج. وياله من موقع ممتاز يمكن منه أن يختار الثعلب الأسمن فى الدجاج والأكثر غضاضة لوجبته فى العشاء. وذلك مع مباركة المزارع وبالطبع تستره على الجريمة ! فلا تستخدم أبدا شخصيات مشبوهه.

وينبغى علينا أن نكون حذرين جداً بخصوص الشخص الذى نستأجره حيث ان مثل تلك القرارات تنعكس مباشره واحيانا بشكل دائم على الشخص الذى يقوم بالاستخبار وكانت تلك هى فلسفتى، فإنه عندما يكون هناك شئ قذر يجب عمله، فإنك تؤجر له رجلاً مهذباً لعمله. وإذا تم إقناع رجل مهذب بأن ما نفكر فيه هو إجراء من إجراءات الحزب، وبعد مثل هذا الإجراء يكون الأمر مسألة وطنية، عندئذ ستجد بعض من الأشخاص الممتازين ليعملوا لحسابنا. وفى المقابل، إذا قمنا باستئجار سفاح أو قاطع طرق، فسنضطر فى النهاية أن نقتل السفاح بطريقة أو بأخرى لأننا سنبتز . وسيكون ذلك المبدأ بالتأكيد صحيحاً مع أى من هذه النشاطات التى تتضمن عمليات استخبارية بين الشمال ـ والجنوب حيث سيكون الاختراق للثقافات والنظم الاجنبية اكثر تعقيدا وحساسية من أى من العمليات التى قمنا بتجريبها خلال الصراعات العالمية السابقة.

وفى احد اجتماعاتنا التى وقعت فى البداية، صرحت بهذه الفلسفة لجورج

بوش دون أى إشارة مباشرة إلى استئجار فورى. والآن بعد مضى السنوات، ابتلى الامريكيون بأسوأ كابوس ـ وهو محاكمة بمحلفين مطولة وفوضوية عقبت عملية عسكرية خطيرة ومحرجة فى بنما ـ وكل هذا تم تخطيطه للتخلص من الفأر الذى لم يجب أبدا أن يقوم باستئجاره منذ البداية. فكانت عملية نوريجا كلها عبارة عن فشل ذريع واحد تلو الآخر. وإذا قمت ـ على الرغم من ذلك ـ باستئجار فأر، وصرت مجبرا فى النهاية على التخلص منه، فإنك تقوم بذلك بسرعة وبشكل دائم بأى شكل من الأشكال . والقيام بإحضار نوريجا لمواجهه القضاء، فى الولايات المتحدة تعتبر فكرة امريكيه واهية. فمثل هذا المفهوم الخاص بالعداله لامكان فى مثل هذا العالم الثالث. وقد فسدت عملية بنما منذ البداية ـ حيث هرب نوريجا فى الوقت الذى هبطت القوات الأمريكية فى أرضه، وقامت واشنطن بوضع مليون دولار أمريكى مكافأة للقبض عليه. اعرض ١٠ ملايين دولار امريكى لاحضار نوريجا حيا أو ميتا، وسيهتم شخص آخر رأى فأراً أفظع ـ بمشكلة الأمريكيين تماما. وفى حالة مثل هذه، تعد حادثة منظمة أرخص تكلفة.

وعلى هذا فإنه على عدة وجوه، ربما تعد عمليات التفكير فى عمل تحالف مع نوريجا أكثر خطرا من عملية الاختيار نفسها. فعلى مر السنين، أراد الامريكيون بشدة، كما احتاجوا جدا أن يكونوا محبوبين لدرجة أن هذا قد أثر على قرارهم مما أدى إلى عمل تحالف مع هؤلاء الذين يتقنون الولاء والوفاء الأبدى، غير أن لهم دوافع أكثر فسدا. وهذا الميل إلى أن يكون المرء محبوباً وأكثر نقاط الضعف خطورة فى نظام المخابرات الأمريكى ـ وربما فى الشخصية. وعندما يقابلك امريكى مرتين، فإنه مستعد تماما إلى أن يسميك

«صديقى القديم» أو «صديقى الحميم»، بينما قد لايريد هذا الصديق شيئاً أكثر من أن يدمرك. فكن حذرا من مثل هؤلاء الأشخاص. فدعوتك إلى غداء ظريف وسيجار لايجعلك أبدا صديقاً حميماً أو حليفاً قوياً. فمثل هذه الصداقة قد يثبت أنها متقلبة بالتأكيد.

ولايشترك السوفييت ـ وخاصة عملاءهم فى هذه الميزة الأمريكية. وإحدى مميزات عميل المخابرات السوفيتيه كانت دائما هى ارتباطه الشديد بروسيا الأم نفسها. فمثل الكثير من الروس الوطنيين، نجد عند العميل شعورا عميقاً بقوة بلاده وعظمتها، وشعور بأن الشعب الروسى سيعيش اكثر من الزمان وسيعيش أكثر من الحرب، وفوق كل هذا ستعود بالمسئولية النهائية لفهم عدوه قبل أن يستطيع عدوه أن يغزوه. فليس من الضرورى أن تحب هذا العدو أو تكون محبوبا منه أو منها ـ فكل ماهو مطلوب هو الفهم. لكل مايريده العميل الروسى هو أن يكون مهابا مثله قبل إرهابيى العالم الثالث ومعلميهم. وطوال المدة التى تعاملت فيها معهم ـ كان الروس، مثل الإرهابيين، رغبة متشوقه للانتصار والتفوق على أعدائهم الغربيين فى الحرب العالمية الثالثة وضد قوى الإرهاب والمخدرات والتعصب الدينى الذين يعتبرون أعداءنا فى الحرب العالمية الرابعة.

ويدأ الروس فى المرور بتجربة مشكلة المخدرات فى الداخل، وعلى الرغم من أنهم لم يصادفوا بعد مخاوف الإرهاب على أرضهم. وقد اخترقت نوعا من «المافيا الحمراء» كل مستوى من مستويات الحياة السوفيتية، كما تشكل قوى وتأثيرا ضخماً.. وأى نوع من انواع القيود التى قد تظل مفروضة على حريتها

فى العمل تعتبر هى نفس القيود التى تمنع الإرهابيين من استهداف الاتحاد السوفيتي مثلما استهدفوا أوروبا الغربيه. ولم يتفاخر السوفييت بعد بالحدود المفتوحة حقا والتى تسمح للإرهابيين بنوع المداخل السهلة التى يتمتعون بها للمراكز السكانية الكبرى فى الغرب. فلايزال هناك الكى جى بى الأكثر قوة وفاعلية وتأثيرا والتى تقتضى أثر كل أجنبى، حتى لو أنها قد قامت بتهدئة عملية المسح والترويع الصارمة التى تقوم بها مع مواطنيها. إلا أنه ينبغى أن يُعرف أن الشيوعيين المتحفظين قد نحوا جانبا بلايين الدولارات ليستمروا فى حربهم السرية مثلما فعلوا بين الحربين العالمية الأولى والثانيه.

ومن ناحية الإرهابيين، هناك قيود أكثر وهى ميراث سنين زراعة حقول النشاط الخاصة بالإرهاب. وتستمر عمليات الدعم للدول الإرهابية وعمليات تعليم الزعماء الإرهابيين فى الامداد بتسهيلات لحماية المصالح الروسية، غير أن الإرهابيين الأكبر سنا ـ الذين يتذكرون إلى أى حد هم مديونون إلى زملائهم السوفييت فى الناحية المالية والمادية والتدريبات والدعم المعنوى ـ قد بدأوا فى السقوط من الساحة. فلا حقوهم الجدد لايشعرون بتلك المشاعر. فلا ولاء لهم نحو اسيادهم الذين يتواجدون فى أماكن بعيدة فى شرق برلين وموسكو. وولاؤهم الآن يتجه نحو أسيادهم الذين يدفعون لهم، ويقطن هؤلاء فى دمشق أو طرابلس أو بغداد أو طهران. ولم تعد الشيوعية جزءا من قلب المنهج.

ولوردات المخدرات هم الذين قاموا بالاستفادة بشكل مربح من البقايا المريرة للحرب الأولى التى خسرها السوفييت. وكان الميراث الحقيقى لافغانستان، إلى

جانب التوابيت والأرامل الحزينة، هو بائعو المخدرات. ولأول مرة تذوق صفوة الرجال السوفييت الكوكايين والهروين. وكما فعل اسلافهم الأمريكيون فى فيتنام، اصبح الجنود السوفييت بالآلاف الزبائن الجدد للمخدرات وكان ذلك بالطبع عنصرا هاما لخطتى المقترحة لكسب الحرب الافغانية التى قدمتها فى وقت سابق للرئيس ريجان والتى غرقت فى بيروقراطية الجهاز الأمنى الامريكى. وكان المقصود من اغراق الثكنات السوفيتية بالمخدرات هو اهلاك روحهم المعنوية وقوتهم كماكينة محاربة فى «افغانستان. وبهذا قام تجار المخدرات الذى كانوا يقومون بتحقيق اهدافهم هم بتنفيذ عملنا بالنيابة عنا وبشكل فعال.

وعندما عاد الجنود إلى أوطانهم فى موسكو وكيف ولينينجراد، قام الألاف باحضار العادة معهم ـ فالرغبة الجسمية التى نموها فى محاولة فاشلة للهروب من الرعب الذى مروا به فى التلال والوديان الافغانية البعيدة. فعندما غادروا الى وطنهم، اصبحت المخدرات وسيلة للهروب من الحرمان الذى وجدوه فى الاتحاد السوفيتى والذى كانوا قد تركوه وراءهم، وفى الوقت نفسه، سمحت المخدرات لهم أن يمحوا ذكريات الفظائع التى مارسوها فى حربهم المنتهية منذ زمن. وبينما اصبح المجتمع السوفيتى أكثر انفتاحاً، بدأ توافر المخدرات فى تغذية الطلب إليها. وصار الطلب يزداد فى خطواته مع وجود العرض.

ولايدرك الكى جى بى حاليا العمليات المعقدة الخاصة بجماعات المخدرات الدولية. والعكس بالطبع يمكن قوله عن جماعات المخدرات نفسها ـ فهم فقط يبلبلون أقدامهم فى بيئة العمل المختلفة جدا فى الاتحاد السوفيتى.

فطرق التعليم بالنسبة لعميل مكافحة المخدرات طويلة فى هذا العالم المعقد. علاوة على ذلك، فإن قدرات الكى جى بى على العمل فى هذا الحقل الجديد قد استهلكت بسبب الاضطرابات والفوضى المتفشية فى جميع أنحاء الامبراطورية السوفتية. وخاصة مولدوفيا وجورجيا وجمهوريات البلطيق بالاضافة إلى الجمهوريات الآسوية التى كانت صعبه جداً فى علميات العمق الداخلى.

وعلى هذا، فإن الروس فى طريقهم إلى استيعاب الحقيقة الجوهرية هى أن القيادة السياسية فى الغرب قد بدأت فى تقبل هذا مؤخرا. والوسيلة الحقيقية الوحيدة القابلة لتنفيذ عملية تدمير جماعات المخدرات الكبرى وجماعات الإرهاب الأكثر خطورة هى تدويل الحرب ضدهم ـ بالإضافة إلى النشاطات الاستخبارية التى تراقبهم ـ وايضا هى استهداف الأمم التى تأويهم، وحكومات العالم الثالث التى تقدر فائدتهم كأسلحة فى الحرب الحالية والقادمة بين الجنوب والشمال.

فالخطوة الأولى لاتختلف عن أى من العمليات الاستخبارية. فبارونات المخدرات ليسوا بالإرهابيين الذين ينتمون الى نوع الفدائيين اليابانيين. وكمقاولين مستقلين، يعيش هؤلاء حياة مريحة للغاية، وشكرا جزيلا لك، فهم يحبون المال وكل شئ يستطيع المال أن يشتريه، ولايرغبون فى الاستغناء عن اسلوب حياتهم بسهولة، وبالطبع هدفهم ليس زعزعة الأمن فى الدول الديمقراطية الغربية أو النظام السوفيتى اهتماما بأى دين أو تعصب عرقى. فهدفهم هو بوضوح وسهوله هو كسب المال، الكثير من المال لإنفاقه بسخاء على أنفسهم. فإذا قاموا ايضا بتحقيق أهداف الحكومات التى ترعاهم أو تأويهم، فإن هذا يُعد مجرد عامل إضافى.

وبمجرد أن نفهم دوافعهم، صارت أكثر التكتيكات فعالية لابادتهم واضحة تماما، وتماما كما اقترحت على الرئيس جيسكار ديستان بأن تستهدف الإرهابيين كورسيكان بقائمة ضرب مختارة، فنصيبهم واحداً واحداً حتى تصل اليهم الرسالة، وهكذا يجب أن نتصرف مع زعماء جماعات المخدرات. ولن يمكن إنكار العمليات تلك بسيطا. أولا، سيكون هناك مؤسسة لما سيبدو وكأنه منظمة حذرة للقوى الغريبة والتمويل غير المحدود. وستكون منظمه متعددة الجنسيات وتؤيدها سرا رؤساء عمليات مكافحة المخدرات في دول الاستهلاك الكبرى، وكما ستعمل تحت اسم مستعار.

وسيكون من الضرورى وجود تعاون البوليس الدولى واعمال الاستخبارات العليا من أجل نجاح مثل هذه العملية. وكذا يُعد الجواسيس فى داخل الجماعات الرئيسية والمعرفة الدقيقة لحركات زعمائهم ونقاط ضعفهم على اساس لحظه بلحظه عن الأشياء الحيوية. وعلاوة على ذلك، كل عملية فاشلة ستساعد فى تقوية الاحساس بصلابة هؤلاء الزعماء بين تابعيهم وبين هؤلاء الذين يحاولون اصطيادهم.

وإذا كان عندنا أى أمل فى كسب الحرب العالمية الرابعة، فعلينا أن ندرك بينما يعتبر التعاون أكثر الأسلحة تعقدا، إلا أنه أكثر إهلاكا.

خاتمة

منتدى القوم المحترمين

تشهد ما نسميه الحرب العالمية الرابعة عودة إلى بعض من أكثر اصولنا بدائية وذلك فى العديد من الجوانب، وتحدد عقلية القرون الوسطى الايرانية بشكل فعال المفاهيم الاستراتيجية للقرن الحادى والعشرين. وعلينا أن نستعد تماما لتقبل القواعد الجديدة للاشتباك وللوصول إلى ميزان جديد للقوة أو الارهاب لكى نضمن السلام. ويجب أن يسود مفهوم «التدمير المعين» الذى سيحدد الاستقرار الجديد فى عصر ما بعد العصر النووى بسرعة وذلك إلى جانب مفهوم «التدمير المؤكد المشترك» الذى ضمن السلام من إرهاب التوازن النووى. والتدمير المعين« هو المفهوم الاستراتيجى الجديد الذى سيمنع الدمار العالمى فى الحرب العالمية الرابعة، فالتهديد رهيب حقا فى مبلغه ومداه، ويتطلب نظاما استراتيجياً جديدا كلية للتخاطب والتوافق معه ـ وهو نظام من الأنظمة التقليدية والتكتيكات غير التقليدية القادرة على تأكيد السلام بالطريقة التى أكد بها التوازن النووى السلام لمدة النصف قرن الماضى. وأصبح العالم الآن مكانا مختلفاً عما كان عليه حتى من خمس سنوات مضت. وتقوم انحيازات سياسية وعسكرية جديدة بتغيير ميزان القوة وميزان الارهاب ايضا. وينبغى أن تواكب كل مؤسساتنا ـ السياسية والعسكرية وخاصة الاستخبارية ـ هذه التغييرات أو خدعنا. وفوق كل هذا، فإن تحديد الحرب العالمية الرابعة هو سبب حاجتنا إلى منتدى.

وربما يمكن أن يطلق عليه اسم منتدى القوم المحترمين ـ ويكون اعضاؤه دولاً مثل تلك الدول التى تعتقد فى احترام الفرد وحق كل منا فى عيش حياتنا كما نحب وأن نحق الثراء أو الفشل طبقاً لمواهبنا ورغباتنا والتى فوق كل شئ تؤكد أن جيرانهم سيتركون فى حالهم ليحققوا مصائرهم واقدارهم. وينبغى أن يصبح هذا المنتدى شرطى العالم. لأنه فى الوقت الذى ينفجر فيه العالم الآن من خمسة بلايين شخص ليصبح ٨٠ بليون شخص كما هو مقدر بحلول عام ٢٠٢٥، سيحتاج كل فرد بشدة إلى بعض الضمانات بأنه يمكن أن يكون هناك على الأقل القليل من الخلاص من الفوضى والعنف غير المتوقع الذى يجهز له الدكتاتوريون المتعصبون وبارونات المخدرات على السواء.

وينبغى أن يكون لمنتدانا حق حماية الحياة الانسانية وأمامنا أساساً بقاء الحضارة كما علمناها. وسيكون أعضاء المنتدى من القوى الحقيقية للعالم الشمالى- الولايات المتحدة وأوربا واليابان- بالاضافة إلى أصدقائنا المحترمين من الجنوب ويتعهد كل عضو بإعطاء قوة متميزة قوامها مائة ألف رجل وكل الأجهزة الاساسية فى البر والجو والبحر ومساندة بالمؤن وأى تمويل قد يطلب لأى عملية مقترحة . وسيتم تصميم قيادة مركزية عمل أعضاء ومراكز رئيسية دائمين وتأسيس إدارة منظمة حلف شمال الأطلنطى- لكن بدون شمال الأطلنطى.

وسيقوم كل الأعضاء فى المنتدى بالتعهد بتنفيذ أى إجراء ترى القيادة أنه ضرورى ومناسب، وذلك تحت معاهدة ملزمة تشبه اتفاق الحلفاء الذى أسس النيتو ويصدق عليه الهيئة المناسبة فى كل دولة. وفى الغالب، سيكون زعماء

المنتدى مستعدين للتصرف بسرعة البرق وبسرعة تامة فلن يكون هناك وقت للمشاورات مع اللجان البرلمانية، ولاحتى دقيقة نوفرها للأصوات السياسية وانتخابات الثقة. وبالطبع قد لا تعرف نتائج أكثر العمليات نجاحا أبداً. إلا أن أقل تردد يحدث قد يسبب فى نتائج مروعة بالنسبة لمستقبل الحضارة.

وقد بدأت النيتو بالطبع- وخاصة الإدارة الأمريكية التى اخذت زمام القيادة فى التحرك نحو رد الفعل السريع الذى يعد الأساس التكتيكى لمنتدى القوم المحترمين. وعملية إعادة بناء النيتو التى تجرى حاليا مصممة لتؤسس وحدة فى حجم اللواء متحركة ولها ردود فعل سريعة وتتكون قواتها من خمسة آلاف شخص يمكن لهم أن يتواجدوا على الساحة فى حالة الطوارىء بأجهزة كاملة فى خلال ٧٢ ساعة، كما تتم مؤازرتهم بسلاح ذى ردود فعل عاجلة يتكون من الف إلى ٧٠ ألف جندى يتوفرون خلال خمسة إلى سبعة أيام ويقعون تحت القيادة البريطانية. وستكون الوحدة من فرقة مدرعات ثقيلة بريطانية متمركزة فى المانيا، وفرقة بريطانية ثانية من المدرعات الخفيفة والمظلات والعمليات الخاصة والبحرية، وأيضا فرقتين من الفرق متعددة الجنسيات، علاوة على فرقة أمريكية ستقوم بالامداد بالطائرات والهليوكبترات وقدرات للشحن الجوى للسلاح بأكمله. لكن فى الواقع تعد حركة النيتو الخطوة المترددة الأولى فقط نحو نوع من القدرة العسكرية والسياسية الموحدة التى تستطيع أن تضمن السلام الدائم أو المدعم. ولا تزال فرنسا تعزل نفسها من النيتو حيث أنها ليست بعضو فى القيادة العسكرية للمنظمة. وقد استمرت الادارة الفرنسية فى الضغط من أجل البديل غير العملى لقوة أوربية خالصة تحت قيادة أوربية، ومن ثم متجاهلين متطلبات حرب الجنوب والشمال التى تحاربها الآن.

ولابد أن تتوسع النيتو، لا أن تقلص، النطاق القانونى لنشاطاتها التى لا تزال حتى زمن الكتابة محددة تماما بأوربا وشمال الأطلنطى. غير أنها يجب أن توسع أيضا إرادتها السياسية للتدخل فى الأزمات عندما تتعرض المصالح الشمالية للخطر.

وكان قرار إدارة بوش فى سبتمبر ١٩٩١ بحل الترسانة الأمريكية النووية قصيرة المدى وبالتوجه نحو نوع التسلح النووى يعد بوضوح حركة استراتيجية هامة فى عملية إعادة استهداف القوى النووية. وكانت الاشارة واضحة- ستحتفظ الدول الشمالية فى المستقبل بقدرة نووية كافية فقط على العمل كقوة ردع ضد العدوان من قبل أى أعداء غير متوقعين أو متهورين- وبدلا من ذلك، سيعاد توجيه المصادر نحو انواع القوى القادرة على تدعيم عقيدة التدمير المعين- وهو ضربات جراحية سريعة تستأصل السرطان قبل أن يكون لديه فرصه للانتشار بسرعة.

وكما اكتشفنا تكرار خلال السنوات الأولى للحرب العالمية الرابعة أنه عندما نتردد نضيع. ولن تجدى الخطوات التجريبية والاجراءات الجزئية فى البيئة العالمية الجديدة. ولابد أن تمتلك القوات العسكرية المنشورة وسائل ساحقة. فعليهم أن يزرعوا الخوف فى قلوب الطغاة الذين لم يعرفوا الهزيمة أبدا، وعليهم ليس فقط أن يبدو أنهم لا يقهرون أبدا، بل يجب إلا يقهروا أبدا فعلا.

ومنتدى القوم المحترمين ليس بجهاز لتجميد بعض القوى، وليس بمجهود متخف بمهارة لإهلاك أعداء دولها الأعضاء- فالاهتزازات والتوازنات الخاصة بالمقتضيات السياسية المتنافسة فى العديد من الأمم ستؤكد أنها لن تتحول

إلى منتدى للانتقام. كما لا ينبغى أن يتم تضييع وقت أو مجهود على المناقشة حول اختيار قائد من دولة أو أخرى. ففى اثناء حرب الخليج، لم تعترض واحدة من الدول المشاركة بقواتها ولو للحظة واحدة على قيادة الجنرال نورمان شوارسكوف.

ولن يكون المنتدى مجتمعا ومقيداً ومغلقا كلية. ومن المحتمل أن يتم استدعاء العديد من الدول الأخرى المحترمة للمساعدات المتخصصة حين تجعلهم قدراتهم العسكرية والاستخبارية خيارا واضحا فى أزمة أو أخرى. وسيكون المنتدى ببساطة ووضوح وسيلة للتأكد من أن أحد الديكتاتوريين المخبولين أو إحدى الأمم المنشقة لن تدمر بقية الكوكب.

وعلى هذا فلن يكون هدف منتدانا أى فرد واحد- على سبيل المثال، لاصدام حسين ولا كيم الثانى سونج، ولا معمر القذافى ولا حافظ الأسد. فسيكون هدفه ببساطة هو التأكد أن لاأحد ولا دولة تستطيع أن تكون تهديدا لبقية العالم وخاصة تهديدا نوويا. فإذا أصبح مثل هذا التهديد حقيقياً، فسيتدخل المنتدى بقوة عسكرية لتستأصله فى ضربة جراحية بسيطة للحصص الواضحةوالضخمة.

وفى كل حالة بالطبع، سيتم وزن نتائج التدخل بعناية وسيرتكز قرار التحرك على أفضل استخبارات ممكنه. فقبل القيام بعملية عاصفة الصحراء. ضللت ادارة الولايات المتحدة بشدة ليس فقط من قبل حلفائها فى العرب والعالم العربى، ولكن أيضا من قبل متخصصيها فى المخابرات. فالجميع توقعوا الفناء- السريع لصدام حسين وجهازه العسكري- السياسى بأكمله. غير أن

الانتفاضة المتوقعة لم تتحقق أبدا. واستمر صدام حسين كسرطان فى بلاده والمنطقة بأسرها- سرطان بدأ فى النمو مرة ثانية حتى قبل أن تتم الجراحة.

وما نناقشه هنا هو التهديدات التى تتخطى الحدود الفردية. فنحن لا نقترح أن العالم ينبغى أن يعاد تشكيله طبقا لتصورنا الغربى. ولن يكون المنتدى بأى شكل من الأشكال محاولة لتأسيس نظام عالمى جديد. ونأمل أنه فى الوقت الذى تصبح فيه الرغبة فى خفض التهديدات جزءاً من النظام الدولى المقام، تصير العمليات العسكرية أقل وأقل ضرورة وعددا ومتباعدة فيما بينها.

فكل ما نريده هو إعطاء كل دولة الحرية فى خلق مصيرها طالما لا تسعى إلى فرض مصيرها هذا على جيرانها. وعلى زعماء كل الأمم أن تدرك أنه إذا قاموا بتكديس الأسلحة الكميائية والبيولوجية والنووية وقاموا بالتهديد باستخدامها بشكل ضار كتحد للنظام المقام وللحضارة وراء حدودهم، فإن هذه الأسلحة والقدرة على استخدامها سيتم تدميرها تماما بالتأكيد.

وسيكون منتدى القوم المحترمين الرادع النهائى. فإذا تم تكوينه ونشره بشكل صحيح، فإنه سيتضمن تنفيذ التوازن الاستراتيجى بسياسة التدمير المعين، التى سيمنع من ظهور جهنم عالمية من الحرب العالمية الرابعة - أو توازن الرعب- مثلما منعت سياسة«التدمير المؤكد المشترك» جهنم من النمو فى الحرب العالمية الثالثة.

دعونا نفترض أننى فى العام القادم، علمنا أن ديكتاتوراً غريب الاطوار على بعد ستة أشهر من أكمال قنبلة ذرية. ماذا ستفعل؟ هل نجعله يوقع معاهدة عدم نشر الأسلحة النووية؟ ومن ثم فى هذه الحالة، سيتم تدمير

الكوكب وقدراته الكلية على انتاج سلاح نووى تماما فى الحال بسبب منتدى القوم المحترمين فعندما قصفت الطائرات الأمريكية طرابلس فى ١٩٨٦، كان لهذا تأثير بسيط أو لا تأثير على الاطلاق على قدرة القذافى على إجراء عمليات هجوم إرهابية. وبالطبع فشلت المهمة حتى فى أن تعد القذافى نفسه وتدمره. وبدلا من ذلك، سقوط القنابل على مساكن بعمق المجاورين وقتلت بعض النساء العجائز والأطفال- وهو ما استغله القذافى بشكل فعال لأهداف للدعاية. لكن حتى هذا التصرف المضلل وغير فعال بشكل واضح لم يكن له نتائج هامة- فقد أعطى القذافى مهلة. ولعدة سنوات بعد عملية القصف، صار القذافى إلى حد ما مقيدا فى استخدامه للإرهاب وتوزيعه للدعم على الجماعات الإرهابية وفى نطاق تعاملاته الكلى مع الإرهاب الدولى. وباختصار لم تؤثر المهمة على إرادته، إذا لم تؤثر على قدرته، على إثارة السلاح الإرهابى. فضرب حقول بتروله وإزالة مصادر التمويل للعمليات الإرهابية كان من الممكن أن يدمر قدرته على إثار الإرهاب أيضا.

ومثل هذا التصرف هو بدقة ما حاولت الولايات المتحدة وحلفاؤها أن يتخذوه ضد صدام حسين فى الخليج الفارسى. وعلى هذا انتقد الحلفاء فى بعض الاجزاء لاستهدافهم زعيماً من المحتمل أن يكون لغته فى الغرب (والشمال)ولكنه يعتبر بطلا فى العديد من مناطق العالم الثالث. وبالتأكيد كان صحيحا أن صدام حسين شخصية لها شعبيتها فى بلاده وفى بعض الأماكن. ونحن أعضاء المنتدى لم يكن ليصبح لدينا مشكلة فى ذلك. فكان يمكن له أن يفعل ما يريد فى داخل حدوده- طالما أن شعبه يتحمله. فكان يستطيع أن يتوج نفسه امبراطورا مدى الحياة، وأن يعلن تحويل شعبه إلى الشنتوية أو الشيعة،

ولكنه لم يكن يستطيع أن يبنى مصانع لانتاج الأسلحة .الكيماوية والبيولوجية والذرية، ولا أن يستولى على أرض أمه مجاورة مسالمة دون أى إثارة قامت بها، ولا أن يهدد لحظة واحدة العالم خارج حدوده.

فى الواقع، ما حدث فى الخليج الفارسى كان هو أول عملية لمنتدى القوم المحترمين والعملية تكشف كل من نقاط القوى والضعف فى الخطة أولا، سيحتاج المنتدى إلى التحرك بسرعة- وهو سبب رئيسى لتقيد العضوية وفرص العمل دون مشاورات. وكان عدد الدول التى ساهمت بالقوات والمواد أو ببساطة بالمساندة المعنوية فى عملية عاصفة الصحراء كبيرا جدا لدرجة أنه قيد أى مناورات عسكرية أو دبلوماسية ذكية. وفى النهاية، كان الهجوم الأمامى هو البديل الوحيد المتاح رغم قصر مدته، إلا أنه ترك بقايا مميتة ألا وهى برنامج الأسلحة النووية العراقى الذى لا يزال يجب محوه.

ثانيا ستحتاج قوى المنتدى إلى التحرك إلى مكان ممكن فى السر مستخدمة قوى ضرب جراحية صغيرة لاقتلاع التهديد المعين. فاجبار صدام حسين على القيام علنا بمواجهة القوة العسكرية الكلية للشمال واجزاء من العالم الجنوبى اجبر فقط على أن يحفر باقدامه بعمق أكثر ويوسع من الصراع. فانقاذ ماء الوجه دافع قوى لأى ديكتاتور أو بالطبع لأى حاكم لأى قطعة.

وعلاوة على ذلك سيحتاج المنتدى إلى مخابرات من الدرجة الأولى، متوافرة فورا لقيادته المدنية والعسكرية. ففى أثناء حرب الخليج، أدت التقديرات الاستخبارية المتضاربة لوكالة المخابرات المركزية ووكالة مخابرات الدفاع ووحدات المخابرات بالمعارك- وخاصة بخصوص تقديرات خسائر القصف- إلى

الارتباك على مستوى العمليات - وهو ما كان المحل الرئيسى لشكوى الجنرال شوارسكوف.

وقد تكون المرحلة الأولى فى تكوين منتدى القوم المحترمين مجهوداً استخباريا عالميا يتم تنسيقه عن طريق إدارات المخابرات لأعضاء المنتدى. وقد تصبح وحدات العمليات لأجهزة المخابرات هذه ذراعا عسكرية مؤقتة للمنتدى- فتخيلوا ضربة جراحية مفاجئة تقوم بها وحدة مثل الجهاز الجوى المتخصص ببريطانيا ضد أكثر حقول ليبيا انتاجا أو أماكن التدريب الارهابية التى تسيطر عليها سوريا فى وادى البقاع بلبنان؟

فيستطيع المنتدى أن ينجز الكثير بدون أن يطلق حتى طلقة واحدة. وإضافة هامة واحدة إلى المنتدى هى تأسيس محكمة دولية لمحاكمة الإرهابيين ومؤازريهم يحدد أعضاءها المنتدى. وسيتم محاكمة كل إرهابى أمام محكمة متخصصه يكون مكانها- على سبيل الجدل- فى نومبرج بألمانيا حيث وقعت محاكمات جرائم الحرب لاتباع هتلر. وسيتم محاكمة المتهم شخصيا إذا تم إلغاء القبض عليهم ، أو غيابيا إذا لم يقبض عليه، وتذاع النتائج عالميا فى البى بى سى وصوت أمريكا والديوتش ڤيلى والراديو الفرنسى الدولى.

«السيد فلان، لقد تمت محاكمتك وادانتك بالقيام بالأعمال الإرهابية.

أنت مسجل فى الدفاتر الآن، ونحن سنلاحقك طول عمرك، ويوما ما سنقبض عليك.

مثل هذه الجملة سيكون لها تأثير رادع كبير، خاصة بعد أن يتم تحديد أول مجرم، ويلقى القبض عليه ويتم إعدامه أو سجنه.

وسيبدأ زميله أو زميلاته فى التفكير.« مازال أمامى أربعون أو خمسون سنة أخرى لأعيشها وهذه المنظمة القوية ستطاردنى بقية حياتى. لابد أن هناك طريقة أفضل من الهروب لقضاء بقية أيامى.

وعلينا أن نثبت لهؤلاء الخارجين على القانون الدوليين أننا جادون- وأن لدينا الإرادة والتصميم على أن نصمد أكثر منهم. ولن تتجمع التهديدات مع المتعصبين ولكنها ستنجح مع هؤلاء الذين يتلقون الأموال من الحكومات التى تسيطر على المتعصبين وتوجههم. وقد حدد المحققون فى قضية تفجير الطائرة بان أمريكان ١٠٣ فوق لوكيربى باسكتلندا التى كانت وراءها سوريا وليبيا هؤلاء المحترفون الذين قاموا بالعملية الذين استخدمهم القذافى الذى كان يقود عملاء مخابراته وأعضاء القيادة العامة بجبهة التحرير الفلسطينية.

وكل أسماء هؤلاء ينبغى أن تكون فى قائمة المراقبة طول الحياة التابعة للمنتدى.

وسيكون نوع قوى الحرب التى سيحاربها المنتدى مختلفاً جدا عن أى قوى حرب فى الماضى. وهناك عدد من الأسباب لذلك- وهى الطبيعة المختلفة للعدو واستراتيجياته وتكتيكاته الأكثر تعصبا. وغالبا ما يكون من الصعب كشف قوى الإرهاب التى يشنونها ضدنا فى هذه الأرض التى قاموا فيها بتمويه انفسهم.وفى المقابل، عندما نصل إلى عواصمهم، ترمقنا فى الحال أقل العيون تدريبا.نحن لا نستطيع أن نتنكر فى وسطهم، مما يجعل الانتقام وتنفيذ التدمير المعين، صعبا جدا.

كان هناك مكتشف فرنسى فى القرن الماضى هو رينيه كيليه، وقد أمضى

سنوات متنكرا فى شمال افريقيا. ولم يكتشف أبدا. حتى جاء يوم كان فيه فى الصحراء، واعتقد أنه بمفرده، ومن ثم تبول وهو واقف، والمسلمون لا يفعلون ذلك أبدا، فهم ينحنون. وكان مراقبا، وقام بقطع رأسه. فغلطة واحدة بسيطة جدا مثل هذه، وتفقد رأسك.

وفى الجزء الجنوبى من الولايات المتحدة يوجد نفس احتمال القلاقل مجتمعات أسبانية وإسلامية قادرة على إخفاء قوى من الممكن أن تنفجر وقد فشلت عدة حكومات أمريكية متتالية ببساطة تامة فى أن تواجه المشكلة.

إنه غرورنا وإهمالنا فى هذه الأمور الذى سيكون فى النهاية سقوطنا عندما تطلق الطلقات الأولى من الحرب العالمية الرابعة بغضب فى أوربا وأمريكا. فالفشل الزريع فى احتراق هذه المجتمعات الجديدة القادمة سيكون له أسوأ العواقب.

وبالتأكيد تفهم كل أجهزة المخابرات الحاجة إلى التسلل وقيمته وصعوباته. وقد استغل الحلفاء التسلل كثيرا فى أوربا فى الحرب العالمية الثانية.

وقد كان هو حجر الزاوية لحركة المقاومة فى فرنسا. وفى نهاية الحرب العالمية الثانية، ومع قدوم الثالثة بهدوء، قام ستالين بتحريك التسلل إلى رقعه أكبر، فتسلل إلى الغرب بعملاء متنكرين على أنهم مهاجرون منشقون أو مجردون من الحصانة غير أن متسللى اليوم الذين صاروا أكثر من مجرد عملاء لجمع الاستخبارات أصبحوا وسائل التدمير والعراك أيضا وستكون الحرب العالمية الرابعة حربا إرهابية.

وفى الواقع، يمكن أن يصبح بعض هؤلاء الأجانب الموجودين بيننا - أولئك

الذين يمارسون الإرهارب ويناصرونه- الصواريخ التى كان يمكن لها فى أثناء الحرب العالمية الثالثة أن تدمر بلادنا، لكن بسبب السيناريو الاستراتيجى لمفهوم التدمير المؤكد المشترك، ضمت ميزان الرعب. ولااختلاف اليوم هو أنى لا يوجد خمس دقائق تأخير، فالصواريخ البشرية للحرب العالمية الرابعة موجودة هنا بالفعل؛ ولا نملك دفاعا مضادا للصواريخ لهم، ولا حتى حروب النجوم أو الصواريخ الباتريوتية لاستهدافهم. وعلاوة على ذلك، ليس لدينا القدرة الانتقامية لنضمن التدمير المعين الذى تمنعه الحرب العالمية الرابعة وحقائقها الاستراتيجية الجديدة.

وعلينا أن نتطور بقدرة للانتقام إذا تم إطلاق تلك الصواريخ البشرية عن طريق ضرب قواعدها وتدميرها. ومع وجود القدرات الاستخبارية المحسنة، علينا أن نطور أنواع أنظمة الانذار المبكر عن بعد التى ستنبهنا إلى انطلاقهم.

وستستخدم بعض الدول الإرهارب بشكل أكثر فاعلية من دول أخرى كوسيلة للحرب أو سياسة الأمة أو الجيش. ومن الواضح اليوم أن ليبيا وسوريا وإيران وكوريا الشمالية والعراق من بين الدول الإرهابية الرئيسية. علاوة على ذلك، هناك تقاليد فى كل بلد- وهى قوى تاريخية عميقة- تجعلهم أكثر ميلا من الآخرين إلى التوجه للارهاب كسلاح ضد الشمال.

والأسلحة الإرهابية اليوم صارت مجرد ترجمة أكثر تعقيدا للخنجر. ولم يعد الإرهاب اليوم مجرد إلقاء قنبلة يدوية فى سينما مزدوجة فى عاصمة كبرى أو إغتيال سيناتور أمريكى. فهو يمكن أن يتضمن وضع السم فى مراكز إمداد المياه فى باريس أو نيويورك أو زرع جهاز نووى فى قلب مدينه كبرى فى أوربا أو أمريكا.

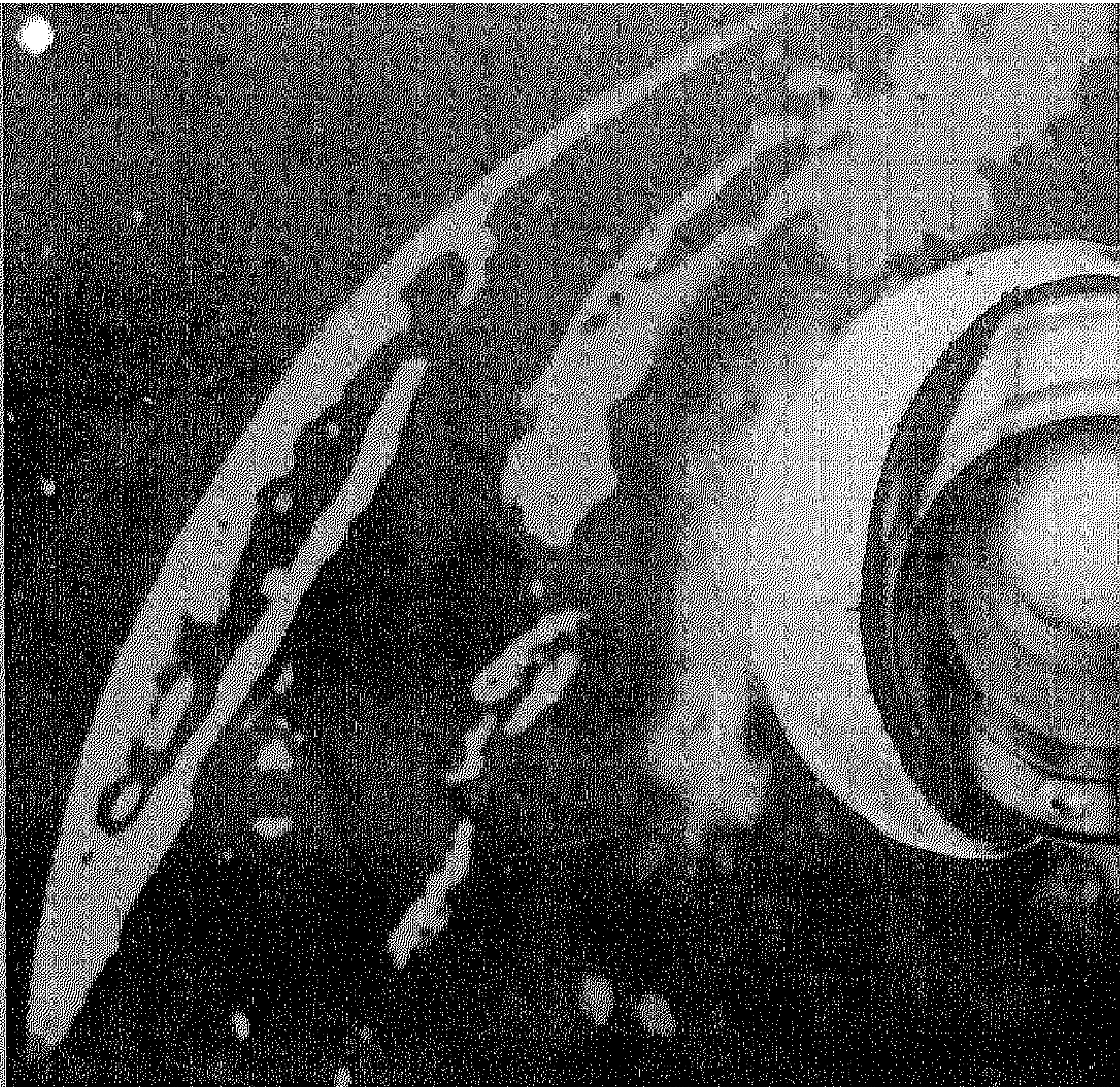
ولازلنا حتى الآن محظوظين. وحتى الآن لا يزال الارهابيون والمتعصبون من كل نوع ماهرين جدا. أى أنهم منظمون جدا فهناك احتمال ضعيف أو لافرصة على الإطلاق كى يتم القبض عليهم. غير أنه لم يكن هناك أهداف دقيقة حددها .الراعون لهم لأسباب سياسية. فيتم إعطاء زعماء الإرهابيين كميات من المال والمعدات ويقال لهم:« أفعلوا ما تشاؤون، فقط اجعلوا الحياة صعبة لاعدائكم هناك بأى طريقة تخترونها. »

ولكن حظنا السعيد لن يظل معنا للأبد فى الوقت الذى بدأت فيه الحرب العالمية الرابعة. فالمرحلة التالية هى المرحلة التى نحن بصدد دخولها الآن. وهى المرحلة التى يصبح فيها الارهابيون الأسلحة الدولية المستهدفة بدقة والتى يمكن أن تحولهم إلى أدوات عائقة لقوة الدولة أو للقوة العسكرية. ونحن بصدد الدخول فى فترة سيعطى فيها زعماء الارهابيين من قبل الحكومات التى تأمرهم وتقودهم كل شىء من الكميات غير المحدودة من الأموال والأسلحة بالاضافة إلى التعليمات التالية:

«الآن انتم منظمون- أنتم جيش، وستجعلون الحياة صعبة للغاية بالنسبة للعدو بهذه الطريقة وفى هذا الوقت وهذا المكان بالتحديد. وهذه هى الأهداف التى اخترناها، وأنتم ستدمرونها. »

وستكون الحرب دهاء، ولكنها ستكون أكثر هلاكا وخطرا فرجاؤنا اليوم هو نداء عاجل للعمل . فاليوم الشىء الذى يراهن عليه هو النظام العالمى كما نعرفه.

رقم الإيداع ١٠٣٨٩ / ١٩٩٢
I.S.B.N 977 - 208 - 099 - 0



THE FOURTH WORLD WAR

DIPLOMACY AND ESPIONAGE IN THE AGE OF TERRORISM

COUNT DE MARENCHES
AND DAVID A. ANDELMAN